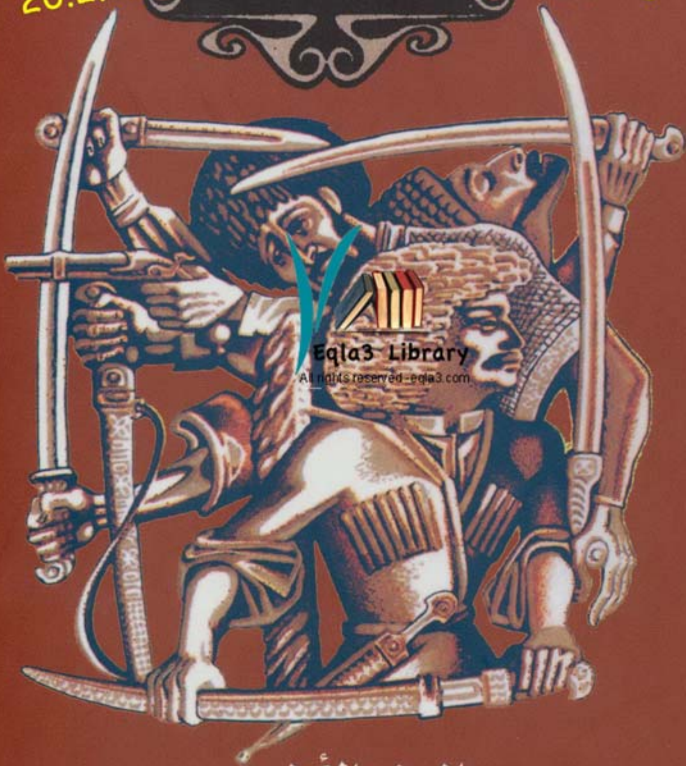
رواية
NOVEL

M. I. Quandour

محي الدين قندور

سيوف الشيشان

قصة تاريخية



الجزء الأول
من
ثلاثية القفقاس

NOVEL

محي الدين قندور

سيوف الشيشان

قصة تاريخية

ترجمة

محمد أزوقة

الجزء الأول

من

ثلاثية القفقاس

ثلاثية القفقاس ـ الجزء الأول

سيوف الشيشان / رواية

محي الدين قندور / مؤلّف من الأردن

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،

ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،

هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

محمود الوزني

لوحة الغلاف :

م. م. غورلوف / روسيا

الصفّ الضوئيّ :

سمير اليوسف

ترجمة :

محمد أزوقة

التنفيذ الطباعيّ :

مصطفى قانصوه للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-741-8

سيوف الشيشان
كافكاز

القفقاس : أرض موغلة في القدم ، بلاد رومانسية وتقاليد قديمة ، بانهارها السريعة ، بأوديتها وشقوقها الصخرية ، قراها الجميلة وخطوط الطبقات الإجتماعية المرسومة بحزم ، تقدم الأرضية الغنية التي تروى عليها هذه القصة الملحمية .

الزمن هو نهايات القرن الثامن عشر ، حين يقوم أحمد ، النبيل الشركسي ذو الثمانية عشر ربيعاً ، بمغادرة بيته على نهر الكوبان ليجد لنفسه حياة جديدة في القفقاس الشرقي . يضيع في براري الجبال القفقاسية الشاسعة وينتهي به الطواف في بلاد الشيشان العصية التي تخوض حرباً مع روسيا . تسرّع مغامراته نضوجه نحو الرجولة ، ولكن هل سيجد بيته وثروته في هذه الأرض الجديدة؟

يقع أحمد في حب تسيما ، الصبية الشيشانية الجميلة ، ويتحتم عليه أن يقاتل كل الظروف المعادية ليحصل عليها . في هذه الأثناء تظهر حركة التحرير التي يقودها الشيخ منصور بحرب استنزاف لا تعرف الرحمة ضد جيوش القوزاق الغازية بقيادة الجنرالين بوتيومكين وسوفوروف . يتوجب على أحمد ، حتى ينتصر على كل هذه الظروف المعادية ، أن يصبح مقاتلاً لا يشق له غبار بالإضافة إلى قائد حكيم . فهل سيتحمل مصاعب وتجارب حياته الجديدة في الجبال . . .؟

يقع باسل فاسيليفيتش ، الطبيب الارستقراطي الروسي في الأسر باعتباره جاسوساً في يد الشيشان ويسجن تحت رعاية أحمد . يتعلم الروسي ببطء عادات وسبل معيشة الجبليين وينغمس في شؤونهم الحياتية .

هذه رواية تاريخية بأبعاد ملحمية : قصة صراع ودراما إنسانية ، وقصة رومانسيه مأساوية وتشويق يمسك بتلابيب القلب ، مذكراً بروايات تولستوي وليرمونتوف .

شكر واعتراف

هناك الكثير من الأصدقاء والزملاء الذين أرغب في شكرهم على مساعدتهم في جعل إخراج هذا الكتاب ممكناً. الأولى بين هؤلاء هي الزميلة والباحثة الآنسة فرانسيس كينيث. لقد كان إخلاصها ومساعدتها لا يقدران بثمن. وأنا مدين لها بأصدق مشاعر الشكر والعرفان.

كذلك أرغب في شكر صديقي الدكتور ايجور تيموفييف من موسكو لتشجيعه ومساعدته المستمر في بحثي عن الحقيقة التاريخية داخل متاهات الأرشيفين السوفييتي والروسي.

هناك العديد من الأصدقاء الروس والقبارديين والشيشان والأتراك (أكثر من أن يمكن ذكرهم بشكل إفرادي) الذين قدموا المساعدة في البحث والنصيحة حول العادات والتقاليد الشيشانية والقوقازية المعقدة. وإنني أرغب في التعبير عن صادق امتناني لهم جميعاً.

المقدمة

عندما بدأت بكتابة هذا العمل, كان مقصدي هو تقديم سلسلة من الكتب حول تاريخ الشراكسة في شمال القفقاس وفي المهجر. وتظل هذه هي غايتي بكل إخلاص. لقد تمت كتابة تاريخ الشراكسة وأعيدت كتابته في الماضي من قبل مؤرخين روس وسوفيات لتتناسب مع بعض الغايات والأيدولوجيات السياسية عبر السنوات الطويلة للسيطرة القيصرية والشيوعية على شمال القفقاس.

لذلك فإن القليل المتوفر لقراء التاريخ اليافعين في روسيا أو الغرب عن القفقاس مثير للبلبلة وكثيرا ما يكون غير دقيق.

قررت, بعد إتمام كامل البحث لهذا العمل, أن أحول هذا التاريخ إلى شكل قصة لسبب واحد فقط, لجعل قرائته أكثر إمتاعا للأجيال الشابة من شعبنا الشركسي.

كذلك

قررت أن أضم تاريخ عائلتي نفسها إلى تاريخ امتنا كواقع معاش أي كتبرير للبحث عن جذوري الخاصة.

سيكون أول سؤال يجول في أذهان العديد من القراء هو: إذا كانت الغاية هي الكتابة عن تاريخ الشراكسة, فلماذا إذاً الحديث عن بلاد الشيشان ولماذا الشيشان أنفسهم؟

الجواب في غاية السهولة: لا يمكن فصل تاريخ الشراكسة عن تاريخ شمال القفقاس. إن هذا التاريخ هو سرد للحروب القفقاسية ضد روسيا القيصرية, وقد كانت بدايات هذه الحروب في بلاد الشيشان بثورة الشيخ منصور, لذلك لم يكن هناك مفر من أن يلعب الشيشان وبلادهم دوراً مهماً في هذا الكتاب الأول من سلسلة الكتب المتعلقة بشعبي, الشراكسة.

هناك سبب آخر, ربما يكون أكثر إقناعا في الكتابة عن بلاد الشيشان. وهو إن الشيشان هم أكثر الشعوب الذين أسيء فهمهم في شمال القفقاس. لقد قدموا المقاتلين على الدوام وكانوا ميالين إلى القتال وذوي أمزجة حامية في نظرتهم للأمور.. لماذا؟ الجواب على ذلك بسيط, وهو أن تاريخهم كان على الدوام تاريخ حرب, لقد ظلوا عرضة للهجمات بشكل مستمر منذ عصر بطرس الأكبر وحتى يومنا هذا. فقد عانوا تحت حكم القياصرة كما عانوا تحت حكم ستالين والشيوعية, لقد ظلوا أمة تحت حالة حصار دائم. لا بد لمثل هذه الأمم أن تنتج مقاتلين وتتبنى مواقف قتالية.

لكن لدى الشيشان عادات وتقاليد ثرية, مثل جميع الشعوب القفقاسية. قلة قليلة من الكتاب هم الذين اهتموا بدراسة هذه التقاليد وبمساعدة العالم على فهم تطلعاتهم ومثلهم العليا.

إن محاولتي المقتضبة هذه لا تنصف الشيشان, لكنني آمل في أن تعمل كبداية لكي يتبعها آخرون.

***

تقديم

في أيار عام 1991, استرخيت براحة في مقعد طائرة الترايستار لرحلة الخطوط الملكية الأردنية المغادرة من عمان.

كانت وجهتي الأولى هي موسكو, الاتحاد السوفييتي, وكانت توقف مرور لمدة يومين فقط, فالوجهة النهائية ستكون نالتشك, عاصمة جمهورية قباردينو بلقاريا في شمال القفقاس. ما كان الكثير من الناس في العالم قد سمعوا عن هذه الجمهورية الصغيرة ضمن الفدرالية الروسية.

وحتى أناس أقل سيكونوا قد سمعوا بسكانها "الأديغه" المعروفون في أمكنة أخرى من العالم بالشراكسة أو الشركس. لكن ذلك ما كان ليستمر طويلاً, وذلك إذا نجحت مهمتنا وحققنا ما قصدنا تحقيقه.

كان الوقت ساعة متأخرة من المساء عندما أقلعت الرحلة, تم تقديم وجبة العشاء وبدأ عرض فيلم سينمائي على شاشة الطائرة. كنت قد شاهدت الفيلم الكوميدي مسبقاً لذلك بدلت سماعة الأذن إلى موسيقى خفيفة وأرجعت مقعدي إلى الخلف بشكل مريح, وأنا ارشف شراباً مثلجا وأفكر في طرق أخلد فيها إلى النوم أثناء الطيران. حسدت الركاب الآخرين الذين يستطيعون أن يشخروا برضى عبر السموات المظلمة.

بعد المزيد من التململ والنظر إلى الشاشة الصامتة, مددت يدي الى حقيبة أوراقي وأخرجت بعض الأوراق لتصفحها, ربما للمرة العاشرة. كان الإعلان الصادر عن منظمة "رودينا" التابعة

لجمهورية قباردينو بلقاريا مكتوباً باللغة الروسية, ويعلن عن انعقاد أول "مؤتمر شركسي" في نالتشك يوم 19 أيار سنة 1991.

كنت أسافر مع الوفد الرسمي للجمعية الخيرية الشركسية في عمان, الأردن, لحضور المؤتمر, لكن كانت لي مهمتي الخاصة بي للرحلة, فانا هنا أخيراً, في أول جزء من رحلة إلى ارض الأجداد، للبحث عن جذوري.

لقد كان الموضوع الأهم على أجندة "المؤتمر" هو التخطيط لمصير شعبنا, فقد أوجدت الحركات السياسية الأخيرة في السياسة السوفيتية كنتيجة لمبدأي البيريسترويكا والجلاسنوست فرصاً إلى جانب أخطار محتملة للجمهوريات العرقية في الاتحاد. وعليه فقد قررت القيادة المسؤولة في جمهوريتنا المتواضعة أن تشرك جميع شراكسة "المنفى" في المداولات الجارية.

كانت هناك عدة أفكار طموحة ومبالغ فيها تدور في أذهان العديد من المندوبين بينما كانت طائرة الترايستار الضخمة تنساب خلال الأجواء المظلمة في رحلتها المتجهة إلى الشمال.

لكن كان في ذهني هدف واحد أكثر التصاقاً بشخصي وأقل مثالية، فقد كنت أريد المساهمة والإسهام في "المؤتمر" ولكن كانت لي مهمتي الخاصة.

كانت عائلتي المباشرة قد هاجرت من القفقاس إلى تركيا قرابة نهاية القرن الماضي (التاسع عشر).

وبقي فرع واحد فقط في منطقة الكوبان. كان عم والدي الذي بقي يدعى عزمات. وقد كانت رغبة والدي وبالتالي رغبتي بأنه يجب علينا أن نكتشف ما حل بالأبناء المنحدرين من عزمات وإعادة وصل الروابط العائلية بعد طول انقطاع.

وطبيعي أن الأمر سيكون مفارقة لو ان رحلتي جاءت بنتائج معاكسة لغايات "المؤتمر". ربما سأرغب بتشجيع أقاربي على

مغادرة القفقاس والعودة معي إلى العالم "الحر". ما كنت أعرف أبداً حجم التجربة العاطفية التي ستكشف عنها هذه الرحلة.

عدت بأفكاري إلى أجدادي المتوفين "تانا" و"دادا"، اللذين عاشرا طفولتي في الشرق الأوسط.

لقد كانا هما اللذان رحلا، بصحبة والديهما، اللذين هاجَرا من الجبال الخضراء الخصبة للقفقاس إلى براري الصحاري المجهولة في تركيا العثمانية. لقد قالا بأنهما فضلا اللحاق بإيمانهما على أن يصبحا رعايا للقيصر المسيحي. لم يعرفا درجة التلاعب الذكي الذي مارسته عليهما القوى المسيطرة: السلطان التركي وقيصر روسيا.

تذكرت بجلاء الرحلة التي قمت بها إلى الأردن أواخر الستينات. كان جدي قد ارتحل عن الدنيا قبل أن أتمكن من الوصول، لكن جدتي كانت هناك لتستقبلني بحزن وتغدق عليُ حبها وضيافتها الشركسية. كانت تقترب من عيد ميلادها التسعين ولكنها كانت تبدو في لياقة وصحة جيدة مقارنة بسنها.

كانت ليلة قمراء في منتصف الصيف أوائل أيلول حينما جلست مع جدتي على شرفة بيتها في عمان، الأردن. كانت ممسكة بيدي وتحتضنها بلطف، وتهمس لي بكلمات المحبة والإعزاز وتردد بين الفينة والأخرى آيات غير مفهومة من القرآن الكريم. كانت أمسية جميلة دافئة، خالية من الأنسام. لكن لم يكن الوضع مزعجاً كما قد يتوقع المرء في مثل تلك الأمسيات لأن وعد الخريف برياحه الغربية المنعشة كان قريبة جداً.

كانت جدتي تنظر بين الفينة والأخرى إلى البدر المعلق في السماء فوقنا وكأنه مصباح صيني، وتكرر المزيد من الآيات القرآنية. لاحظت فجأة تغيراً في هيئتها بينما استمرت في التحديق إلى أعلى.

فقلت وأنا اقترب منها واحتضنها:" ما الأمر يا "تانا".... مالذي يقلقك؟"

استمرت في تحديقها بالقمر في حالة من الذهول لبضع ثواني إضافية. وبنفس الطريقة المفاجئة استدارت ونظرت إلي بتركيز.

"أهو صحيح يا ولدي.... أهو صحيح أنهم صعدوا إلى هناك؟ أنهم مشوا فوق ذلك؟" قالت وهي تشير بأصابعها النحيلة الرشيقة إلى أعلى باتجاه القمر.

استغرقني الأمر بضع ثوان حتى أدرك ما قصدته. فقد كان موضوع ذلك اليوم هو المغامرة العظيمة للرائدين الأمريكيين لالدرن وارمسترونج ومشيهما الرائع على سطح القمر. أدركت كم كان صعباً على جدتي البالغة من العمر تسعين عاماً أن تستوعب مثل ذلك الإنجاز العلمي، وخاصة حين يكون مثل ذلك الأمر مخالفاً بشكل مباشر لإيمانها, لمعتقداتها طول حياتها.

استطعت أن أرى القلق, الغضب والحيرة التي نقشت كلها على وجهها الملائكي أثناء تكرارها للسؤال مرة أخرى, ترددت, ولم يغب ترددي عن ملاحظتها.

لقد كان إخبارها بالحقيقة قميناً بتحطيم واحد من معتقداتها الأساسية. فالحقيقة أن القمر والنجوم كانوا بالنسبة لجدتي تابعين للسماء, والسماء هي مملكة الله. وما كان لرجل ان يتجاوز على تلك المملكة. ولكن كيف يمكن لشخص ان يشرح ان تقوم معجزة من صنع الإنسان بمعارضة إيمان مثل ذلك؟ كنت محتاراً و منزعجاً, لكنني كنت قد أخبرتها بالحقيقة.

بعد ثلاثة أيام، توفيت جدتي وهي مرتاحة في نومها. كانت بصحة ولياقة جيدتين: افترض أنها تخلت عن العيش لأنه لم تعد لها حاجة للاعتناء بزوجها, رفيق حياتها. تم دفنها إلى جواره في مقبرة العائلة.

حضرت الجنازة العائلية البسيطة. اذكر كيف انزلها صديقها القديم ماميلا بمحبة إلى مرقدها النهائي, واذكر كيف ان كلماته في التحبب إليها, في الذكريات وفي الحب الأخوي الحقيقي التي همس بها في مقاطع حزينة جلبت الدموع إلى عيني بحيث وجدت نفسي أبكي بصمت. كنت أبكي جدتي المفارقة. وكنت أيضاً أبكي لأجل ماميلا وكل ذلك الجيل النبيل من شعبنا الذين ارتحلوا عن بيوتهم ومواقدهم ليموتوا في أرض غريبة.

فكرت كذلك بحديث جدتي قبل ثلاثة أيام ماضية وأدركت مدى قوة الإيمان التي أجبرت أبناء جيلها على مغادرة القفقاس. هذا الإيمان الديني الأعمى الذي تم التلاعب به بحرفية عالية من قبل القوى العظمى لذلك العصر للتسبب بالتهجير الكارثي لحوالي مليون شخص من أمتنا الشركسية من أراضي أجدادهم. فقد كانت روسيا, من بين طموحاتها الأخرى, بحاجة إلى القفقاس الخصيب لعبيدها المحررين. وكانت تركيا بحاجة إلى دماء جديدة لجيوشها في البلقان وأماكن أخرى في الإمبراطورية. كانت مثل هذه المصالح المشتركة حوافز قوية بما يكفي لجمع العدوين اللدودين على الاتفاق. وهكذا, أصبح شعبي, الشراكسة هم الضحية التي تخدم مصالح القوتين العالميتين.

من الصعب التفكير بأي أمة أو جنس آخر من الناس عانى بقدر ما عاناه شعبي, إلا ربما الفلسطينيون. ومع ذلك فأن الشخص في الغرب عندما يسمع كلمة "الشركس" أو "الشراكسة" فإن ذلك الشخص يكوّن رؤى عن نساء جميلات أو فرسان عنيفين بملابس مزركشة يعدون بخيولهم مشهرين سيوفهم. لقد أبقيت مأساة شعبي طي الكتمان لكل هذا الوقت نتيجة انعدام الاهتمام, أو الجهل, وفي كثير من الأحيان بسبب سوء النية.

ليس من الفضيلة أن تكون قد عانيت, ومع ذلك فإن "الشركس" شعب أبيّ إلى درجة أن الإعلان عن مأساتهم كان يصل الى درجة تعادل الإهانة. ان امة ذات كبرياء مؤلفة من ثلاثة ملايين ونصف

المليون نسمة عام 1790 في القفقاس, قد تضاءلت بعد مئتي سنة إلى أقل من نصف مليون نسمة. مع انه كان يجب, بأي معيار إحصائي, ان يصل تعدادهم إلى أمة من عشرين مليون نسمة أو أكثر.

تحرك الرجل الجالس إلى جانبي في الطائرة بشكل مفاجئ, فأعادني إلى الواقع بصدمة. لقد أعاد لي التفكير بشعبي وبمهمتي في الاتحاد السوفييتي بعض الذكريات الحزينة. كنت لا أزال ممسكاً بورقة الإعلان في يدي, وهي ورقة تحمل شعاراً رسمياً مميزاً معنوناً إليَ بالروسية. لقد كانت حلماً تحقق. طويت الورقة واعدتها إلى داخل الرزمة في حقيبة أوراقي.

سأعمل بجد لمهمتي. لن أخذل عائلتي. سوف أعثر على أقاربي المفقودين واكتب تاريخ عائلتي. ولكن في البداية يجب أن أقابل الناس الذين يمكن ان يساعدوني في تحقيق مثل هذه الطموحات. كنت مصمماً على تأسيس جذوري.

كنت أتشهى الكتابة عن شعبي, كنت أتشهى تأسيس هويتي الشخصية. لقد تم ذوبان الشركس وأصبحوا مواطنين صالحين حيثما استقروا في دول العالم. فقد الكثير منهم هوياتهم أو هم... في سبيل فقدانها. البعض مثلي, لديه الرغبة في أن يصرخ من فوق الأسطح بأننا شركس, من جنس نبيل وقديم مارس السلوك والثقافة المتمدنين عندما كان الأوروبيون ما زالوا يقطنون الكهوف. لقد كنت مهووساً بجعل العالم يعرف ان شعبي موجود, وبأنه كانت لدينا تقاليد في الموسيقى, في الشعر وفي الأساطير. لم أتوقع ان يحبنا العالم أو يقدّر تقاليدنا أو ثقافتنا.

لقد كنت ببساطة أريد ان أخلق وعيا لوجودنا وماضينا. إنني أعجب عما يمكن للأطباء النفسانيين ان يسموا هذه الظاهرة. لماذا يتوجب ان تكون معرفة تاريخنا ضرورية؟ لماذا لا ننصهر ونختفي ضمن الأمم الأكبر في هذه الأرض، مثلما فعلت حضارات قديمة

اخرى قبلنا؟ لماذا هذه القوة الدافعة `لإثبات هويتي "كشركسي"؟ ليتني أجد الأجوبة. إنني أتمنى أن أعثر ربما على بعض منها في هذه المهمة الشخصية لي إلى القفقاس.

سرعان ما أطل الشروق على الطريق الشمالية إلى موسكو. كان القطور يقدم وشربت فنجان القهوة بينما أنا أرنو إلى المساحة الشاسعة البيضاء من الثلج والجليد تحتي. ألقيت بنظرة إلى الخلف لأرى المندوبين الآخرين فأعيدت إلي الابتسامات الايجابية. لقد كانوا هم أيضا سعداء بشأن معطيات زيارتهم لأرض أجدادنا. كان القسم الأول من رحلتنا يقترب من نهايته.

إن التاريخ القفقاسي قديم قدم الخليقة. كان القفقاس في الأساطير الإغريقية يدعى أرض كولتشيز, حيث أبحر مغامرو الأرغونوت للبحث عن جزة الصوف الذهبية, وحيث حصلوا على أسس الفنون والحرف المتحضرة. وقد كان الخزر في أوائل التاريخ البيزنطي والأفار الذين أرعبوا الإمبراطوريتين الرومانية الشرقية والفارسية, يسكنون القفقاس. لقد انتهت كل موجة من الهجرات من الشرق إلى الغرب تاركة جزءاً على واحد من سفوح جبالها, تاركة جزءاً منها وراءها: الطورانيون والآريون والاكديون والشميون, الاتر سكيون, والهلينيون, الكمبري والغوط, الهون والسلاجقة, التتار والمغول على التعاقب أو سوية, قاموا بسقاية خيولهم من جداولها الباردة وبنوا أكواخاً في غاباتها الفسيحة.

لقد أصبح القفقاس متحفاً لأجناس بائدة في أمكنة أخرى وملتقى للغات.

ما يتبع هو قصة عائلة في هذا القفقاس الساحر, عائلتي كما نقلت من الأب إلى الابن لسبعة أجيال. هي يمكن ان تكون قصة أية عائلة شركسية لأنها تجسد قصة امتنا الشركسية. والأحداث المأساوية التي أدت إلى تهجيرهم من موطنهم الأصلي, بلاد القفقاس المحبوبة.

يفترض في القصة الجيدة أن تحتوي على بداية ووسط ونهاية ويفترض في كل أجزائها أن تكون بنفس الدرجات إثارة للاهتمام, الإثارة والتأثير الذروي. ولكن على أية حال فإن الرواية التاريخية لا تتقيد كثيراً بمثل هذه الأطر المعروفة. إن بدايات تاريخ عائلتنا غامضة في التاريخ القديم المضطرب للأمة الشركسية.

يقال لنا أن المؤرخين على وشك التوصل إلى إجماع فيما يتعلق بأصول الشراكسة, وهو إنجاز طالما راوغهم لعدة عقود. إن مدرستي التفكير الأكثر بروزاً تقولان بأننا من نسل الحثيين أو من نسل الفايكنغ. لم يفكر احد حتى الآن بأن جنس "الاديغه" ظل موجوداً على حاله منذ فجر الخليقة: وان المحاولات لإعطائه أصلاً في جنس مختلف ربما تستمر في التدليل على عبثيتها.

ان نتيجة هذه المعضلة الآثارية هي غير ذات موضوع بالنسبة لموضوعنا. لان أي عالم آثار عالي المستوى سيخبرك انه كلما قلبوا حجراً جديداً فإنهم يعثرون على أسئلة أكثر مما يعثرون على الأجوبة. هناك حقيقة واحدة مؤسس لها تاريخياً: وهي أن الشراكسة عاشوا في شبه جزيرة القرم قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة وأنهم تحركوا باتجاه القفقاس ببطء من خلال سلسلة من التهجيرات القبلية. استقروا أولاً على شواطئ البحر الأسود وضفاف نهر الكوبان.

بعد فترة أخرى غير محددة في التاريخ توغلوا لمسافة أبعد باتجاه الشرق حتى وصلوا ضفاف نهر تيريك الذي يصب في بحر قزوين.

كان الشراكسة الذين انتقلوا شرقاً جميعهم من قبيلة القباردا, وأولئك الذين بقوا في الغرب. على ضفاف الكوبان وشاطئ البحر. كانوا بشكل رئيس من "الشابسوغ", البازادوغ, الابزاخ والوبيخ: وهي أسماء لها وقع غريب على من لم يألفها. كل هذه القبائل كانت تتحدث "الاديغه", وهي اللغة الأصلية للشركس ولكن بلهجات

متنوعة. كانت لغة الوبيخ هي الأكثر تطرفاً في اللهجات الشركسية وتكاد تكون اختفت من الوجود كنتيجة مباشرة للاكتساح الروسي في منتصف القرن التاسع عشر.

مثل كل التحركات القبلية عبر التاريخ, فقد تخلفت بعض العشائر أثناء إعادة التوطين غير المنظمة.

ولهذا السبب نجد, حتى هذا اليوم, القباردا مستمرين في السكنى في القفقاس الغربي وسط البزادوغ ما بين نهر الكوبان وشاطئ البحر الأسود. ويجب عدم الخلط بين هؤلاء وقبارديو "شيركاسك" (المعروفون في أواسط الشركس بشراكسة الهجرة), الذين عادوا من قباردا الكبرى حوالي عام 1820 وأعادوا الاستيطان خلف نهر اللابا. لقد كانت عشيرتنا من قباردي العشائر الأصلية التي بقيت مستقرة على ضفاف الكوبان عندما انتقلت الغالبية العظمى من ابنائها نحو الشرق.

حوالي نهاية القرن الثامن عشر, انتقل فرد من عشيرتنا من منطقة الكوبان وارتحل باتجاه الشرق حيث استقر أول الأمر بين قبائل الشيشان التابعة للقفقاس الشرقي, حيث عثر على زوجة, وانضم فيما بعد إلى قباردي "جلاخستنية" على ضفاف نهر التيريك. وقد قام هنا بتأسيس فرع جديد للعائلة وازدهرت أحواله كمربي خيول. كان اسمه أحمد, وهو جدنا المباشر, وقصته تشكل الكتاب الأول من حكايتنا التاريخية.

لقد كان أعمام احمد, وهم العائلة الأصلية الذين ظلوا في القفقاس الغربي من طبقة "البشة" النبيلة وخرج من بينهم العديد من الأمراء المشهورين الذين حكموا بلدة لاشا بسينا إلى جانب الأمراء من عشيرة "حاتو قشوقة".

إن البلدة موجودة اليوم كمجتمع زراعي مزدهر, وما زالت مقسمة إلى قطاعين متميزين معروفين بالـــ" "قندوراي" والـــ "حاتوقشقواي".

لقد كادت اضطرابات الثورة البلشفية والفظاعات الستالينية التي تلتها أن تتسبب في إفناء جميع الناجين الذكور من العائلة في لاشا بسينا بسبب خلفياتهم الأرستقراطية.

ولكن تم إنقاذ صبي واحد من نسل آخر الأمراء من قبل خادمة في المنزل وإخفاؤه من الشيوعيين حماية له. لقد نجا الصبي واسمه سلطان من مذابح ستالين وتقاعد مؤخراً من الجيش السوفييتي برتبة عقيد. وهو يعيش الآن على أرض المرأة التي أنقذته في بلدة "انزوراي" على بعد عشرة أميال من لاشا بسينا".

إن القصة التي انتم على وشك قراءتها هي إعادة بناء لأحداث فعلية وقعت خلال حوالي مئة سنة من تاريخ عائلتي منذ العام 1780. إن القصة نص تاريخي يفصّل العديد من الأحداث الدرامية والمهمة التي وقعت في شمال القفقاس خلال هذه الفترة.

لكن الروائي هو أول من يعترف بأن الرواية التاريخية ليست تاريخاً: إنها في أفضل الحالات خاضعة للشك وقلما تعتبر سرداً واقعياً للتاريخ.

يتوجب على الروائي أن يمنح أبطاله شخصيات وأصواتاً بغض النظر عن مدى التزامه بالحقيقة التاريخية, فإن الرواية تتطلب التنويع والدراما لتجعل النص تجربة قراءة ممتعة. لذلك فإن اعتذاري الأول أقدمه للصفائيين من بين أبناء شعبي الذين ربما توقعوا كتاباً مختلفاً عن هذا المقدم هنا.

فأنا كشركسي أولاً وقبل كل شيء, اخترت أن ابحث عن جذوري لإرواء ظمأي إلى "الهوية".

إن البحث الذي قمت به عبر عدة سنوات كبير. أرجو أن أكون بعملي هذا قد أمطت اللثام عن بعض الحقائق حول شعبنا والمأساة التي حدثت لنا جميعاً كامة.

كذلك أرجو أن يلتقط رجال ونساء أفضل مني القلم ويكتبوا المزيد عما تمكنت من إظهاره إلى السطح. هناك محيط من التاريخ المنسي يتوجب الإخبار عنه, ألف قصة ينبغي تذكرها. يجب ان لا يمر بنا العالم بدون أن يعرف من أين جئنا وما حدث لنا على الطريق.

***

الفصل الأول
1782

صعد أحمد بجواده شعباً ضيقاً وهو يحمل شعوراً طاغياً بأن شخصاً ما يراقبه. ومع ذلك فقد كان مستحيلاً على أي شخص أن يجد موطئ قدم, ناهيك عن أن يجد مخبأ على الصخور الناتئة التي ترتفع عن يمين ويسار ممره. أحسَ بالتوتر بسبب قرقعة الصخور والحجارة المنفلتة الساقطة بسبب انكماش الجبال أثناء ابترادها نهاية النهار.

عندما كانت هذه القرقعات تحدث, لم تكن فرسه تجفل, لكن أحمد كان يجفل, فكان يطلق صرخة عالية أخرى "فوري فاكا" ليستجمع شجاعته كما كان يفعل مع الرجال الآخرين في قريته, أثناء السباق أو الصيد.

ظل يصرخ "فوري فاكا" بغباء, وهو يستمع إلى رجوع صدى صوته يتردد من صخرة إلى أخرى. وكما كانت صرخاته تبهت, كذلك كانت تبهت الصور القليلة من حياته على شواطيء نهر الكوبان البعيدة خلفه.

لقد نفى نفسه وهو الآن في منطقة غير معروفة. استغرقه المرور خلف الحدود القصية لقريته ثلاثة أيام: خلف أكثر المراعي ارتفاعاً, والتي كان يكثر من التردد عليها في طفولته, مع أبيه. في اليوم الرابع من رحلته, أسلمته الأرض الطرية إلى الصوان والصخور, كأنما كان يغادر راحة بيته إلى قسوة الاستقلال. انفتح الشّعب الحجري فجأة على وادٍ صغير منعزل موحش آخر. بدأت شجيرات التوت البري المغطاة بالعليق والنباتات الزاحفة الأخرى تحتك بركابيه. قرر أحمد أن يخيم على حافة دغل من أشجار الزان

العملاقة. لقد كان التنوع في المنطقة التي اضطر إلى عبورها مدهشاً بالنسبة إلى رجل تربى على أرض المراعي في وادي نهر الكوبان. فهذه منطقة تعج بالوديان المفاجئة, التصدعات الأرضية, وأكوام الحجارة القاتلة, ومجاري الأنهار الجافة صيفاً, والتي كانت تتعرج يساراً أو يميناً, أو تختفي داخل الأرض مطيعة للتعرجات المادية على مقاييس هائلة لدرجة أنه لم يستطع حتى الآن أن يسبر غورها.

أكثر من ذلك, فهو لم يشاهد جبال القفقاس العظيمة, فقد قضى أياماً متتالية على ظهر فرسه في هذه السفوح المذهلة, وكان هناك ضباب كثيف يغلف رؤوس القمم على الدوام.

لم يكن يعرف متى سيظهر له أحد السكان المحليين, أو إن كان سيصبح عدائياً أو ودياً, فقد كانت الإشاعات بين الخدم في البيت تقضي بان المنطقة كلها تعج باللصوص.

ولكن ما يدريهم؟ لقد كانوا مجرد فلاحين بسطاء.

طمأن أحمد نفسه وهو يرنو إلى النجوم فوقه وقد بدأت تظهر في زرقة السماء التي بدأت تخبو, إلى انه مازال يتجه في وجهة جنوبية غربية.

لقد أخبره كبار السن في قريته بأن يركب جنوباً باتجاه الجبال, ثم ينعطف يساراً, وان يجعل السلسلة العالية إلى يمينه دائماً. لقد كان من الصعب الاحتفاظ بالاتجاه عندما كانت السبل المطروقة تقوده فوق التلال ونزولاً إلى الوادي باتجاه الجنوب لأبعد مما كان يريد.

اتجهت فرسه "قارا" إلى رقعة من البنفسج وبعثرتها. نزع أحمد معطفه البوركا الأسود السميك المصنوع من جلد الخراف وفرده ليفترشه. كان الجدول يلتمع من نظافة مائه تحت ضوء النهار المتخافت. ركع وغسل يديه وقدميه, ونثر الماء على وجهه ومرفقيه, مؤدياً بذلك الممارسة اليومية "للانديز", قبل أن يقف

منتصباً ويؤدي صلاه المغرب. قريباً سيشعل ناراً ويبقيها مشتعلة حتى تبقي وحوش الليل بعيدة عنه.

لو كان قاطع طريق أو شخص معادٍ يراقبه, فإن إشعال النار ما كان ليحدث فرقاً على سلامته, فإن طلقة محكمة كان يمكن أن ترديه في أي وقت من الأيام القليلة الماضية من بندقية ذات طلقة واحدة. من غير الله سبحانه وتعالى سيعرف انه اغتيل في هذه الجبال المترامية الأطراف؟ إن سرجه وأسلحته وحدها كانت تبرر قتله. يمكن إلقاء جسده حتى تلتقفه الصقور وتنظفه قبل أن يعثر عليه احد.

اسند رأسه إلى سرجه, تناول قطعة صغيرة من "الحلآمة"، عجينة الذرة المغلية بالماء الذي كان قد أتى به من زجاجة السرج, وشرب الحساء الناتج عنهما.

كانت فرسه تقضم الأعشاب من تحت الشجيرات القريبة, ولكن كل شيء آخر كان ساكناً.

لف أحمد نفسه داخل معطفه الفراء السميك, البوركا: العريض ذي الكتفين المربعين, الذي كان يقف لوحده كأنه خيمة. شكلت أنفاس أحمد في داخله حبيبات بخارية من الماء قرب فمه.

وحدها صرخة الثعلب الإجرامية كل فترة ونداء البوم الحزين ذكره بأنه على قيد الحياة: ان لديه حواساً تسجل أشكالاً أخرى من الوجود في هذا المكان غير الإنساني. كان الهدوء سائداً لدرجة ان رفيف أجنحة البوم فوق رأسه بدا عاليا كأنه رفيف غسيل أخته في نسيم الليل العذب في البيت.

لا يفيد التفكير في افواسا. انه تعذيب للنفس, ان يجعل الم وعار ما حصل يعتمل في صدره مرة أخرى. ان الطريقة الوحيدة لإصلاح الوضع, هي ان يميز نفسه, وإذا كان ذلك لن يحصل معه لدى قومه, فسوف يبحث عن طريقة أخرى.

لكن مع ذلك, فقد كانت عينا افواسا الزرقاوين تملآن تفكيره بينما هو يتنقل حذراً بين الحلم واليقظة.

تحول لون وجهها إلى الشحوب, واندفع راسها إلى الخلف في لحظة العذاب القصوى حين دفعها بعنف إلى الأرض وبدأت الحياة التي بداخلها تتحرك وتنتزع نفسها منفلتة من رحمها:

الاندفاع المفاجئ للدم الدافئ تحت أعضائها الساكنة.

افواسا, افواسا, حتى الكلاب البرية كانت تنوح باسمها.

بالنسبة لفتى في الثامنة عشرة, حتى بالنسبة لشاب انتقل الى سن الرشد بالصدمة كأحمد, كانت هذه الليالي في الجبال امتحاناً قاسياً للروح.

استسلم للنوم بينما أصابعه تلتف بشدة حول الخنجر الموجود في حزامه حتى ابيضت مفاصلها.

أيقظته فرسه قبل شروق الشمس, وهي تقضم العشب الرطب قرب رأسه.

الندى كثيف: هذا يبشر بيوم رائع. أدى احمد صلاة الفجر, طوى البوركا على سرجه, تفقد ملح البارود من الرطوبة, تنكّب بندقيته المذخرة على ظهره, وأعاد امتطاء الفرس, حدد اتجاهه وقرر ان يتجه من خلال أشجار الزان ليختار درباً على الجهة الثانية: خلال فترة قصيرة ضاعت منه القمم المتصلة بالسماء مرة أخرى, واضطر إلى الافتراض بأن الغابة الكثيفة سوف تنفرج عن مواقع أرضية أكثر قابلية للقراءة. وفعلاً, سمع اندفاعة الماء الخافتة من مكان ما, مؤشرة على وجود مسيل ماء يقطع خلال الصخر: وكانت تلك إشارة أخرى على طريق آخر يمكن سلوكه.

تأكد الآن أن هناك شخص ما يواكبه, فهو لم يقض سنين الترصد للغزلان, والماعز البري وكل أنواع الطيور ولا تكون أذناه معايرتان بدقة للأصوات الصادرة عن الأعشاب. بكلمة صغيرة الى

فرسه, انتقل احمد إلى الخبب, وكأنما كان يجري لنفسه الاحماء, وليس للهروب, بعد بضع مئات من الأمتار, انحرف خارجاً من الغابة من خلال ممر ضيق إلى سهل واسع يتخلله جدول سريع الجريان.

الصمت. لكن احمد لم يشعر بالأمان وهو في المكان المكشوف. قرر أن يعبر الجدول بسرعة ويدخل تحت غطاء خط الأشجار على الجهة البعيدة. حمحمت فرسه عندما أدخلها الماء رافعاً رأسها الى أعلى حتى لا تشرب, فربما يكون الجدول الجبلي ابرد مما يجب على معدتها.

لم يبد الجدول عميقاً, فلماذا كانت تعارض دخوله؟

عندها رآه احمد, فارس يرتدي لباس الاديغه مثله. كل الاديغه إخوة إلا إذا كان هناك صراع دم. لم يكن الفارس اكبر منه سناً بكثير, لكنه كان بلحية شرسة وكانت بندقيته جاهزة للإطلاق عبر مركز سرجه.

كانت للفارس أفضلية كاملة على احمد لان فرسه كانت تقف في موقع أعلى بعشرة أمتار على الضفة المقابلة للجدول العريض.

لم تكن فرسه مبتله ولم تكن تشخر أو تتعرق من جراء طراد شاق. إذا كان هذا الرجل هو نفسه الذي يتجسس عليه, ويتعقبه, فكيف بحق الشيطان استطاع أن يصل إلى هناك أولاً؟

قال احمد لنفسه انه لا يوجد سبب يدعو للخوف, لان كونه غريباً لم يكن جريمة, لذلك اختار طريقه عبر الماء برباطة جأش متعمدة.

سأل الفارس بصوت عالٍ "هل أنت اديغه, أيها الأخ؟"

كانت اللهجة مختلفة, غريبة على أذني احمد, لم تكن نقية مثل لهجته, لكن الكلمات المهمة كانت واضحة بما يكفي.

هز احمد رأسه بالإيجاب: أنا قباردي ُ من الكوبان. وأنت؟"

- بزادوغ - أهلا بك.

نزل الرجل الذي استوقفه الى الضفة وأوقف فرسه الى جوار فرس احمد.

ضائع....؟ أخبرت نظرته الخارقة احمد بأنه لا يدخل أحد هذه المنطقة بدون ان يتم التحقق منه.

"لا, انا لست ضائعا". كان من الأفضل أن يقول اقل قدر ممكن لان الحقيقة تتحدث عن نفسها كما كان أبوه يقول.

رفع البزادوغ بندقيته, استرخى احمد قليلا لأنه حسب علمه, لم تحصل أية متاعب لأي من قباردي الكوبان مع قبيلته.

"انني مسافر شرقا لزيارة أمة قباردي التيريك".

أشار البزادوغ بيده: تلك المنطقة بعيدة, العديد من الأميال.

"هل كنت هناك من قبل".

"كلا"

"أمامك ركوب شاق أيها الأخ. أيام عديدة لتقطعها وانهار عديدة لتعبرها. لقد سمعت أن أحدها يصعب عبوره, وهو "اللابا", على بعد ركوب يومين باتجاه الجنوب.

"يتم إرشادي دوما الى الجنوب" لم يكن أحمد يقصد ذلك لكن التعب ظهر في كلماته.

الاديغه لا يشتكي مطلقا. تصالب وجه احمد.

كان البزادوغ مجاملاً "ان قريتي في طريقك, اذا أحببت, سنسافر سوية لجزء من الطريق.

شد عنان حصانه, حتى لا يتطفل, منتظرا جواب احمد.

دليل, وغير معادي! استعاد الدم الذي كان قد توقف في شرايين احمد للحظات الماضية, تدفقه بحرية.

"ذلك أمر جيد, ان اسمي هو احمد".

"وأنا غازي".

ركب الفارسان الاديغه الشابان جنبا الى جنب في صمت مقبول بعد أن تأسست الثقة بينهما.

ومع ذلك فإن احمد كان قد كشف عن أكثر مما يعتقد. فقد عاين غازي سرجه المتوازن بدقة, الحلي الفضية الغنية التي تزين جلوده واللجام, الحواف المذهبة المطرزة باليد لزي احمد. وقد كان حذاء ركوبه المصنوع من اكثر أنواع الجلد الأسود طراوة. خنجره وسيفه من أفضل ما شاهد غازي من صناعة منذ زمن طويل, من سيوف دمشق أو حتى طليطلة, لو كان يعرف عنها اي شيء.

كان لباس رأسه موشحا بأرقى فراء الخراف الفارسية. كل هذا أدى الى معرفة غازي بان احمد من سلالة النبلاء. لكن الإحساس بالحزن لدى الشاب كان نابضا. فهو إما قد خسر عائلته في الحروب أو انه منغمس في صراع متعلق بالشرف.

ومع انه جرت العادة بأن يخرج مقاتلو الاديغة باحثين عن الثروة, إلا أن احمد كان صغيرا على ذلك الأمر, واضح انه كان اصغر من غازي كثيرا, وحيدا في رحلة ستأخذه إلى مكان بعيد جداً عن بيته.

قال غازي:" يمكننا الركوب لساعتين أخريين, وبعد ذلك سنضطر الى ان نعسكر في مخبأ أعرفه. سيكون من الأسلم قطع الجزء التالي في وضح النهار".

"لصوص؟" كان احمد يريد فعلا ان يسمع ان الأمر متعلق باللصوص, وليس بأولئك المرتزقة التابعين للروس.

"القوزاق".

جف حلق احمد. لقد انطلق في هذه الرحلة باتجاه الجنوب حتى يتجنب القوزاق. وقد نصحه كبار السن من أقاربه "ادخل الى سفوح التلال قبل ان تستدير نحو الشرق" لقد كان يهرب من شقيقته افواسا, من عار خصامها والأسى الذي سببه لها.

ولكن احمد أدرك أثناء هذه الليالي الموحشة في سفوح التلال الخالية انه مدفوع الى المنفى بأمر أسوأ شراً بكثير.

ستكون هذه الجبال العملاقة هي خلاصه. لقد كان شعب الاديغه سكان السهول محتجزين بين قوتين هائلتين, إحداهما مادية والأخرى سياسية. ففي الشمال توجد الإمبراطورية الروسية العظيمة, والى الجنوب جدار الحصن الطبيعي للقفقاس. لقد ظل الروس يسببون المشاكل منذ الأزل, ولم يتركوا شعبه بحاله أبدا. لقد أمل احمد انه سيكون أسهل عليه ان يشعر بالأمان وان يبني لنفسه حياة آمنه في الجبال الواقعة الى الشرق, بين قبائل القباردي الكبيرة.

كانت قريته تقع على الضفة الشرقية لنهر الكوبان العريض الذي يتشكل في الجبال العالية, في قاعدة جبل البروز العظيم ويجري في خط مستقيم من الجنوب الى الشمال لمسافة ما قبل ان ينحني غربا الى بحر آزوف. كان ذلك كل ما يعرفه احمد عن جغرافية المنطقة. وقد فهم الباقي من كبار قريته. فقد تحدثوا عن زمن فلح فيه "أديغه" السهول الأراضي الخصبة على الجانب الشمالي من النهر أيضا, وعاشوا في انسجام مع قبائل النوغاي: الرجال الممتلؤو القامة, ذوي العيون البراقة وعظام الوجوه الناتئة. هاجروا من الشرق قبل عدة أجيال واستقروا هناك حتى قرر الروس ان ينشروا مرافقهم ويتكئوا على النوغاي.

لقد تم التغلب على النوغاي, ولكن لم يتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالأديغه بأنفسهم. لم تكن لديهم المهارة ولا الشجاعة

اللازمة لذلك. لقد كانت القوات الوحيدة التي تمتلك أي شيء يقارب براعة الأديغة في ركوب الخيل, قوة التحمل والذكاء هي قوات قوزاق تشيرنومورسكي.

ومما يبعث على السخرية أن القوزاق في الماضي كرهوا الروس بقدر كره الأديغه أنفسهم لكنهم أصبحوا أقناناً مقهورين الآن, وأصبح أبناؤهم مرتزقة, الأحقر من بين الحقراء, ففي رأي أحمد إذا كان الرجل لا يملك قضية يقاتل من أجلها فإنه لن يكون منتصرا حقا أبدا, فالنصر هو قضية شرف, لا علاقة لها بسرقة الأرض أو الماشية, كما فعل القوزاق.

الأديغه لا يمكن قهرهم، كان أحمد يعرف ذلك. مع انه لا يعرف الكثير عن أي شيء أو أي شخص أبعد من قباردي الكوبان, هو يعرف بعض عشائر الاديغه بالإسم والسمعة من الأسطورة والأغاني، هكذا عرف انه لا يمكن إحصاؤهم وانه لا يمكن مهاجمتهم في الجبال, وانهم تجمع هائل من العشائر المختلفين عن بعضهم في بعض الأحيان مثل اختلافهم عن الروس, ويتحدثون لهجات متعددة من لغة الأديغه بقدر تعداد الحصى في الجدول، وهو ما يقوله الروس عن صوت حديث الأديغه: مثل حصى تقرقر في كيس، أغبياء لا يؤمنون "جاور", لا يمكن تسميتهم بالأديغه لكن كلمة روسية عن الجبال "شركس" كانت أسهل.

لقد اقتنع احمد بان الخطر الذي عاش معه في الأشهر الأخيرة كان بشكل جزئي السبب في انفجاره العنيف, في هجومه على زوج أخته وعلى "افواسا".

لقد كان زوج أخته سكيرا, ولا يمتلك الروح القتالية حتى لو إن نسبه من" الورق" أي نبيلا بالولادة. إن الرجال من أمثاله يمكن إن يتسببوا في دمار شعبهم في هذه الآونة، كان غازي يخبره إن القوزاق يقومون بأعمالهم الدنيئة في هذه السفوح القصية، كان قلبه حزينا وكان الشيء الوحيد الممكن عمله هو المضي قدما إلى منطقة

قباردي, منطقة نهر التيريك. فقد كان هؤلاء يمتون بقرابة بعيدة إلى أهله, كل شيء سيكون مختلفا هناك.

قال غازي:"هاجمتنا بشكل مفاجيء، مجموعة كبيرة من فرسان القوزاق، حضروا في الصباح الباكر وحاصروا القرية، دخل النقيب الروسي فوق صهوة جواده وامرنا بالخروج من القرية: كان علينا أن نغادر بيوتنا فورا.

" ألم تحرقوا البيوت؟ ذلك ما يفعله الكثيرون"

" لم يكن لدينا وقت...... قاتل كثير منا بالسيوف, من مدى قريب, جرح الكثير منا، قرر كبارنا إنقاذ العشيرة والخروج. سترى ذلك لاحقا.

فجأة، خطر ببال أحمد أن غازي مقل في الحديث عن قصته, يبدو أن عمق المشاعر هو ما يمنعه من الإطناب في التفاصيل، أم أن غازي يعتقد انه جاسوس للقوزاق؟ في كل عشيرة يوجد أولئك الذين يقبلون بالغرق إلى تلك الأعماق.

هل هو يقاد إلى كمين؟ تمنى لو يستطيع أن يثق بغازي ملء قلبه، لكن تربيته كمقاتل أملت عليه أن يبقي حذره قائما.

بدأ الممر يضيق ويرتفع، تاركا الجدول تحت والى يمين أحمد، رأى احمد أمامه والى الأعلى إن الممر أصبح مجرد حافة على وجه الصخر. ذهب غازي أولا وتبعه احمد تاركا مسافة كافية لرفيقه حتى لا يلقي ظلاً حيث تحتاج فرسه إلى أن تدوس، إن فرس غازي من سلالة خيول الجبال النقية, اصغر قليلا من فرسه. ذات صدر عريض وخطوات واثقة، ربما كانت تعرف الطريق، ربما كان هذا اختباراً لقدرات احمد في الفروسية، ربما كان غازي يريد لأحمد ان يسقط عن الصخرة.

أرخى احمد العنان لفرسه وأعطاها الحرية لتختار سرعتها،انه يأتمن قارا على حياته, هو يحب الخيل بما يفوق المعقول حتى من

قبيل نبيل اديغي, أما هذه الفرس بالذات فكان يعتز بها لأنها هدية والده له.

استغرقت الرحلة وقتا طويلا جدا والطريق تتعرج وتتلوى داخل ممرات الصخور حتى أدرك احمد انه لن يتمكن مطلقا من الخروج من هذا المكان بدون مساعدة، قطع انحدار قوي وجه الصخرة الجيرية أمامه:ابتسم غازي من فوق كتفه, وقد اتقدت عيناه الزرقاوان بالمرح "إن فرسك رشيقة بما يكفي,ستؤدي المهمة بشكل جيد".

انزلق في القطع الصخري مثل قط جبلي وتبعه احمد وهو يكاد يحك ركابيه في الصخر, فجأة أصبحا داخل حلقة صخرية من غير المحتمل أن تنكشف أبدا. مخبأ مثالي للصوص.

ترجل غازي واحضر بعض العيدان لإشعال النار, قام احمد بربط الخيل رغم أنها ما كانت لتبتعد في هذا الكهف الصخري, اخرج غازي قطعة خبز كبيرة من الخرج، قطعة جبن صلب, ملء كيس من الذرة, وتحفة جميلة لم يكن احمد قد لاحظها من قبل: حصيرة جميلة من جلد الغنم افردها بقرب النار وطلب من احمد الجلوس عليها.

استرخى احمد الآن، وفي نهاية الأمر, فان "الخابزة". الأعراف الملزمة لفروسية الاديغة تضعه بصفته ضيفا على غازي، تحت حمايته الكاملة، وقد أعلن غازي عن نزاهته وصدقه عندما قدم له الدفء والطعام, نحى احمد أسلحته جانبا وتقبل الضيافة باحترام.

حرمت الكياسة على احمد أن يطرح الأسئلة على رجل أكبر منه سنا، نظر إلى الطعام بتلذذ. وهو ينتظر أن يبدأ غازي.

"آمل أن يكون هذا الطعام القليل كافيا للوقت الحالي" قال غازي وهو يشير إلى الزاد المقدم من والمعروض على الحصيرة. "سوف أتفقد مصائدي لاحقا. إن كان فيها شيء من اللحم" اخرج غازي سكينته الصغيرة وقص قطعة كبيرة من الجبنة لأحمد.

تابع قائلا: "إذا كان الأمر يهمك. فإنني قد اقترح تغييرا صغيرا على خطط سفرنا".

"وما هو ذلك؟"

"لقد أرسلني الكبار لأتجسس على القوزاق. نريد ان نعرف ما يخططون له، إذا كانوا ينوون قضاء الشتاء في قريتنا".

"متى حدث كل هذا،"

"قبل شهر. قبل شهر واحد فقط"

"انا آسف يا غازي، وأنا الذي كنت أظن ان لدي مشاكل......"

رفع غازي كتفيه "سيتحتم علينا ان نتخذ بعض القرارات الصعبة".

تناولا الطعام ببطء صامتين لفترة.

كان احمد يعرف متى يصمت: متى يعطي فرصة للرجل حتى يفكر.

استمر غازي قائلاً: "لقد كنت ذاهباً بذلك الاتجاه عندما وجدتك، يتوجب علي ان آخذك فوراً إلى قومي. ولكن ربما تحب ان تلقي نظرة أنت بنفسك ".

للمرة الأولى، تراخى وجه احمد الوسيم في ابتسامة شابة.

"لم أشاهد أبداً معسكراً للقوزاق عن قرب. كل ما نصادفه في موطني هم لصوص ماشية.... غزاة منتصف الليل".

"إذن، سنبدأ مسيرتنا قبيل الفجر".

مرَ الوقت بسرعة. انطلق احمد لإحضار الحطب لأجل النار الليلية. ذهب غازي ليتفحص الافخاخ المتنوعة التي نصبها في الجوار في وقت سابق لجولته. اهتم احمد بالأفراس، وبعد صلاه

العشاء، جلس الرجلان إلى وليمة فاخرة من لحم الطير المشوي والحلامة الطرية.

تحدث غازي بكبرياء "هذه وليمة مخزية لضيف عند البزادوغ. عندما آخذك إلى قومي، ستصوب عائلتي الوضع" مما جعل احمد يميل إليه أكثر.

ابتسم احمد، رفع قبعته الى الخلف, شدد قبضتيه على عظمة فخذ مكتنزة باللحم واقترب من النار, وقتها فقط لاحظ غازي الجرح على جبين احمد، وهو جرح بالكاد قد انغلق، إذ كانت العصابة عليه ما زالت مضمخة بالدم. كان الجرح عميقاً ولا يزيد عمره عن أسبوع.

لا عجب ان كان الصبي يبدو منعزلاً. لقد شارك في عراك قريب حتى يحصل له مثل هذا القطع في جمجمته..... وان يركب لوحده من الكوبان في هذا الوقت القصير بعد.... هل هذا سلوك رجل مذنب أم رجل غاضب، أيهما هو احمد؟

أراد غازي ان يعرف المزيد، لكن الدفء، والطعام الجيد غير المعتاد والشعور المجرد بالارتياح بسبب الحماية جعلت احمد مقلاً بالمحادثة. إضافة إلى ذلك، فقد اعتبر غازي الإلحاح بالأسئلة على الضيف إخلالا بالأدب.

"لقد كان ذلك جيداً، اني شبعان كما لم اشبع منذ أيام! أشكرك يا غازي، لقد كانت هذه بالنسبة لي وليمة فاخرة". استند احمد الى الخلف وقد ظهر الإعياء على وجهه الشاب.

كان يحب لو انه استأذن وخلد الى النوم، لكن ذلك لا يليق، فإن المضيف هو الذي يجب ان يقرر متى تنتهي الأمسية.

قال غازي بعفوية "تصرف على سجيتك معي يا احمد". وراقب بعناية كيف تنهد احمد بارتياح، استدار ليريح نفسه داخل "البوركا"، ودخل في سبات عميق في دقائق. يحتمل انه ليس

جاسوساً، أو لصاً، أو قاتلاً. لقد تصرف بشكل لائق، أدى صلواته، وواضح انه نام بعمق أكثر مما يمكن أن ينام رجل يحمل ضميره الدم.

اختفى الليل بالنسبة لأحمد، راحة قصيرة، لمرة واحدة، لا أحلام لا تحركات غير مريحة. عندما لمس غازي كتفه. فوجيء بأنه لا يذكر متى خلد إلى النوم. أو حتى الاستيقاظ بوقت سابق. في الواقع ان النهوض كان صعباً وتطلب مجهوداً، لكنه ما كان ليسمح لغازي برؤية تلك الصعوبة.

كان الخروج من الجبال محفوفاً بالصعوبات، فطريقهم مليئة بقطع خطرة من الحجارة المسننة التي يمكن ان تسبب الجرح للخيل في لحظة. لكن فرسه هي من رسن "شولوخ"، من أفضل السلالات، وفرس غازي هي "ألب" نقية. قاد الفارسان مطيتيهما ببراعة وأخرجاهما سالمتين. وصلوا الى قطع في الصخر قبل شروق الشمس بوقت طويل. مكان مثالي للنظر الى الأسفل حيث قرية "البزادوغ" تحتهما، كان يجري إعداد "ستانيتزا" قوزاقية. حتى من مسافة بعيدة، فإن النشاط في قرية غازي السابقة مدعاة للهلع لمن يشاهده.

حمل الهواء الساكن الصافي رنين الضربات على السندان عالية ومخيفة، بينما صفوف الخيول المطهمة يجري علفها والعناية بها، جنود بسترات خفيفة، وسراويل عريضة سوداء، أحذية ثقيلة وطواقي استراخان صغيرة يركضون هنا وهناك من خيمة الى الأخرى يحملون الذخائر، ينظفون البنادق، يشحذون السيوف. كان سماع ضحكاتهم الواثقة يثير الغثيان. يحيط بهم مجموعات من النجارين الذين يعملون بجد، مصدرين أصوات سقوط الفؤوس المستمر بينما ينصبون السواتر. جماعات أخرى تخرج ومعها طواقم الخيول لتعود وهي تجر أكواماً من العليق الشوكي من الأحراش لزيادة كثافة الأسوار الخارجية.

العبيد البولونيون عراة حتى الخصر يحملون التراب كأنهم الأرضة.

قال غازي بتجهم "تماماً كما فكرنا، انظر الى هذه الدفاعات. ابناء الزنى".

قال احمد وهو يراقب مستطيل الخنادق حول الموقع كله "إنهم ينوون البقاء هنا".

"إنهم يبدأون ببناء الحصن بنفس الطريقة، يحفرون خندقاً لنا لنسقط فيه، ثم يقتلعون الأشجار ويبنون جداراً عالياً حول المحيط الداخلي"،

علق احمد "لا بد ان هناك مئتا رجل"

"حوالي سريتين كما اعتقد، كل واحدة بستين رجل، ملازمان ونقيب. هذا ما أرجحه بالنظر إلى عدد العربات".

"كيف تعرف كل هذا القدر" قال احمد متأثراً بعمق معرفة غازي.

"نحن نحاربهم منذ وقت أطول مما تظنه".

"في تلك الناحية المدافع الكبيرة".

"إنني أراها"

"لنقترب"

تظاهر غازي واحمد لبعضهما بعضاً وكأنهما يبغيان التعمق في استطلاعهما. ولكن كلا منهما، ولأسباب مختلفة، كان منجذباً إلى تلك الـــ "ستانتيزا" ليس فقط لمجرد الفرجة، ولكن لعمل شيء فيه تحدٍ. هل كان ذلك دمهم " الاديغي" يملي عليهم أفعالهم، أم أنها روح التحدي المغامر التي تفرضها روح الشباب؟

نزلا من القطع الصخري ببطء واقتربا أكثر فأكثر بشكل دائري، ملازمين الشجيرات حتى أصبح الاقتراب أكثر مستحيلاً بدون ان ينكشفا. بعدها انطلقا بسرعة عبر فسحة مكشوفة إلى دغل من أشجار البلوط العتيقة، الملجأ التالي المتوفر.

أزّت طلقة مخترقة الهواء قريباً من أذن احمد اليسرى. لم يكن قد تعرض لإطلاق النار من هذا القدر من القرب قبلاً – واستغرب إذ أدرك ان الرصاصة لا قيمة لها، لكن الضجة التي تحدثها حتما مؤثرة.

توقف غازي بسرعة. كانت الأشجار أمامهما تعج بالقوزاق، حراس خيالة، يتجهون نحوهما مباشرة. بحركة ردة فعل واحدة، استدار الفارسان المواطنان وانطلقا نحو التلال بينما القوزاق يجدّون في أثرهم.

أزّت رصاصات صاخبة أخرى بجانب أذني احمد لكنه لم يخطر بباله انه ربما يمكن ان يصاب. ظن ان الأفضل أن ينفصل عن غازي، ليحول نصف الطلقات ويضاعف من فرصهما للهرب. عند هذا الإجراء قطع القوزاق الخمسة الذين يطاردونهم المطاردة، وبدأوا يتحركون جيئة وذهاباً ويدورون مترددين. طرد احمد وغازي فرسيهما بأقصى سرعة لمسافة حوالي ميلين.

تسارع نبض احمد بسرعة فرسه. كانت فرس غازي طيبة أيضاً لكنه كان الفارس الأمهر. أطلق صرخة حرب كوبانية – من شدة الرعب – ام هل كانت من المرح الخالص – ثم ألقى بنفسه جانباً الى أكتاف فرسه وبينما هو متعلق بحزام سرجه ألقى نظرة الى الخلف ورأى ان القوزاق يبطئون في سرعتهم. عاد الى وضعيه الجلوس وانضم الى غازي الذي كان يركض بأقصى سرعة وقد خفض جسمه قريباً من السرج، كان غازي يتجه الى وادٍ ضيق في التلال. زادت فرس احمد من سرعتها وقد شاهدت المرتفع الذي تبعته طيلة النهار من قبل.

سمع احمد وابلاً أخيرا من الطلقات لكن أزيزها لم يعد يمر قريباً من اذنيه.

لحق بغازي،وتوقفا سوية بشكل صاعق، مثيرين زخّة من الغبار والحصى. لهثت الأفراس بإثارة وأصغى الرجلان بتركيز لسماع أصوات المطاردة.

قال احمد "لقد اضعناهم" وهو مبهور الأنفاس.

اكتفى غازي بأن طأطأ رأسه وأومأ به باتجاه الوادي الضيق، "هناك" فهو يعرف منطقته كمعرفته بظاهر يده، والحمد لله. أجريا خيلهما قليلاً للتأكد من أنهما أضاعا مطارديهما، ثم توقفا مرة أخرى.

كانت كلا الفرسين السابحتين في العرق تنتفضان بعصبية. بينما كان غازي يحاول السيطرة على ركوبته, رأى احمد أن وجهه يتميز من الألم فأدرك انه قد أصيب، بدأ الدم يتسرب من خلال ردائه فوق عظمة الكتف الأيمن مباشرة، كما كان يداري ذراعه الأيسر.

قال غازي بجدية "لنواصل المسير"

استمر غازي بعناء لمسافة أخرى حتى أصبح الألم اشد من ان يتحمله وبدا وجهه مبتلاً بالعرق.

حثه احمد على التوقف بقوله "الوضع آمن الآن. دعني أساعدك على الترجل" ثم مال بجسمه وقبض على لجام غازي.

طوح غازي برجله من فوق السرج، واستدار ثم انزلق إلى الأرض وقد تصالب وأسكته الألم.

"اجلس هنا، سألقي نظرة. ربما أتمكن من إيقاف النزيف" قال احمد.

لم يكلف احمد نفسه عناء إخبار غازي إن الأمر سيؤلم. كان يعرف, فجلس منحنياً فوق صخرة وأدار ظهره. حل الحزام الجلدي حول خصره، بطريقة خاطئة، ثم تخلى عن المحاولة وترك احمد يقوم بالباقي. قام احمد بنزع سترة غازي السوداء بلطف.

استقرت الرصاصة في عظم كتف غازي، لو نزلت بمقدار بوصة واحدة إلى الأسفل لاخترقت صدره.

لم تكن هناك طريقة يستطيع احمد بها إخراج الرصاصة الآن، خاصة وان أمامهم طريق طويلة وشاقة، فالجرح المفتوح سيضعف غازي ويجعله يفقد المزيد من الدم.

كل ما يستطيع احمد عمله هو ان يضمد الكتف بأشد ما يستطيع ليوقف تدفق الدم.

نظر حواليه فوجد نبتة من الطحلب على لحاء شجرة، فنزعها "بالقامه", أخرج قطعة كتان من خرج سرجه، شقها إلى أشرطة عريضة، وبعد ان ربط الطحلب إلى الجرح، ربط عظمة كتف غازي بأشد ما يمكن.

"لقد شاهدت أمي رحمها الله، تفعل ذلك مرات عديدة "

"وأبوك".

"متوفي أيضاً".

أحنى غازي رأسه علامة الاحترام للموتى.

أغمضت عيناه للحظات: من شعوره بالإعياء.

قال: "أنا آسف" وقد امتقع وجهه حتى ابيضت شفتاه. "إنني إنما أضيف إلى متاعبك. أستطيع ان اركب الى بيتي من هنا، عليك أن تسلك ذلك الطريق". امتقع وجهه من الألم وهو يشير الى المسلك "لقد أخرتك بما يكفي".

"هراء. لن اتركك وأنت بهذه الحالة. لست في عجلة للذهاب الى أي مكان، وشيء آخر... لقد استمتعت شخصياً، ما عدا هذا!"

ابتسم احمد مشجعاً وساعد غازي على النهوض." ضع ذراعك على كتفي" ثم عقد أصابعه وفتح يديه ليساعد غازي على ان يدوس ويرتقي الى سرجه، وهو ما فعله غازي بسهولة. بدا احمد سعيداً حين اكتشف ان رفيقه رجل صلب وكفؤ.

"إنني بخير، لا تتعب نفسك أكثر من هذا. أستطيع فعلاً ان اتدبر أمري من هنا " وابرز غازي لحيته بعدوانية.

عرف احمد بالضبط كيف سيتغلب على شعور الرجل بالخجل بسبب ضعفه.

"لقد وعدتني بكرم ضيافة البزادوغ، فهل نسيت؟".

كاد احمد ان يقسم ان ما ارتسم على وجه غازي هو الارتياح.

"لقد أخطأت! لن تسامحني عائلتي أبدا حسناً إذا، لنخرج من هنا قبل ان يجيء القوزاق "الجاور" ليبحثوا عنا مرة أخرى. سنركب باتجاه الجنوب".

انطلق احمد وغازي، ركب البزادوغ في المقدمة، ولم يبطيء في سيره قيد أنمله. ركبا خيلهما في سرعة منتظمة.

أحست فرس غازي بحالة سيدها الضعيفة وتأخرت على مسافة نصف خطوة خلف فرس احمد.

تطوع احمد بالقول "أولئك القوزاق: يبدو لي أنهم لن يتركوا قريتكم قبل حلول هذا الشتاء".

تمتم غازي قائلاً "ولا في أي شتاء آخر".

***

كانت فارفارا ايفانوفنا بروزوروفسكي، والمعروفة أيضاً كزوجة اليكسندر سوفوروف، مسرورة من نفسها بشكل غير عادي. فقد كان مساءاً شديد الحرارة والرطوبة في المدينة ومع ذلك نجح حفل استقبالها: لم يتخلف احد من المهمين عن الحضور. عاينت صفوة المجتمع العسكري وهي تهوّي صدرها الناهد بالمروحة في قاعة الاستقبال بقصر عائلة جوليتسين في سانت بطرسبرج، وشكرت نجوم سعدها على أن زوجها لم يطلقها. كان الكسندر سوفوروف يتحادث مع أبيها بأسلوبه غير المبتسم الممل، في تلك اللحظة. مسكين ذلك الرجل، لا توجد كمية من البريق العسكري قادرة على التغلب على الإعاقات الجسدية لهيكله الخارجي، شعره الخفيف وأطرافه الناحلة. لم يكن لديه ما يقدمه بدنيا، بالمقارنة مع عشيقها السابق نيقولاي سوفوروف، ابن العم غير المباشر لزوجها، لقد التقيا حين كان الكسندر يؤدي خدمته في شبه جزيرة القرم. لا يمكن للتناقض ان يكون أكثر وضوحاً. لقد أقام الكسندر كمية غير عادية من الضجيج عندما اكتشف العلاقة.

وحده الضغط من عائلتها - في نهاية الأمر كانت هي عضوا من عائلة جوليتسين الشهيرة وأبوها هو الأمير ايفان بروزوروفسكي- جعل الزوجين يتوصلان الى تسوية. لم تكن فارفارا تريد ان تبقى مع الكسندر ولكنه الآن، بما انه أصبح ناجحاً الى هذه الدرجة الهائلة - فقد انعم عليه بوسام القديس فلاديمير - فقد توجب عليها أن تسلم بأن "تضحيتها" ربما كانت مجزية.....

عرفت بما يدور حوله الهمس، وفي بعض الأحوال، وجدت ذلك إطراءً لها بطريقة ما، لأنها امرأة بدينة وليست على ذلك القدر من الذكاء.

من الناحية الأخرى، فقد كان ينظر الى زوجها دائما على أنه عجوز سيىء الطباع. من الطبيعي أن يكون كذلك. فهو منفر جسدياً، وحتى هو كان يعرف ذلك، ولم يجرؤ أبداً على أن يتواصل اجتماعياً مع أية امرأة ناهيك عن أن يغازل أي امرأة قبل زواجهما

المدبر من قبل أقاربها. كان فوق سن الأربعين حين تمت خطوبتهما وظل يعيش في معسكرات الجيش حتى ذلك الحين. تذكرت فارفارا مقدار رعبها حين عثرت عليه في إسطبلات بيتهما، ينظف مسدسه ويخاطبه على انه "زوجته".

... تجولت فارفارا في الغرفة، وهي تستعرض نفسها عندما سمعت الدب الكبير بوتيمكين وهو يهنيء زوجها بعبارات مديح فخمه. وقف الكسندر أمامه باحترام صامت، وكانت الإشارة الوحيدة على سروره هي عادته الذميمة في مد رقبته الناحلة بعصبية الى الأمام مثل سلحفاة مهتاجة...

"يجب أن اعترف، يا عزيزي سوفوروف، بأنه لم تكن لدي أية شكوك أبداً حول مقدرتك في سحق النوغاي مرة واحدة والى الأبد. لقد كانت الحملة رائعة، ويبدو "وسام" القديس فلاديمير لائقاً على صدرك...

سمعت فارفارا الضحكات المكبوتة. لقد كان صدر الكسندر متهاوياً، وقامته كارثية: فإن طوله بالكاد يصل إلى كتفيات بوتيمكين العظيم المصنوعة من خيوط الذهب. عرفت ما كان يهمس بأن سوفوروف قد وجد الشجاعة لذبح شعب النوغاي لأنه كان يائساً لاستعادة رضى مراكز القوة العسكرية ويائساً لاستعادة مركزه الاجتماعي بعد هزيمته في زواجه.

شعرت فارفارا بأنها كانت مسؤولة بشكل غير مباشر عن إعادة تأهيله مع المؤسسة الحربية.... وهذا ما أراح ضميرها. بالتأكيد عليها أن تعترف، هو قد لا يبدو مميزاً، لكنه لم يتصرف كغبي. انحنى الى درجة وضيعة على يد بوتيمكين وقال بحرص شديد:

"لم أفعل كل شيء لوحدي، يا صاحب الفخامة الأسمى، لكنني أشكرك على المجاملة".

واضح ان بوتمكين قد نسي تلك السنوات البائسة عندما كان سوفوروف يتسكع في بلاط القيصرة لعدم وجود وظيفة محترمة لديه، كيف امسك بكمه يائساً ورجاه ان يعطيه شيئاً ذا أهمية ليفعله... لو لم تكن لدى بوتمكين شكوكه في قدرة سوفوروف، فلماذا تركه يتعفن لمدة خمسة عشر عاماً في رتبة لواء!

أجاب بوتمكين وهو يومىء برأسه برضى (وهو منظر غير شائع لدى شخص على هذه الدرجة من القوة الفردية) باتجاه الجنرال لوفياسكي "الأمر لا يحتاج الى كلام، فبدون رجال مثل لوفياسكي، لا يمكن لقائد ان يكون ناجحاً كلياً" توقف بينما يعاد ملء كأسه بالشمبانيا. "على كل حال، فإن هذه المناسبة العظيمة هي لتكريمك، أيها الرجل الطيب... لذلك دعونا جميعاً نشرب نخب جنرالنا المنتصر".

من سوء الحظ ان يصاب سوفوروف بنوبة سعال في مثل تلك اللحظة الحيوية. ولكن في نهاية الأمر، لم يكن هو دائماً ناحلاً فقط، بل كان مريضاً على الدوام تقريباً.

لم يملك الضباط المجتمعون وزوجاتهم الا ان يعجبوا بشدة إخلاص سوفوروف للجيش.

كانت المعيته كمخطط استراتيجي معترفاً بها, و كان بارعاً في الاستطلاع، وفي منتهى الجرأة عند احتدام المعركة، ورابط الجأش في وجه الأخطار وفي طريقة التعامل مع العدو.

لقد كان منحه الوسام لهزيمته النوغاي امراً مستحقاً. فقد قاد سوفوروف عام 1782 جيش الكوبان تحت إمرة بوتمكين وكان واجبه الرئيس هو تحييد المنطقة الواقعة في شمال ذلك النهر. هنا كان يسكن شعب الى جانب شعوب أخرى يسمى النوغاي، وكثيراً ما تم وصفهم بذوي العيون البراقة المرحين، أو المخلوقات ذات الوجوه المستطيلة الفارغة، حسب المخبرين. وقد كانوا على وجه الدقة بقايا جحافل التتار الذين حكموا المنطقة في حقبة سابقة... قال

البعض أنهم كانوا يشكلون إمبراطورية يهودية قوية، بسلطان يمتد من نهر الفولغا إلى بحر قزوين. لم يكن الأمر مهماً الآن، فهم موجودون في منطقة يريد الروس ان يتواجدوا فيها, لقد أولم سوفوروف لستّة آلاف من النوغاي، أطعمهم وسقاهم وهو يفاوضهم ويجعلهم سعداء، لأنه رجل منصف.

لا احد يستطيع القول بان سوفوروف لم يكن رجلاً منصفاً.

كان إحساسه بالواجب عظيماً الى درجة انه لم يشتكي رسمياً ولا مرة واحدة حين كان يتم ترفيع رجال اقل منه قيمةً ولكن لديهم علاقات أرستقراطية أسمى منه عن يمينه وعن يساره. لم يتكلم, لكن سوء معاملته ربما قد غذّى استنكاره، غذّى غضبه..... فحينما تصدى مابين سبعة الى عشرة الآف من النوغاي لجيشه في شهر آب من تلك السنة، كان سوفوروف متمكناً. فقد ذبح الجيش، ذبح ثلاثة آلاف حصان، أربعين الف رأس من الماشية وعشرين ألف رأس من الغنم .وفي معركة ثانية متحركة، لاحق النوغاي عبر نهر اللابا، قريباً من منطقة انضمامه الى نهر الكوبان، وأعطى أوامره بقتل كل الهاربين. طارد النوغاي كل المسافة عبر ضفاف نهر اللابا لمسافة عشرة أميال. وعندما أنهى مطاردته، كانت عشيرة كاملة من النوغاي الجمبو لوك قد أبيدت عن بكرة أبيها.

تذكر سوفوروف نصره بقناعة متواضعة.

شاهد زوجته فارفارا تحوم خلف الجنرالات ولم يمنحها ابتسامة.

تذكر فقط تلك السنوات الكئيبة من تذمرها المميت له حين كانا يسفحان أيامهما في شبه جزيرة القرم وفي استراخان.

تذكر الثرثرة السخيفة للضباط الأصغر منه سناً، وبشكل خاص العقيد الشاب بييري، وهو رجل صغير الجسم متأنق في الحامية بأستراخان، والذي كان يتكلم عن دهشته من ان الرجل الذي كتب

"تعليمات السوزدال" وهي خمسة وعشرين ألف كلمة رائعة عن التدريب العسكري النقي وعلم الحرب الدقيقة، يترك محشوراً في المجاهل التي تذروها الرمال في شرق وغرب إمبراطورية القيصرة لكل هذه السنوات العديدة. والآن هو على الطريق مرة أخرى. لان تسليمه قيادة جيش الكوبان هو مجرد البداية...

علم سوفوروف أن بوتيمكين لديه نوايا عظيمة في القفقاس، وانه يحتاج الى شخص ألمعي حتى ينفذ خططه. هو نفسه. كانت طموحات بوتمكين عظيمة الى درجة انه كان مستعداً لمخالفة الاتجاه السائد في موسكو في انتقاء الجنرالات، واختيار رجل جرى القفز عنه لأنه "غير جذاب" "ولا يستحق" – بكلمات أخرى، ليس لديه تأثير يجعل من المهم الاستثمار فيه. لم يكن سوفوروف سليل المؤسسة. فقد حصل على رتبته في سن الرابعة والعشرين بينما كان الآخرون – ذوي الألقاب – الذين في سنة قد أصبحوا عقداء. نال في الحملات البولندية أثناء السبعينات وسام القديسة آن، وسام القديس جورج المرغوب بشدة – والوشاح الأحمر لألكسندر نيفسكي. وميز نفسه في الحملات التركية تحت إمرة الجنرال كامينسكي. وقد حارب ضد التأثر القوزاقي بميليان بوجاتشيف، لم يكن لدى بوتمكين سبب في ان يشك انه كان غير ضابط محترف مخلص، مثابر وطموح الى حد الموت. المشكلة الوحيدة هي ان الجيش الروسي لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الرجال الطموحين لأجل الجيش، وليس للكسب الشخصي.

تلك كانت مشكلة سوفوروف الرئيسية، أحياناً كان يراها، وفي أحيان أخرى لم يكن يستطيع ان يصدق ان بلده، وقيصرته، لن تعطيه استحقاقه. بقي مقتنعاً بأنها مسألة وقت وأعمال حسنة, ولكن في أحيان معينة، عندما يكون مريضاً او مكتئباً، كان يعجب مما اذا كان ساذجاً.

قال سوفوروف: "الان وقد أصبحت الحملة خلفنا" متحدثاً بدون لياقة عن الأمور العسكرية في اللحظة الأقل ملاءمة (لم يكن لديه حديث مجاملات إطلاقاً):

"يمكنكم البدء بتطبيق خطط إعادة الإسكان التي بحثناها. فهل فكرتم في الموضوع، يا صاحب السمو العالي؟".

وجد بوتمكين في إلصاق طريقة المخاطبة الرسمية مثيراً للسخرية. لكنه قرر ان لا يشعر بالاستياء.

"اوه، في الحقيقة إنني فكرت" قال وهو يتهكم عن لهجة سوفوروف الجدية "سأبدا بأن اجعل من ايكاتيرينودار بلدة جميلة متحضرة".

أدرك سوفوروف الخطة، "هذه البلدة" او المستوطنة كانت مقر قيادة قوات القوزاق على نهر الكوبان. في هذا المكان بدأ "رهط" من القوزاق والعناصر المرتدة الأخرى يتجمعون، والعديد منهم بقايا قوزاق الزابوروزي الذين جرى تسريحهم بالقوة بناءاً على تعليمات القيصرة كاثرين بسبب انها كانت عنصراً اكبر مما يجب وعصية على السيطرة على حدود إمبراطوريتها. ان القوزاق شعب من القراصنة المتجولين والذين لم يقدموا الطاعة لأي علم على امتداد قرون عديدة وظلوا ببساطة يتجولون في السهوب، تلك الأراضي الحرام التي يطالب بها الحكام المجاورون ولم يسيروا عليها الدوريات: هم خليط من المنحدرين من قطعان التتار، الروس غير الموالين, والجنود الرحل القادمون من كل مكان والذين شكلوا اخُوَّة.

كان الآلاف منهم مبعثرين في أنحاء الإمبراطورية الروسية: على ضفاف نهر الفولغا، على نهر الدون، على نهر اليايك، وفي أراضي ريازان. لكن الأكثر شراسة بين "شعوب البلدان المتوحشة" هم الزابوروزيون.

لقد هاجم بوتمكين نفسه مخابيء الزابوروزيين، معسكر قاعدتهم على ضفاف نهر الدنيبر، في منطقة ابعد الى الغرب. والآن مما يبعث على السخرية هو ان المتخاذلين يجيئون لينضووا تحت علمه، منضمين إلى قوزاق جريبنتسكي الأكثر قابلية للانضباط في الشرق على ضفاف نهر تيريك، ويشكلون جيش مرتزقة قوي، جاهز لدى القيادة الروسية لترسله حيث تراه مناسباً. لم يكن لديهم خيار الا الخضوع للسلطة. إنهم مقاتلون رائعون، وقد عرف سوفوروف ان بإمكانه ان يستفيد منهم بشكل جيد حقاً.

إن ايكاتيرينودار مجرد قرية من أكواخ الطين.

صار سوفوروف يئن عندما فكر بما يمكن ان تقوله قارقارا اذا اضطرت الى الانتقال الى هناك. ليصبح القوزاق بخنازيرهم ومهاميزهم جيراناً لها...

انضم الجنرال ايلوفياسكي الى المحادثة، وهو يلاحظ افكار سوفوروف الصامته وقال " اظن ان جنرالي يشير الى خططكم السابقة بإعادة توطين مجتمعات المانية في المناطق المحتلة، يا صاحب السمو العالي "..

لوح الجنرال بوتمكين يده بعظمة. ان قوته رهيبة. فهو يمتلك 37000 فلاح، ما قيمته مليوني جنيه إسترليني من المجوهرات، قصر في موسكو، والعديد من الشقق والمزارع. لقد كان ايلوفياسكي متأكداً، كما هو حال الكثيرين من أعلى الجنرالات الروس رتبة، بان ان هذا الكونت جريجوري اليكساندروفيتش، الجنرال بوتمكين، متزوج من القيصرة سراً. اذ من المؤكد ان قوته كانت يقيناً لا يضاهيها الا قوتها.

قال بوتمكين: "نعم لقد أرسلت في طلبهم في جماعات. إنهم جنس راقٍ ومحب للعمل، الألمان. سوف يعلمون المواطنين الزراعة والكثير من الحرف المتطورة. على الأقل سينتجوا بعض الأنبذة الجديدة!"

رفع بوتمكين كأسه وشرب كل من في الغرفة معه.

لقد كان الفردوس الريفي المسالم الذي اختلقه متناقضاً كلياً مع الأراضي الجبلية المهجورة "الكافكاز" كما يفهمها كل الحاضرين، لكن أحداً لم يجرؤ على مخالفة رؤيته.

كان جنرال اصغر سناً قد انضم الى الجمع: رجل خدم سنين طويلة في الجبال، وكان فعلاً يعرف الأرض جيداً، خلافاً لكل الحاضرين الآخرين تقريباً. ضخم الجثة، وسيم وحاذق: العميد الجنرال كوماروف، اصغر سناً من سوفوروف ببضع سنوات، ولكنه اكبر سناً من بوتمكين، فذلك العملاق ما يزال في ثلاثينيات عمره.

"نحن نسيطر الآن على سهوب ستافروبول الخصبة وكل شيء الى الشمال من الكوبان. ان التربة غنية، وتحتاج فقط الى المحراث... إنها بلاد رائعة أيها السادة".

قال بوتيمكين مزمجراً: "هذا هو رجل ذو خبرة يتحدث، ولكن ليس تماماً، نحن لا نسيطر على كل شيء. ولكننا سنفعل بمرور الوقت. ستطعم هذه السهول الغنية جيوشنا المستقبلية, لقد طلبت أيضاً إحضار فلاحي التاج من داخل روسيا لتشغيل سكك المحاريث التي تحدثت عنها، يا كوماروف. سأقوم بفتح هذه البلاد للهجرة الجادة".

حيَّت مجموعة من الأكف المقفزة هذه الخطة بالتصفيق الذي تستحقه، رغم انه لم تكن هناك واحدة من النساء الحاضرات تمتلك اية رغبة في رؤية القفقاس. عدا واحدة: زوجة الجنرال كوماروف، الأميرة صونيا.

وقفت طويلة وصامتة، تراقب حركات التملق التي يقوم بها ضباط الجيش وتتمنى لو انها تعود الى القاعدة بأسرع ما يمكن، قبل ان تنتهي إجازته، لو كان القرار يعود إليها.

غمغم سوفوروف: "الهجرة... تلك ستكون الوسيلة... الوسيلة الوحيدة للسيطرة على هذه الأرض الغنية والحفاظ عليها آمنه لقيصرتنا"

"بالضبط، يا سوفوروف، هذا بالضبط ما قلته لصاحبة الجلالة الإمبراطورية بنفسي... انت رجل طيب" لقد اكتفى بوتيمكين من كونه رجلاً مرحاً لأمسية واحدة. سوفوروف، ذلك القديس البائس، يبدو بأفضل صحة يستطيع ان يبدو فيها: إنه لا ينبض حتماً ولكنه ربما يعاني من بعض الحمى. ويكفي هذا القدر. استدار بوتيمكين نصف دورة، وكانت كل سيدات سانت بطرسبرج جاهزات لأجله. لكنها الأميرة صونيا, زوجة كوماروف التي وقعت عينه عليها. طويلة, مهيبة, بكتفين رائعين ووجه متعالي, أعجبته.

لدى المرأة عقل، وذلك أكثر مما يمكن ان يقال عن فارفارا سوفوروفنا.

قالت الأميرة صونيا "يكفي حديثاً عن الحرب والمعارك... انتم أيها الرجال لم ترقصوا طيلة الليلة". ثم صادرت الجنرال بوتيمكين من بين جحافل النساء الضاغطات بنفس النجاح الذي حققه سوفوروف عندما أخلى طريقه نحو ضفاف الكوبان.

عزفت الفرقة الموسيقية لحناً مرحاً وانطلق الجنرال بوتيمكين مع الأميرة بسرعة نشيطة متحدية. بدا الاثنان متجاوبين، جريئين ومنجذبين جنسياً لبعضهما بعضاً. دفع الرقص باللون الى وجنتي السيدة وبابتسامة موافقة من زوجها. ذهب الجنرال سوفوروف الى المكتبة ليفكر في القفقاس بهدوء.

***

الفصل الثاني

كانت الرحلة إلى مناطق البزادوغ بطيئة وصعبة. ركبا في البداية بسرعة، لكن احمد ظل يراقب غازي بدقة، وأدرك فوراً عندما بدأت ذراعه اليمنى تتصلب وحال لون وجهه إلى الرمادي. لقد كانت الرصاصة تتحرك داخل عظمة كتفه ولا بد أن كل حركة مفاجئة للسرج سببت له آلما حاداً.

اقترح احمد "دعنا نبطىء في سيرنا قليلا، ربما حتى يتعين علينا أن نتوقف لبرهة".

"كلا، لا أريد أن ابقى هنا بعد هبوط الليل. نحن قريبون من القوزاق. يجب أن نعبر من فوق السلسلة التالية ومن هناك سيكون الركوب نحو البيت نزولا كله."

حافظ غازي على سرعة لا تلين, صادرة عن قوة الإرادة حتى أصبح مخدراً كلياً تجاه الألم. بدا يحس كأن حركة الركوب نفسها دفعت بالرصاصة إلى موضع إنغراز أعمق في العظم، لأنه مع وصولهما صعوداً في الطريق إلى راس الوادي الضيق، فقد الإحساس بكل جانبه الأيمن كلياً. ركبا في عمق سفوح تلال القفقاس، بدا لأحمد وكأنهما قد مرا عبر الجدار الدفاعي الأول، واخترقا إلى الحرم الداخلي لقلعة طبيعية هائلة. لا توجد مراعي خضر أو مفاجئة هنا: لا اثر لأكواخ الرعاة المبنية ملتصقة بداخل سفح مليء بالأشجار. كان المنظر كله ظلالاً وهدوء.

عانى احمد وغازي لمدة ساعتين كاملتين خلال شعب عميق مليء بالحجارة المسننة، محاط من جهتيه بالصخر الأصم المحتوي على بضعة بقع من نبات الاشنه. كانت فرساهما غير المحذيتين

تنتقيان طريقهما بألم. كره احمد الجو السائد في هذا المكان، الغياب الكلي للخضرة وانعدام الشمس, جعل الدرجات المتكررة من اللون الرمادي الداكن الشعب يبدو شبيهاً بالسجن. لم يكن هناك شيء ترتاح العين إليه مطلقاً, كان مكاناً تعيساً للتواجد فيه.

شعر بان سلوكه بالأمس، حين صاح بصوت عالٍ على الصخور, كان عملاً صبيانياً طائشاً، لكنه كان يصبح متناغماً بشكل تدريجي مع الجبال, مع القانون الطبيعي الذي يحيا الإنسان بموجبه هنا, هذا الصوت مثلاً: أن التحرك للالتجاء إلى المدخل الضيق يجعل كل صوت يبدو مضاعفاً ثلاث مرات في الحجم والوضوح. بإمكان احمد سماع النقط الافرادية للسيول الصغيرة على وجه بعض الصخور البعيدة التي لم يكن بإمكانه حتى رؤيتها. لقد تحدث شلال بعيد إليه بصوتين منفصلين تماماً: الأول زمجرة عالية والثاني صرخة سوية أعلى. عندما اخرج غازي تنهيدة إرهاق أملا أن لا تلاحظ, فقد ملأت الشعب كأنها أنين.

كذلك فقد لوّن تنفس احمد الهواء باللون الأبيض. تحول الطقس إلى صقيع بشكل مفاجئ كأنما حبسا في داخل زنزانة لم تستعمل منذ مدة طويلة. أحس بالانجماد حتى العظم بنفس القدر الذي أحس فيه بالتوجس من الهبوط المفاجئ للحرارة.

كل شيء في الجبال مكتوب بمقياس كبير ــ وقد فهم احمد بقلبه للمرة الأولى لماذا كانت قصص جدته عن الأسلاف الغابرين للأديغه تتحدث عن شعب من العمالقة، هم أوائل الذين عاشوا في سلسلة جبال القفقاس. يتحتم عليهم أن يكونوا اكبر من الحياة العادية حتى يتحملوا متطلبات هذه المنطقة. النارتيون... لقد أحب طول عمره القصة عن كيف احضر البطل الأعظم لكل الأساطير، سوسروقه، النار إلى النارتيين. استحضر احمد صوت جدته من مكان هادئ على شاطئ الكوبان حتى يحافظ على ارتفاع معنوياته.

كان سوسروقه بني البشرة وعيناه من النار، وكان جنود النارتيين يتجمدون من البرد فوق الجبال, فظهر لهم, رجوه أن يعطيهم الدفء، فقال أن النار قريبة مني دائماً. أشعل لهم منقلا كبيراً بسرعة لمح البصر. تدافع الجيش مقترباً من الحرارة بالكثير من الفظاظة مما لا يليق بآداب الأديغه فقلب سوسروقه المنقل داخل النهر منزعجاً، رجاه النارتيون مرة أخرى للمزيد من النار, لكن سوسروقه اقسم انه لم تعد لديه أية شعلة. لذلك امتطى حصانه ثوزيج وانطلق نحو جبل حارام وبحث في كل مكان عن شرارة أخرى. هنالك وجد عملاقاً في برج عال, ينام ملتفاً حول شعلة، سرق سوسروقه الشعلة وانطلق على جواده الذي كان يعدو في هذه الآونة على الأقدام السحرية للقط. لكن العملاق طارده وتلا ذلك معركة هائلة كسبها سوسروقه في نهاية الأمر. عندما عاد إلى النارتيين كان نصفهم قد مات من شدة البرد, فأشعل سوسروقه المنقل للقلة القليلة المتبقية منهم حتى يتدفأوا بها.

كان احمد غارقاً في أفكاره إلى درجة انه لم يلاحظ أن غازي توقف فجأة وتناول جرعة طويلة من الماء من قارورته الجلدية. ناولها لأحمد وكانت يداه ترتجفان.

هز أحمد رأسه. لقد أقلقه شرب غازي للماء، لان مقاتلي الأديغه مدربون على تناول القليل جداً من الماء أثناء تحركهم. لكن فقدان الدم كان له تأثيره على رفيقه. وهو يحاول أن يحصل على دفعة للجزء التالي من الرحلة. انفتح الشعب على سهل اجرد مغلق بالحصى وخصلات من البردي بدت مثل مجرى نهر جاف, هي الممر الذي خلفه حقل جليدي موغل في القدم. "ترجل يا غازي" أمر احمد، "دعني اربط شريطاً آخر حول كتفك". خلع أحمد معطف غازي لكنه لم يفك الرباط القديم, فقد كان الطقس بارداً جداً على ذلك الإجراء.

لاحظ بقلق أن سترة غازي منقوعة بدم طازج. أضاف قطعة قماش نظيفة إلى الضمادة بدون أن ينبس ببنت شفه.

ظل غازي على صمته طيلة العملية. "أشكرك أيها الأخ, يجب أن نتحرك من هنا بسرعة. ليس هنالك الكثير من الغطاء. اتبعني عن قرب". عاد غازي إلى الركوب وانطلقا مسرعين. خشي احمد كثيراً أن توجد حتى هنا دورية قوزاق جوالة, فالتصق بسرجه وحافظ على مسافة قريبة خلفه. لم يعرف كيف استطاع غازي أن يقطع ذلك السهل, لقد كان احتماله واحتمال فرسه متميزين. بالنسبة لأحمد فقد كان هذا أكثر ركوب إرهاقا له في حياته وتطلب منه اكبر قدر من الاحتمال والمهارة. لقد كانت السرعة التي يسير بها غازي قاتلة, فقد كانت الحجارة تتطاير من حوافر فرسه وتخيف فرس احمد, والأرض مليئة بالحفر الخادعة الخطيرة.

مع خفوت الضوء, تسلقا بصعوبة تلة حادة على الجانب القصي من السهل. في منتصف الصعود انحرف غازي متعمداً خلال الصخور الناتئة وقاد احمد إلى مرج جبلي خفي يبلغ حوالي الميل طولاً، ونصف الميل عرضاً ـ أصبح احمد مسروراً برؤية بساط من الخضرة العميقة مرة أخرى. كانت موقعاً مثالياً لتخييم مؤقت فلو حدث ومرّ جواسيس خيالة على الطريق الجبلي فلن يدركوا وجود مثل هذا الملاذ.

حالما دخل الرجلان بخيلهما في السهل المفتوح اندفعت نحوهما مجموعة من الشباب بأقصى سرعة لخيولهم. إنها لجنة استقبال يمكن العثور عليها دائماً عند الوصول إلى أية قرية لشعب الأديغه.

تدافع الخيالة الشركس الشبان حولهما بقلق

"غازي! هذا أنت أخيراً؟"

"أين كنت؟ ما الذي أخرك؟"

"من ذلك الشخص؟ أهو أديغه؟"

"هيا، سأسابقك في العودة!"

أشعرت فرقة المطاردة العنيفة هذه بصرخاتها احمد بأنه في بيته فوراً, رغم اللهجة ذات الوقع الغريب. في الواقع أن شعوره بالفرح كان غامراً لدرجة انه أحس بدمعة ريح باردة تلسع عينه.

كانت مجموعة الخيالة قد أوقفت خيولها على مسافة عرض شعرة واحدة من منخري فرسه وفرس غازي - في إظهار لقدراتهم العالية في الفروسية, وهو منظر يثلج صدور كل شباب الأديغه ويجعلهم يتصرفون على سجيتهم. لوّحوا ببنادقهم في الفضاء وانطلقوا عائدين إلى القرية لأخبار كبارهم بان غازي قد عاد سالماً وانه أحضر معه شخصاً غريباً.

استجمع غازي آخر قطرة من الطاقة حتى يستطيع أن يقف في ركابيه، عرفت فرسه أين هي فانطلقت مثل الريح. لم يستطع احمد أن يرى أي أثر للمخيم. كان يتألم من الإرهاق, فقد كان آخر جزء من الرحلة لا يطاق. تبع غازي عن كثب, صعدوا مرتفعاً - ونزلوا من خلال الأيكة.. فجأة كانوا قد وصلوا.

للجبال أسلوب غير عادي, وهكذا أصبح الهواء فجأة دافئاً هنا, وظلت نسمة خفيفة تتحرك عند الغسق. كان كبار القرية واقفين في مجموعة في منتصف المعسكر, جاهزين لسماع أخبار غازي، انزلق عن فرسه ممسكاً بقوة بحزام السرج لكي يمنع ساقيه من أن تتقوسا تحت ثقله. أصبح بمقدور الجميع أن يرى انه جريح, لكن غازي أراد كمسالة شرف أن يكمل مهمته قبل أن يداوي جرحه. ألقى بثوبه الأسود فوق كتفه وقال: "السلام عليكم"، بدون أن يظهر أي اضطراب في صوته، "إن رفيقي هو أحمد من قبرتاي الكوبان".

أجاب الكبار على التحية بصوت واحد. أومأ احمد برأسه احتراماً وتم تقديمه إلى كل رجل بدوره، شد الإمام الكبير وهو شيخ القرية الديني على يد احمد بحزم، عرف بدون الحاجة إلى التفاصيل أن غازي مدين لهذا الشاب الغريب.

قال بصوت خفيض له رنة: "أنت مرحب بك أيها الأخ". ذكّر الشيخ احمد بعمه "البشه" لعشيرته وجلبت الذكرى غصة إلى حلقه. أن هذا الرجل هو في نفس العمر, نهاية الستينات, ولكن الإمام كان بلحية كاملة بيضاء بينما كان عم احمد حليقاً كلياً.

وضع غازي يده على كتف احمد- لأجل العرفان وأيضاً من اجل الاستناد، "لقد تقاطع طريقانا... سافرنا سوية... وعندما جرحت عالجني واعتنى بي وأصر على أن يعيدني إلى السلامه."

نظر الإمام إلى احمد بترو وحكم على إن الشاب ينتمي إلى عائلة نبيلة "ورق" تماما كما فعل غازي، ولكن بسبب من سنه وحكمته رأى أكثر من ذلك بكثير: رأى في سلوك احمد الاحترام العميق الذي يكنه للكبار, بما فيهم الإمام نفسه. لاحظ في وجه الرجل الفتي تعبيراً يكاد يكون حنيناً عندما تقابلت عيناهما، صراحة كشفت عن طبيعته الواثقة المخلصة.

هذا شاب فقد اليد التي كانت تقوده حديثاً ويجد الانتقال إلى الاستقلال الفردي قاسياً. ولكن من الطريقة التي تعامل بها هذا القباردي الشاب مع غريب جريح فالثابت انه شجاع فاضل ومدرب جيداً على مهارات الحرب.

قال الإمام بحرارة: "أنت مرحب بك مضاعفاً يا احمد الكوباني". ثم التفت إلى غازي "أنت بحاجة إلى العناية".

"ليس بعد, لدي أخبار سيئة.....".

رفع الإمام يده ليمنع غازي من قول المزيد.

التف جمع صغير يحمل فضولاً عن احمد ومتلهفا على أن يعرف عن قريتهم, ولكن لن يكون من الحكمة نشر الفزع.

قاد الإمام والكبار غازي واحمد عبر الجمع، واخذ الخدم من بين صغار رجال الهزادوغ عن طيب خاطر فرسيهما اللتين كانتا تنفثان البخار.

ألقى احمد نظرة فاحصة على معسكر البزادوغ بينما هم يسيرون المسافة القصيرة إلى مسكن الإمام. فاجأه وأحزنه أن يشاهد السرعة والكفاءة التي استطاعت بها هذه العشيرة إن تعيد استقرارها بالنظر إلى ضخامة خسائرها نتيجة لغارة القوزاق. كانت المستوطنة منظمة بشكل دائري كأفضل طريقة للدفاع. حتى إذا هوجموا فسوف يسوقون الماشية، والنساء والأطفال إلى الوسط.

كان نصف العائلات يعيش تحت الشوادر، خيم كبيرة مربعة لها مظلات فوق الفتحات, وبساط ثمين أو بطانية مبسوطة للاستراحة في الظل. لمح بضعة ستائر محيكة باليد تبطن داخل الخيم ومراتب بسيطة على الحصر- لا أثاث أكثر من هذا.

وقد أقيمت بين الخيام بضعة مبان قوية أخرى من القضبان النباتية والطين, هذه كانت تشكل التصميم التقليدي المحلي، كل مبنى يحتوي على غرفة كبيرة بها موقد نار مفتوح يحترق على مدفأة مؤقتة، مع غرفة اصغر للجلوس أو النوم خلفها. كانت البيوت المخصصة للعائلات تحتوي على أجنحة منفصلة معزولة للنساء وللخدم. هناك مهاجع صغيرة للأبقار, الدجاج، الماعز والخراف، وكلها مقسمة بشكل مترابط بأسيجة من الشجيرات.

كانت النساء قد خرثن الأرض حول محيط القرية, بحيث ظهرت أحواض معتنى بها بشكل جيد ممتلئة بأشتال صغيرة لنباتات جذرية وللذرة.

استطاع احمد أن يرى أن البزادوغ قد وفروا لأنفسهم الأمان قدر الإمكان- ومع ذلك, فإذا تغلب عليهم العدو بكثرته، فان المجتمع باسره قادر على أن يجمع أشياءه ويرحل خلال دقائق، حاملاً ما يمكنهم حمله على الحوافر- وكل ما يترك خلفهم يشعلون به النار حتى لا يتمكن القوزاق من الاستفادة منه.

وفر الخدم الراحة للإمام والكبار, على وسائد رتبت بشكل نصف دائري. أمام الخيمة، بيت الإمام، وكما تقضي العادة, لم يكن

هناك شباب أو نساء آخرين من البزادوغ حاضرين في المقابلة، حتى يستطيع الكبار إن يبحثوا المسائل بحرية ويتخذوا قراراتهم في جو هادئ.

قدم غازي تقريراً كاملاً باختصار ووضوح عن أنشطة القوزاق في قرية البزادوغ, وختم تقريره بتفاصيل عن مقابلته مع احمد للدورية, وكيف أصيب بالطلقة.

قال غازي وقد افتر ثغره عن ابتسامة واهنة: "لدى احمد فرس أسرع أو انه كان أوفر حظاً".

نظر الكبار إلى بعضهم بعضاً. رفع احمد من قامته فخوراً بأنه تصرف كما كان أبوه يحب له أن يفعل. استدار الإمام نحوه قائلاً "أنت على الرحب والسعة لان تمكث معنا وتشاركنا طعامنا للمدة التي ترغب بها، نحن فقط آسفون لأنك وجدتنا متفرقين وبدون بيوت حالياً، لو كنا في قريتنا لكنا انصفنا زيارتك أكثر بما تقتضيه "الخابزه" عندنا".

أجابه احمد بالتعبير التقليدي للاحترام لشخص هو أعلى مرتبة "أشكرك يا تحمادا" إني سعيد بكوني هنا لكنني لا أستطيع أن أثقل على كرمكم في هذه الأوقات العصيبة. سأكون بحاجة إلى الاستمرار في رحلتي باتجاه الشرق في أسرع وقت تسمحون لي فيه بالمغادرة".

قام الإمام بحركة تدل على الأمر: "لن يكون هناك كلام عن المغادرة الآن, يجب أن تشاركنا طعامنا وتستريح لبضعة أيام".

استدعى الإمام خادماً صغيراً من خلفه. "أصلان", اذهب واخبر النساء أن لدينا ضيفاً مكرماً، اذبحوا خروفاً وجهزوا بعض الطعام, لم يأكل هذان الاثنان كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية". بعد ذلك استدار نحو غازي بتعبير أبوي: "يا غازي، اجعل أحداً يهتم بجرحك. إنني سعيد لأنك أنجزت مهمتك مع أنني حزين بنتيجتها".

ساعد أصدقاء آخرون غازي على النهوض على قدميه, وغادر الخيمة وهو يترنح قليلاً.

دهش احمد لهيئة البزادوغ الراقية وملامحهم الجميلة، اللون الفاتح، الأنوف المستقيمة، العيون الزرقاء الحادة والحسنة التركيب. انتظر باحترام حتى يعود الإمام إلى التكلم مرة أخرى.

"الآن بما انك قد شاهدت ما شاهده غازي ـ فإننا نقدر رأيك عالياً. هل يمكنك أن تسدي إلينا أية نصيحة؟"

بدأ احمد فوراً بالقاعدة التي حملتها التربية الجيدة بشكل طبيعي إلى شفتيه. "حاشا أن يكون لي أن أقدم النصيحة لمثل هذا التجمع المحترم من الكبار الحكماء، لكنني أستطيع القول أن تجربتنا الخاصة مع القوزاق هي محدودة، لدينا البعض منهم في الكوبان. إنهم يعيشون في ايكاتيرينودار، وفي بعض الستانيتزات البعيدة عن منطقتنا. كثيراً ما يجيئون للمتاجرة معنا. هم على الأغلب يبيعوننا "مياه الشيطان" ذات الطعم الرهيب ويشترون الجلود والفراء من عندنا. لقد قامت مجموعات منهم بالإغارة على ماشيتنا لكنهم لم يحققوا الكثير من النجاح. بمجرد أن تقتل بعضاً منهم فهم يتركونك لشانك".

لاحظ احمد النظرات المتبادلة بين الكبار، واضح أنهم لم يشاركوه ثقته ورأيه بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة.

تحدث شخص ثانٍ من الكبار بلهجة عدائية وهو يلف ثوبه على نفسه أثناء تحدثه وقد استقرت يده النحيلة على مقبض "قاما" جميلة في حزامه: "هذا ما لم نفعله حتى الآن, بجدية, نحن لم نقتل ما يكفي من "الجاور"، ربما وقتها سيتركوننا لشاننا أيضاً".. بقي الإمام صامتاً، استطاع احمد أن يلاحظ أن العادة هنا, كما هي في الكوبان, لأي اجتماع أن يمحص ويعطي الاهتمام المستحق لكل الآراء التي يتم التعبير عنها.

ثم وافق الإمام قائلاً: "اعتقد أن مقاتلينا ستتاح لهم الفرصة لعمل ذلك بالتمام, لكن ليس قبل حلول الربيع. يجب علينا أولاً أن نستعد للشتاء القادم وننشغل في موضوع إطعام شعبنا. أن البقاء على الحياة هو اهتمامنا الأول. سنرسل كذلك وفوداً إلى أصدقائنا في الشابسوغ لشراء الأسلحة وملح البارود. لديهم تجار أتراك في منطقتهم يجلبون السلاح من استنبول".

اعترض المسن الثاني على هذا الرأي "ولكن بينما ننتظر فان القوزاق يبنون حصناً قوياً! سيصبح واجبنا أصعب بحلول الربيع. أنا أقول لنهاجم الآن قبل أن تسقط الثلوج. أن لدى رجالنا أسباباً كثيرة تدعوهم للقتال من اجلها".

تحدث مسن ثالث, وهو رجل لطيف زحف الشيب المبكر إلى صدغيه, بتفكير عميق: "بماذا سنحاربهم؟ ليس عندي شك أن شبابنا يعرفون كيف يموتون. لكن سيوفنا ليست نداً لمدافع القوزاق. ما يقوله إمامنا هو قول حكيم. يجب أن ننتظر ونقوي أنفسنا وبعد ذلك في الربيع سنرسل القوزاق إلى جهنم عندما يكونوا غير متوقعين قدومنا. هذا هو ما أقوله".

انطلقت همهمة عامة من الموافقة على هذه الخطبة الأخيرة. صدر المزيد من التعليقات بالاتجاهين. بقي احمد صامتاً, وسمح لنفسه أن ينغمس في أحلام اليقظة بينما انهمك الرجال المسنون من البزادوغ في تقييم الخيارات التي تواجههم. لقد سمع بمباحثات من هذا النوع من قبل- ليس مباشرة بل من أبيه عندما عاد من مؤتمرات مشابهة في قريته في وقت متأخر من الليل.

وقتها كان احمد يجلس معه بصفته ابنه الوحيد، تحت النجوم بينما هو ينقل إليه قرارات المجلس، كان احمد يصغي بنصف أذنه إلى جريان النهر الذي لا ينتهي, وهو يؤمن بان الحياة آمنة في أيدي رجال مثل هؤلاء المجربين الأكفاء وان لا شيء يمكن أن يتغير أبداً, لكنه لم يعد بمقدوره الآن أن يؤمن بذلك.

لقد انتهى كل ذلك بالنسبة إليه عندما قتل والداه في حادث غبي. فقد سافرا في فصل الشتاء الماضي لزيارة أقاربهما في قرية اخرى.على طريق العودة في وقت متأخر من الليل, هوت عربتهما فجأة في منحدر جليدي حاد. لم يستطع احمد أن يفهم كيف أمكن لوالد احمد أن يرتكب مثل هذا الخطأ في التقدير على طريق يعرفها كما يعرف ظاهر يده. لم يكن هنالك أي دليل يساعد على حل الغموض: بحلول الوقت الذي أدركت فيه القرية أن شيئاً ما قد حدث وأرسلت مجموعة للبحث, كان والد احمد ووالدته راقدين نصف مدفونين في الثلج عند سفح منحدر حاد وقد تناثرت حولهما بقايا العربة المحطمة وطاقم الجياد.

بقي لاحمد من عائلته المباشرة أخت واحدة "افواسا" متزوجة من ذلك السكير مع انه من سلالة نبلاء، "ورق" بسلاني اسمه محمد، تراجعت حالة محمد في ايذاء نفسه بسبب غياب التأثير المهدىء لأبيه تدريجياً طيلة الربيع مما أدى الى الانفجار الأخير للعنف في بيت افواسا.

قاطع غازي أفكاره: "احمد, تعال لتأكل" كان قد عاد وقد تم تضميده وبدت عليه ملامح الحيوية، قال: لقد اخرجوا الرصاصة، امر سهل" كأنما أخرجت شظية من إصبعه, فقد وهبته فرحته بالعودة الى شعبه قدرات شفائية عجائبية.

"لقد أعطيتها إلى أخي الأصغر على سبيل التذكار". ابتسم واصطحب احمد الى الخيمة القريبة المخصصة للضيوف حتى يجهز نفسه لوليمة المساء.

ناولت صبية نحيلة من أهل البيت الماء لأحمد, رفعت رأسها اليه في استحياء وقد أثارتها رؤية ملامحه الذكورية الجميلة المختلفة عن جمال رجال البزادوغ. لو انتبه احمد الى عينيها الزرقاوين الجميلتين وهما تلتمعان إعجاباً بوجهه الحليق الوسيم القسمات، والخط القوي الذي يشكله أنفه، الخط الواضح الداكن

لحاجبيه، لأحمرّ وجهه خجلاً. لكنه كان يركز على أدبه أمام مضيفيه المبجلين، وقد ذكره الإيحاء المجرد لرؤية جسم أنثوي ضامر في ثوب ابيض مزموم بشدة بحزام جلدي ناعم, ومنديل ناعم من حرير الموسلين يغطي شعرها الطويل, ذكره كل هذا بحدة بأفواسا فتعمد ان لا ينظر الى الفتاة.

ظل شبح والده يحوم حواليه كالعادة ويرغمه على ان يتصرف بكرامة.

في تلك الأثناء بقي غازي ينتظر في المدخل سعيداً لأنه سيتمكن أخيراً من الاهتمام بأحمد بأسلوب ملائم. اصطحبه الى منزل الإمام، حيث كان الكبار قد جلسوا تمهيداً لتناول وجبة الترحيب.

تم تجهيز الغرفة بموائد "الأنه" المستديرة الخفيضة ذات القوائم الثلاث وقد تكومت فوقها أطباق الطعام الذي تتصاعد منه الأبخرة.

بدأت عدة فتيات جميلات يتحركن بصمت وهن يدخلن الى الغرفة ويخرجن منها، يحملن المزيد من الأطايب الى ما زخرت به الموائد. أبدعت نساء البزادوغ وتفوقن على أنفسهن رغم الظروف الطارئة السائدة، فاحت في منخري احمد روائح مختلطة لطبق هائل من لحم الخروف المطبوخ والمطيب بالأعشاب والتوابل, سلطانية نحاسية ممتلئة بلبن الزبادي المبهر, سلطانية أخرى من عجينة باستا الذرة بلون اصفر ذهبي وقد صب فوقها مرق كثيف, مما جعل أمعاءه تتلوى من الجوع, تكوم حول هذه الأطباق أكوام متعددة من المعجنات اللذيذة المحشوة باللحم والعسل والأجبان المصنوعة من حليب الماعز والبندق والجوز والفواكه المجففة.

لم يشعر احمد في حياته بالرغبة في الاستمتاع بالطعام بقدر ما شعر في هذه الليلة. أشار الإمام الى وجوب جلوسه الى يمينه باعتباره الضيف بينهم، وقف غازي خلف الكبار حتى يخدم

المجموعة فهذا واجبه باعتباره الابن الأصغر للعائلة. وقف الى جانبه شابان آخران لنفس الغاية.

كانت جدران غرفة ضيافة الإمام مزدانة بسيوف نادرة قديمة، خناجر, أقواس واسهم, ودروع جميلة من الزرد الناعم مما يدل على انه كان في عنفوانه مقاتلا مشهودا له, وانه ارتحل بعيدا في عدة حملات عسكرية, استقر على جسر السقف فوق رأس احمد صف من السروج الشركسية الأنيقة المزينة بالفضة وأشرطة اللجام التي أصبحت طرية كالحرير بسبب سني الاستخدام الطويلة, أوحت الأواني الفضية والنحاسية والجلدية الموجودة في الغرفة لأحمد ان الإمام حصل على ثروة لا يستهان بها من خلال الحرب او التجارة او كليهما, كانت هناك أيضا بضعة حصائر تركية نفيسة وجلود مشغولة من طراز لم يكن قد شاهده أبدا من قبل.

بكل صراحة, أصبح احمد في حالة من الذهول، فقد ظل يعتقد ان القبارديين هم ارستقراطيو الاديغه, ولكن الواضح انه يوجد رجال عظام في كل قبيلة. أعطت كل هذه العناصر للصالة جواً من الفخامة المطلقة والسلطة. فهذا بيت رجل قد عاش كل مراحل حياة الاديغه النبيلة بالإخلاص المناسب, سواء أكان ذلك كمحارب, او كاسب رزق لرعيته او كشيخ من كبار البزادوغ.

تحدث الإمام بألفة "دعونا نترك المسائل الجدية!، دعونا نستمتع بصحبة ضيفنا الاديغه الغالي. نخب احمد، الأخ القباردي الشاب، أدعو له ان يحيا بصحة جيدة ويحمل شرف قبيلته وانتمائه الى الاديغه حيثما ارتحل."

رفع ابريق من الباخسمه ذات الرغوة - وهي الخمرة الشركسية الوطنية - عالياً وارتجل نخب ضيفه. التقط احمد وكل الكبار الباقين أكوابهم وانتظروا إشارة الإمام.

"نخب صحة ضيفنا وحظه الحسن, ندعو الله ان يهبك السرعة يا احمد، وان يحميك من كل المصائب ويدلك على الصراط

المستقيم، ندعوه, وهو الذي خلقنا جميعا وأنعم علينا بهذا الطعام, ان يستمر في الإنعام على كل الاديغه اينما يكونوا بالبركة والتوفيق، في صحتك, يا أخانا الصغير إشرب." وشرب الجميع بشهية.

لم يستطع احمد ان يغالب التفكير في الفرق بين نخب القباردي وهذه النسخة, إن أداء احد كبار القباردي لمثل هذا النخب "الخواخوه"، كان سيستغرق عدة دقائق أكثر! لكن أحمد ألقى نظرة ثاقبة على وجه الإمام بملامحه الحديدية. أصبح على ثقة بان الرجل العجوز قد فهم كل شيء حدث له قبل هذا اليوم، لان كل كلمة نطق بها في النخب كانت تنبض بالحقيقة: "المصيبة"، الصراط المستقيم, لقد بدا وكأن الألفاظ تخاطب روحه نفسها.

لقد مرت أوقات في الشهر الماضي صارع احمد فيها ضد غياب مرّ للإيمان، عندما وجه شكواه المرة ضد السماء لانها انتزعت كل الطيبة من حياته. أدرك احمد وهو ينظر الى الإمام العجوز ان عيناه تضيئان بحكمة مخادعة وقاسية, وهي نتيجة سنين من الحروب والمكانة الرفيعة المكتسبة بالطريقة الصعبة. فقد أشعر احمد بالكثير من صغر السن وقلة التجارب رغم كل المحن التي سبق وان تحملها, لقد تمتع والداه بحياة طويلة ومنتجة: بدا موتهما الآن يحمل قدرا أقل من المأساة، بالمقارنة مع خسارة حياة قرية بكاملها, ان تأمين البقاء على الحياة لعدة مئات من الأرواح في الشتاء على هذا الارتفاع بوجود بضعة أسابيع قليلة متبقية لإجراء الاستعدادات هو واجب رهيب. شعر احمد من جهة بالخجل من نفسه بسبب إشفاقه عليها، وبنفس الوقت أحس بدبيب الحياة في جسمه.

ولكن، وبينما احمد يشعر بالانتعاش، تبخرت معنويات غازي، فبعد ان ساعد في خدمة تقديم الطعام، طلب الإذن في الانسحاب وذهب الى فراشه خائر القوى. لم يشأ احمد ان يذهب للنوم، فقد كان سعيدا بوجوده مع الصحبة, ومتشوقا لأية أخبار يمكن ان

تساعده في زيادة معرفته بمنطقة الجبال بشكل أفضل. فقد كان هذا هو مستقبله.

مال الإمام الى الإمام "ان عائلتك هي من القبرتاي، اهذا هو السبب الذي يجعلك تسافر شرقا لزيارة أقاربك؟"

"كلا, ليس بالضبط، لقد توفي والداي قبل وقت قريب نتيجة لحادث، واستولى صهري على المزرعة. لذلك اعتقدت ان الوقت قد حان لكي أشاهد العالم..." تمرن احمد على هذه الخطبة مرارا أثناء ارتحاله وقد بدت له مقنعة الى حد ما.

"هي خطة جيدة، نسيبك هذا: المالخا، الم تكن لديه أملاك خاصة به؟" سأل الإمام وهو يحاول بذكاء الحصول على الصورة الصحيحة.

"كلا" سعى احمد الى ان يحمل هذه الكلمة مجلدات, تفيد بان محمد كسول, متعجرف، وليس نبيلا الا في نسبه العائلي، وليس بأية أفعال او طموحات.

"بالنسبة للبزادوغ، فان تطفل الرجل على أملاك والد زوجته يعتبر معيباً، لان الشامتين لا يمكن ان تستقرا تحت إبط واحد....!", التمعت عينا الإمام بالادراك.

"انه وَرق من البيسلان، وهو اكبر مني سناً بكثير"

أحنى الإمام راسه للحظة، وكأنما يعترف بمدى لباقة ان يكون مثل هذا الرجل زوجا لأخت شخص.

"ما ذلك شرف لأختك, بدون شك. أدعو الله ان يرزقا بالعديد من الأطفال الأصحاء."

انفجر الدم في وجه احمد فوراً، فقد فقدت افواسا مولودها البكر بسببه طبعاً, كان محنقا من نفسه. يجب على الاديغه أن

يسيطر على عواطفه دائما، ان إظهار المشاعر يعكس النقص في الثقافة, في "النيمس" او التربية الجيدة.

أصبحت لهجة الإمام أكثر رقة "لقد قمت برحلة مرهقة. ينبغي ان لا أتحدث عن المتاعب في هذه الليلة. ان بيتي هو بيتك, يا احمد الآتي من الكوبان: وبما ان والدك لم يعد قادرا على ان يكون معلمك, فإذن دعني أكون "الكوناك" لك: المضيف والحامي طالما انت باق معنا. اذا كنت أستطيع ان أنصحك فانه يتوجب عليك ان تستشيرني كما لو كنت تستشير أباك".

"انت في غاية الكرم"

"ان غازي ابن أخي. لو انني فقدته..." فتح الإمام راحتيه العاريتين الى الأعلى، كأنما يقول ان حياته كانت ستكون فارغة, انتقل الحديث الى الحرب، القوزاق وأفضل الطرق لمهاجمتهم، اكتفى احمد من السهرة، لكنه أيضاً يعرف انه باعتباره الضيف لن يغادر احد من مضيفيه الحفلة طواعية طالما بقي هو جالسا. فأنسحب الى خيمة الضيوف المخصصة له واستسلم للنوم وهو يتمتم صلاة إمتنان على وصوله الى هذا الحد، بدون أذى.

شعر احمد كأنه رجل جديد في اليوم التالي خلافا لغازي الذي كان يشتعل بالحمى ولذلك لزم فراشه. هكذا قال له البزادوغ الشاب الذي احضر له "القالموق شي" كوب الحليب المالح والمبهر مع قطعة خبز حارة مع الجبن لإفطاره بعد ان صلى صلاة الفجر. كانت النساء قائمات على تمريض غازي. بعد ان قام من نومه وارتدى ثيابه توقف احمد قليلا خارج حوش العائلة ليستمع الى الأصوات الجميلة للنشاط المنزلي، العديد من النساء صغيرات وكبيرات في السن حسبما وشت به أصواتهن, اجتمعن متحلقات حول فراش صديقه وهن يثرثرن, يصفقن بأيديهن ويغنين: لم يستطع احمد ان يميز الأغاني, لكن العادة مألوفة بالنسبة له, فالمريض لا يترك لوحده لئلا تنحدر معنوياته, لان الرفقة تطرد

أرواح المرض أفضل من أي دواء, لا شك بان غازي كان يستغل مغامرته لينال إعجاب الصبايا الصغيرات.

طرح عليه شاب من البزادوغ يقوم بإصلاح السياج تحية الصباح, سأل احمد: اين فرسي؟ كان يحب الفرس الى درجة انه لم يرغب بطرح تحية الصباح، فقد أراد ان يطعمها بنفسه.

قال له الشاب: "من هنا أيها الأخ", واصطحبه الى الزريبة.

خرجت قارا من فورها من القطيع وحمحمت داخل يده, كانت أكثر ارتفاعا بقليل من خيول الجبال ولونها ضارب الى السواد مع وجود بقع صغيرة من اللون الرمادي على كفلها, وأعرض في منطقة الصدر مثل جميع خيول رسن "الشولوخ", أفضل أنواع خيول القباردي, وقد أثبتت في الاختبار انها ليست اقل ثباتا على رجليها من أمهار البزادوغ. كانت موسومة بالوسم المميز لرسنها، دائرة وثلاثة فروع. استند احمد الى السياج وهو ينظر بأناة الى الوسم المطبوع على مطايا البزادوغ, معظم الخيول ذات اللون البني الداكن الغني الذي تمتاز به ارسان "الشركس" مع وجود ظل اسود يمشي مع ظهورها، وقد سره ان يميز العلامة الفارقة لاثنين من فحول "الأ لب" الشهيرة.

جاء الإمام اليه، جامله احمد بقوله "لديكم بعض الأفراس الجميلة"

"انتم تجيدون التعامل مع الخيل، ليست هناك قبيلة من الاديغه تستطيع التفوق على "القبرتاي" في ذلك, انا سعيد لأنه يمكننا التحدث على انفراد.".

"أيها الزعيم...!"

"انا افهم رغبتك في إعادة توطين نفسك, ان تترك بيتك وتسعى الى تكوين ثروة خاصة بك هو أمر في الإقدام عليه شجاعة, ولكن الطقس يطبق علينا يا أحمد، الا تفكر في البقاء هنا معنا حتى قدوم

الربيع؟ انت قوي البنية وقادر: إنني بحاجة الى مقاتلين شباب مثلك ليساعدوني في حماية النساء والأطفال".

شعر احمد للحظة بالإغراء ثم أردف "لكنني قباردي".

"انت تريد ان تبقى مع قومك"

طأطأ احمد برأسه والغضب المكبوت يكاد يمزق صدره الى جزئين: "يجب علي ان اشرح السبب الذي من أجله أريد الابتعاد عن هنا, لقد تقاتلت مع المالخا صهري، هاجمتني شقيقتي وهي تحاول ان تفرق بيننا فدفعتها نحو الأرض وآذيتها، لقد فقدت طفلها، لهذا غادرت، إنني اشعر بالعار".

خفض البزادوغ العجوز عينيه غارقا في تأمل صامت، عندما تحدث أخيرا، كانت كلماته موزونة بقدر ما هي حذرة.

"ان تقوم شقيقتك بضرب رجل من الاديغه، خاصة شقيقها، أمر شائن، انت بهذا تفقد ميراثك الشرعي، مزرعة أبيك, الى رجل تعرف انه اقل منك شأنا، الم تكن هذه هي القضية؟"

طأطأ احمد برأسه مرة أخرى موافقا.

"ما حدث كان صداماً لا يمكن تجنبه وقد اختارت شقيقتك ان تتدخل".

حدقت عينا الإمام الحادتان الذكيتان فيه بحدة بالحقيقة، أخرج احمد الفيضان كأنما يصرح به لقريب كبير السن.

"لم استطع ان أواجهها بعد ما حصل بيننا، ولكن لقد كانت افواسا دوما قوية الإرادة. لم يوافق ابي على المصاهرة لأن محمد لم يكن يمتلك ثروة ولكن".

"ولكنها أقنعته. بالإضافة الى ذلك يا احمد لو كان لديها زوج فقير فان والدك عرف ان ابنته ستبقى في البيت قريبة منه" مرة

أخرى، وصف الإمام الوضع بدقة. غمغم احمد وهو يوافق بحزن "لقد كانت قرة عينه"

"لو انه عاش, لفضلك انت أكثر. ليست طريقة الاديغه في إظهار المشاعر للإبن. لو انك ذهبت للحرب الى جانبه".

إنفجر احمد قائلا "انا متدرب على القتال, ولكن لماذا لا يتركنا القوزاق بحالنا؟ نحن مزارعون ومربو خيول، لدينا أراض طيبة تستحق ان تستغل بشكل جيد. وهذا سبب آخر لرحلتي، لابد من وجود مكان يتحرر فيه الاديغه من مضايقات "الجاور".

"ان القبرتاي مشهورون بسلطتهم، بدبلوماسيتهم" وافقه الإمام "اذا كان هناك سلام في أي مكان فسوف تجده معهم في قباردا الكبرى، لقد انهوا لتوهم حروبهم مع الجاور واحلوا السلام. لاشك في انك ستكون محل ترحيب لدى بني جنسك ولكن يا احمد...."

تردد الإمام وهو يختار كلماته بحذر.

قال احمد وهو يحفزه " نعم, ماذا يا "تحمادا؟"

"أقم الصلح في صلواتك أولاً. ان الرحلة التي ستقوم بها طويلة ومليئة بالمخاطر. أنا أرى أن لديك ميلا إلى التفكير وهذا قد يسيء إليك, يجب أن تكون حواسك حادة في كل الأوقات ما دمت في الجبال- وليست مثلمة بكثرة تفحص الأفكار. وهذا يمكن ان يؤدي الى أخطاء في التقدير في الأمكنة الموحشة".

"كيف يمكنني ان افعل ذلك يا تحمادا, هل أنسى؟" لم يشعر احمد بأي قدر من الإهانة من كلمات الإمام, فقد عرف ان ما قاله هو الحقيقة وكان يائسا في طلب النصيحة.

"بقبولك ان كل شيء يحدث بما يشاء الله. لابد من وجود سبب لهذه الحوادث. والذي سيتوضح لك في يوم من الأيام, كل شيء يحدث كما يجب ان يحدث والحمد لله".

بقي احمد صامتا وقد شعر بخيبة الأمل. ولأنه صغير السن ويشعر بالمرارة فقد كان يعارض مثل تلك القدرية بعنف.

أطلق الإمام ضحكة خفيفة "انا افهم الأمر جيداً يا بني. اعرف أفكارك" لماذا يجب ان يكون الأمر هكذا"؟ لكن ما يجب ان تعرفه هو ان رجل البقرة لا يمكن ان تدوس العجل, نحن لا نتعرض ابدا لمحن تفوق قوتنا: تلك هي طريقة الله في العناية بنا"؟.

وجد احمد حكمة الإمام البسيطة مثيرة للحنق, وتتناقض كلياً مع الذكاء الذي يشكل نفاذ بصيرته "أرجو ان تغفر لي قلة احترامي يا تحمادا, ولكن كيف يمكنك ان تقول ذلك في الوقت الذي ينهب فيه القوزاق قريتك؟"

عقد الإمام يديه داخل معطفه "لقد علمتني التجربة ان أتصرف كأنما لدي إيمان عندما لا يكون لدي أي إيمان, وقتها على الأقل تكون لدي فرصة للمحاولة"

لم يقل احمد المزيد, لأن الإمام نطق بهذه الكلمات التي تحمل سلطة الكبار, وعليه فلن يحاول ان يرد عليها. بقي الإمام صامتاً ووقف الرجلان مستغرقين في أفكارهما الى ان جاء مقاتل شاب يطلب الرجل العجوز للحاجة اليه في مكان آخر من المعسكر.

صمم أحمد وقد ابتدأت رحلته, ان يستمر فيها, فهو يعتقد انه لم يبتعد عن البيت بما يكفي. أراد ان يشاهد "اوشحه ماكوه," جبل البروز العظيم وبعدها جبل "كازبك" الأبعد بكثير باتجاه الشرق- فقد سمع وصفهما في عدة قصص الى جانب مدافىء الكوبان، جبل البروز اشتهر بلون ثلوجه التي كانت تبدو أحيانا حمراء بلون الدم اذ هي المكان المقدس الذي شرب فيه النارتيون نارزان, وهي مياه تنبع من داخل الجبل وتجعلهم لا يقهرون...

حضر اليه أحد الشباب الذين كانوا قد ركبوا لاستقبالهما وهو يقود فرسه المسرجة, شاب وسيم في مثل عمر احمد يحمل ملامح كلاسيكية نقية، ووجها حليقاً فوق كتفين عريضين يملآن سترته

من طراز "التشيركيسكا" حتى فرسه بدت جميلة وقد وضع سجادة حمراء فاقعة تحت وسادة السرج العالية والعديد من الأشرطة وحبات الخرز الملونة حول عنق الفرس، هتف اليه بمعنويات عالية "تحياتي ايها القبرتاي" اسمي هو اصلان، سنكون سعداء لو انك تجيء معنا للصيد, فهل انت جاهز لقليل من الرياضة؟"

أجاب احمد بنعم على الفور, فقد تذكر كلمات الإمام بانه يجب ان لا يفكر, وهكذا قضى بضع ساعات ممتعة في المناطق الخلفية لمعسكر البزادوغ وهو يترصد الماعز الجبلي "توري".

انقضت عدة أيام في هذه الرياضة وغيرها من ضروب التسلية، كان لدى أحمد سببين للتأخير أولهما ان غازي قد لزم الفراش لبعض الوقت وبدا انه سيكون من الفظاظة ان يرتحل قبل ان يبرأ صديقه كلياً, والثاني هو ان أحمد أراد ان يشعر انه قد ساهم في رفاهية القرية, وهكذا فان صيد "التوري" او تسلق الصخور مع اصلان والشباب الآخرين بحثاً عن مخابيء العسل البري ظهر كطريقة حسنة لتعويض البزادوغ على حسن ضيافتهم.

استمرت أسرة الإمام في تحضير أفخم الولائم له, حتى لو لم يبق لديهم الا دجاجة واحدة فانهم سيقدمون له قطعتي الصدر والفخذ ويتقاسموا حساء الحواصل فيما بينهم.

أخيرا حضرت الفتاة الخجولة من أسرة غازي لتقول ان الحمى قد عافته, أسرع احمد الى جوار فراش صديقه فوجده جالسا على الوسائد في حالة مرح واسترخاء

قال غازي: "اسمع انك رام ماهر، لا يحدث شيء في معسكر البزادوغ الا وينتشر خبره. ان البزادوغ يطنون مثل النحل لكن القيل والقال عندهم مستحب وغير ضار، ليست فيه لسعة من سوء النية".

ابتسم احمد وتصرف بتواضع، عاقدا ذراعيه مبتسما لمجاملاته وقال: "لقد كان اصلان يسليني بينما كنت أنت تروي القصص".

احمرّ وجه غازي خجلاً..

"اعتقد ان العدد الأخير ممن قتلناهم من القوزاق وصل الى اثني عشر"

"قصص خيالية ارويها للبنات, هذا كل ما في الأمر"

"هذه الجميلة التي قامت على خدمتي في الليلة الأولى هل هي حبيبة قلبك"

"هراء. انها مجرد طفلة" تمطى غازي بدلال على وسائده وداعب لحيته مظهرا عدم الاهتمام.

ضحك احمد ضحكة خفيفة "لقد سمعت ان مهرها هو الأضخم من بين الفتيات"

تقلب غازي وقد اضطرب "لا وقت لدينا لهذا الهراء. قل لي يا احمد: هل ستبقى وتقاتل معنا؟".

هز احمد رأسه نفيا "يشرفني ان يطلب ذلك مني يا غازي، لكن يجب ان أكمل سفري. لن يبقى الطقس جيدا الى الأبد..."

أدرك غازي انه لا سبيل لإقناع احمد, فنهض وذهب معه ومع اصلان الى الصيد للمرة الأخيرة. كان هواء الجبل بارداً, وفيه لسعة من الصقيع في وقت متأخر من بعد الظهر ولم تكن أشعة الشمس المحتضرة ذهبية وخريفية, بل بدت وكأنها ابيضت. عندما أصاب احمد وعلاً جميلاً فوق جرف صخري، صرخ اصلان "طلقة رائعة" سأحضره بنفسي. ترجل عن حصانه وتسلق المنحدر "ستحتفظ انت بالجلد يا احمد، كتذكار لاوقاتنا سوية" كان اصلان يمسك عالياً بقرني الوعل المقطوعة لتوها عن الرأس، كان يشعر بالفخر لان صديق قريبه قد وجد السرور برفقته، في هذه الاستراحة القصيرة.

في تلك الليلة, كانت الوليمة متقنة بشكل استثنائي, فقد عرفت النساء ان احمد يوشك ان يغادرهم وانه لن يتذوق وجبة معدة جيدا لعدة أسابيع قادمة.

بقي الإمام صامتا على غير العادة في تلك الليلة: ليس هناك من اديغه يفصح باللفظ عن أعمق عواطفه: لكن احد شبان القرية أفصح عن مشاعر المجموعة بان غنى "غبزه" حزينة حول افتراق الأصدقاء الذين يضطرون للذهاب الى الحرب. في وقت لاحق مشى غازي معه الى خيمته وقبض على يده بحرارة.

"أدعو الله ان يكون معك في الغد. لقد ساقك الله اليّ- كان يمكن ان أموت من جرح الرصاصة ذاك".

"اذن فان رحلتي قد وجدت السبب لها مسبقا", تعانق الرجلان عناقا وجيزاً.

"غازي، لقد أعجب اصلان بكنانة أسهمي. أعطها له بعد ان أكون قد غادرت، ويجب عليك ان تأخذ "قامتي" لدي المزيد، اقتل بها قوزاقياً من اجلي ... اجعل الرقم ثلاثة عشر"

اذا كان غازي قد أحرج من هذا الكرم- لان الخنجر كانت شفرته كما توقع من فولاذ طليطلة وذو قيمة تحفية هائلة- فان ذلك لم يكن شيئا يقاس بالحرج الذي أحسه احمد عندما أفاق في الصباح التالي ووجد الإمام وأسرته منشغلين في إنجاز التحضيرات لمغادرته. تم تجهيز فرسه وبدأت النسوة يحملن أكياس سرجه - الخرج- بالملح والفواكه المجففة وكميات كبيرة من الذرة الصفراء.

جاء الإمام بفخذ من لحم الخروف المقدد ملفوفا بقماشة من الموسلين. اعترض احمد على كل هذا الكرم.

"لا أستطيع أن أخذ كل هذا الطعام...يجب أن يبقى في المعسكر لأجل الشتاء"

"لقد ساعدت على تعبئة خوابينا بالمؤن. من يعرف متى ستعثر على الأديغه مرة أخرى".

ظل غازي ممسكاً بذراعه حتى بعد ان اعتلى السرج،" ما زلت أقول ان الأفضل ان تبقى هنا معنا لفصل الشتاء. انك ترتحل في وقت متأخر. أرجوك ان تعيد التفكير".

تأثر احمد كثيراً: "أشكرك يا أخي, سأظل دائما اعتز بصداقتنا, لكن يجب علي ان امضي في سبيلي. كلما طال انتظاري أصبح الأمر أصعب علي.. اشكرك يا غازي, أشكرك يا "تحمادا" اصلي لأجل ان تستعيدوا بيوتكم في الربيع".

امسك الإمام بلجامه وربت على منخر الفرس: "إذا كنت مصمماً على الذهاب, فاستمع إذن الى نصيحتي: "ابق في سفوح التلال حتى تعبر نهر اللابا. بتلك الطريقة سوف تتجنب القوزاق "الجاور". سوف تشاهد من هناك جبل البروز العظيم مشرفاً على كل شئ، اركب مباشرة الى قاعدة الجبل وعندما تقترب منها استدر شرقاً واتبع احد الأنهار المتعددة التي تنبع من القاعدة, فأي واحد منها سيقودك الى قباردا الكبرى".

أبقى احمد عينيه في عيني الإمام: "أشكرك على نصيحتك" وهو بذلك يشير ليس فقط الى إرشاداته ولكن أيضاً الى السهولة التي أراح بها العجوز ضميره.

انطلق احمد في رحلته وصوت الإمام العميق تترد أصداؤه بينما هو آخذ في الابتعاد. "اجعل الجبال العالية عن يمينك ولكن إبقَ في المناطق المرتفعة، تجنب السهول. كان الله معك يا احمد".

استدار احمد ليلقي نظرة أخيرة على البزادوغ. عندما وصل الى قمة السهل، أدار اصلان وشاب آخر ركبا معه الى هذه المسافة راسي فرسيهما لمغادرته, رفع اصلان قوسه فوق رأسه في إشارة النصر.

"عسى ان توفق في الصيد أيها القبرتاي" صاح قائلاً وبعدها انطلقا يعدوان بأقصى سرعة الى مخيمهما وبقي احمد وحيداً.

مضى في طريقه بينما مقادم فرسه تشق ضباب الصباح في حوامات كبيرة. أحس برعدة تنزل عليه بينما هو منكمش في سرجه، رعدة وصلت الى قلبه على فراق مثل هؤلاء الناس الشجعان الكرام.

***

تبدأ حياة نهر احمد, الكوبان, بجداول صغيرة ماؤها بارد كالجليد عند سفوح الجبل العظيم "البروز". وهي تستجمع زخمها في جريانها نحو الشمال لحوالي ثلاثين ميلاً قبل ان تصبح نهراً ذا شان، بعد حوالي عشرين ميلاً آخر يستدير النهر بحدة بزاوية يسار كاملة الى الغرب ويتسع أثناء مسيره في اتجاه شرقي.

هنا في نهاية المسار يصبح الكوبان هو "البشيج" الهائل لكل الأساطير والحكايات الشعبية الشركسية، وهو بذلك أعظم الأنهار القفقاسية.

يجري كوبان احمد مسرعاً متجاوزاً المعسكر الروسي الجديد, المبني قريباً من المكان الذي يغير النهر فيه مساره باتجاه الشرق. لم يضيع الجنرال سوفوروف الكثير من الوقت في العودة الى الجبهة الجنوبية. في الواقع انه سافر عائداً برفقة الجنرال كوماروف الذي يشاركه الرأي في مثل هذه الأمور، ولكن مع امرأة واحدة برفقتهما, هي الأميرة صونيا، اختارت زوجة سوفوروف ان تبقى في سانت بطرسبرج، شعر سوفوروف بالارتياح فهو هكذا يستطيع ان يتفرغ لواجباته بدون أي عائق.

استدار يخاطب الضباط المتجمعين في خيمته وانحنى الى الإمام محدقاً في خارطة الميدان وليس في الرجال.

"يتم تعليم كل المرشحين- وانتم أيضاً بدون شك أيها السادة- ان بطرس الأكبر هو الذي ولد الفكرة القائلة بأن الإمبراطورية ستكون بأمان فقط اذا كانت لدينا السيطرة على براغ" على سبيل الدعابه.

"كان علي كشاب صغير السن أن أحلم بذلك. إن أهدافنا في القفقاس هي في الحقيقة متواضعة جداً بالمقارنة" شعر سوفوروف بالألفة بين الجنود ولذلك تحدث بلهجة جافة خفيفة.

كان على وشك التوضيح عندما دخل مراسل مسرعاً إلى خيمة الميدان وسلمه بعض الرسائل.

توقف سوفوروف. مزق الخاتم الشمعي، فتح المظروف وقرأ الملاحظة الافتتاحية.

ثم أعلن برضى متزايد "أيها السادة، لدينا مباركة الجنرال بوتيمكين على خططنا".

استمر في مخاطبة الضابط الآخر الأشيب الشعر في المجموعة " أيها الجنرال ياكوبي، لقد تم إنجاز المرحلة الأولى من الخطة بسلاسة. بصفتك قائد جيش الكوبان، فقد تم تكليفك ببناء الخط الدفاعي من موزدوك إلى حصن ديميتري".

سلّم سوفوروف الرسائل إلى زميله المعين حديثاً

"هل لديك أية تعليقات، يا ياكوبي؟"

قرأ ياكوبي بسرعة، بينما استمر سوفوروف في مخاطبة الباقين. "ما يجب قطعه من المصدر، أيها السادة، هو أي تدفق محتمل للمساعدات إلى "الشراكسة" من تركيا".

تضيقت عينا سوفوروف عندما تحدث القائد ذو اللحية الرمادية بصوت عالٍ فوق كلماته الأخيرة، ليس مقاطعاً تماماً، ولكن ليس بالاحترام الذي كان يمكن أن يحبه. ولكن في نهاية الأمر فإن

ياكوبي سليل عائلة متميزة، بينما هو، سوفوروف, هو الأول في سلالته.

قاطع ياكوبي أفكاره قائلاً "هل سمعتني يا سيدي؟ لقد قلت بأنه لا يوجد هنا ذكر لعائلات القوزاق. ولكنني سوف أشجعهم على إحضار عائلاتهم والتحرك والنزول إلى هنا بشكل دائم. هل توافقني يا سوفوروف؟"

شيء ما في نبرة ياكوبي جعل سوفوروف يتخذ موقفاً عدوانياً.

"بشكل قاطع. اذا كنت تسمح لي بالاستمرار في إيجازي: سوف أبني خطاً مشابهاً من هذه النقطة على نهر اللابا، واتبع نهر الكوبان حتى الشاطئ. ستكون المرحلة التالية من عملياتنا هي بناء الحصون على طول شاطئ البحر الأسود للربط بين هذين الخطين. وهذا يتوافق بالضبط مع رأيي بأننا يجب أن نعزل "الشركس" عن أية إمدادات من الباب العالي. القسطنطينية: ذلك هو مصدر المشكلة.

"إنهم يذهبون إلى التجار الأتراك على الساحل لشراء ملح البارود والملح. بدون هاتين السلعتين سوف يخضعون".

توقف ليرى تأثير الاستراتيجية العسكرية على زملائه."سوف نضغط عليهم من الشمال ونضغط عليهم من الشرق" وضع سوفوروف علامات ريشة واضحة على الخارطة، لتوضيح تكتيكاته، وانطبقت قبضته الحديدية في الهواء فوق الخارطة. في غياب وجود تعليقات فورية يتم اقتراحها، استمر سوفوروف بزهو. وأنهى كلامه قائلاً: "سوف تسمى هذه المحطة "كافكاسكايا". وسوف نسمي المحطات الأخرى ونحن نبنيها".

تدخل ياكوبي، الأكبر سناً بقوله "سوف يعني ذلك حرباً أخرى مع تركيا، يا سوفوروف. أنت تعرف أن أنابا هي مرفأ تركي قوي. فهل سيكون ذلك جزءاً من خططك؟".

أجابه سوفوروف بثقة:" ومتى لم نكن في حالة حرب مع الأتراك؟ على أية حال هذه تقع ضمن خطط أخرى لن نبحثها يا ياكوبي. أنا فقط أريد أن يعرف هؤلاء الضباط الشباب الأهداف البعيدة المدى لنشاطاتنا العسكرية."

كان الجنرال كوماروف يصغي بتركيز. لقد تعمد أن يقرأ تقارير الاستخبارات بالتفصيل. لقد بدا أن التجسس كان سمة طبيعية بين سكان الجبال: رشوة جيدة ويمكنك أن تعرف قدراً هائلاً. إن بناء القصور في الهواء أمر حسن وجيد، لكنه عرف أن هذه الحملة لن يتم شنها بسهولة.

أشار إلى الخارطة قائلاً "هذه المنطقة، ما بين الكوبان واللابا، أعتقد أن بعض الشركس على طول هذا الطريق هم من القبائل القبارديه".

بدا سوفوروف متضايقاً من هذا الاستعراض الصغير للمعرفة القبلية. فهو نفسه يستطيع أن يلمس الفارق بين النوغاي, القالموق، الوبيخ, الشابسوغ، البزادوغ، والشيشاني، من مجرد نظرة. فهو يدرس أعداءه على الدوام.

"سوف تحصل لنا بعض المشاكل معهم، حسب رأيي"، أوضح كوماروف نقطته هذه بأقل قليلاً مما كان يقصده. هنالك، عنصر غير بشري حول سوفوروف: نقص في الدم، مما جعله يبدو هادئاً أكثر مما يجب، أكثر تخطيطاً. ومع ذلك، فقد كان كوماروف معجباً به.

"يا عزيزي كوماروف، ليس لدي شك بأن ذلك سيحدث: سيكون من واجبك أن تحمي أجنحتنا بينما نحن نبني حصوننا. على أية حال، فإنه مع تدمير قوة النوغاي، لا أتوقع الكثير من المقاومة من شراكسة الكوبان. ربما عقبات صغيرة، بعض الاشتباكات، لا شيء أكثر من ذلك".

كان كوماروف على وشك أن يناقش المسألة أكثر من ذلك، لكن الجنرال ياكوبي قام بإشارة سريعة لإنذاره بالتوقف. أصبح واضحاً لياكوبي أنه لا فائدة من الجدل مع سوفوروف، فإن الجنرال المحنك هو أيضاً قائد حملات محنك. لقد كان اللجام بين أسنانه. وقد حصل على مباركة بوتيمكين. وقد أضاف ذلك الوسام الجديد البراق على صدره شرارة أخرى إلى التحدي.

أدرك ياكوبي من معرفته بسوفوروف، أن هذا سيؤدي إلى التدمير الشامل "للعقبة الصغيرة" على طول الجزء المتعلق به من الخط.

لقد كان "الخط" نظيفاً ودقيقاً بقدر دقة الخط الذي رسمه قلم سوفوروف القاسي عبر الخارطة من موزدوك إلى حصن ديميتري. نظر ياكوبي عبر الغرفة إلى كوماروف بشيء من الإدراك لمخاوف الرجل. إن كوماروف ضابط محترف، ربما أكثر تدقيقاً في عمله مما ينبغي. لم يكن يحب أن يخسر ضابطاً واحداً إذا كان بإمكانه تجنب ذلك. لقد كانت حملة القفقاس قذرة حسب معاييره: الكثير جداً من القنص والكمائن, ولم يكن فيها ما يكفي من الحرب الأصلية بتشكيلات كتائب منظمة يحملون بيارق الجنود عالياً فوق رؤوسهم.

ما لم يكن قادراً على رؤيته أو فهمه هو أن القفقاس كان ميدان تدريب دائمياً لأعظم جيش في الدنيا، بوجود مصدر صحي من الخصوم ذوي النفسيات الرائعة لجعل العمل رياضة ممتعة. تلك كانت رؤية ياكوبي للوضع.

لم يضيع سوفوروف الوقت في مجاملات مثل أحسنتم صنعاً أو حظاً طيباً، بل قال: "أيها السادة، لدي رسالة يجب أن أكتبها، أقترح أن تعودوا إلى وحداتكم".

أنحنى ياكوبي بأناقة إلى قائده الأعلى رتبة وأسرع خلف كوماروف الذي سبقه خارجاً من الخيمة. ارتدى قفازيه ولف معطفه الصوفي السميك حول كتفيه، ثم نادى "كوماروف".

استدار الجنرال الأصغر سناً عائداً.

"الطقس اللعين شديد الرطوبة قرب النهر في الليل. عد معي إلى مقري، فقد وصلني براندي فرنسي للتو. تناول معي كأساً" تمشى الرجلان خارجين سوية جنباً إلى جنب. "اخبرني ببعض ما يجري في ايكاتيرينوجراد. انا افترض انك ستعود إلى هناك في الصباح، أليس كذلك؟"

ضحك كوماروف "نعم، انا عائد أيها الجنرال، هناك كازينو وفندق محترم: ليست الحضارة بعيدة جداً هذه الأيام"

"لكنها ليست سانت بطرسبرج!"

لم يشأ كوماروف أن يعلق على هذه الملاحظة "يا عزيزي ياكوبي، لمجرد أنني لا أفضل المذابح الجماعية لا يعني القول بأنني أصبحت ليناً"

ضحك ياكوبي على رد فعل كوماروف السريع، ومشى الرجلان سوية إلى مقره، يتشاركان في مزاح ودي حول الطريقة الصحيحة لإزاحة السكان الأصليين المزعجين جانباً.

***

الفصل الثالث

إذا كان أحمد قد تحمل الصعوبات في المرحلة الأولى من رحلته, فقد كانت تلك الصعوبات مجرد إزعاج بالمقارنة مع المرحلة الثانية. لأنه بمجرد أن غادر وادي البزادوغ, انخفضت الحرارة بسرعة. لقد أصبح مترفاً وهو ينام في خيمة الضيوف, أعادت ليلته الأولى تحت النجوم بعض الصلابة إلى جسمه, فقد أيقظته زخة من المطر في الساعات الباكرة تحولت بحلول الفجر إلى انهمار لا يعرف التوقف. سحب "البوركا" فوقه, وهي المعطف السميك المصنوع من صوف الغنم والذي لا يغطي جسمه فقط بل حتى جانبي فرسه أيضا. قلبها بحيث أصبحت أزرارها عند عموده الفقري, انحنى إلى الأمام في المطر, وحافظ على صدره وبندقيته بحالة جفاف.

تحولت الأرض الصخرية إلى مستنقع, وبدأت فرسه تلهث, وتتنفس بصعوبة بينما أصبح الهواء أخف. في الليلة الثانية خيم أحمد تحت نتوء صخري وقص قطعة من لحم الفخذ الباردة اللزجة, وهو يفكر بسلطانيات الباستة الطازجة وصلصة اللحم الساخن.

وهكذا أستمر في ارتحاله, يوما بعد يوم, حتى أصبح مقتنعا بأن سلسلة جبال القفقاس لم تكن قلعة جيدة البناء بقدر ما هي متاهة من صخر الجرانيت. فقد ارتفعت واجهات الصخر عالية وحادة, أو سقطت بعيداً في المزيد من الأودية الضيقة التعيسة.

مرت عدة أوقات جلس فيها أحمد ساكناً كما الصخر فوق فرسه, بينما قلبه يخفق في صدره عندما يدرك أنه تائه. وقتها

يخفف من قبضتيه على السروع وهو يتلو صلواته, ويترك لفرسه قارا أن تختار الدرب الأفضل.

كان يكرر لنفسه وقد أذهله التعب والجوع والخوف "أتصرف كما لو كان عندي أيمان".

استطاع أن يحصي ستة, سبعة, ثماني ليالي. لقد تقلص فخذ الخروف إلى العظم والعروق. رماه في جدول, ولم يسمع قرقعته, فقد كان سقوطه بتلك الدرجة من العمق. فرغت أكياس الفواكه, وعاد ليعتمد على ماء المطر وعجينة الذرة. مع بدء صعوده أعلى في الجبال, لم تكن هناك حتى شجرات توت بري ذات أشواك قد بقيت لتدعيم جعالته اليومية.

استيقظ أحمد في بداية الأسبوع الثاني من رحلته وهو يشعر بتصلب أكثر من العادي.

لا عجب! فقد تساقطت فوقه بطانية سميكة من الثلج خلال الليل فاندفن بالكامل تحتها. كانت رقبته مبتلة, في الفسحة الوحيدة التي لم تحمه فيها البوركا. تصلبت أثناء النهار ياقة سترته التشيركيسكا بفعل الجليد وبدأت تحتك بجلده, لم يتمكن من النوم في تلك الليلة, لان جلده الملتهب آلمه ومنعه من النوم.

انفراج صغير! كانت صخور الجرانيت في هذه الجبال الأكثر ارتفاعاً متشققة بمداخل وكهوف. قضى إحدى الليالي ملتفاً إلى جانب نار صغيرة مدخنة. وقفت فرسه ترتجف إلى جانبه, ولم يتسع المجال إلا لنوم قارا وأحمد يكاد يرقد تحت حوافرها.

غمغم أحمد لنفسه "البقرة لا تدوس على عجلها....." وحلم بشقيقته افواسا وهي تصب عليه الحليب الطازج من إبريق كبير. استيقظ ليسمع الثعالب تحوم وتعوي بينما ينهمر على وجهه شلال من المطر. قضى الشطر الأخير من تلك الليلة صاحيا, والبندقية جاهزة للإطلاق لإبعاد الثعالب, لان النار لم تكن تشتعل بما يكفي من البريق لإبقائهم بعيداً عنه.

انقضت ثلاثة أسابيع, أم أنها كانت أربعة....! لقد فقد العد. جل ما يعرفه هو أنه يجب أن يستمر في الركوب شرقاً, يوماً بعد يوم, مفتتحاً دروبه الجديدة في الوحل والثلج حتى ترغمه العتمة على البحث عن المأوى لقضاء الليل. "أين بحق الشيطان هو الجبل العظيم؟ أين هو البروز؟ ليس له مرأى". بقيت عينا أحمد المحمرتان تحدقان إلى الأعلى في السحب السوداء الطافية, المحملة بالمزيد من ماء المطر أو الثلج الناعم. لا شيء. لا شيء.

في النهاية لم تعد الرطوبة ولا الجليد يزعجان رقبته, فقد طال شعره ونمت لحيته بما يكفي لسد الفجوة.

لقد أصبح أحمد أشعث الهيئة مثل أي مخلوق يعيش على هذه الإرتفاعات: عملاق آدمي كثيف الشعر بعينين محدقتين ولكنهما لا تبصران "ما أريده هو منقل, أيها النارتيون, أيها النارتيون, لا تدفعوا به إلى النهر....".

تمنى لو أنه يستطيع الصيد مثل الحيوان. إذ لم تكن أسلحته التي هي من صنع الإنسان ذات نفع له هنا.

شاهد مرة غزالاً يعبر وادياً وسقط عن فرسه من الحماس. زحف على بطنه إلى الأمام وهو مغطى بالثلج ليأخذ وضعيه الإطلاق, ساحباً بندقيته في نفس الوقت من تحت "البوركا".

أطلق النار. جاءت طرقة المسمار بلا فائدة بسبب الرطوبة, وارتدت الطلقة غير المؤذية عبر الوادي ولم يصدر عنها سوى الصوت الخفيف "تيك" مما أجفل الغزال بحيث هرب. ألقى أحمد برأسه في الثلج من الإحباط, وتجمدت دموعه على وجهه كأنها قناع.

مرت أسابيع عديدة أخرى تجول أحمد فيها في الجبال في أسوأ الأحوال الشتوية الممكنة. تعلم أن يحافظ على حياته, أن يدافع عن نفسه ضد الذئاب والوحوش الكاسرة. تعلم كذلك أن يتصيد بأي شيء متوفر لديه. بدأ يستعمل قوسه ووجد نفسه يصنع أسهماً بدائية

مصنوعة من الصوان والعيدان القاسية. سرعان ما أصبح قادراً على تدعيم طعامه باللحم: بأرنب أو أحياناً بغزال. لأن الجبال تمنح الكثير من الطعام لأولئك الذين يستطيعون أن يكشفوا أسرارها. أصبح أحمد رجلاً جبلياً ذا تجربة وأصبح منظرة كذلك. وحده الاستحمام الطويل في نبع بركاني حار, حينما كان يجد أحدها, حافظ على شكله نصف متمدن.

قرر في إحدى اللحظات بأنه قد ضاع في البرية لدرجة اليأس. كل ما استطاع فعله هو الاستمرار في الركوب بالاتجاه الشرقي والأمل في أن يتعثر بمنابع الأنهار, وهي العلامات الوحيدة التي يعرف أنها يمكن أن تأخذه إلى القباردا. في أحد الأيام ركب صعوداً خلال حرش شاهق وخرج منه إلى هضبة وعرة تلتف حول قسم من صخرة بيضاء. كان على يمينه حاجز يستحيل المرور من خلاله, وعن يساره عمق رهيب. استمر في سيره إلى الأمام بينما الممر يضيق حتى انتهى بشكل مفاجئ لدى شرفة صغيرة فوقها كتلة هائلة من الصخر ترتفع فوق خط الثلج. أحسَّ أخيراً أنه فوق قمة هذه الجبال العملاقة, ولكن أين هو البروز؟ أصبح بإمكانه أن يشاهد المزيد من القمم المدببة الأعظم على ارتفاعات أعلى, لكن أحداً منها لم يطابق وصف البروز ذا القمتين. بدت الغيوم والضباب تحته وكأنها تفصل احمد عن الأرض. بقي على تلك الحافة لأكثر من ساعة وهو يستكشف الآفاق, يحمي عينيه المتعبتين بيده المتيبسة, آملاً أن يشاهد لمحة من الأنهار في الأسفل. لكنه ظل يحدق في بحر الغيوم والضباب الذي كان ينقشع أحياناً ليكشف عن غابات كثيفة والمزيد من الصخور البيضاء الناتئة.

في يوم آخر, بعد أسبوعين, انزلق عبر حافة صخرية مغطاة بالجليد الخطر, وكالعادة ظل يمد عنقه ليرى أين هي القمم, هناك في الأعلى خلف الغيوم المتلوية بالثلج الأبيض. لا شيء. بدأ يرمش بعينيه وقد أذهله البريق ثم نظر إلى الأسفل. استغرقه الأمر بعض الوقت حتى أدرك بان الشريط الذي يتلوى كأفعى يمنةً ويسرةً إلى

شمال الحافة لم يكن جليداً يلتمع، ولا هو ممر نهر جليدي، بل هو مجرى مياه غير متجمد.... إنه نهر.

"لابد وأنه الباخسان... لا.... يمكن أن يكون التيريك... لقد تجاوزت البروز بدون أن أراه! التيريك! لقد وصلت!.

غلبه الإرهاق. ترك فرسه تسير على هواها، كان هناك طريق واحد عليه سلوكه، وهو إلى الأسفل، فوق الجليد والشجر المكسر، حتى وصل إلى شجيرات الشوك، وبعدها إلى العشب ذي السنابل وفي نهاية الأمر إلى العشب ذي الأوراق الذي التف على حوافر فرسه.

هنا كان الثلج قد بدأ يذوب وامتلأت رائحة الهواء بعطور الربيع.

تفرق الثلج إلى الأسفل عند السهل النهري مشكلاً جزراً صغيرة، كأنها غيوم منعكسة تتحرك فوق سماء من السرير الأخضر. وبينما هو يتجه نحو سفوح التلال... أحس أحمد بمعنوياته ترتفع، والأمل يعود إليه.

دوّى صوت طلقة، وأحدث صداها انفجاراً في المدى. يبدو أنه في تسرعه نزل إلى مدى منخفض أكثر مما يجب، ونسي بذلك تعليمات الإمام. استجمع كل ما لديه من طاقات ليعود حاد الذهن ومتيقظاً للخطر. أدار فرسه نحو مرتفع صغير ونظر إلى الأمام بحذر.

بدا له درب مطروق بكثرة. عند المنحنى وعلى بعد حوالي مئة ياردة إلى الأمام، شاهد رجلين ضخمين من القوزاق يضربون رجلاً محلياً ضرباً مبرحاً يكاد يزهق روحه. والرجل راقد على الأرض بلا حراك بينما تمعن أحذيتهم الثقيلة ضرباً في قفصه الصدري ومعدته. انحنى أحد القوزاقيين فوقه ليسحب عنه رداءه السميك – فهم يحبون أن يحصلوا من هجماتهم على غنيمة أو اثنتين.

وقفت عربة الرجل الجبلي خلف الرجال, وقد وقف الثيران الأربعة الذين يجرونها بين عرائش العربة غير مدركين وهادئين تماماً, بينما انهمكت مطيتا القوزاقيين في قضم الحشائش النامية على أطراف الممر المحاذي لهما بمنتهى عدم الاكتراث.

لكن فرس أحمد استقرأت المشهد بالسرعة التي فهمها هو. اندفعت قارا إلى الإمام بدون الحاجة إلى الضغط من كعبي أحمد. هجمت مثل الريح بحركة غاية في السلاسة حتى أن أحمد استطاع أن ينهض في سرجه ويسحب سيفه الشركسي الهائل بحركة قوسية واحدة من ذراعه. إنقض على القوزاقيين قبل أن يتمكنا من جذب النفس أو حتى الاستدارة نحوه. طوح أحمد سيفه باتجاه رأس "الجاور" الأول بكل القوة الغاضبة الكامنة فيه. انبثق الدم من جرح الرقبة حتى ضمّخ فرسه قليلاً أثناء اندفاعها مروراً به. كانت هجمة أحمد عنيفة إلى درجة أنها حملته بعيداً عن المجرمين واضطر إلى جذب عنان الفرس بقوة حتى يتمكن من الاستدارة. مما أعطى القوزاقي الثاني الفرصة ليمسك ببندقيته ويعبئها استعداداً للإطلاق.

إستحضرت كل أعوام أحمد في التدريب في تلك الهنيهة. لفَّ ساقاً حول الوسادة المرتفعة في مقدمة سرجه ومال إلى الجانب بكل قوته, ممسكاً بسيفه كأنه رمح في قبضته الحديدية. استهدف الرجل الثاني وكأنه عربة شياطين حربية. أسقطه بضربة واحدة هائلة, قاذفاً بالبندقية بعيداً عن قبضته, وقد أفرد يديه الاثنتين على إتساعهما بحركة استسلام حين اصطدم بالأرض. قفز أحمد عن سرجه أثناء تحليق فرسه من فوق الجثة, أدخل سيفه وبقر به بطن القوزاقي على اتساعه. أحس بالحرارة, وقبل ذلك كان يشعر بأنه يكاد يتجمد, وبدا فجأة وكأن أشهر البرد الجليدي لم يكن لها وجود مطلقاً. طفق قلب أحمد يخفق بقوة النصر وهو واقف فوق جثتي "الجاور" وشتم بكل المرارة التي أختزنها في قلبه طيلة هذه المدة.

هذا أول قتل يقوم به: ما كان يدور بخلده انه يمكن الإحساس بالمجد والقرف على التوالي. لقد أشعرته الجثتان الثقيلتان المشرعتا الأطراف في أوضاع مغلوطة, بالغثيان.

لاحظ أحمد فجاة أن قبعته ملقاة على الأرض, أزال عنها الأتربة وأعادها إلى رأسه. ظل الرجل المضروب على رقدته الساكنة. ربما قد مات هو الآخر. يا لها من طريقة فظيعة للموت. شعر أحمد فجاة بالتعب إلى درجة أنه لم يعد قادراً على الوقوف وأخذ يرتجف مثل ورقة شجر.

ركع إلى جانب الرجل المضروب الذي كان راقداً في منتهى السكون وعيناه مغمضتان. عندما وضع رأسه على صدر الرجل, شعر أحمد بالارتياح لسماعه دقة قلب منتظمة.

ما العمل؟ بدأ أحمد بأن حمل الرجل ومدده داخل العربة. أسرع عائداً إلى المعطف السميك – ذاك الذي انتزعه القوزاقي – ولاحظ للمرة الأولى وجود بركة من الدماء حيث كان الجسم ممدداً. لقد وجدت الرصاصة التي سمع صوتها في وقت باكر هدفها في كتف الجبلي. التقط المعطف وأسرع إلى العربة حيث لفه بأشد ما يمكنه من إحكام حول الرجل للحفاظ عليه دافئاً.

لم يكن هناك شيء يمكنه عمله لإيقاف نزيف الجرح في هذا المكان المكشوف. لأنه حيث وجد إثنان من القوزاق, فمن المؤكد وجود المزيد. كان من المحتم الابتعاد بأسرع ما يمكن. أحس أحمد بشعور غير عادي إذ قذف به في النشاط بعد أسابيع من العزلة. لم يستطع أن يتوقف ليفكر, فقد كان مندفعاً عالي المعنويات مع انطلاق التوتر.

فقد تسبب العمل الانتقامي في تحرير روحه من آخر آثار الشعور بالذنب والحزن.

سحب جثتي القوزاقيين واحداً تلو الآخر نحو مؤخرة العربة وحملهما إلى داخلها. فك البوركا الثقيلة عن سرجه وغطى بها

الجثتين: وهو يفكر أن الأفضل هو إخفاؤهما عن الرؤية. انتزع قبضة من الشجيرات الشوكية وأخفى بها كل انبثاقات الدم على الطريق: كانت الدماء قد بدأت تتجمد وتتحول إلى قطع سوداء جافة لا بد وأن يراها جنود القوزاق ويشكون في أمرها. وذلك ما أكسبه قليلاً من الوقت.

سمع أحمد وهو يقوم بربط فرسه إلى مؤخرة العربة صوتاً خفيضاً - قفز قلبه - وتخيل لجزء من الثانية يد جندي ترتفع لتمسك بخناقه. لكنه كان الجبلي الجريح, يحاول أن يرفع رأسه بحركة ضعيفة. أسرع أحمد صاعداً إليه, وابتسم الرجل في امتنان.

"آه - آه" لكن الكلمات اختنقت في نوبة من السعال. وعندما مال الرجل إلى جانبه من قوة السعال, شاهد احمد الثقب الأسود النازف من كتفه.

"لا تحاول أن تتكلم - فقط أشر اليَّ - هل أنت أديغه؟"

بدا وجه الرجل خالياً من أي تعبير. لم يستطع أن يفهم كلمة مما قاله أحمد وبدت عيناه وكأنهما تبحثان في وجه أحمد عن إشارة, توكيد بأنه على الأقل صديق, وليس عدواً.

أمسك احمد بذراعه مطمئناً. فالرجل يستطيع أن يستشف كل شيء من نبرة الصوت في الحالة الطارئة: تحدث, غير مبال بأن لغتيهما كانتا مختلفتين.

"لا تقلق أيها الصديق, سأبقى معك."

استرخى الرجل: ظن أحمد لوهلة أنه يغيب عن الوعي, لكن الرجل كافح مرة أخرى, وهو يصدر صوت غرغرة من حلقه.

لم يشأ أحمد أن يضيع المزيد من الوقت. فقد تحتم عليهما الخروج عن الطريق, لذلك وضع يداً محذرة على فم الرجل.

"لا يتحتم عليك أن تتحدث, فقط أومئ برأسك إذا كان أي شيء مما أقوله يشكل لك ما يمكن فهمه..." قال ذلك وهو يشد على ذراع الرجل بقوة حتى يبقيه واعياً. كافح الرجل لترديد كلمات غير قابلة للفهم, جعلت أحمد يهز رأسه نفياً لدى سماعها. لقد كان جهداً ضائعاً.

"انا لا أعرف ما الذي تقوله. يجب علينا أن نخرج من هنا" تلفت أحمد حواليه يائساً.

"أين هو الاتجاه؟ أهو صعوداً في الطريق أم نزولاً. في أي اتجاه تقع قريتك.... ؟ الآول, الآول, بأي اتجاه؟"

حل الصفاء بالعينين اللتين جمدهما الألم لهنيهة, وارتفعت يد وهي تشير.

كرر أحمد قوله "آول" ؟ "آول"؟.

أومأ الرجل برأسه وابتسم ابتسامة واهنة. إن بينهما على الأقل كلمة واحدة مشتركة: "القرية" أشارت يده المرفوعة إلى صعود الطريق.

جلس أحمد على طرف لوح القيادة وجمع السروع في يديه. بات صعباً عليه أن لا يضرب الثيران بالسوط ويحثها على الإسراع قدماً, لكنه إذا فعل ذلك, فقد يفقد الرجل الكثير من دمه, ويموت.

ومع ذلك, فإذا أوصل الرجل إلى بيته, حتى على شكل جثة, فإن العائلة إذا كانت من الاديغه, ستكون ممتنة إلى الأبد, فإن التخلي عن جثة ما بدون إقامة مراسيم الدفن هو أسوأ مأساة يمكن أن تحل بمثل تلك العائلة.

تعجب أحمد لفترة قصيرة مما إذا كانت نساء القوزاق تشعرن بذلك الإحساس أيضاً. نظر من فوق كتفه, كانت البوركا قد انزلقت عن إحدى الجثتين بسبب حركة العربة.

لم يظهر القوزاقي كعدو له, ولا حتى كرجل. كان رأسه مضمخا باللونين البنفسجي القاني والأسود, كتلة من شيء تشوه –لا يشبه الحيوان في شيء, فكر أحمد, لان الحيوان القتيل يعني زاداً للعشيرة بشكل عام. مال إلى الخلف ليشد المعطف ويغطي به البشاعة. مشت الثيران ببطء وثبات وبدون أن ينتهرها حتى استدارت نحو طريق منحدر, وقد عرفت الطريق إلى بيتها. كان احمد أكثر من سعيد لخروجه عن الطريق الرئيس. عندما اصطدمت العربة بحفرة مفاجئة في الأرض, تأوه الرجل الجريح.

"لقد كدنا نصل بمشيئة الله" صاح به أحمد وهو يضرب الثيران بالسوط بعصبية حتى يحثها على الاستمرار في التحرك.

استمر طاقم الثيران يتمايل ويتدافع خلال الشجيرات الكثيفة والصخور والنباتات الملتفة إلى أن ظهرت فسحة من الأرض السهلية بشكل مفاجئ – تمتد مابين جبلين بقمتين بيضاوين, بعد المنحنى. وقف دغل من أشجار القضبان الجميلة مثل الحراس أمامها. هنا شاهد قرية جبلية صغيرة نظيفة معتنى بها, عامرة بأصوات الحياة العادية غير المتناغمة: ضحكة طفل, ثغاء ماعز, ضربات امرأة تقوم بسحق الذرة في ماعون خشبي في زاوية ما.

بيوت حجرية مسقوفة بالقش, أكوام من الثلج في الساحة الوسطى, فتاه بسترة من الفرو تنشر الثياب وقد أقعى عند كعبيها كلب شرس. لكن هؤلاء الناس ليسوا شعباً لطيفاً واسع الترحاب مثل البزادوغ. أحس أحمد بطعم عدائي في الجو جعل وجهه يكفهر وقلبه يبتئس. هؤلاء الناس جبليون بهيئات رثة ووجوه ناحلة, حدقت عيونهم السوداء البراقة في عينيه بشعور من الشك المجرد.

أسرعت النسوة بإخلاء الأطفال, نهض جمع من الرجال كانوا مستندين مع غلايينهم إلى جدار سخنته الشمس وحملقوا فيه, بدون كلام.

تقدم شابان من العربة, وقاما بنزع الامان عن بندقيتيهما التركيتين القديمتين محدثين فرقعة تنذر بالخطر. خرج العديد من الرجال من بيوتهم وقد تسلحوا كلهم بالبنادق والسيوف والمسدسات والمِدى وكلها موجهة نحو أحمد.

جلس أحمد بمنتهى الهدوء وقد قبضت يداه على السروع, مرفوعتان إلى الأعلى بشكل واضح, ثم أدار رأسه ببطء باتجاه الرجل الجريح. كان الرجل ما يزال فاقد الوعي ولم يستطع أن يساعده. لم يكن القوزاقيان باديين للعيان تحت "البوركا". ما كان هذا الوضع ليقدم صورة تبعث على السرور. قفز جبلي إلى جانبه وشاهد الجسم. نادى بصوت عالٍ, واضح انه صرخ باسم الرجل الجريح: استطاع أحمد أن يفهم ذلك المقدار.

"حمزات!" وتلا ذلك تيار من الكلمات, اندفع الرجال والنساء نحو العربة, صعد شخص آخر إلى العربة ووضع رأسه على صدر حمزات ليرى إن كان ما زال يتنفس.

بعد المزيد من التعليمات غير الواضحة من شخص عنيف يشهر سكين صيد رهيبة المنظر: تم إنزال الرجل بحرص عن العربة, تلا ذلك اكتشاف القوزاقيين الميتين: بعد ذلك الاكتشاف جاء المزيد من الصراخ. قبل أن يبدأ أحمد حتى بتمثيل حقيقة أنه قد قتل "الجاورين", أمسكت به الأيدي الخشنة وسحبته عن لوح القيادة وألقت به إلى الأرض, ضغطت سكينة الصيد على قصبته الهوائية بحيث أنه لو تكلم لانفلق جلد رقبته.

هدر صوت عبر الميدان. وقف أحدهم عند مدخل البيت الذي ادخل فيه الرجل الجريح حمزات. استطاع أحمد أن يلمح بطرف عينه رجلاً مسناً يلبس الرداء الداكن الطويل للملا..

الحمد لله, هذا قائد.

ارتفعت السكين عن حلقه, وبصق أحمد اللعاب الذي كاد يخنقه.

ولكن, وبعد المزيد من التعليمات من رجل الدين, تم الإمساك بعنف بيديه إلى الخلف وتقييد معصميه بحبل وسحبه على الأرض إلى كوخ حجري آخر.

"أنا أديغه...! إنني قباردي...! أنصتوا إلي - أنا لست عدوكم...! اقسم أنني قد ساعدت رجلكم...!"

وقعت كلماته على آذان صماء. لم تكن هناك فائدة ترجى. تجاهله الملأ وعاد إلى داخل بيته. رفع المَزلاج عن قبو الكوخ الحجري والقي بأحمد إلى الداخل ورأسه إلى الأمام.

اصطدم كتفه عندما استقر بجرار حجرية مصفوفة فوق بعضها بعضاً.

"أقسم بالله أنه كان علي أن أتركه ليموت....!" شتم أحمد بكراهية شديدة في الظلام ورفس الآنية.

تلفت حواليه برد فعل غريزي, باحثاً عن مصدر للضوء, ليرى إن كان بمقدوره أن يتنفس, ثم يستكشف أية وسائل متاحة للهروب. سرعان ما ألفت عيناه الظلمة وأصبح بإمكانه أن يرى انه في مستودع شتوي مملوء حتى نصفه بجرار وأكياس من أشكال دهنية مكومة فوق بعضها. الماء يدلف إلى إحدى الزوايا, مشكلاً بركة داكنة كريهة الرائحة.

شعر أحمد بالبرد وبالغضب. "البوركا" ما تزال في العربة. بدأ أحمد يضرب الأرض برجليه ويصدم الجدار بكتفيه ليحتفظ بحرارة جسمه, ويشتم بكل أنواع السباب والبذاءة التي سمعها في حياته. ليس من المنطق أن يكون قد قام برحلته المتعبة هذه لينتهي به الأمر وقد حزت رقبته في قرية جبلية مغمورة. لن تعرف عائلته أبداً ما حل به. لن يكون هناك أحد ليتلو الصلوات فوق قبره.

أدرك أحمد بمزيج من الخوف والارتياح أن مثل هذه الإجراءات مهمة بالنسبة له فقد تغلبت رغبته في العيش بمقتضى

"الخابزة" على شعوره بالمرارة والتشكيك. بدا الأمر له وكأنه قضى ساعات طويلة واقفاً في الزاوية المظلمة أو مقعياً على عقبيه, وأحياناً يقفز على قدميه ليحافظ على نشاط دورته الدموية, وفي كل الأوقات يخلط صلواته المحمومة بشتائمه.

انسحب المزلاج عن الباب الأفقي فجأة إلى الخلف بصوت حاد. رمش أحمد بعينيه في الضوء الساطع المباغت. ظهر أمامه رجل: طويل القامة, حسن المظهر, يعتمر طاقية شركسية جميلة مزنرة بفراء الثعلب وعليه سيماء رجل يمتلك السلطة وليس ثائراً.

"أيها الأخ... هل أنت اديغة؟ هل أنت تفهمني...؟"

لقد تحدث بلهجة القباردي! غمر الإحساس بالارتياح والانفراج جسم أحمد كله, نهض على قدميه ببطء غير مصدق... فقد تكلم الرجل الغريب بلسانه بطلاقة.

"أنا... نعم... أنا أديغه, والحمد لله – لم أسمع لهجتي الأصلية منذ أسابيع... بل منذ أشهر...! أنا أحمد من الكوبان"

"إن إسمي هو مراد. أنا من قباردي التيريك. انا آسف لما حدث هنا. الأمر لا يتعدى سوء الفهم... ولكن دعنا نخرجك من هنا, من هذا المكان البغيض."

خرج أحمد من القبو وهو يتعثر خلف منقذه. تجمع جمهور من القروين الجبليين واقفين في ميدان القرية, واستمروا في مراقبتهم باعلى درجات التشكيك. تحدث مراد إليهم بسرعة بذلك الخطاب الحنجري السريع الذي ميزه أحمد, تماماً مثل الرجل الجريح.

كان "مراد" هذا أكبر منه سناً, بحوالي خمس أو ست سنوات, لم يتصرف بطريقة التباهي غير المصطنعة التي يمارسها صديقه البزادوغ, غازي. كل ما يتعلق به ينطق بسيماء رجل تدرب على الزعامة. وهو أحد أكثر الرجال الذين قابلهم أحمد في حياته وسامة: عينان عسليتان, بشرة شقراء, قامة طويلة, لان كل الاديغه طوال

القامة, وليسوا في مثل ضخامة جسم غازي, بل إن أجسامهم صلبة ذات تشكيل جميل بفعل التجارب. أما صوته فهو الأعذب والأكثر جاذبية في إيقاعاته من كل ما تذكر أحمد سماعه - لذلك بدا الأمر كله غير متطابق مع المحيط المتواضع. فإن مراد يجب أن يكون جالساً على وسائد حريرية في أحد إجتماعات مجالس حرب القباردي وليس مصدراً الأوامر في موقع جبلي بائس.

تقدم في هذه الآونة الشاب العنيف الذي كان قد ضغط بالسكين على رقبة أحمد واستعمل نفس السكين ليحز بها الحبال التي تقيد ذراعيه. دفع بالقاما إلى حزامه كأنما ليشعر أحمد بأنه ليس مقتنعاً كلياً بأنه صديق وليس عدواً.

تجاهل مراد هذا التصرف الخالي من اللياقة وقدم الشاب ومقاتلاً آخر صغير السن إلى أحمد بإشارة تصالحية بيديه المفتوحتين.

"هذان الرجلان هما ولدي وجيهين من هذه القرية. أقدم لك كوير وأرسبي. أنت الآن بين الشيشان..."

الشيشان...! أدرك احمد أنه كان ينبغي عليه أن يعرف. فالشيشان هم من أشرس شعوب القفقاس وأكثرها إستقلالية. إن منطقتهم كثيفة الغابات وتؤوي العديد من الآلهة الذكور والإناث المعروفين عبر جميع مناطق الاديغه من الحكايات القديمة, وأدرك أنه ذو حظ عظيم إذ بقي على قيد الحياة.

قرأ مراد الإدراك في عيني أحمد الواسعتين "يعتذر هذان الشابان عن تصرفهما. الشيشان كما تعلم شعب حاد المزاج... إن الشاب الذي أنقذت حياته هو الابن الوحيد للملا. ولك أن تتخيل غضبهما على رؤيته بتلك الحالة...."

فرك أحمد معصميه وابتسم في امتنان وكثير من الاحترام - لكوير وأرسبي "إنها معجزة أن تم الإبقاء على حياتي, فقد اقتربا كثيراً من الإجهاز عليَّ."

" لقد تعافى الرجل الجريح, حمزات, بما يكفي لان يخبر أباه بما حدث. يريد الملاّ العجوز أن يكرمك شخصياً."

بدأ مراد بفتح الطريق لأحمد عبر ميدان القرية, وهو يشرح أثناء ذلك أنه شخصياً يعيش في قرية أخرى وأنه تم استدعاؤه ليعمل كمترجم, في حالة ثبت أن أحمد أديغه.

توقف أحمد في مكانه مقاطعاً "أنا لا أستطيع أن أقابل الملاّ بهذه الوضعية". فما زالت قطرات من دم القوزاق التي بدات تجف تملأ سترته "التشيركيسكا" وشعره ملبداً نتيجة أسابيع من الإهمال في الجبال.

اعترف أحمد "صحيح أن الشيشان يفضلون اللحى... لكنني سأخجل من أن يراني أحد بهذا الشكل" ومسح بظاهر يده عبر ذقنه الشائكة.

ابتسم مراد متفهماً "هكذا هو القباردي, يدقق في الاعتبارات الاجتماعية! "لأول مرة منذ سنوات شعر مراد برابط مألوف, مريح, بينه وبين هذا الرجل الأشعث الأصغر سناً. أصدر بعض الأوامر إلى أرسبي, ثم فسّر ما قاله إلى أحمد بالشركسية.

"لقد أخبرته ليدلك على الطريق إلى بيت أنسبائي هنا. سوف يرحبون بك. لقد طلبت أيضا أن يتم إحضار فرسك وحاجياتك إلى هناك".

سرعان ما وجد أحمد نفسه في مسكن حجري واسع, ويقوم على خدمته أصغر أعضاء العائلة سناً.

أحضر له يافع في حوالي الرابعة عشرة موسى حلاقة, مرآة تركية, أباريق من الماء, بحيث نزع ملابسه ونظف نفسه بأفضل مما كان عليه منذ أسابيع. شعر بنفسه انه احمد الحقيقي مرة أخرى, وقد خرج من تحت طبقات القذارة والشعر التي سببت له الحكة.

يا للشعور - المفرح بالحياة! بامتلاك جلد مشدود, وعضلات قوّاها الركوب المستمر لأسابيع طويلة, قوّس ظهره وأحس بقوة جسمه الفتي - حراً خالياً من الندوب, صحيحاً - وارتدى ثوباً نظيفاً.

بينما هو يرتدي ملابسه لاحظ وجود فتاه جميلة ذات عينين رماديتين تنتظر عند الباب لتحضر له بياضات وغيارات نظيفة. كان الخرجان في سرجه قد فتحا, وهي تتفحص جمال شغل الإبرة, والتطريز بالفضة والذهب على سترته "التشيركيسكا" الإضافية وردائه الطويل. فقد كانت النساء من جميع القبائل هن اللواتي ينسجن الصوف ويشغلن الحواف الكثيرة من القصب لرجالهن.

رفعت رأسها إليه في فضول كأنما تود أن تسأله "من هي التي صنعت لك هذه الزركشات الراقية, أيها الأديغه الوسيم؟ هل هي أمك, شقيقتك... أم ربما حبيبة قلبك؟

أتمنى لو كنت أعرف...! "

التقت عيناهما, تباطأت نظراتهما الفاحصة كل على الآخر. لم يتضرج خدا الفتاه ولا هي حرفت عينيها عنه كما توقع أن تفعل. ما كانت فتاه من الاديغه لتجرؤ على أن تحدق في عينيه مباشرة بهذه الطريقة. ابتسمت بصراحة محببة دخلت إلى قلبه الخالي بدون إستئذان.

كانت مرتدية فستاناً بسيطاً وسترة بلا أكمام من جلد الخروف الناعم, وقد أسبلت شعرها الطويل بدون أن تغطيه. ربما يكون حضور قريبها الذكر الأصغر سناً, يمسك بمرآة الحلاقة لأحمد, قد شجعها ولكن أحمد لم يعتقد بذلك. إن الأمر الأكثر احتمالاً هو أن للصبية الشيشانية المنحدرة من أسرة ذات شأن تمتلك أكثر من —ما هي الكلمة التي يمكنه استعمالها؟ إن هذه الأمور غير معروفة لأحمد - أكثر من الحريات من أية صبية قباردية.

لم يتمكنا من تبادل مجرد كلمة تحية لبعضهما البعض. تحتم على الأفعال أن تتصرف بدلاً من الكلمات.

أفردت ملابسه على أريكة قريبة إلى جانبه, وهي تمسّد الجزء السفلي من ردائه بيد حانية.

تصرفت كأنما هو لا يلاحظها, لكنها عرفت, بهدوء تام, أن عيني أحمد قد تعلقتا بثبات بكل حركة أتت بها. قلبت الياقة ومررت أصابعها برفق داخل الحافة المطرزة.

كان إيحاء إشارتها أنثويا بما لا يترك مجالاً للخطأ, ومع ذلك بريئاً من أي إيحاء جنسي.

حتى أن أحمد هو الذي احمرّ وجهه.

أصيب بالاضطراب. كم مرة قام على خدمته أناس في بيوت أديغه آخرين؟ ولم يحدث ولو لمرة أن سمح لنفسه بأن يشعر في لحظة ما برغبة غير لائقة.

كان انطباعه الكامل عن هذه الفتاه يحمل معاني الخفة والحرية. عيناها الرماديتان الفاتحتان, تلويح الضفيرة البنية الناعمة على ظهرها, الدوران السريع لمعصمها وردفيها أثناء انحنائها إلى الإمام ثم ارتدادها بنفس السرعة إلى الخلف, مما جعل نهديها العامرين يميلان ويرتجفان. لقد استغرق الموقف كله أقل من بضع ثوانٍ، ومع ذلك فقد شعر أحمد أنه شهد واحداً من أكثر المشاهد إثارة في حياته كلها. فقد وقع في الحب.

غادرت الفتاة الغرفة. أكمل أحمد زينته واغتساله, شذّب لحيته, وفرك الزيت في وجهه الذي لوحته العناصر, كما ضمّخ شعره بقليل من الدهن الشرقي. وقد زاد وجود قليل من المسك وكبش القرنفل فيه من اضطراب حواسه, فقد هجم العديد من المشاعر المكثفة من خلال صدره الفتي ليوم واحد. عملية قتل, ثم احتجازه ومقابلته لشخص من قومه, والآن, هذه, امرأة رغب في إحتضانها.

لم يكن هناك أي حنان في حياه أحمد لمدة طويلة جداً. فقد أرسل بعيداً عن بيته وهو طفل في الخامسة, حتى يربيه "الاتالق". لقد ترك أمر اختيار مثل ذلك الرجل المهم, المدرب, الأستاذ المثقف إلى عمه الأمير. فهذا الرجل "الاتالق", في سن السبعين, وما زال ينهض من نومه عند الفجر, يستحم في الجدول الجبلي ذي الماء المثلج ويعسف الخيول مثل رجل في عنفوان شبابه. وقد تعلم أحمد منه فنون الحرب وكل ما يجب معرفته عن الفروسية. كذلك تعلم منه الأنضباطية وضبط النفس.

إن عادة الاتالق أو الأبوة بالتربية للأولاد صغار السن, قديمة قدم الاديغة أنفسهم, وكان الهدف منها مضاعفاً, فهي تخلق وشائج القربى بين الأفخاذ المختلفة من القبيلة.

لقد كانت هذه ممارسة دبلوماسية مفيدة في أواسط شعب يحارب على الدوام وبشكل شعائري. إذ أن الذهاب إلى الحرب يكاد يكون رياضة بين الاديغة, وهو حتماً أسلوب في الحياة.

كانوا يسمونها "زيقوه" وهو ما يعني "الركوب" ولكن الركوب هنا كان دوماً لغاية حربية أو لغزو.

ولكن مع بدء تقدم الروس, دافعين بمرتزقتهم القوزاق داخل مناطق الاديغه, فقد أصبح نظام الاتالق يحقق فائدة ثانية. فقد أبقى الرجال المقاتلين في كل القرى في حالة استعداد دائم للحرب, بدون أن تسبب لهم القيود العاطفية أية تعقيدات.

لقد عانت أم أحمد وجدته, بدون شك. ولكن كذلك تعرف كل نساء الاديغه أن تضحيتهن تضمن استمرار القبيلة في الحياة. وعندما عاد احمد, قبل بمجرد سنتين كمقاتل شجاع, فقد أحب نساء عائلته بقوة أكبر مما لو انه قد نشأ إلى جانبهن, وبشكل خاص شقيقته أفواسا, بذكائها, وقوة شخصيتها, ولسانها الذرب فقد كانت امرأة تستحق الإعجاب.

طوى احمد "البوركا" النظيفة حول جسمه, كأنما هو يخبئ بين ثناياها العميقة هذه الأفكار المتعلقة بالماضي. تستحق أن تغلف, وتترك في العتمة.

بعد احتكاك اليوم بالموت, أصبح لديه الدافع الأقوى لأن يتخلى عن دواخله, ويمضي في حياته.

دله الفتى اليافع على بيت الملاّ. كان مراد ينتظره خارج الدار.

غمغم قائلاً: "إن دمهم يغلي, فقد تجاوز القوزاق حدهم هذه المرة. أظن أننا سنقوم هذه الليلة بالتخطيط للانتقام."

مع أن الصالة كانت مريحة بفضل العديد من الوسائد وبعض البسط الراقية, إلا أنها كانت تفتقر إلى التجهيزات الحربية التي أعجب أحمد بها لدى البزادوغ. فقد كانت هذه تمتاز بجو من البساطة البالغة التي تلائم الحماسة الدينية لصاحبها.

الملاّ رجل مسن قوي الشكيمة يصعب تقدير سنه بسبب لحيته المسترسلة التي وخطها الشيب. عيناه تلتمعان ولكن إيماءات جسده مقيدة ومسيطر عليها. اصطف إلى جانبه آخرون من كبار القرية, بما فيهم حمزات الذي اسند إلى الوسائد وبدا شاحب الوجه.

بينما أنهمك الكبار في حديث متحمس, جلس الملاّ بعينين نصف مسدلتين, يغمغم بلا صوت, مركزاً على مسبحة صلواته.

عندما دخل مراد وأحمد, ران صمت مرحلي على المجموعة, وقاموا جميعهم إكراماً للضيف الذي أنقذ حياة حمزات. كان أحمد مدركاً لكونهم يعيدون التفكير في رأيهم فيه, خاصة وهو يقف الآن أمامهم في ملابس أكثر لياقة به كنبيل من الاديغه.

إلا كوير وأرسبي, فقد وقف هذان خلف كبارهم, يحدقون فيه بأسلوب لا يخلو من التحدي.

تكلم مراد باللغة الشيشانية ثم ترجم لأحمد.

هذا هو صديقنا أحمد, وإنه شركسي قباردي وهو من منطقة الكوبان في الغرب".

صافحت يدا أحمد عدة أكف صلبة معروقة بشدة تكسر العظم, بينما طفق مراد يتحدث بسلاسة, مترجما بين الرجال بدون أي جهد يذكر.

"لقد شرحت له سوء الفهم الذي حصل, إنه لا يحمل لكم أي ضغينة على الإطلاق". طلب مراد من أحمد أن يجلس إلى جانبه.

انحنى رجل في حجم عملاق يرتدي ثوبا اسود إلى الإمام وتحدث إلى مراد بعدائية, وهو يضرب بيده على ركبتيه.

"هو يقول أن من غير الاعتيادي لقباردي أن يتواجد في هذه الأنحاء, وأننا محظوظون".

قاوم أحمد الإغراء بأن يبتسم على طريقة الرجل الفجة في التعبير عن الامتنان.

انطلق الحديث بين المجموعة. بدأت أذنا أحمد تألفان وقع اللغة الشيشانية فيه وأستطاع أن يخمن بأن موضوع الحديث الرئيس هو كيفية ذبح بعض "الجاور".

ألقى الملا بخطبة شكر. التقت عينا احمد بعيني حمزات. أحنى الشاب رأسه بحركة اعتراف وشكر.

"ما فعلته اليوم يا أحمد يجلب الكثير من الشرف لقبيلتك, ذلك هو ما يرغب ملانا في أن أقوله لك. أريد أيضاً أن أقول كم انا سعيد لان أساعد قبارديا آخر..." تجولت عينا مراد حول المجموعة وهو يصف الرجال لاحمد." ذلك الرجل المرتدي الثوب الأسود. إنه يدعى إلدار, وهو والد كوير, لقد شاهدته يركب جواده بأقصى سرعته, يقفز إلى الأرض, يطعن قوزاقيا ويعود إلى القفز على

ظهر جواده بدون أن يغير من سرعته. ذلك الرجل الآخر "وأشار إلى رجل مسن ذي لحية رمادية –" إنه صلة وصلنا بالأتراك. هو واحد من أفضل مهربي الأسلحة في هذه الأنحاء. وذاك الآخر – رجل لطيف الوجه في ثلاثينات عمره, يصغي إلى الملأ بانتباه – " إنه أحد أفضل الجواسيس عندنا. اسمه أتي. إنه يتحدث الروسية بطلاقة ويدخل ستا نيتزاتهم القريبة من هنا ويخرج منها بمختلف أنواع التنكر. لقد استطاع حتى أن يعيد بيع بعض البنادق التي سرقها من الروس إلى أمين الإمدادات والتموين الروسي في كيزليار!".

قال أحمد: "ما كنت أعرف أن القوزاق قد اخترقوا البلاد صعوداً إلى هذا الحد".

"هم لا يصلون إلى هنا بشكل عام. فهم ليسوا بارعين في حرب الجبال, بينما الشيشان جامحون ومتحايلون كأنهم الماعز. لن يخضع الجاور بلاد الشيشان أبداً. ستكون حرب إبادة إذا هم حاولوا...! ".

وزع أحمد نظره حول الصالة إلى الوجوه التي كانت قبل لحظات غريبة معادية له. بدأ يرى معدن هؤلاء الناس بمساعدة مراد. إن شراستهم هي المظهر الخارجي لإحساس عميق بالكبرياء والانتماء الوطني. ربما يكونوا ميالين إلى التخاصم ومن السهل استفزازهم, لكنه أصبح منذ تلك اللحظة يشعر بان الشيشاني إذا صادقه فسوف يكون محمياً طيلة عمره.

كان الناس يسألون حمزات للمرة العاشرة لكي يعيد قصة هجوم القوزاق ولكنه لوح بيده ليقول انه اكتفى من ذلك, وأنه يريد فقط الاستمتاع باللحم الطيب وصحبة منقذه.

كان لا يزال يبدو شاحباً لكثرة ما فقده من الدم.

الماعز البري, وهو من أطايب بلاد الشيشان, يتصاعد منه البخار ممتزجاً بروائح البهارات. خيار مخلل, أزهار الكوسا المحشوة بالأرز, وعجينة زلابية مغلية لم يستطع احمد أن يفهم تركيبها, كلها كانت أطعمة غير معروفة لأحمد, لكنه تذوقها ووجدها لذيذة كلها. استفسر من مراد عن العجينة ذات الطعم الغريب فشرح له مراد أن هذا هو الطبق القومي عند الشيشان, ويدعى "جينيش" قدمت عدة فتيات أباريق من عصير الفواكه ونوعاً من المشروب الذي يشابه الباخمسه ذات الرغوة إلى الكبار.

وقفت بنفسها هناك... أمامه, ملأت له كأسه حتى الحافة, وبينما هي تفعل ذلك تلامست أصابعهما.

تهاوت قدرة أحمد على السيطرة على نفسه وتحول لونه إلى الأحمر القاني.

غمغم قائلاً "البهارات في هذا الطبق حارة جداً" لمراد الذي كان قد ألقى لمحة خفيفة على شعائر الحب المغرقة في القدم هذه.

ابتسم مراد ابتسامة رقيقة "إنني أعيش بين هؤلاء الناس منذ ثلاثة أعوام. لقد تزوجت إحداهن– فتاة من هذه القرية – ولدي الآن طفلين صغيرين – النساء هنا رائعات. إنهن يتمتعن بنفسيات أكثر انطلاقاً من بنات الأديغه".

لم يكن احمد يصغي كلياً إلى خطبة مراد. فقد كانت عيناه تلاحقان الفتاه حول الغرفة, ولاحظ أنها همست بألفة في أذن الملا. استرخت يدا رجل الدين على ذراعها بنوع من التملك, ونظر إلى احمد, وعيناه تضيقان.

شاهد مراد كل شيء. وأدرك انه قد حان الوقت للمزيد من بعض الدبلوماسية. هو يعرف أن الملا سرعان ما سيطلب تقريراً عن انطباعه عن هذا الغريب الشاب, لذلك فالأفضل أن يعرف المزيد عنه.

فبدأ بقوله "كلانا بعيد عن وطنه".

"نعم, نحن كذلك, لماذا اخترت أن تعيش هنا, هل بلاد القباردا قريبة؟" سأل احمد.

"ليست القباردا بعيدة جداً. إنها على مسيرة ثلاثة أيام ركوباً, أما بالنسبة للسبب, فتلك قصة طويلة سوف اشرحها لك في وقت آخر. يكفي القول أنني سعيد جداً هنا. هؤلاء أناس رائعون يا احمد, وأنا على ثقة انك ستكتشف ذلك".

غمغم أحمد قائلاً: إنهم حتماً مختلفون..".

"لديهم خابزة شبيهة بعاداتنا. لكن ليس لديهم أمراء, لديهم قائد ديني على الدوام, مثل الملاّ."

"هل هناك الكثير من الشيشان في هذه الجبال؟ "

"نعم, ربما بقدر كل القبارديين. هنالك مئات القرى مثل هذه. وحتى بلدات كبيرة, مثل كيزليار".

كان احمد يصغي بنصف انتباه. غادرت الفتاه الغرفة فشعر احمد وكأن الصالة كلها قد أفرغت.

"لا أمراء لديهم؟ وكيف يمكن أن يكونوا أمة, كما تقول, بدون أمراء يجمعونهم إلى بعض...؟ "

"إنهم يكرهون الجاور. وذلك يوحدهم" كان تفسير مراد مختصراً بأناقة, إذ هونَ من أمر الانفجار العظيم للثورة الذي كان يعرف انه قريب الحدوث. لم يكن صديقه الشاب مهتماً بالسياسة في هذه اللحظات بالذات...

عادت الفتاه تحمل الحلويات الممزوجة بالعسل. تفحصت الطبق وهي واقفة إزاء أحمد ثم أدارت الطبق بحيث أصبحت القطعة الأكبر مواجهة له. تناولها أحمد وغمغم بعبارة امتنان.

كم إلتمعت عيناها عند سماع نبرة صوته! تمنى أحمد أن يكون صوته رجولياً - مع أنه لم يأمل بأن يقلد مراد, الذي تسيل نبراته كما العسل. كان يحسده: الفصاحة صفة محببة بين الأديغه القباردي - شعر بالمقارنة أنه صغير جداً وغير مصقول. ماذا يملك حتى يقدمه؟ لا شيء. لا بيت,لا ارض, لا شيء.

استدار مراد وبدأ الملا يستجوبه. ما بين تقديم أطباق الطعام, عمل مراد كوسيط واستطاع أن يرضي فضول الرجل المسن. شرح له حياة أحمد الماضية في الكوبان. رحلته عبر منطقة البزادوغ, ونيته في الوصول إلى قباردا الكبرى.

في إحدى فترات المحادثة, قال لأحمد "يا للهول, هل تعرف إلى أي درجة كنت تائهاً في الجبال؟ لقد تجاوزت القباردي بمسافة ركوب لثلاثة أيام على الأقل, لقد عبرت كذلك خلال بلاد الأساتين".

ضرب احمد على جبهته "لقد فكرت في ذلك الاحتمال! لقد تعرضت لبعض العواصف الرهيبة... تناقصت كميات زادي, ولا بد أن اعترف أن الأمر كان شاقاً. ولم أقابل أحداً من الأساتين أيضاً. نظرت قبل يومين إلى الأسفل وشاهدت نهراً طويلاً متعرجا يجري خارجاً من الجبال باتجاه الشمال. أي نهر يمكن أن يكون كذلك؟

"لا بد وان ذلك هو نهرنا, نهر تيريك القباردي. انه ينبع من الجبال إلى الشرق من هنا. إن الجبال التي نحن فيها تدعى "خاضالكي".

نهر التيريك... لقد تاه عن جبل "البروز".

"إذن لا بد وأن يكون العثور عليه مرة أخرى وأتباع مجراه للوصول إلى القباردي أمراً سهلاً". قال احمد.

"ليس بالسهولة التي تظنها. بمجرد أن تنزل عن الجبال, تصبح عرضة للاصطدام بالمزيد ممن قابلتهم اليوم. بالإضافة إلى ذلك لا تجعلنا نتحدث في أمر مغادرتك يا احمد".

سأل مراد مقترباً, وجعل اتجاه نظرته أحمد يدير رأسه. كانت الفتاة الرمادية العينين واقفة بالباب مع رفيقة لها, وهي تنظر اليهما بترقب. عرف مراد ما تخططان له – فقد رأى زوجته تفعل الشيء نفسه معه قبلاً. كانتا تنتظران منه أن يلتمس بعض العذر لنفسه ليغادر ويخبرهم بكل التفاصيل التي قام بجمعها عن "الغريب الوسيم".

أشغل احمد نفسه بالطعام في محاولة لأن يظهر هادئاً. ضحك مراد وهو يجد الأمر مسليا.

"أنت بالكاد وصلت. استمتع بضيافة الشيشان.. ومن يدري, فربما تجد لنفسك حياة هنا تعجبك كثيراً."

فكر احمد بكلمات مراد, وكم هو غريب أن ينجذب إلى البقاء, هنا من بين كل الأمكنة. إن حياة الشيشان مختلفة جداً عن المعيشة الرعوية السهلة في سهول الكوبان. فالقرية قد نحتت من منحدر صخري لديه كل الأسباب ليخشاه, بعد مغامراته في الأصقاع المتجمدة في الأسابيع الأخيرة. ومع ذلك, فإن روحاً من الرفقة تسود هنا, غياب محبب للتعامل الرسمي نال إعجابه. كبداية, أراد أن يتعامل مع الشابين كوير وارسبي ويجعلهما يحترمان رجلاً من أديغة الكوبان. هما لا شك ما كانا ليحترما شخصاً مثل زوج أخته "الورق البسلاني". فالواضح أن السلطة بين الشيشان يتم اكتسابها ولا يتم توارثها.

في هذه الأثناء, نهض الملاّ وبدأ يلقي خطبة رسمية في الترحيب بأحمد.

ترجم مراد "إن لديه هدية خاصة يريد إعطاءها لك, كرمز على تقديره العميق لما فعلته. هذه الهدية هي في طريقها إليك من

بلاد فارس... ستصل بعد بضعة أيام, ولذلك ينبغي علي أن أخبرك بأن تبقى كضيف علينا, حتى يمكن ترتيب أمر التسليم".

استمر الملاً في الحديث, ابتسم مراد لأحمد ابتسامة دافئة: "إنه يقول ما أردت قوله بنفسي, أنت مرحب بك هنا, يريد منك أن تصبح واحداً منهم كما فعلت أنا, وسوف يعطيك أرضا زراعية وحيوانات, وهي بداية جيدة. لقد أنقذت حياة ابنه وهو لا يمكن أن يقدم اقل من ذلك...". انتشرت موجة من الدهشة والتهاني في أرجاء الغرفة. قفز المسن ذو الرداء الأسود واقفاً, حمل احمد عالياً واحتضنه إلى صدره بقوه خطفت منه أنفاسه.

أنقذ مراد أحمد "يجب أن تقول شيئاً ما. إنها" الخابزة "عندهم... قل على الأقل انك ستفكر في الأمر".

أجاب أحمد بسرعة "بل سأقول أكثر من ذلك, أرجو أن تخبر الملاً العظيم أنني أشكره على كرمه الذي لا يمكن وجوده إلا لدى شعوب القفقاس العظيم, وأنني سأكون سعيداً جداً بقضاء بعض الوقت هنا والتفكير بمبادرته الأخوية".

بينما كان مراد ينقل رسالته (مع بعض الإطالة, مما دفع أحمد إلى تصور انه كان يضيف العديد من المجاملات الأنيقة من اختراعه) أصبح احمد محاطاً بكبار الشيشان, وكل واحد منهم يرغب في إضافة مباركه إلى مباركة الملاً. وقف أحمد على رؤوس أصابعه ليرى من فوقهم إن كانت البنات قد علمن بهذا التطور. لمح رأسين أشقرين خارج الصالة مباشرة, وقد أحاطت أذرعهما برقاب بعضهما بعضاً, يرقصون في دوائر من فرط السرور.

حال مراد بين أحمد ومعانق آخر مغالٍ في عاطفته "لن أتركك لتبقى في هذه القرية. يجب أن تبقى معي كضيفي. سوف اخبر الملاً, إذا قبلت أنت".

أوما احمد برأسه موافقاً. فهذا الترتيب يناسب خططه بشكل كامل. إذ يمكن أن يستخدم أفضل ما لدى مراد من جهود كوسيط لدى عائلة الفتاة التي أحب. فإن من أفضل تقاليد الأديغه أن يبقى على مسافة ويكون لديه مرسال ليمهد الطريق.

الواضح أن لمراد مرتبة رفيعة بين الشيشان ولا يستطيع أحمد أن يفكر في توصية اكبر بقباردي أكثر من هذا الرجل المتميز الوسيم.

قوبلت كلمات مراد بغمغمة عامة من الموافقة. غمز بعينيه بينما هو يشرح لأحمد: "لقد أخبرتهم أن صعوبتك مع اللغة تجعل الأمر أسهل علي لأكون مضيفك".

أخليت موائد الطعام في ثوانٍ, وأصبح بالإمكان سماع صوت امرأة يدوي خارج الباب وقد انطلقت تنشد بلازمة أغنية مرحة, وسرعان ما شكل الكبار وأقاربهم الذكور الأصغر سناً حلقة في الغرفة وهم يصفقون في إيقاع منضبط. دخلت عدة فتيات شابات صفاً داخل الحلقة, مشكلات حلقة داخل الحلقة, بينما قفز الشاب, ارسبي إلى الوسط.

اختفت الحواجب المظلمة والشفاه المنبسطة المعبسة لسجان أحمد السابق. إذ صارت عينا ارسبي تشعان دفئاً مع حبه للرقصة. كان ساقاه ملفوفين في حذاء بجلد ناعم أسود, وقد ترك القدمان بدون نعل لإعطاء الفارس قبضة اشد على فرسه, ولهذه المناسبة, أخف الحركات الغزلية السريعة.

بدأ ارسبي يدور أمام الفتيات, رأسه وكتفاه منتصبان إلى الخلف, وهو يغريهن واحدة تلو الأخرى, لمصاحبته في الرقص. رفضته الفتاة ذات العينيين الرماديتين بابتسامة, لكن رفيقتها دخلت إلى الحلبة بشوق, وتناور الجسمان الشابان في سلسلة من الخطوات الدقيقة, الفتاة متحفظة وارسبي يتقافز مثل حصان مقاتل. لم يكن

هذا الرقص يختلف كثيراً عن الرقصات التي يؤديها أبناء شعبه في مثل هذه المناسبات, مما زاد في سعادته.

بينما كان الراقصون يتمايلون ويدورون, وضيوف الملا يصفقون كلهم على إيقاع "الجيغابشين", طفق احمد يبحث عن الفتاة الرمادية العينيين في أرجاء الغرفة. ابتسمت, وامتلأ قلبه بالأمل أن لا يكون خياله الجامح فقط هو الذي يجعله يفكر أنها راغبة في الرقص معه, ومعه فقط.

في وقت متأخر من تلك الليلة, أرشد أحمد إلى فراش في منزل أنسباء مراد, فقط كان الوضع شديد الخطورة على سفر الرجلين إلى قرية مراد في الليل, بالنسبة للظروف الراهنة, فمع فقدان اثنين من القوزاق, فإن "الستانتزا" في السهل تحتهم سترسل دوريات إغارة لمضايقة الشيشان حتى يتم تسليم الجنديين أو العثور على جثتيهما.

لم يتوقع أحمد أن ينام بعمق, فقد حدثت له أمور كثيرة في اليوم الفائت بحيث كان عقله يضج بالمعلومات والذكريات. لكن الراحة التي وهبتها الوسائد المحشوة بالريش وأغطية فرو الخراف تغلبت على كل العوامل الأخرى. فقد اضطر مراد إلى هزه في الصباح الباكر لليوم التالي.

"يريد حمزات أن يتحدث إليك قبل أن نغادر. سوف أساعدك في الاستئذان بالمغادرة."

عبرا الساحة إلى منزل الملا. حتى قبل الفجر بكثير, كان القرويون الشيشان قد باشروا أعمالهم. استطاع أحمد أن يسمع آذان الملا الشجيّ, وهو يدعو الجميع إلى الصلاة. مرّ الشيشان مسرعين, وهم يطرحون تحية الصباح, واستطاع أحمد أن يرد عليهم بكلمات مثل "يوم سعيد" أو"الحمد لله" التي تلفظها له مراد.

بدا حمزات باهت اللون ضعيفاً, لكنه لم يكن محموماً. لقد تلقى ضرباً مبرحاً وجرح لكنه لم يكن بحاجة إلى المزيد من العناية.

عرض الغرز التي خيطت خلف عظمة كتفه على أحمد ليحظى بإعجابه بها.

قال أحمد "هذا جرح بحالة جيدة, من الذي يطببكم هنا؟".

شرح مراد "كان لدينا رجل من التركمان ظل ينتقل بين هذه الجبال لسنوات. وكان يمتلك موهبة الإشفاء من الله, وليس من غيره, بدون رقى, بدون عرافة مثل ما تحصل عليه من هؤلاء العابرين. لقد قتله القوزاق في الصيف الماضي, ومنذ ذلك الوقت, تتدبر النساء الأمور."

"لقد كانت أمي, رحم الله روحها, تعتني بكل واحد في قريتنا أيضا. حسناً, يا حمزات, أنت على طريق الشفاء".

مد أحمد يده مصافحاً, والتقطها حمزات بقوة ليظهر إمتنانه, وابتسم, لحظتها أدرك أحمد الشبه, نفس العيون الرمادية الفاتحة اللون, نفس الشعر الناعم الحريري البني الفاتح اللون. إن الفتى الذي أنقذه هو شقيق الفتاة التي أحب.

"ابنة الملا..! لم يستطع أن يغالب التعبير عن آماله. إنه يهدف إلى الأعلى. مثل هذه الفتاة لا يمكن تزويجها إلا بعد دفع مهر مذهل.

ضحك مراد "لقد تمكنت من فهم الأمر! إن شقيقة حمزات تدعى تسيما. لقد رأيتك ترنو إليها في الليلة الماضية. إنها جميلة."

كرر أحمد وراءه بحرص "تسيما".....

استند حمزات في مجلسه بقوة حين سمع اسم شقيقته, بدون أن يرخي قبضته المشدودة على يد احمد. ألقى مراد نظرة العارف, يرجوه أن يشرح للغريب عادات الشيشان. إنه معجب بهذا الرجل بعمق وأنه يرغب في اعتباره من ضمن أصدقائه. فهم مراد الموقف.

"يتحتم عليك أن تخطو بخفة زائدة بين هؤلاء الناس وبحذر شديد في مسائل القلب. إن أقل تصرف يسيء إليهم, وكما سبق ورأيت, إنهم ذوي مزاج حاد".

ثم قال مراد لأحمد "لا تتكلم عن شقيقته أمامه أو أمام أي من عائلته. سوف اشرح لك "الخابزة" المتعلقة بهم لاحقاً".

أومأ احمد بالموافقة. وبنفس الطريقة المفاجئة, إنطلق حمزات يدردش مهتاجاً مع مراد, وهو ما يزال يحتفظ بيد أحمد طيلة ذلك الوقت. ربما كان السبب هو التأثير المتأخر لتجربته المريعة, إذ لا يمكن أن يكون السبب هو الإتيان على ذكر شقيقته... اغرورقت عينا حمزات بالدموع وارتعش كل جسمه. جعلت طباعه أحمد يفكر بالفلو العربي الأصيل, شديد العصبية وحسّاس, وبمنزلة أرفع من العاديين, وبحاجة إلى التعامل الحريص.

"ما الذي يقوله ؟".

طمأن مراد صديقه الجديد "إنه يريدك أن تعرف بأنه تواق إلى صداقتك ويريد منك أن تبقى. يجب أن نغادر الآن. فهو بحاجة إلى أن يستريح".

بمجرد أن أصبحا خارج الباب, خفض مراد صوته "لديك حليف هناك يا أحمد. لقد قال حمزات أنه سيسره كثيراً أن تكون "مالخا" له. لكن عليك أن تسمح لي بان أرشدك في هذا الأمر, إن كان مقدراً له أن يتطور إلى ابعد من هذا".

كان لكلمة "مالخا" صدى غريباً. تخيل بعد كل المتاعب التي تحملها مع نسيبه, أن يقوم بذلك الدور في حياة شاب آخر! أقسم احمد بأنه إذا سنحت له الفرصة, فسوف يقوم بواجباته بشرف بالمقارنة. فبالنسبة للأديغه, فإن"المالخا" قرابة غاية في الأهمية, وهي تفرض شروطاً والتزامات في مثل جدية ارتباطات الزواج نفسها.

ذكّر حمزات أحمد بنفسه بعض الشيء – ولكن في وقت طويل قبل هذا. ربما لم يكن وقتاً طويلاً بعدد السنين, وليس أكثر من ثمانية عشر شهراً, حين كان مقاتلاً صغير السن غير ذي تجربة, وعنده والدين وصهر جديد على العائلة: تأمل إن يصبح محمد شخصاً يمكن أن يثق به ويتطلع إلى الإقتداء به.

كان أحمد يرغب في اقتناص لمحة من تسيما أثناء مغادرته ومراد بيت الملا, لكنها لم تظهر للعيان. مع عودتهما إلى منزل أنسباء مراد, كانت الأفراس قد أسرجت ومضيا في طريقهما مصحوبين بالعديد من أمنيات الخير والبركات.

***

كان الجنرال يتمطى كسلاً بين الملاءات الكتانية الناعمة في سرير فرنسي, بينما يجهز الخدم له الحمام. كان هذا آخر يوم له في البيت. إنه يحب ايكاتيرينو جراد, ولكن ليس للأسباب التي يحدس بها الجنرال ياكوبي: لم يكن يتحول إلى النعومة. صحيح, لقد أمضى سنوات عديدة في القفقاس على الجبهة وكانت فترات الاسترخاء مرحباً بها دائماً. البلده في موقع جذاب, في مكان مرتفع من سلسلة تلال تواجه الشمال نحو الوطن الأم روسيا وتشرف على نهر المالكا. تمر بحالة ازدهار لان وصول قيادة الجيش الروسي وتوافد القوزاق قد حولها من قرية موحلة إلى مركز مهم للتجارة والسياسة. معظم البيوت أبنية تتألف من طابق واحد ومبني من الخشب, ولكن في الساحة الرئيسية, هناك بضعة بيوت قليلة مبنية حديثاً, لديها طوابق علوية وواجهات حجرية. لقد كانت المستوطنة تتمدد إلى شكل خماسي: جانبان منها محميان بارتفاع ذي هوة عميقة حادة, والجوانب الثلاثة المتبقية مدافع عنها بمتاريس, حفر, وثلاثة خطوط حربية. لقد كانت ايكاتيرينو جراد عصية على الاختراق.

فقد كانت موقعاً أساسياً يتحتم على الروس الاحتفاظ به, فالبلاد التي حولها, أراضي خصبة جداً إلى الغرب باتجاه بياتيغورسك وشرقاً حتى وادي نهر تيريك, سمى التتار هذه البلاد "بيش تاماك" أو الأفواه الخمسة, لوجود الأنهار الخمسة التي تقطع سهولها المنتجة وتجري لتصب في نهر التيريك الجبار وهي أنهر:

الباخسان, المالكا, الشيجيم والتشيريك. كان موقع ايكاتيرينو جراد فوق مكان العبور الرئيس, والذي كانت الماشية تقاد إليه عبر النهر ويحتفظ بها لحلول الربيع حين تناقص مياه الفيضان الجليدية وتصبح سهلة قليلة الغور بما يكفي لعبورها. من يسيطر على ايكاتيرينو جراد يسيطر على مظاهر الحياة في سهول الشراكسة.

يمتلك الجنرال كوماروف واحداً من البيوت الخشبية الفخمة التي لها شرفة, في مركز البلدة حيث يسكن معه زوجته وولده. ومدرس ابنه هو خريج جامعة سانت بطرسبرج, وتحب زوجته أن تلعب بالورق وتشرب الشاي القفقاسي القوي الطعم في الكازينو الروسي الصغير، لقد أصبح يشاهدهم أقل من السابق بعد أن ترفع إلى رتبة عميد مما كان يراهم عندما كان عقيداً ووضع أسس مؤسسته. على أية حال, فقد كانت زوجته تتسلى بصحبة الضباط العزاب الآخرين من اللواء عندما يكون متغيباً: وكان يثق بها. هي رائعة الجمال وأميرة, وهي امرأة عرفها منذ أيام الكلية الحربية في موسكو. لقد كانت أذكى من أن تتصرف بطيش. كانت مكافأته على إخلاصها هي كرمه الزائد, فقد جاءت إلى هذا الزواج بلقب ولكن بدون مزيد من الثراء. أما الآن, فإن الأميرة صونيا تملك بالمقارنة أفضل مجموعة من الألماس في القفقاس, وبيتاً مفروشاً بمستوردات فرنسية راقية.

صحيح أن ايكاتيرينو جراد لم تكن سانت بطرسبرج ولكنهما كانا يعيشان بأسلوب متميز. ربما كانت الأميرة صونيا تحب أن تكون سمكة كبيرة في حوض صغير: وربما لكونها فارسة متفرغة

تفضل أيضا حرية الركوب لساعات طويلة في القفقاس. لم يكن الأمر يهم كوماروف طالما ظلت هي قانعة.

لم يمنع الاحتلال الروسي القدوم والذهاب العاديين للتجارة في القفقاس, فالقالموق, الأتراك, القبارديون, الروس, تتار النوغاي, الشيشان والقرشاي جاؤوا جميعاً إلى ايكاتيرينو جراد للمتاجرة كما فعلوا على الدوام. في الواقع وبحسب ما كان يراه الجنرال كوماروف, فإن حملة بوتمكين الجديدة قد زادت التجارة. فقد تواجد تجار الخيول, تجار السلاح, الأطباء, تجار التموين, خبراء تصليح الأسلحة, أصحاب المواخير, وساد البلدة جو من الازدهار التفاؤلي.

لقد تم إرسال كوماروف إلى فيلق الجبال كمرشح من سانت بطرسبرج, وقد خدم مدته في لواء سلاح الفرسان حتى ترفع إلى رتبة نقيب, وقد أمضى أكثر أيامه السلمية كشاب في اصطياد سمك الترويته الثلجي من منابع الكوبان. في تلك الأيام كان صاحبه وخادمه هجيناً من القرشاي يحمل ندبة سيف بشعة شقت خده, ذو لسان لا يوصف من شدة قذارته, ويتمتع بدهاء مجرم بالولادة.

كل المواطنين الأصليين كانوا على السجية, هذا ما تعلمه كوماروف منذ زمن بعيد. وكان لدى هذا الشخص, هاشم, كلب سلوقي جميل يتبعهما أينما ذهبا. تعلق كوماروف بشدة بالكلب إلى أن خسره القرشاي في لعبة قمار بالورق في إحدى الليالي. قال هاشم أنه قرشاي الأصل, وانه كان يجيد التحدث بالروسية إلى درجة اعتباره من الشمال, ولكن من يستطيع أن يعرف الحقيقة, فقد كانت القفقاس قدراً تذوب فيه اللغات والأجناس. لقد كان المظهر النمطي الوحيد في شخصية هاشم من جبليي القرشاي هو ولعه الشديد بالعرافة. فقد احتفظ بإحدى وأربعين خرزة في جيوبه وظل يلقي بها هنا وهناك في أكوام صغيرة حتى يتخذ قراراً في أي مسار لهم يتخذه للعمل. فإذا حصل هاشم على الرسالة الخطأ؟, فهو لا يتحرك حتى يحصل على فال مختلف. وذلك مما جعل الحياة صعبة: أن تأمر القرشاي بالتحرك عندما يكون مأخوذا كان مثل

إسقاط غابة من البلوط لوحدك. لكن كوماروف تعلم عبر السنين مقداراً معقولاً عن الجبليين من هاشم واستطاع أن ينمي في نفسه احتراماً لهم.

مع مرور الوقت وترفيع كوماروف, اختار أن يبقى في المنطقة رافضاً العروض بالانتقال إلى جبهات أكثر وجاهة. لقد أمضى سنة على الجبهة البولندية لكنه اشتاق إلى قفقاسه وأقسم ألا يغادرها مرة أخرى أبداً. بذل جهوداً مضنية لتعلم ما يكفي من اللغة الشيشانية حتى يستطيع أن يفهم ما يقوله مترجمو الجيش: مما سيكون مفيداً لأنهم كثيراً ما كانوا يشوهون روايات الأسرى. لم يخبر أحداً عن براعته، فالضباط الروس لم يتم الإعجاب بهم لانحيازهم إلى المحليين.

لكنه أحب روح المغامرة في الجبال وأدرك أن القدر الروسي مرتبط بشكل وثيق بنجاح هذه الحملة. كذلك كان يحمل الرأي القائل بأنها ستكون حملة طويلة جداً، خلافاً لما يعتقده سوفوروف.

فقد عرف ذلك منذ شرح له صاحبه هاشم القرشاي، خلال أمسيات طويلة مليئة بالسكر، كيفية عمل النظام الاجتماعي لدى الشركس – الاتحاد الفضفاض بين القبائل، الولاء والتشريف الذي يبدونه للأمراء فقط طالما ظلوا صالحين بما يكفي لأن يتم إتباعهم. نظام "رباط الدم" أو "عداوة الدم" الكفوء الذي كان يبقي العشائر متحالفة أو متباعدة: تبني الأطفال من غير الأقارب لتقوية الولاءات. وفيما عدا غياب الأمراء، فقد كان الشيشان متشابهين تقريباً، ما توصل كوماروف إلى رؤيته بوضوح شديد، هو أن الجبليين كان لهم رأي، أو نظرة إلى الحياة تجعل من الصعب هزيمتهم. ما كان ليسميها "فلسفة " بالضبط: ففي نهاية الأمر هؤلاء قوم متوحشون. قد تمت تنشئتهم ليس فقط لممارسة الحروب، بل لينالوا موتاً مشرفاً على ميدان القتال. مثلاً، إذا مات الرجل لأسباب طبيعية أو نتيجة مرض، فإنه تقام له جنازة مكتملة ويدفن ملفوفاً بأرديته ويكون رأسه موجهاً نحو مكة للتأكد من خلاص روحه.

لكنه إذا مات في الحرب، فإن تلك الاحتياطيات لا تكون ضرورية, لان تضحيته ضمنت أنه سيذهب إلى الجنة في تلك اللحظة، بدون الحاجة إلى الاحتفال.

أكثر من ذلك، فإن حب القفقاسيين لجبالهم وتعلقهم الشرس بالأرض لم يكن يقل عن حب الروس لقيصرهم والإمبراطورية. لقد كانوا أشرس الأعداء الذين قابلهم كوماروف على الإطلاق، وكان معجباً ببعض من تهورهم الرومانسي.

إن سوفوروف مخطيء حين يفكر بأن تقدماً سريعاً، بمحاذاة الخط الجنوبي، سيكون واجباً سهلاً. سيكلف العديد من الأرواح، فمعظمهم من الروس أو القوزاق. وكذلك يخطيء ياكوبي إذ يعتقد بأن كوماروف أراد ميادين معركة كلاسيكية بخطوط اشتباك وفض اشتباك واضحة. هذه ليست حرباً يمكن لروسيا أن تكسبها عسكرياً. في رأيه، فإن الطريقة الوحيدة لكسبها هي إما بقتل جميع الجبليين أو إجبارهم على الخروج كمنفيين.

ولكن مع ذلك، عرف كوماروف لماذا اختير سوفوروف مسؤولاً عن الحملة. لقد أعطته نجاحاته ضد تتار النوغاي الامتياز. فقد أثبت انه قادر على إصدار الأوامر بالقتل على مقاييس هائلة. لم تكن لدى كوماروف أية أحاسيس محددة تجاه النوغاي، لكن الذهاب بحثاً عن ذلك العدد الكبير من الشراكسة أو الشيشان لقتلهم سيكون مثل البحث عن ذرات من ملح البارود في حقل من الأعشاب.

لقد عرف كوماروف بشكل أكيد، أن هؤلاء الجبليين يختلفون عن نوغاي السهول الجبناء.

لم تكن إستراتيجية سوفوروف جيدة.

ذلك كان السبب الذي من أجله كان هو، كوماروف: يحب أن يقضي كل الوقت المتاح له في المدن الحصينة مثل ايكاتيرينوجراد أو موزدوك، وهي موقع تجارة شركسي آخر أصبح الآن في أيدي الروس، ولا يبعد سوى 35 "فيرست" ليلتقط المعلومات لنفسه. إذا

كان الجبليون يتحركون في أي مكان، فهو يريد أن يكون أول من يعلم. لقد أعطاه حاجبه القرشاي نصائح لا تقدر بقيمة عن كيفية الحصول على البيانات المفيدة. طبعاً، كان لدى الجيش الروسي شبكته النظامية من الجواسيس، خاصة الاقنان الجورجيين والأرمن، لكن كوماروف كان يطري نفسه بأنه بإمكانه أن يدخل متنكراً إلى حانة ما ويخرج منها وهو يعرف أمراً مفيداً بأسرع من أي روسي آخر على خط الجبهة.

ارتدى كوماروف ملابسه المدنية متمهلاً: لان هذا آخر يوم في إجازته وهو ينوي أن يمتع نفسه. معطفه الرمادي الطويل مريح الملبس على جسمه الضخم، وقبعته ملمعة لدرجة بريق جميل.

بسبب كونه رجلاً ضخماً، قصير القامة، فقد كانت الملابس الرسمية تليق به أكثر وتعطيه وقاراً يعوض عن الحاجة إلى بوصات الطول. لقد تخلى منذ زمن طويل عن ولع الضباط الشباب في ارتداء الزي الشركسي خارج ساعات العمل. استطاع بالنظر إلى خارج الشباك أن يرى هاشم منتظراً ممسكاً فرسه المسرجة المتحدرة من سلالة ألمانية رفيعة ويبلغ ارتفاعها أكثر من سبعة عشر يداً: وليس مثل تلك الأمهار الجبلية التي يعدو بها المحليون في سائر أنحاء البلدة. من المقرر له أن يلتقي رئيس أركان لوائه واثنين من رجال الأعمال الأرمن على لعبة ورق.

عندما نزل الدرجات، كان البيت خالياً. لا شك بأن الأميرة صونيا تعبث مع ضابط صغير السن حول سماور شاي في صالون شخص آخر. كان ابنه اليكسي قد خرج ليصطاد – فقد ورث ولع أمه بالطراد.

أمر كوماروف الخادمة بأن تقدم له بعض الشاي قبل أن يخطو خارجاً في الهواء المتجمد، ثم قال "قد الفرس يا هاشم، سوف أمشي".

بصق هاشم في الشارع قبل أن يقفز إلى سرجه هو بدون مساعدة الركاب، وقاد الفرس خلفه. لم يكن من عادته الإكثار من الحديث إلا عندما يكون ممتلئاً بالفودكا.

تمشى كوماروف حول التحصينات لمسافة قصيرة، وهو يمسح بعينيه الرؤوس الزهرية اللون لقمم الجبال البعيدة، وهي تلتمع بثبات تحت شمس الصباح. كان الهواء نقياً، واضحاً وهادئاً إن مجرد تنشقه يرفع من أحاسيس القلب. لن يستطيع أحد أن يخمن بأن المنطقة كلها ستخضع إلى فورة أخرى من العنف.

كان كوماروف قد زار سجيناً شيشانياً في زنازين الحصن في اليوم السابق. وقد تم إلقاء القبض على الشيشاني بسبب محاولته طعن ضابط أثناء مغادرته "لنزل" (وهي كلمة لطيفة للماخور) علقَ كوماروف بلطف، وهو مدرك تماماً بأن الجمال الشهير للنساء المحليات يدفع الضباط الروس القادمين حديثاً إلى الجنون من جراء الفضول. ما كان مثل ذلك الحادث يستحق اهتمام كوماروف في العادة لكنه حين ألقى نظرته على تقارير آمر السجن إلى قائد الحامية، وقعت عين كوماروف على نقطة مثيرة للاهتمام. أمر مساعده أن يقرأ هذه التقارير بعناية وبانتظام، بحثاً عن كشف مثل هذا فقد قال التقرير: لقد أقسم المتهم باسم" الشيخ منصور "على أنه وشعبه سرعان ما سينتقمون لتحقير نسائهم", لم تكن المرة الأولى التي سمع فيها الجنرال كوماروف بهذا الاسم: الشيخ منصور. فقد أكدت تقارير الاستخبارات من الجواسيس الموجودين في جبال الشيشان أن رجلاً متمتعاً بقدر من الذكاء يفوق المعدل العادي وبصفات قيادية قد بدأ يخلق لنفسه اسماً بين الجبليين. ما كان أحد يعرف حتى ذلك الوقت من أين جاء تحديداً – هناك تخمين واحد، مبني على حقيقة أن هذا الغريب يتحدث عدة لغات، وأنه قد يكون من أصل أجنبي ومدفوع له من الأتراك.

وصل كوماروف إلى موقع الاجتماع، الفندق الوحيد في البلدة، واتخذ مجلسه في بهو التدخين لساعة مقبولة. وصل ضيوفه

بعد ذلك بوقت قصير. كان الارمنيان معرفة قديمة له: أحدهما تاجر فراء, طويل القامة نحيل، يشتري جلود الثعالب، والدببة والسناسير من الشيشان. والآخر تاجر نبيذ. وهو الذي أحضر زجاجة نبيذ جورجي فاخر لمصاحبة المخللات واللحوم المدخنة المبسوطة إلى جانبهم على المائدة المغطاة بشرشف أخضر.

زمجر كوماروف بقوله: "أين هو إيفان؟ متأخر؟ كالعادة ؟وهو المتمسك بدقة المواعيد."

وبينما هو يصرخ باعتراضه ملأ مساعده باب البهو حتى حجب النور.

انحنى إيفان ايفانوفيتش بقامته المديدة. وأصدر طرقة راقية من كعبيه على الطريقة الألمانية، ثم انزلق إلى مقعده. كان عريض الكتفين، مغالياً في حبه للحياة. سرعان ما وزعت أوراق اللعب.

وقال: "كل شيء جاهز لأجل الصباح، يا سيدي، سنبدأ دخولنا على بلاد الشيشان وكيزليار كما أمرت"، "أشكرك يا إيفان ايفانوفيتش، إذا قتلت غداً، سيكون لديك متهمان حتى تنقض عليهما". رمق التاجرين بنظرة لثانيتين، بينما أحمر وجه مساعده، انفجر كوماروف في ضحكة مجلجلة.

قال كوماروف لأيفانوفيتش، "حباً بالله يا رجل"! ثم أكمل بالفرنسية "أنت دائماً شديد الحماس !".

استطاع ايفان أن يفسر هذا التعليق على أنه مديح وابتسم ابتسامة عريضة.

استرخى التاجران وأعادا ملء كأسيهما.

قال تاجر النبيذ وهو يقلب الخاتم المطعَّم الكبير في يده اليسرى الصغيرة السمينة: "أعتقد أن ورقك رابح، أيها الجنرال."

" اشكرك يا ماكس.. والآن أيها السادة. ما أريد أن أعرفه هو، هل كنتم موفقين في أعمالكم..؟ ".

لقد دأب ارتونيان، تاجر الفراء على أن يجوب بلاد الشيشان والداغستان بانتظام. وقد رتب موضوع "سرقة " حمولة حماره من الفراء أثناء تنقلاته، حتى يقنع المواطنين المحليين بأنه ليس صديقاً للقوزاق.

كان الجبليون كلهم، بصرف النظر عن أية قبيلة، مشتركين في نقطة ضعف واحدة: القيل والقال. لذلك فإن الأنباء تنتشر من خلال الجبال بسرعة نهير هادر, وكان المسافر التاجر مثل ارتونيان مرحباً به بسبب خدمته في إيصال الرسائل. فهو برغم طوله الفارع، قادر على أن يتكوم فوق وسادة واضعاً ساقيه تحته ويقضي ساعة من الوقت وهو يدردش بدون أي إنزعاج.

"هناك أمر ما يجري حتماً" قال, ومستغلاً اهتمام الجميع بمعلوماته حتى يغشهم جميعاً بورقته السيئة. "هنالك مقدار هائل من الحلفان يدور بين الناس بشكل مفاجيء".

قال المساعد ايفانوفيتش "إن تقاريرنا تقترح بأنهم الأتراك، يرسلون مبشرين ويحاولون أن يكسبوا متحولين جدد... إنهم يحركون المتاعب".

هز كوماروف رأسه "أنت مخطيء، يا ايفان، إن الشراكسة ملتزمون دينياً لكنهم ليسوا متطرفين. لقد شاهدتهم يصلون أمام صليب من خشب البلوط صباح يوم أحد ثم يركعون سجوداً لله عند الغسق.

ليس هو الإسلام الذي يجذبهم، إنها الألوهية... الله ".

"التمس منك أن أخالف، إن الشيشان يختلفون عن الشراكسة. إنهم أشد المسلمين تمسكاً بين كل القبائل".

قال ارتونيان مذعناً لكوماروف "حسب رأيي هنالك خيط من الجنون بين هؤلاء الكفار ظل ينفرني منهم دائماً."

لم يوافق كوماروف على استعمال كلمة كافر. فقد صرخوها بوجهه "جاور، جاور" بما يكفي من المرات لإقناعه بأن الأمر يعتمد على وجهة نظرك. لم يكن هو رجلاً متديناً بشكل خاص ولم يكن يفهم مبدأ الحرب لأجل المعتقدات. فبالنسبة إليه، كان كل شيء سياسياً.

وافق كوماروف "فعلاً. لو كان لدى أحدهم ما يكفي من الشجاعة أو الجاذبية الشخصية للاستفادة من ذلك "الجنون" لخلق لدينا مشكلة.."

كوَّر تاجر النبيذ شفتيه "إن الحلفان قد لا يكونان بالضرورة لأجل التحول الفردي. إنه كثيراً ما يكون شكلاً من إعلان الولاء لقضية ما، أو لرجل ما إذا كان لديه من القداسة ما يوحي بالأتباع..", قال كوماروف "مثل هذا الشخص الجديد، منصور...."

ألقى الارمنيان نظرتين خاطفتين باتجاه بعضهما البعض. إن شبكة استخبارات الجنرال كفوءة جداً.

فقد كانا يأملان بالحصول على حظوة لإحضار اسمه، والآن فإن هذا لن يشتري لهم الغذاء، ناهيك عن العشاء.

استند ارتونيان في مقعده، مركزاً انتباهه على خلط أوراق اللعب بينما هو يختار كلماته بدقة.

"لا أعتقد أنه مدفوع له من قبل الأتراك. ربما يرغب في دعمهم ولكنني أعتقد انه مستقل كلياً".

تحدى ايفانوفيتش هذا الرأي مخالفاً "لدينا معلومات موثقة بأنه بولندي. من الواضح أنه يتحدث عدة لغات، يمكن أن يكون ضابطاً ساخطاً، هارباً من الجندية".

بدأ تاجر النبيذ يثرثر، منافساً ارتونيان في تزوير المعلومات الجديدة "لقد خاض عدة معارك. إنه خيّال كما الريح... إن مهارته في اللعب بالسيف من الدرجة الأولى".

عبس كوماروف "لقد أصبح أسطورة منذ الآن، كأنه فارس من القرون الوسطى. أنا لست متحمساً لهذا الكلام".

ابتسم ماكس، وقد سره أن يكون قد جاء بأحدث المواضيع "إنه فعلاً يدرك قيمة السمعة الجيدة. إنه يركب حصاناً كامل البياض، اسمه "كاراباخ"، لا يهمه إذا تميز في المعركة. إن الشيشان معجبون بذلك الأسلوب".

لكن ارتونيان وضع يداً محذرة على ذراع كوماروف قائلاً "دع كل ذلك على جانب، يا جنرالي إن ما سمعته سوف يثير فضولك أكثر وأكثر. السبب الذي يجعلني أقول أن الأتراك ليسوا خلفه هو لان الشيخ منصور رجل سياسي قبل أن يكون رجل دين.. يقول لي الناس أنه يحتقر التنجيم. وهو يؤمن بأن كل رجل وقدره.

ذلك ليس الإسلام. إنه يتحدث بمنتهى الاحتقار عن "مبدأ القدرية المسبقة".

ذكره المساعد ايفانوفيتش بقوله: "دورك الآن، يا سيدي".

نظر كوماروف إلى الأرمني طويل القامة "أين هي قاعدته؟. هل تعرف؟ ".

"بلاد الشيشان. ولكن في منطقة بعيدة خلف الجبال السوداء. سيكون من الصعب استدراجه."

ابتسم كوماروف وهو يجمع كومته الرابحة "لن اضطر إلى الذهاب بحثاً عنه. إذا تجمع الجبليون تحت رايته، فسوف يجيء ليبحث عنا. لقد حان وقت الغداء أيها السادة. وبعد ذلك يجب أن انهي إرسال رسائلي".

توجه تاجرا الفراء والنبيذ نحو قاعة الطعام. همس كوماروف لايفانوفيتش "إن ارتونيان يتحدث اللغة الشيشانية بطلاقة. أرسله إلى الماخور وانظر إذا كان يستطيع أن يقنع شقيقة سجيننا بأن تخبرنا بما نريد معرفته. ولكنني أريد اسم قرية هذا الرجل بحلول الساعة السادسة من مساء هذا اليوم، وبعدها أستطيع أن أرسل جاسوساً إليها، لأكتشف كم من الناس قد بدأوا يستمعون إلى الشيخ منصور هذا. إنني أحسّ بأن الحمى بدأت تنتشر، وأريد أن أشرح الوضع لسوفوروف. إننا بحاجة إلى أكثر قليلاً من البيانات للحصول على انتباهه الكامل".

وضعت يخنة لحم البقر مع الجعة المتبوعة بالفودكا ارتونيان في حالة عالية من المعنويات بحيث وافق بسرعة على واجبه. أما تاجر النبيذ، ماكس فقد أقتنع بنبيذه البورت، وهو نادم على أن مهنته لم تذهب به إلى الأماكن المجهولة المفيدة في بلاد الشيشان والتي يخترقها صديقه ارتونيان.

ركب كوماروف فرسه إلى بيته سعيداً. شعر بان المعركة الآتية ستكون أكثر تشويقاً بعض الشيء.

إذا كان لديه عدو جدير بأن يقاتله، وليس مجموعة رعاع يقوم بتفتيتها. فأن ذلك يبرره.

طبيعي أنه لن يشرح الأمر لسوفوروف بهذه الطريقة، لكنه شخصياً كان بحاجة إلى هدف له صفة الجندية: فذلك مما يرفع روحه المعنوية.

لم يعد يرغب في هذه الاشتباكات البائسة الدامية... فقد أخذ منها كفايته.

***

قرية مراد صغيرة ليست أكثر من مجموعة بيوت متقاربة له شخصياً ولبعض عمال الزراعة. لكن الموقع هو أحد أجمل الأمكنة التي يمكن تخيلها: حتماً أجمل ما رآه أحمد.

البيوت مبنية على شكل هلال فوق رقعة من الأرض البكر - مرج خصيب يحتمي تحت صف من القمم الشاهقة، التي تشكل صخرة الجرانيت لسلسلة القفقاس الرئيسية.

بدت السماء على هذا الارتفاع وكأنها تحوم فوق رؤوسهم بينما الغيوم تتسابق في الأعلى وتتزاحم في غير نسق عند القمم البيضاء المشرفة. القرية عصية على الاختراق من الجهة الشمالية ويغمرها نور الشمس من جهة الجنوب حيث الأرض تنداح نحو جرف ثم تنفتح على منظر رائع لوادٍ بعيد. في الغرب والشرق، كانت القرية محاطة بغابة ثرية من أشجار الخروب والبيلسان، وأدغال من الشجيرات الحاملة للثمار وصفوف من العليق الكثيف. المرج مفروش كسجادة بالبابونج الذي يعطي رائحة نفاذة أثناء دوس أفراسهم على الأوراق، تاركين آثار حوافر خضراء اللون فوق بياض الندى الفضي الذي لم تقو شمس الربيع الباكرة على تبخيره حتى اللحظة.

البيوت مبنية من الحجر وفوقه جذوع ضخمة متوازية للسقف. الأسيجة المنظمة تفصل الماشية عن حدائق الخضروات، لكن الامتداد للمرج لم يكن قد تم تسييجه بعد.

ألقى أحمد نظرة واحدة وعرف من فوره ما يمكنه أن يفعل به لو كان الأمر منوطاً به. إن المكان حلم قد تحقق: موقع مثالي لحظيرة ترويض للخيول.

سأل مراد بحماس "هذه هي الفردوس. هل أنت هنا حتماً آمن من الأعداء؟"

نفضِ مراد كتفيه"لم نتعرض لأية متاعب حتى الآن. قلما يخترق القوزاق إلى هذا الارتفاع.

لا يحبون أن يقاتلوا بدون مدافعهم الكبيرة ويكاد يكون مستحيلاً جر المدفعية فوق هذه الممرات الضيقة" .

"ولماذا يريدون المجيء إلى هنا بكل الأحوال؟ لا يوجد هنا ما يكفي من الرعي للماشية أو الغنم. ابتسم مراد بجدية "يا عزيزي أحمد، الروس ليسوا مزارعين. الموضوع كله متعلق بالقوة... بالمناطق. إنهم فقط يريدون من كل شعوب هذه الجبال أن تلقي عصا الطاعة لأميرهم. ولذلك يرسلون الجنود والجنرالات ليحكموا هنا باسم "القيصر".

"ولكن بالتأكيد، روسيا بلاد كبيرة. لديهم ما يكفي من المساحة, فلماذا يريدون أن يأخذوا أراضينا أيضاً؟ "

"أنت على حق، روسيا بلاد كبيرة. إنها أكبر من القفقاس بمرات عديدة. لكن دوافع الروس معقدة... ولدى القيصر عدة مصالح يتوجب عليه حمايتها. إنه الأمير المسيحي الأكبر. هنالك أمم مسيحية إلى الجنوب من هذه الجبال وهم يريدون أن يربط أملاكه معهم حتى يمنحهم الحماية. ونحن نقف في طريقه".

جهز أحمد نفسه لدرس في التاريخ. لقد كانت لدى مراد معرفة أفضل بكثير حول القضايا الكبيرة التي تقف خلف ما يجري في القفقاس. ومع ذلك فقد كان يقاوم الاستماع في قلبه. لم يكن لديه الاستمتاع الموجود لدى مراد بالسياسة، الخداع، أو استراتيجيات الحروب.

خرجت امرأة شابة جميله وهي تجري من احد الأكواخ عند اقترابهم، حاملة طفلاً رضيعاً متورد الخدين بين ذراعيها.

قال مراد بفرح "تلك هي زوجتي، مدينا: وترجل الرجلان لتقديم احترامهما. أخذ مراد الطفل من ذراعي مدينا وطوح به فوق رأسه ليجعله يضحك.

"جعفر! يا ولدي الصغير! لقد جئتك بعم جديد رائع". استدار مراد نحو أحمد مبتسماً "ما كنت لأظهر هذه المحبة بشكل مفتوح في القباردي، والا لأصيب الكبار بصدمه...!"

هز أحمد رأسه موافقاً.

شرح مراد بسرعة لمدينا عن شخص أحمد. ابتسمت له في احترام، وهي تحمر خجلاً متعذرة لعدم تمكنها من التحدث معه بلغة القباردي. طبيعي إنها لم تكن بمثل جاذبية تسيما في عيني أحمد، لكنه أحترم تصريحها الدافئ الصريح، عينيها الخضراوين البراقتين، وتفتح الأمومة الذي فرض عليه الاحترام والخجل بنفس المقادير. شعر بقدر من الارتياح عندما خرج من الكوخ صبي متين في حوالي الرابعة من عمره، بكتلة شعر من اللفائف الشقراء المنفوشة، راكضاً في خط مستقيم ليحيي والده. وسرعان ما حمل مراد الصبيين بين ذراعيه وواجه أحمد كأب فخور.

"هذه هي عائلتي ــ تيمور، ابني البكر، جعفر الطفل ــ وهذا هو بيتي. تقول مدينا "فليجلب قدومك السعادة إلينا. سيحدث ذلك، أليس كذلك، يا أحمد الكوباني؟ ".

وقف أحمد إلى جانب الأفراس، وهو يمسد خطم فرسه شارد الذهن.

قد بدأت الخطط الكبيرة تتشكل منذ وقت في ذهنه. سوف يطلب من مراد تعليمه اللغة الشيشانية، وسوف يتحدث مع مدينا ويعرف منها ما هو متوقع من الشاب في التعامل مع فتاة شيشانية.

لقد اثر فيه أمر واحد بعمق بالغ، هو أن الشيشان أقل صرامة من شعبه بكثير. لقد كان أبوه يفضل أن يستسلم في ميدان المعركة عن أن يحمله في مكان عام.

وأمه بالكاد تقضي مع أبيه أي وقت، كما تقضي العادة، إلا في المناسبات الرسمية، رغم أن الحب العميق كان يربطهما حتى في

الموت. عندما جعل مراد مدينا تضحك ولمس خدها، أدرك أحمد لماذا استقر هذا القباردي الآخر هنا تاركاً شعبه خلفه. إنه ومراد رجلان مختلفان، لكنهما يستجيبان لنداء الحرية الشخصية – بنفس الطريقة التي يطير بها صغير النسر عندما تنادي عليه أمه فوق جرف هاو.

من غير المحتمل أن يزعجه القوزاق هنا. ربما هذه هي نهاية رحلته.

سار مراد أمامه وكأنه يقرأ أفكاره.

"ستنام هذه الليلة تحت سقف بيتي. وسنبدأ في الغد العمل على بناء بيت خاص بك. لو كنا في قبارديا الكبرى، لقلت "غداً، الثور" لم يحاول أن يموه السعادة في صوته.

شعر أحمد بالتكريم العميق. إذا كان مراد سيذبح له ثوراً بيديه، فإن ذلك سيخلق بينهما رابطة من الصداقة، أما هنا في هذه الجبال العالية، فالرّمز هو العسل والجدي المطبوخ بالحليب، لكن القصد هو نفسه: أخوّة الدم.

***

بذل مراد واحمد جهوداً عظيمة خلال الأسابيع العديدة التالية مع الخدم لبناء البيت. أصبح مفهوماً بطريقة ما أنه يفترض في أحمد أن يمتلك مؤسسة ملائمة لرجل ينوي أن يغرس جذوره الخاصة به. فقد وضعت الأسيجة، وتم حفر الحديقة، وبني مسكن للخدم إلى جانب المسكن الرئيس. بذل أحمد أقصى جهوده ليتعلم الكلمات الأساسية في اللغة الشيشانية، وبما أن الضرورة هي أفضل معلم، فإن الأمر لم يستغرقه طويلاً حتى أصبح يتفاهم مع العاملين لدى مراد.

بدا أحمد يروي قصته في الليل إلى جانب مدفأة مراد، بعبارات مبتورة في البداية، ولكن بثقة متنامية على درجات، وهكذا حتى أعترف مراد أنه تعرض لصعوبات عائلية قادتة إلى الجبال.

كشف عن أصله بقوله "إنني أبن أمير الحابسا، وانظر إليّ الآن، أحيا حياة شيشاني جبلي! لكنني أحب هذه الحياة يا أحمد، كما ستحبها أنت أيضا بمرور الزمن. إنني رجل حر، ولم أعد خاضعاً لسورات غضب أبي".

لم يلح عليه أحمد بالمزيد من الأسئلة. لأن الإطناب في الشرح سيؤدي إلى إهانة والديه. اختتم مراد الحديث بقوله "يكفي أن أقول، أنني لن أرجع أبداً" واستمر يسحب من غليونه.

وافقه أحمد "وأنا لن أعود إلى الكوبان".

بهذا الاعتراف، تعمقت صداقة الرجلين ثقة ببعضهما بعضاً.

بعد بضعة أيام، وفيما كان الرجال يعملون في البيت الجديد، جاء أحد خدم أحمد يعدو على جواده عبر الحقل. كان هذا هو خفير الاستطلاع: وكل قرية جبلية تعين واحداً.

ظهر السرور على مراد وقال وهو يترك أدواته "لدينا زوار مهمون، هلم يا أحمد, لنستعد لاستقبالهم".

نادى على مدينا لتحضر الأطفال بينما يقوم هو وأحمد بتغطية صدريهما العاريين بقميص وسترة.

بعد ذلك بقليل، دخل الملاّ ومرافقوه القرية خببا وهم يقودون مجموعة من الأفراس. استطاع أحمد أن يتعرف على فرسي القوزاقيين الميتين، لكن الثالث كان طبقة أخرى. أنه حصان جميل أسود اللون، فحل عربي يتفاخر مختالاً برقبته المقوسة مثل طائر البجع المعروفة عن رسنه، وتكوينه المثالي. ترجل الملاّ وقاد الفحل إلى الأمام.

هدر بتحيته للقباردييين الشابين بصوت عالٍ "دي ديك خيل" لقد قلت لكم أن لدي هدية خاصة سأحضرها لك. لقد استغرق وصولها أطول مما توقعت، ولكن هاهي هنا أخيراً....".

وجد أحمد صعوبة في تصديق أذنيه. أصبح في هذا الوقت يعرف ما يكفي من اللغة الشيشانية ليفهم المعنى الإجمالي لكلمات الملا لكنه كان يفتقد إلى الثقة، أو الغرور ليفكر في أنه سمع بشكل صحيح، فهو لم يفكر للحظة أن ما فعله لحمزات يستحق جائزة في مثل روعة هذه.

قال مراد "هذا ليس حصاناً عادياً، فقد أحضر وهو ما يزال فلواً إلى إسطبلات شاه بلاد فارس.

لقد قال الملا لتوّه أنه لك، مع الأفراس. إنه يعرف كم يحب الشراكسة تربية الجياد, والأفراس القوزاقية هي ملكك الشرعي بكل الأحوال، إنها غنيمة حرب".

قال الملا: "أدعو الله إن يمنحك التوفيق، وأن يخدمك الحصان خدمة طيبة ويحملك دائماً إلى خارج الأخطار".

غلبت أحمد مشاعر مختلفة. لقد أخذت الحياة هنا مع مراد تتحول إلى حلم وقد تحقق. الأمن, مكان طيب للمعيشة، أناس أحس تجاههم بانسجام طبيعي والآن هذا، البادرة الأروع من لدن قائدهم. تكلم من صميم قلبه.

"أرجو أن تترجم لي يا مراد... يا عزيزي الملا، لقد اكتسبت اليوم ابناً آخر. سأبقى إلى جانبك على الدوام، كلما احتجت إلي. سيكون أعداؤك هم أعدائي".

رفع قبضته المشدودة بإحكام على سروع لجام الحصان، وهزها ليعبر عن عواطفه. أضاء وجه الملا بالرضى عند سماعه القسم، وقام بمعانقة أحمد بقوة. قد يكون الملا رجل دين، ورجل سلام، لكن حماس أحمد وجاهزيته للقتال قدمت له سعادة عميقة. ظهر في عينيه بريق من التطرف لم يخف على أحد ملاحظته. حب الله والكراهية تجاه "الجاور" هما القوتان المحركتان في حياته.

في هذه الأثناء، وصلت مدينا حاملة ابريقاً من عصير الفواكه وأكواب خشبية لتقديمها إلى الضيوف، الملا أولاً وبعد ذلك مرافقوه.

قال مراد "ابق معنا لوجبة الغداء، أيها الملا. إنها بسيطة بالطبع، ولكنك ومرافقيك على الرحب والسعة لتشاركونا إياها".

قال رجل الدين "أشكرك يا مراد، ولكنني مضطر إلى الاعتذار، لديّ ضيوف في القرية قادمين من آفاريا، لأجل مسألة في غاية الاستعجال. يجب ان نقبل دعوتك في وقت آخر".

غادروا بنفس السرعة التي حضروا فيها. استغرق الأمر بعض الوقت حتى أدرك مراد أهمية الزيارة.

ساعده أحمد في أفكاره "لم اعرف هذا القدر من الكرم عن ذلك الذئب الأغبر على الإطلاق مع أي إنسان. إنني لأعجب عما يدور في خلده من أجلك.".

أحمرّ وجه أحمد بعنف "لا تتكلم في الموضوع. إن ابنته ما تزال طفلة. هي بالكاد صبية الآن.".

بدا مراد مستمتعا بحرج أحمد "سواء كانت طفلة أم لا فان ذلك العجوز المخاتل لم يغفل عما دار بينك وبين تسيما أثناء الوليمة! أنا لم أخبرك بهذا، ولكنه أرسل مندوباً في الأسبوع الماضي ليستفسر عن خلفيتك وشخصيتك".

وقف مراد قبالته "لقد أخبرته بكل شيء فهمته من اعترافك لي. بأن تصرف "المالخا" كان مخلاً بالشرف. وبأن شقيقتك قد جلبت عليك العار وأنك اخترت أن تغادر بدلاً من خلق المزيد من النزاعات في البيت. بان أباك قد أتم تربيتك على أساس نبيل من الأديغه، "وَرَق" حقيقي من القباردي، حتى تتصرف بشجاعة في كل تعاملاتك".

قام احمد بربط الخيول في حظيرته نصف المجهزة. سيتحتم عليهما إتمام السياج في الغد. لقد كان راغباً في تصديق رؤية مراد لماضي حياته، فهي لم تبدو على ذلك القدر من السوء، بالطريقة التي شرحها.

وضع مراد يده على ذراع أحمد ."الأمر هو هكذا، الملاّ رجل مثير للاهتمام. لقد كان مقاتلاً ذا سمعة هائلة في طول بلاد الشيشان وعرضها، معروفاً بمزاجه الذي لا يمكن التحكم به وبقسوته، قبل أن يذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج.

إن حياته صراع دائم لكبت ميوله الطبيعية إلى العنف. وكما ترى الآن، فهو يعيش حياة من التقوى والكبح. إنه معجب بك، وكما تعلم علم اليقين، أنا معجب بك أيضاً."

كان أحمد أصغر في الحقيقة من أن يستجيب بلغة تتناسب مع المناسبة، لذلك أبقى عينيه مسمرتين على حصانه العربي الرائع.

قال بصوت يخنقه التأثر: "ذلك الحيوان أروع من أن نبقيه في الخارج في هذا الطقس، سوف ابني له إسطبلاً".

***

الفصل الرابع

في القرية الشيشانية حيث التقى أحمد بمراد للمرة الأولى، انهمكت تسيما، ابنة الملاّ في صنع ملح البارود. إنه فصل الربيع وقد تدنت مخزونات الذخيرة: فقد قام رجال القرية بعدد هائل من الغارات في الأسابيع الأخيرة، بحيث تضاءلت كميات الذخيرة المهربة من تركيا.

مرّ الملاّ بجوار المسكن وراقبها وهي تعمل بطريقة منتظمة لفترة وجيزة، قالت تسيما وهي تحرك محتويات القدر..

"صباح الخير يا أبي". ثم مزجت نقاط نيترات البوتاسيوم في محلول قلوي مركز من رماد شجر البتولا والحور وتركته حتى يتبلور: بعد ذلك قامت بطحنه مع ضعفي مقداره من الكبريت ونفس الكمية من الفحم النباتي، وهي تقوم الآن بتحريك المزيج فوق نار هادئة حتى يبدأ يتبرغل على شكل حبيبات. إنها عملية شاقة وتنتج ملح البارود على نطاق ضيق، لكن لا بد من القيام بها.

تساءلت بأسلوب فضولي محبب: "لم لا ترسلون شخصاً ما مباشرة إلى موانئ البحر الأسود، فإن هذه الكمية لن تكفي لتذخير نصف رجالك، إذا لم يكن هناك من يتحلى بالشجاعة الكافية ليحضر شحنة إلى هنا، فلماذا لا نتفاوض بأنفسنا مباشرة مع الأتراك؟".

أغمض الملاّ عينيه الفولاذيتين نصف إغماضة وقد سره كلامها، ومسد شعر تسيما الحريري بينما هي تقبض على ملعقتها وقد ران على وجهها تعبير ينم عن انشغال بالها. لقد توقف عن الانزعاج من هذه النقاشات الجريئة مع ابنته بدلاً من أن يخوضها

مع ولده حمزات. فالحقيقة المجردة هي أن تسيما ورثت عنه مزاجه القتالي، بينما يتصرف حمزات كمقاتل من قبيل الطاعة ليس إلا.

"السبب الذي من أجله لا أرسل شخصاً إلى الشواطئ هو نفس السبب تماماً الذي من أجله لا يغامر الأتراك ولا وسطاؤهم الأرمن بالصعود إلى هنا. إنهم يخافون من الاصطدام بدوريات القوزاق".

"حسناً إذاً, سيتوجب علينا أن نحصل على ذخيرتنا من مصدر أخر" قالت تسيما بحزم.

قرفص الملا إلى جانبها، وقد تناوبه شعوران بالفخر والحزن على أن تتحدث ابنته الجميلة عن هذه الأمور.

"من باب الفضول يا عزيزتي، ماذا يمكن أن تقترحي؟".

نظرت عينا تسيما الرماديتين الصافيتين إلى الأعلى، في عينيه بحب غامر "آه، يا أبت، سامحني على صراحتي، أعرف أن هذا ليس مقامي، لكنني أريد أن أحيا في سلام، أن أتزوج! أن تكون لي عائلة، مثل مدينا وحتى أستطيع أن أفعل ذلك... يجب أن نكون آمنين، أن نشعر بالأمان في بيوتنا... أليس ذلك صحيحا؟"

تجنب الملا بحصافة السؤال عن السبب الذي جعل هذه الأفكار عن الزواج تبدأ بإشغالها فجأة. فقد رفضت تسيما حتى الآن جميع الشباب الذين أرسلوا أية كلمة اهتمام من خلال الوساطات العائلية.

أشعل "تشيبوكه" المفصص بالعنبر وبدأ ينفخ على مهله.

"تحدثي بحرية يا ابنتي، لا يوجد هنا من يسترق السمع إلى الخطط الحربية الغريبة من صبية" إلتمعت عيناه الخارقتان لمزاجه المرح.

"يجب أن لا نكتفي بمضايقة دوريات القوزاق لمجرد سرقة بندقية مصادفة. علينا أن نكون أكثر جرأة، أكثر تنظيما. لماذا لا يستطيع رجالنا أن يكمنوا لقافلة تموين ذخائر. إن العربات التي

تجرها الثيران تتحرك ببطء، وهم لا يمكنهم مطاردتنا بمدافعهم الكبيرة صعوداً فبي الجبال. ما دمت تأذن لي في الحديث بحرية يا أبت، إذا لم نعثر على مصدر بديل لملح البارود، فإن القوزاق سوف يحتلون قريتنا بدون الحاجة إلى المدافع الكبيرة. ليست سيوفنا نداً لرصاصاتهم."

"هذا تقييم صحيح يا عزيزتي. لا يستطيع القوزاق أن يحضروا مدافعهم الضخمة ويصعدوا بها الممرات الجبلية، فذلك يجعلهم في حالة ضعف شديد، يبطيء سرعتهم بحيث نستطيع أن نتلقفهم. لكن علي أن أصحح أمراً واحداً، وهو أن القوزاق لا يحملون تموين ذخائرهم في عربات تجرها الثيران. لديهم دائماً خيول كاراباخ أو خيول ألمانية سريعة أو بغال لسحب عرباتهم الثمينة". لم يستطع الملا أن يقاوم مناكفتها "إنني أشك في أنك فكرت بكل هذه الأمور لوحدك يا تسيما، إنك تتحولين إلى خبيرة في تقنيات الحروب الجبلية. فهل أنا مخطئ في التفكير بأنك قد خضت عدة نقاشات مع شاب ما...؟".

لم يحمر وجه تسيما، كما كان متوقعاً منها. فهي تفهم والدها بشكل أعمق من أن تدخل معه في الخدع البنّاتية.

"إنني أتحدث مع مراد أحياناً، عندما يحضر مدينا للزيارة. إنه يمتلك الكثير من المعلومات ويشرح كل شيء بطريقة جيدة, لكنني كنت في السابق أحتفظ بهذه الأفكار لنفسي، وهو يتفق معي حولها. إنني مندهشة كيف أنه لم يبحث معك هذه الاحتمالات يا أبي".

"لقد فعل ذلك يا عزيزتي، وسوف نقوم باتخاذ إجراء معين إزاء وضع مخزوننا المتناقص, لكنني أحب أن أسمع منك المزيد".

حركت تسيما المحلول القلوي بقوة. لقد كانت في صغرها تخاف من أبيها إلى درجة الرعب, فقد كان مزاجه شرساً وكان يفقد أعصابه في لحظة حول أصغر الأخطاء المنزلية. كانت يده لاسعة ولسانه أسوأ لكن بعد وفاة أمها، وبعد أن أصبح هرما جداً

على القتال، فقد أرغم على التصالح مع طبيعته الآن، ومع انه لا تزال هناك فورات متباعدة من الطاغية القديم، إلا أنه أصبح رجلاً مغايراً وأباً محباً بعمق على الأقل، لا يزال معها.

حمزات، وهو الأصغر سناً والأكثر حساسية، ما زال يجده صعباً، ولكنه في نهاية الأمر مقاتل وهناك أمور معينة متوقعة وغير متوقعة منها.

لم تتكلم هي وحمزات في الموضوع مطلقاً، لكنها كانت تعرف أنه يكره القتال، وانه يذهب إلى الغارات لان أباه يطلب ذلك. إنّ حمزات أكثر شجاعة من أي شاب شيشاني آخر لأنه لم يكن متهوراً ولا عنيفاً بطبعه. كان يذهب إلى المعركة بضمير مثقل، وهو يتمنى من كل قلبه لو أنه كان مجرد مزارع، ولديه الوقت لرعاية حقوله وأداء صلواته.

كان الملاّ يشعر بخيبة أمل من حمزات، مع أنه يحبه بعمق. ما لم يكن يراه في ابنه هو تقواه الطبيعية التي لم يتم الاعتراف بها حتى ذلك الوقت. فقد كان حمزات يكتم الأمر حتى عن نفسه، لكن تسيما كانت قد شاهدته جالساً في الخارج عند سفح تلة، يراقب صعود القمر في السماء أو انبلاج الفجر في تعبد سابح في الخيال. لقد كان حمزات يختلف عن بقية الشبان الشيشان في قريته.

في النهاية، عندما أصبح من الواضح أن تسيما لن تتبرع بالمزيد من الأفكار الجديدة حول الحروب الجبلية، تكلم الملاّ بجدية "لقد طلب أحدهم يدك".

رفعت تسيما نظرها إليه مندهشة. من يمكن أن يكون؟ لم يكن.... لا يمكن أن يكون هو! لم يرد الملاّ على نظراتها المتسائلة "إنه من واجبي ان أراك وقد تزوجت زواجاً جيداً، يا تسيما. العرض جيد والمهر محترم."

أجابته تسيما بصوت حازم "أبي، لا أظنك ستطلب مني أن أتزوج بعكس رغباتي".

أجاب مبتسماً "ها، إذاً أنت تميلين إلى أحدهم، أخيراً!".

ومضت عينا تسيما، ولكن ليس بالغضب، تسرب شيء من الحمرة إلى خديها.

قال الملاّ بصوت خفيض "أظن إنني أعرف الماسة الكبيرة التي استطاعت أخيراً أن تذيب قلب ابنتي المتجمد".

حافظت تسيما على صمتها. المرح لا يليق بأبيها. إذا كان قلبها بارداً، فذلك بسبب صعوبة حياتها، بسبب العناية بزعيم القرية كل هذه الأعوام بدون وجود حكمة الأم الحنون لتدعمها.

لم تتوقع أن تتغير حياتها أبداً، إلى أن وقع نظرها على أحمد وهو يرتدي سترته "التشيركيسكا" القباردية.

"لكنني لن أسمح بوجود خاطب آخر بينما يقدم ابن شعبي عرضه. إذا كان هذا القادم الجديد، أحمد الكوباني هذا يرغب في أن يكسب يدك، يجب عليه أن يثبت شجاعته في المعركة: ثانياً يجب أن يجمع ما يكفي من الممتلكات حتى يستحقك كزوجة له... وثالثاً:" توقف، وهو يعرف جيداً أن تسيما ستهب فيها لاعتبارات. "أريد أن أتأكد من عدم وجود أي شيء معيب أو ينم عن لؤم في داخله".

اشتعل خدا تسيما لكنها رغم ذلك لم تقل أي شيء.

انتصب الملاّ واقفاً "إننا نواجه أوقاتاً صعبة، وأنا بحاجة إلى رجال أصحاء كلياً في أبدانهم وأرواحهم وعقولهم، لمواجهة الامتحان. أنت ابنتي الوحيدة، وسوف يكون الأفضل من نصيبك".

انتظر الملاّ مجرد هنيهة ليسمع جوابها. لكن تسيما أحنت رأسها في خضوع ولم تحر جواباً. لم يعد بإمكانه أن يتهمها بعدم الطاعة، ولذلك غادر الدار.

شعر الملاّ بالرضى العارم، لقد كانت نيته تتجه إلى تقديم مظهر صغير من الاعتراض على زيجة هو يوافق عليها بحدسه.

لقد كان كوير هو الذي أرسل بكلمة ليقدم فيها عرض زواجه، ولم يكن الملا سعيداً بمثل هذا الزواج، لان كوير شاب متهور ويحمل الضغائن – يشبهه في ذلك بأكثر مما يستحب. والملا معجب بأحمد ومدين له بدين هائل لإنقاذه ابنه.

إلا أن الحياة قد علمته بأن الحدس لا يكفي كبرهان على الشخصية. فقد خدع كثيراً بحيث لم يعد يثق حتى بحكمه الشخصي بدون وجود دليل دامغ.

في تلك الآونة، كان أحمد يعمل بجد لبناء سكنه وما جاوره، فالأسيجة يجب نصبها، بنايات خارجية يتوجب إضافتها إلى مكان سكناه الرئيس، محاصيل تجب العناية بها. وقد انقضت شهور ستة على وصوله إلى بلاد الشيشان، ولم يشعر مرة واحدة بالندم على قراره بالاستقرار إلى جانب مراد مع أن بناء أملاكه كان عملية بطيئة.

وعلى أية حال، كانت هناك مساحة في حياته أحرز فيها أحمد تقدماً جديراً بالاعتبار، فبفضل جهود مدينا، زوجة مراد، أصبح احمد يتحدث اللغة الشيشانية بطلاقة. أما القواعد فهي مسألة أخرى، لكنه كان يستطيع أن يفهم المحادثة ويعبر عن نفسه بما يكفي للمشاركة في النكات، أو عبارات التحبب.

كذلك شرحت له مدينا بعض النقاط الدقيقة البسيطة في أصول التعامل الراقي.

بعد أن أستقر في كوخه الخاص ببضعة أسابيع، سألته مدينا "لماذا لا تذهب للزيارة؟".

كانت هي واحمد يشربان عصير الفواكه جالسين على شرفة بيتها. بينما بقي مراد على مسافة كافية لعدم استراق السمع، من باب الذوق، مشغلاً نفسه بتجهيز المؤن للشتاء. أجابها أحمد بصعوبة بالغة، وقد تولاه الإحراج "أزور؟ أزور من؟" هل أزور الملا؟"

غطت مدينا وجهها بيديها وضحكت، وشاركها الضحك تيمور الصغير وجعفر، مقلدين أصوات المرح الصادرة عنها.

ثم قالت لولديها بجدية مصطنعة: "كونا هادئين، كليكما" تكلمت اللغة الشيشانية ببطء، متظاهرة أن أحمد لم يفهم قصدها "لقد قلت، لم لا تذهب لزيارة تسيما والحديث معها...؟".

بدا أحمد وكأنه قد أهين "لأن الرجل في الكوبان لا "يزور" الفتاه في قريته، إلا بعد....."

"تقصد الزواج؟ لا....؟" يقصد بعد الخطبة؟ آه، حسناً، لكننا نحن بنات الشيشان نتمتع بقدر أكبر من الحرية! يمكنك أن تتحدث إليها متى تشاء، يمكن للشباب والشابات أن يكونوا أصدقاء هنا. أرجوك، أرجوك....! قلدت منقار البطة وهي تحرك أصابعها قائلة "دردش... دردش!".

ضحك أحمد وهز رأسه "لا يا مدينا، سوف ندردش.. ندردش... أنت وأنا، حتى أستطيع أن أتحدث بشكل جيد.... بعدها أذهب للزيارة. كذلك..." وغلبه التردد.

لكن مدينا كانت بشكل طبيعي قد جهزت نفسها جيداً لهذه المحادثة.

"نعم، أنت تأخذ هدايا" انحنت إلى الإمام وتحسست القميص الثمين الذي يرتديه أحمد"

"قماش، آه، نحن جميعاً بحاجة إلى القماش! وربما..." وضعت يدها على خدها، ثم شدت شحمة أذنها "مجوهرات، خاتم، حلق، عقد، إسوارة،..".

وهكذا تعلم أحمد في تلك الأمسيات من أوائل الخريف, كمية محترمة من المفردات النسوية، وحصل بالتأكيد على فكرة واضحة عن نوع المهر الذي سيتوقعه والد تسيما. أصابه الأمر بالإحباط. فإن الحصول على الثروة المتوقعة منه سوف يستغرق عدة مواسم.

لكن هذا الأمر لم يبعده كلياً عن قرية تسيما. إذ كثيراً ما كان يركب لوحده في سفوح تلة القرية آملا أن يحظى بلمحة من حبيبته، وكثيراً ما كان يوفق. يجلس على صخرة بعيدة مقابلة لبيتها ويقيم خفارة كأنه صبي راعي. وكثيراً ما تقوم هي بتسلق سطح بيت أبيها وتجلس في مواجهته متمنية لو كان أقرب، متمنية لو تستطيع أن تحتضنه بذراعيها وتتحسس عضلاته، تتشمم جسمه الرجولي، وتهمس بكلمات الحب في أذنيه.

لم تكن قادرة أن تفهم السبب في عدم دخوله إلى القرية وزيارة أبيها. لقد كان هناك الكثير جداً مما ينبغي تعلمه عن رجال القباردي، وهذا ما وعدت نفسها بأن تتعلمه من مدينا.

يجيء الشتاء بغتة، ولكنه كثيراً ما يجيء بصمت في الجبال. قد يكون الطقس ربيعياً في المساء وفجأة يبدأ تساقط الثلوج صامتاً في الليل ويصبح الصباح متلفعا بمسحوق أبيض عميق ناعم.

وهذا ما حصل مع أحمد في فصله الشتائي الأول في مسكنه الجديد. استيقظ وهو يحس بوخزة برد جديدة على خديه. عادت ذكريات تجربته المريرة على الجبال، فعرف بدون أن ينظر إلى الخارج أن أول الثلوج قد تساقط. فقد أحسّ بسكون يبعث الرهبة في الجو. لا شيء يتحرك, موات ناعم.

نهض من فراشه مسرعاً وذهب إلى باب بيته الأمامي. رفض أن يتحرك. أنزل المصراع الخشبي للنافذة ونظر إلى الخارج. لقد تساقط الثلج بصمت وغزارة طيلة الليل، بحيث أن السلسلة التي يعيش هو ومراد عليها تغيرت هيئتها بالكامل. برزت الآن القمم العالية، سوداء... وعصية على القهر، مقابل المنحدرات البيضاء أسفلها, السماء رمادية متلبدة, لأن المزيد من الثلج سيتساقط قريبا، لكن المنظر الذي لا يقارن بجماله هو الممتد أمامه. فقد اندثر بيته وابنية مراد, حتى ارتفاع الخصر تحت هباب البياض العذري. بعض الزرائب كانت نصف مطمورة بكثبان من الثلج ترتفع بزوايا

حادة نحو السقوف، وقد تغطى معظم مهاجع الحيوانات كليا, مع حفر مستديرة تكشف عن أمكنة تواجدها، حيث عملت أنفاس الحيوانات التي تنفث البخار على إذابة فتحات تهوية خلال السقوف البيضاء من الذرور الناعم.

غابت السهول البعيدة عن النظر في عاصفة ثلجية عنيفة تتدحرج وتنفخ ريحها كثيفة مثل سحابات الصيف. في الأعلى, كانت السماء في صفاء البلور وبريقه, أما في الأسفل، فهي دوامة من الندوف الرمادية والبيضاء, بدا الأمر وكأن السماء قد ترفعت عن كل الصراعات نقية متلفعة بالبياض وتنعم بالسلام.

لم يكن من الممكن التمتع بمثل هذه الأفكار العميقة لوقت طويل. لذلك ارتدى احمد كل ما لديه من ملابس تحت البوركا, ثم استل خنجرا ودسه في هيكل الباب, وبدأ يكسر الجليد من الثقوب, فقد كان المخرج مقفلا بسبب الجليد, حشر نفسه من خلال الشق وفتح الباب عنوة على مصراعيه وبدأ يحفر لنفسه مخرجا.

لم يطل به الوقت حتى سمع نشاطا مشابها لما يفعله في المساكن الأخرى, تبعته صرخات نفاذة من طفلي مراد وهما يلعبان بالثلج, كل ما رأوه هو ان محيطهما كله قد تحول الى ساحة سحرية للألعاب.

لقد كان وجود جعفر وتيمور يشكل مساعدة كبرى لأحمد في تقدمه اللغوي, كانا يجلسان قريبين من بعضهم بعضا الى جانب المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة المعتمة, والريح تزمجر والعواصف تهب غاضبة مؤذية, يستمعان إلى قصصه عن الجبال وعن "النارتيين", لم يكونا يدققان في جمله المكسرة التي تنقصها الأفعال, فبالنسبة إليهما كانت لغته الشيشانية المكسرة تبدو طبيعية جدا لأنها الطريقة التي يتعلم بها الأطفال الكلام, لكن تيمور كان كبيرا بما يكفي لأن يسعفه أحيانا بكلمة هنا وأخرى هناك عندما تدعو الحاجة.

بدأ احمد بقوله: "لقد ساعد "نارت" صغير، لم يكن اكبر منكما بكثير, في كسب معركة في الأيام الغابرة".

"من كان ذلك..؟ وكيف حدث ذلك..؟ اخبرني باسمه.

"ساخبرك باسمه. لقد كان اسمه بيتيريز. ابن الكبير "هيميس". أخذه أبوه الى المعركة, لكن النارتيين لم يتمكنوا من تسلق الجدار الكبير للحصن".

"هل كانت الجدران عالية جدا, حتى بالنسبة "للكبار", العمالقة"؟

"حقيقة، تلك هي الكلمة. العمالقة: وهكذا حمل العملاق هيميس ولده بيتيريز، هكذا" زعق تيمور ضاحكا عندما رفعه احمد فوق رأسه.

"وبعد ذلك رماه الى فوق عاليا في السماء فوق جدار الحصن.....".

"أنزلني. اعملها ثانية!"

"ولم يشاهده احد. فاستطاع ان يفتح الباب الموجود في الجدار ودخل جيش النارتيين. هكذا"

استوجب الأمر منع تيمور بالقوة من تكرار هذه الحيلة مع أخيه الصغير الذي كان بإمكانه ان يلقي به بسعادة الى دعامات السقف.

وبخت مدينا احمد ضاحكة "انتبه الى ما ترويه لابني من القصص وإلا فلن تستطيع ان تجلس قرب ناري!"

أصبح احمد مسحورا بالجو غير الرسمي لحياة العائلة كما نظمها مراد ومدينا. كان يتناول الطعام في بيت صديقه معظم أمسيات الشتاء الطويل, جالسا الى جانب المدخنة الكبيرة المغطاة بينما تجهز مدينا وخادمتها وجباتهم فوق النار المكشوفة. ظل مراد يتحدث عن آماله بالنسبة للمستقبل: وكشف احمد المزيد عن ماضيه

بينما مدينا تصغي بهدوء، وهي تختار أفضل الأجزاء من تاريخ أحمد لتأخذها الى والديها والى أذني الملا عندما كان الطقس يتحسن.

شعر أحمد انه لن يعيش في أي مكان آخر أبدا، طالما كانت الألفة وغياب الرسميات صفة نموذجية في بلاد الشيشان, مرت بقية فصل الشتاء في هدوء, وسرعان ما أطل الربيع وولدت فرسه الشولوخ مقدمة مهرا كامل الأوصاف.

كان الملاّ قد أرسل إليه اثنين من الشيشان بعد وصوله ببضعة أسابيع من خدمه الخاص ليساعدوه في فلاحة الأرض وزراعة المحاصيل للصيف القادم. وقد بدأ في هذه الآونة سديم يحمل الرضى من البراعم الخضراء في الظهور عبر حقوله.

شارك هو ومراد في عدة غزوات لاقتناص دوريات القوازق, فجرحوا العديد من جنودهم وغنموا خيولهم وفروا بها. الغريب في الأمر ان القوزاق لم يردوا بقوة كبيرة، حدثت بعض الاشتباكات الخفيفة بينما احمد يتلهف على قتال أكثر جدية، لكنهم لم يكونوا قادرين على التخطيط لهجمات رئيسة الى ان يصلهم المزيد من البنادق وملح البارود.

بعد ذلك، تلقيا دعوة في احد الأيام لزيارة بيت الملا، اذ ظهر شيشاني وحيد على سفح الجبل الى الشرق من مستوطنتهم وأطلق من بندقيته ثلاث طلقات في تتابع سريع. لم يقترب أكثر, انطلق عائدا بجواده الذي فرد نيله كالريش في مهب الريح.

قال مراد "لقد بت أتوقع هذا الأمر منذ مدة طويلة" كان احمد وهو يرفعان آخر مخزون الشتاء من الذرة. فقد قام خدم مراد بحفر العديد من الحفر بمساحة متر مربع, احرقوها من الداخل, فرشوها بالقش ثم ملأوها بالقمح او الشوفان، بما يكفي لإطعام المجتمع الصغير طيلة الشتاء. تمت تغطية الحفر بالتراب بحيث انه حتى لو

مرت عصابة من الغزاة القوزاق فلن يعثروا عليها. والآن لم يعد هناك الكثير.

"هل تعتقد ان الملا يخطط لشيء أكبر؟"

أومأ مراد برأسه بالإيجاب، "لقد عكف على ضبط نفسه طيلة الشتاء. كان يجب الانتقام للهجوم على ولده بالقدر الملائم، أستطيع ان أقول لك يا أحمد. بان ملأنا هذا كان مقاتلا شرساً منقطع النظير في أيام عزّه".

ضحك أحمد "منقطع النظير! اقسم يا مراد انك تقول أشياء لم اسمعها أبدا حتى باللغة القباردية. مراد ذي اللسان العسلي!"

بدا مراد مكتئبا بعض الشيء "لم أدّع بهذا لنفسي مطلقا – لكن والدي لديه سمعة كخطيب مفوه, وأنت تعرف إلى أي حد يقدّر القبارديون الفصاحة"

"اعرف, فالأمر نفسه في الكوبان"

جاء خدمه وقد أسرجوا الخيل لهما "حان وقت الاستعداد، سنبيت الليلة مع عائلة مدينا"

بدا على احمد السرور. ابتسم مراد "هل أنت مستعد لقليل من الصحبة بعد انحباسك هنا؟"

هز احمد رأسه فقد أصبح الجو أكثر جدية له من ان يجر الى المزاح.

ركبا بثبات لساعتين بحيث وصلا الى بيت الملا في منتصف ما بعد الظهيرة، من الواضح أن أمراً ما يتم التحضير له, كان المقاتلون الشباب جالسين في الخارج تحت أشعة الشمس الباهتة يشحذون سيوفهم فوق حجارة الجلخ, يفككون بنادقهم الغالية على قلوبهم حتى ولو أنها قديمة, ويزيتونها.

أول من شاهد وصولهم هو حمزات، قفز واقفا لتحيتهم قائلا:

"أخيرا يمكننا الآن ان نبدأ, أهلا بك يا أحمد، كم تبدو بحالة جيدة, ان بلاد الشيشان تليق بك!." تكلم بلغته بدون ان يلاحظ ذلك وسره ان يرى ان احمد فهم كل كلمة قالها.

قال احمد أثناء سيرهم الى داخل ساحة منزل الملا "الفضل للعمل الشاق وهواء الجبال.. يبدو انك تعافيت جيدا من جرحك يا حمزات, انا سعيد من أجلك"

أحضرت النساء المرطبات ووجبة خفيفة ولكن لم يظهر أي اثر لتسيما. كانت خيبة أمل احمد طاحنة، لأن هذه الزيارة الأولى تعني له الكثير، فقد أصبح بإمكانه التحدث معها لو انها أفسحت له المجال.

تجمع الرجال تحت أيكة من أشجار القضبان جالسين في دائرة على الوسائد. تاركين مسافة احترام بين كل منهم والكبار والملا.

تبادل الشباب التدافع والدردشة حول مغامراتهم السابقة. بدأ ارسبي, ابن الوجيه ذي اللحية الرمادية الذي يتحدث اللغة الروسية وكان يعمل في تهريب السلاح, وكأنه متكبر, لم يعد ذلك المتودد الخالي البال الذي رقص بإبداع في المرة الأخيرة التي شاهده فيها احمد. وقف على بعد قليل وقد عقد ذراعيه على صدره يحدج بنظراته احمد الذي أدرك انه بغض النظر عن درجة القرب التي توصل إليها مع مراد وعائلته خلال الأشهر القليلة الماضية، فان هؤلاء الرجال الشيشان ما زالوا بحاجة الى برهان على إخلاصه وروحه القتالية. أضاف كوير, الأكبر سنا بعض الشيء من المقاتلين الآخرين ومنافس احمد الى المزاج العام بتفاخره "لقد سرقت لنفسي جواداً رائعاً. كنت كامناً في أعلى شجرة وأسقطت ذلك القوزاقي عن سرجه بضربة واحدة من عقب بندقيتي. لم يعلم أبداً بحقيقة ما أصابه". قال ذلك وهو يلوح بذراعيه لزيادة التأثير.

قال آخر: "أصابته يد الله" بشئ من اللؤم.

كشّر حمزات "ليس هذا تعبيراً استعمله باستخفاف".

تدخل كوير "اهدأوا الآن فان الكبار قادمون"

ظهر الملا وظهر خمسة من الكبار يتبعونه

عندما شاهد مراد وأحمد، تعمد ان يعبر الدائرة لتحيتهما "اهلاً بكما، لقد سمعت ان هديتي قد أثمرت"

فوجئ احمد "كيف علم بأمر الفلو؟"

إنها المرة الأولى التي يغادر فيها هو واحمد مركزهما

قال احمد ببطء "حقاً" فلو جميل متوازن حد الكمال, تقبل عرفاني أيها الملا".

كان كوير يراقب ويوزن كل كلمة بدلا من ان يعجب بسيطرة احمد على اللغة الشيشانية التي اكتسبها باجتهاده -لوى شفتيه وكأنما القباردي متلهف ومداهن أكثر مما يجب.

كان الفخر بالفروسية أول صفات عائلته فقد كان أبوه ايلدار أفضل فارس في كل بلاد الشيشان. رفع الملا يده آمراً بالسكوت" تعلمون أن مخزوننا من ملح البارود قليل وعليه يجب عمل شئ، وهذا هو ما قررنا عمله" اندفع الشباب الى الأمام تواقين للقتال "هذا هو الوقت الذي يبدأ فيه القوزاق بإحضار اللوازم الى الستانيتزا. وهم مثلنا، أصبحت الضروريات عندهم قليلة وهذا هو السبب في عدم مضايقتهم لنا في الفترة الأخيرة. سوف نقوم بوضع مراقبين على طول الطرق الرئيسة من السهول وحتى الستانيتزا. ثم نقوم بالتعرض لقوافلهم". انفجر ارسبي قائلاً: "هذه لصوصية! سامحني أيها الملا, لكنني اعترض، ذلك لا يكفي, لقد عانينا الشيء الكثير، يجب ان نجمع قواتنا ونضرب الستانيتزا نفسها".

لقد كان في هذا العمل قلة تهذيب، وليس ما اعتاد عليه احمد، وهو الذي ما عرف سوى مجلس قباردي الكوبان الأكثر تنظيماً واشد احتراماً.

صدرت همهمة عامة من التأييد لهذه الخطة الأكثر عدائية.

رفع الملا يده بطريقة آسره "الصنمت! لقد تكلمت, ان الكبار الذين لديهم من المنطق أكثر منك يا ارسبي يوافقونني." ثم نهض قائماً وغادر الحلقة.

بدأ الشباب فوراً يتجادلون فيما بينهم. وكان أكثرهم جدالاً ارسبي الذي شعر بالإهانة, واستمر الجدال إلى ان تناوله ابوه، وهو رجل قصير القامة ذو لحية رمادية ووجه مليء بالأخاديد العميقة ، من ذراعه واخذ يعترض، بعدها دخل كوير المعترك وهو يضرب كفه بقبضته مدافعاً عن رأي مواطنه! كما اخذ والده ايلدار الفارس ذو الثوب الأسود يضرب على صدره وقد أصابته نوبة من الهياج العاطفي.

استدار مراد نحو احمد "هل رأيت كيف هم الشيشان يا صديقي؟ دعنا نتركهم حتى ينفسوا عن غضبهم بعض الشيء, لذلك غادر الملا مستعجلاً". ونهض قائماً.

"لقد استغربت كيف يغادر قائد القوم في هذا الوقت المبكر من الاجتماع." قال احمد وهو يتبع مراد. "افترض انه سيعود بعد ان يهدأوا".

"انت تتعلم. هيا بنا لنقابل والديّ مدينا."

"ولكن كيف عرف الملا بأمر الفلو المولود حديثاً؟"

"اتوقع ان يكون ذلك عن طريق الدوريات. إنهم يحومون في الجبال مثل فهود الثلج, حتى في فصل الشتاء".

شعر احمد بشوق يائس الى العثور على تسيما، لكن "الخابزه" تفرض ان يذهب الى منزل أهل مدينا لتقديم احترامانه, وعليه فقد كان سروره لا يحد، عندما وجد تسيما تنتظر في الصالة بصحبة حنيفا، والدة مدينا.

وقف مراد باحترام أمام حماته، المرأة النحيلة الستينية التي بدت بصحة جيدة, وترتدي ثوباً ازرق اللون فضفاضاً وقد غطت رأسها بمنديل ابيض ناعم.

سألت المرأة العجوز وهي تمد يديها ترحيباً بالرجلين "كيف هي ابنتي؟ ان صديقتي الشابة تسيما هنا، ترغب في ان ترسل لها التحيات, انها مشتاقة الى رفيقتها القديمة".

"مدينا بخير وأحفادك بنعمة والحمد لله" استخدم مراد الطريقة القديمة ليرضي حنيفا، سوف تحضر جعفر لزيارتك قريباً خاصة وأننا مهدنا الطريق لها".

أصيب احمد بحالة من فقدان الحواس الكامل، بعد أسابيع من تهيئة نفسه لهذه اللحظة. ان عينا تسيما الرماديتان قد زادتا جمالاً عما يتذكره, بشرتها بلون العسل تومض بنور الشباب والربيع، فجأة لم يعد يتذكر كلمة واحدة من اللغة الشيشانية.

تصرف مراد طبعاً على أساس الوسيط المثالي, فقد اشغل الصمت "ستجيء مدينا لتبقى هنا بينما نذهب نحن الى الغارة. ستستغرق "الغزوة" وقتاً أطول مما يسمح ببقائها لوحدها.. سأجعل احمد يرافقها الى هنا بعد بضعة أيام, فهل تفعل ذلك يا أحمد؟ "حتماً".

استمر مراد قائلاً "في هذه الأثناء, لماذا لا نقدم هدايانا الى تسيما؟" واستدار نحو حماته "لقد سلينا أنفسنا كثيراً خلال هذا الشتاء".

أخذ احمد يعاني لاستعادة رباطة جاشه، لم يكن هذا تصوره لأول اجتماع مهم مع حبه. صارت يده ترتعش وهو يمدها بكيس صغير من الجلد. تحدث بحرص شديد:

"لقد اصطحبت جعفر الى الجبال بضع مرات وعثرنا هناك على هذه القطع النقدية, أعطيت بعضها الى مدينا واحتفظت بهذه المجموعة لك".

اخذ قلب تسيما يخفق بعنف فقد بهرها سماع حبيبها وهو يتحدث بلغتها، صوته رجولي عميق وبه لكنة غير اعتيادية، لهجة

جعلت اللغة الشيشانية أكثر موسيقية ونعومة لأذنيها مما سمعته حتى الآن.

"إنها قطع نقدية يونانية. هذه عربة قتال، وهذا محارب على احد الوجهين. وهذا رأس على الوجه الآخر. إنها قديمة جداً" كان احمد يكافح للعثور على الكلمات الصحيحة.

قال مراد: "أتوقع ان يكون المصدر من التجار" مع ان أحداً لم يعره أي اهتمام.

اقترح احمد وهو يدنو مقترباً من تسيما أكثر قليلاً.

"إنها من الفضة الجيدة, يمكنك ان تستخدميها لصنع قلادة".

حان الآن دور تسيما لتقول شيئاً مشجعاً.

"أنا أشكرك، أمر طيب منك ان تفكر بهذه الأشياء اللطيفة بينما أنت تخطط للذهاب إلى الحرب".

"على العكس يا تسيما، ان التفكير بمثل هذه المسرات هو ما يساعد الرجل على القتال"، كان احمد قد تدرب على هذه المجاملة عدة مرات. لم يدرك أن عبارته خرجت كاملة الى درجة أنه أصبح واضحاً انه قد تدرب عليها. ضحك الجميع لكنه وقف حائراً لا يعرف لماذا يضحكون.

***

الفصل الخامس

مرت أسابيع طويلة من القلق بينما يتبادل المقاتلون الشيشان الأدوار في الدوريات لمراقبة ستانيتزا صغيرة تحت سلسلة جبالهم باهتمام حاد. توقعوا ان يبدي جنود القوزاق إشارات أكثر من النشاط, خاصة وان الثلوج قد بدأت تذوب.

المعسكر جديد وقد بدأ القوزاق نشاطهم بان أزالوا الأشجار المحيطة به حتى يتمكنوا من بناء جدرانهم الخارجية بالطريقة التي شاهدها احمد في مناطق البزادوغ.

فقد ظل المعسكر عرضة للخطر بدون وجود خط دفاعي من جدار محيط, وقد بدا للشيشان أن القوزاق لم يكونوا جادين في جهودهم للبناء. لم يكن هناك مؤشر على أي تحرك باتجاههم سواء كان تموينا أو تعزيزات.

في احد الأيام حان دور احمد ومراد في نوبة الرقابة ، كانت لدى مراد علامة امتياز نموذجية تتمثل في امتلاكه لمنظار إنجليزي مقرب، وهو هدية لوالده من تاجر في احد الموانئ التركية البعيدة. سمح لأحمد ان يتفحص المعسكر أولاً، ألقى بنظرة مقتضبة لنفسه ثم أغلق منظاره الثمين متفكراً.

شرح مراد لأحمد "نستطيع في العادة ان نعرف اذا كان شخص ما او بضاعة في طريقها إليهم، لأنهم يبنون مستودعاً إضافياً او يرسلون مجموعة متقدمة لإرشاد القافلة الى المكان, لكن انعدام النشاط هذا غريب جداً."

قال أحمد: "إنني أتساءل عما اذا كانت المشكلة عندهم هي نفس مشكلتنا. ربما تكون ذخائرهم ومؤنهم متدنية وهم في حالة توتر."

كان مراد قد استأنف خفارته باستعمال المنظار.

"ذلك رجل روسي حسن المظهر يمشي مستعجلاً..... أتراه؟"

تناول احمد المنظار وحملق من خلاله الى مساعد حسن الهيئة، أشقر عريض المنكبين ويرتدي زياً عسكرياً، يضرب جواده بالسوط عبر السهل باتجاه الستانيتزا. مع اقتراب الخيال، رفع حراس الستانيتزا قضبان البوابة الرئيسة للمعسكر واندفع الفارس مثل اندفاع الرعد. قفز عن سرجه بدون مجهود ووجه تحية أنيقة الى الضابط المناوب، دخل الشكلان البعيدان الى مبنى قيادة المعسكر.

"ربما يجدر بنا ان نحذّر الملا. أصبح أحمد في هذه الآونة مكشوفاً في أعذاره لزيارة قرية تسيما.

ابتسم مراد ابتسامة العارف ومازحه بقوله:

"انا لست عفوياً في العادة الى هذه الدرجة, ولكننا سنركب عائدين عن طريق القرية إكراماً لك أيها الصديق العزيز"

سارا خبباً وبهدوء لمسافة تقرب من ميلين, مبتعدين عن السلسلة المطلة على الستانيتزا ليسلكا طريقاً دائرية في حالة أنهما كانا متبوعين. هنا, في هذه الثنايا المحمية للجبال، كان الهواء دافئاً بحرارة صيفية بحتة. استمرت طريقهم حتى عبرت مجرى عميقاً، حيث يعرف مراد ان نساء الشيشان كثيراً ما كنّ يحضرن البياضات لغسلها وأحياناً يستحممن بأنفسهن.

كان المشهد محلياً فاتناً، كل الصبايا بشعورهن الطويلة المغسولة حديثاً وقد نشرنها بخفة لتنشف على أكتافهنّ، منحنيات فوق الثياب ذات الألوان الزاهية في البركة الجبلية، وقد تأطرن

بالخضرة الغنية, بحيث تضارب اللون الأخضر العميق مع اللون الباهت لاذرعهن وكواحلهن العارية.

فوق رؤوسهن، كان شلال من ينابيع الربيع ينهمر ماؤه من ذوبان الجليد عن الذرى البعيدة. خلع بعض أطفال الشيشان ملابسهم وطفقوا يتقافزون في الشلال في براءة الأطفال الرضع.

اقترح مراد "ساسبقك في المسير لاحيط الإمام علماً بما يحدث".

افترق احمد عن مصاحبة مراد بدون الحاجة الى النطق بكلمة. فقد وقعت عيناه على تسيما بين النساء. بدأ الأطفال يزعقون من الإثارة عند اقترابه، هرعت إليهم بضع نساء للامساك بهم ولفهم في دثار دافئ, وفي الأثناء يفركون أجسادهم المتراقصة لتدفئتها.

اختلفت نظرة احمد الى تسيما في هذا المنظر المشحون بالأمومة، بدت له أقل ثقة بنفسها واقل جرأة. كان خداها قد توردا من جهد عملها وقد التف شعرها في خصلات جميلة حول جبينها. أضحت أنوثتها أكثر ظهوراً، النعومة في نهديها العامرين، الاستدارة الرائعة في ردفيها. لكن تلك الصورة لم تدم في ذهنه الا ثانية لان تسيما قفزت مثل غزال شارد بمجرد ان تعرفت عليه، وركضت في الممر باتجاهه قوية مندفعة ، فتاة يافعة مرة أخرى.

"لقد اعتقدت انك لن تحضر اليوم"

أصبح احمد مدركاً لوجود عدة أزواج من العيون البراقة، حيث تجمعت النساء الأخريات الموجودات في البركة لمراقبته. انزلق عن جواده, اخذ بيد تسيما ومشى بها قليلاً الى احد جانبي الممر. عندما وقفا متقابلين عن قرب، يتنشقان الهواء نفسه, أدركا لحظتها أنهما في المكان الملائم على وجه الأرض.

تمتم احمد "لم يكد يوجد لي سبب للقدوم".

"إذن فقد حدث أمر ما"

"أظن ان شيئاً ما سيحدث قريباً. الغارة"

"لو انك ذهبت، لو انك لم تودعني"، بقيت تسيما متحفظة في كل المرات السابقة التي التقيا فيها، ولكن الآن وقد أصبحت اكبر غارة على الإطلاق يقوم قومها بالتخطيط لها، وشيكة الحدوث, فقد انهار تحفظها، تقدمت تسيما واحتضنت احمد في عناق حميم وأراحت رأسها فوق صدره.

سألته بعبارات رخيمة متهدجة "هل يتحتم عليك ان تذهب في هذه المرة؟ الأمر مريع في كل مرة ، ولكن هذه المرة....."

ضمها احمد إليه وقلبه يرقص فرحاً من إدراكه لعمق مشاعرها تجاهه. أحس بجسمها الفتي المتكبر يضغط على جسمه ونبضت من خلال وجوده رعشة قوية, في تجربة جديدة لذيذة ومرعبة. ثم اضطر الى الابتعاد عنها قليلاً حتى يستطيع ان يتكلم, كان فمه جافاً.

"ماذا سيقول الرجال؟ لقد كسبت كمية محترمة من الغنائم من غزواتي السابقة, لكن هذه مختلفة. أريدك ان تشعري بالفخر تجاهي".

أغضت تسيما بعينيها وقد أحمر وجهها من إثارة العناق القصير. لقد تكهن أحمد بطريقة ما انه بحاجة الى ان يثبت ولاءه لشعبها من أجلها، ولكن أكثر من ذلك لأجل الملا ومنافسيه.

رجّحت تسيما ان الأفضل الا تقول شيئاً وثبتت تحديقها في العشب عند قدمي احمد. فقد كانت هذه أوقاتاً عصيبة وقضايا جدية.

أراد ان يخفف الجدّية "سرعان ما سيكون لدي صداق من الروعة ما يكفي لأن يسر حتى والدك." ضمها إليه مرة أخرى.. "انه محق في ان يقدر ابنته عالياً لهذه الدرجة. ليس هناك شيء كثير على الفوز بك يا تسيما."

"لا أهتم أبداً بذلك الأمر, طالما أنت تحبني"

انتزع احمد نفسه من ذراعيها كارهاً، لأنه وجد نفسه مضطراً الى فراقها. لو سمح لنفسه بان تستشعر عمق عواطفه, فربما لا ينضم الى المعركة أبداً.

تحرر منها وامسك بسروع فرسه في محاولة لأن يمثل دور العاشق البطولي, وليجعلها تبتسم مرة أخرى." ولا طالما انت تحبينني أيضاً يا تسيما"

رجته تسيما مداعبة "لا، أرجوك ، ابق مدة أطول قليلاً"

"أنت تعلمين أنني لا أستطيع, يجب ان اذهب"

"ارجع في وقت قريب أرجوك...... لتزور أبي. انه يحب ان يستقبلك"

"عودي الى صديقاتك" لوّح احمد الى الفتيات المجتمعات بقرب البركة بحماسة ومرح، وهنّ يراقبن الفراق المؤلم للعاشقين بنظرات براقة ، "إنهن يشعرن بالأسف لأنني لم اختطفك"

ضحكت تسيما أيضاً بمرح وقد شاركته مزاحه "ما كنت لتجرؤ....!"

ولكن بينما طرد احمد فرسه مبتعداً، بهتت ابتسامتها وداخلها الخوف

***

لقد كان إدراك احمد الحسي لهذه الغارة صحيحاً, فما أن بلغ القرية عائداً، حتى كانت كل أسرة قد استنفرت مقاتليها دافعة إياهم للإسراع في الانضمام إلى" الغزوة."

ورغم انه ومراد كانا غريبين, إلا أن الملا عيّن مراد لقيادة مجموعة الإغارة واحمد نائباً له. وقد كان هذا اختباراً في الولاء، القوة، وربما قراراً منطقياً حيث أن مقاتليه الشيشان سيتصرفون باندفاع زائد في حمأة المعركة.

قال الملا باقتضاب وحزم, وقد أسبل عينيه "ليس ذلك الجندي الروسي وحده، فقد علمت من تقارير أخرى انه مقدمة لمجموعة صغيرة من الضباط الروس يسافرون باتجاه الستانيتزا وهم يصطحبون عربات تموين. اعتقد أنهم يخططون للوصول الى المعسكر بحلول الظلام, اذا حكمنا عليهم من سرعة تقدمهم، لدي من الأسباب ما يجعلني اعتقد ان حمولتهم هي من الأسلحة: بنادق وملح بارود"، تعجب احمد وليس للمرة الأولى من شبكة التجسس التي يديرها الملا.

"ليس لدينا وقت نضيعه, بارك الله في مشروعنا هذا"

تجمع كل المقاتلين للصلاة في ساحة القرية أمام منزل الملا. طفق قلب احمد يخفق بعنف وسط الصمت المخيم، وهو يقاوم انعدام الصبر الذي يدفعه الى ان يقفز من فوره الى السرج ويدخل ساحة الوغى, كافح في قلبه ليجد لحظة من التقوى. يصلي فيها من اجل النجاح في المعركة. أبقت قوة شخصية الملا كل رجل على حدة راكعا على ركبتيه لوقت أطول مما شعر كل منهم بأنه مقبول ومحمول. لكن عندما نهض الرجال، سرت بين الجمع موجة من الابتهاج واخذوا يصيحون "الحمد لله، لك الحمد يا الله".

قفز المقاتلون الى سروجهم وانطلقوا في سرعة وقوة نحو حافة السلسلة, بلغها الشيشان بسهولة مع حلول الظلام. أمر مراد القوة بالاستراحة تلك الليلة, شخر ارسبي بقوة عادلت شخرة حصانه" نستريح! لم لا نهاجم؟"

"انني معجب بمعنوياتك يا ارسبي, وآمل انها مشتركة بيننا جميعا. وقتها سيكون النصر محققا"..كان مراد أهدأ من أي وقت مضى, وهو يعرف كم من العوامل يعتمد على سلطته "ولكن حتى تتم هذه الغارة بسرعة البرق يجب ان تكون الجياد مرتاحة. إننا نستريح هذه الليلة من اجل الجياد وليس من اجلنا نحن!".

قال احمد "سأتولى هذه الجهة الغربية، هناك".

اضطجع حوالي خمسة عشر رجلا خلف مراد. وحفنة أخرى حول احمد.

وكان ايلدار ضمن مجموعة مراد, الرجل الضخم ذو الثوب الأسود الذي ضم احمد الى صدره فيما يشبه احتضان الدب، وجلس الى جانبه كوير, صاحب المزاج الناري. عرف احمد في هذه اللحظة انهما اب وابنه, فكلاهما داكن البشرة براق العينين وكل منهما محبٌ للقتال. وكانت معهما أفضل مطيتين بين بني قومهم. ألقى احمد نظرة خبيرة عليهما وهما واقفتان في هدوء وصمت. ترعيان العشب بهدوء ولا تبتعدان, استمر كوير في التحديق فيه. مع ان احمد لم يستطع ان يتخيل السبب في حدة نظراته الى تلك الدرجة. ربما لم تكن أكثر من سواد النعاس الذي بدأ يحل عليه. حين تحدق العيون ولكنها لا تشمل المرئيات, قبيل إغلاقها بلحظات.

هنالك، على السلسة المشرفة على معسكر القوزاق. لم يسمع سوى صوت التنفس القلق, مختلطا بالريح لعدة ساعات.

قبل الفجر بوقت طويل, كان الرجال قد استيقظوا وبدأوا يتفقدون أسلحتهم وبارودهم وحد سيوفهم. وقد لاح من النور ما يكفي بالكاد حتى يستخدم مراد منظاره المؤتمن. بدأ يتلو على الرجال تعليقا مستمرا لما يراه حتى يهدىء أعصابهم.

"هناك ثلاثة حراس خافرين، في الزاوية الشمالية، والجنوبية والشرقية, ولا احد في الغرب, ذلك مفيد، أشعل احدهم نارا الى يسار الوسط. أستطيع ان أرى شخصا يجهز الطعام.. هنالك بناء حجري واحد فقط وهو الذي يرفرف فوقه علم الكتيبة أترون؟ بقية الرجال كلهم تحت الخيام المحيطة به..آه, آه.. ها هو!"

سلم مراد المنظار الى احمد لمعرفة رأيه "هل ترى الخفير القوزاقي, قرب الخيمة. الى يسار الوسط؟ اعتقد ان ذلك هو مخزن الأسلحة ولا بد"

حدق احمد بعناية ثم أومأ برأسه موافقا.

خاطب مراد الرجال بلهجة رسمية "ايها الإخوة: ان أولويتنا هي تلك الخيمة, انها الوحيدة المحروسة ولذلك لابد وانها تحوي الذخائر, يجب ان نتسلل الى الداخل ونحمل قدر ما يمكننا حمله قبل ان ينتبه المعسكر". استدار نحو حمزات "أريد منك ان تصطحب خمسة رجال وتركب باتجاه الجهة الشرقية. ابق متخفيا, ولكن اذا سمعت إطلاق نار في الجهة الغربية مع الجماعة المغيرة، عليك ان تهاجم المعسكر بسرعة من الجهة الأمامية لإرباك العدو وإعطائنا التغطية اللازمة حتى ننسحب ومعنا الغنيمة".

وقف حمزات منتصبا بشدة وأعطى إشارة على موافقته.

شعر احمد بالامتنان على هذا الترتيب. لان حمزات راجح العقل ومتزن, مقاتل يمكن الوثوق به, فهو لن يسمح لرجاله بإشعال القتال لمجرد إشعاله, وهو أمر ربما أغرى ارسبي او كوير على القيام بمحاولته.

اذا شاء الحظ فلن يكون لدى حمزات ما يفعله. أحس احمد الى أي درجة كان حمزات يكره سفك الدماء, لم يكن يستطيع ان يرى غير جانب وجهه, الجلد مشدود فوق عظام خديه, عيناه الزرقاوان تكادان تبدوان بدون لون لشدة توتره. يداه تعبثان بعصبية بالقاما المعلقة في حزامه, وهو مستمر في شد ظهره الى الوراء حيث ظل الجرح القديم يضايقه.

تطوع رجل آخر للذهاب مع حمزات على الفور وذلك هو صاحب الوجه اللطيف أتي, الذي يحسن التكلم بالروسية, ولطالما سرق البنادق الروسية وأعاد بيعها, كان ممسكا ببندقيته براحة وسهولة لا يتقنها سوى الرامي الماهر, كان احمد سعيداً لوجوده، خاطب مراد الجمع مرة أخرى "انتم تعرفون بالضبط الغاية من هذه الغارة, بمجرد أن تقع أيديكم على أي شيء. يجب ان تفروا به بسرعة، رجوعا باتجاه التلال, لا تجعلوا أي شيء يوقفكم"، توقفت

عيناه على الشاب ارسبي وكأنما يؤكد عليه "لا أريد أعمالا بطولية انتحارية" تجنب ارسبي الإيحاء, استدار مراد نحو احمد وتكلم معه باللغة الشركسية.

"سيكون هذا أمراً صعبا عليك. لن نغير سوية, أريدك ان تذهب مع حمزات. وتشرف على حسن سير الأمور".

لم يكن هناك ما يفضل احمد عمله أكثر من ذلك. من باب حبه لتسيما فان حماية حمزات والاحتفاظ بالجناح سليما لمراد واجب مشرف، لكن احمد كان يفضل ان يكون ضمن الجماعة الرئيسة المغيرة, ومع ذلك فالأوامر هي الأوامر. صافح احمد يد مراد بحزم وقوة "أتمنى لك حظا طيبا يا أخي".

استدار احمد وحمزات مع أربعة خيالة هابطين المنحدر باتجاه مدخل المعسكر. كانت الامهار الجبلية ذات الأرجل القصيرة والصدور العريضة الضخمة ركوبات مثالية لهذا النوع من الهبوط السريع, الذي يمكن ان يكون مؤذيا لسيقان خيول الأراضي المنبسطة. كانت فرس احمد القباردية بنفس الثبات على رجليها. سلكوا طريقهم بدون أي صوت نازلين السلسلة باتجاه المعسكر الروسي الجديد, خبأ الرجال أنفسهم في دغل غير بعيد عن "الستانيتزا", كانوا بالكاد يتنفسون, فقد أضحوا قريبين من القوزاق الى درجة أنهم في الحقيقة أصبحوا قادرين على سماع الرجل السمين الذي اطل برأسه من خيمة الذخيرة حينما أصدر أمرا باللغة الروسية – مع ان خيمة الرجل موجودة في منتصف" الستانيتزا"

أصبح بالإمكان رؤية رجل مخيف الشكل ذو ندبة على طول انفه مقعيا فوق تنكة فارغة قرب النار، ذهب الخفير الواقف قرب الخيمة اليه وأصدر له أمراً.

قال آتي "انه يزعق مطالبا بالشاي, ذلك الرجل الذي في الخيمة ليس قوزاقيا, انه ضابط روسي. أستطيع ان أميزه من لهجته، ألهذا

السبب يوجد خفير هناك؟ ماذا بحق الجحيم يفعل ضابط روسي برتبة رفيعة في هذا المعسكر التافه؟".

جف لعاب احمد في فمه, فقد تولد لديه إحساس مفاجيء بخطر داهم عظيم: ماذا اذا لم تكن الذخائر موجودة في تلك الخيمة؟ لكن العملية دخلت حيز التنفيذ ولم يعد هنالك وقت لتحذير مراد, راقب احمد بحثا عن علائم على تقدم مراد في مؤخرة الستانيتزا. التقطت عيناه منظر خط رفيع من الشيشان وهم يزحفون على بطونهم بين الشجيرات حتى اختفوا خلف الخيام.

فجأة تردد صوت طلقة بندقية ودبت الحياة في المعسكر كله.

احتفظ احمد وحمزات ومجموعته الصغيرة بمواقعهم بينما بدأ القوزاق المذعورين وهم نصف عراة, يحملون البنادق والسيوف ويخرجون من الخيام ويركضون في كل الاتجاهات بشكل فوضوي, بينما مال احمد برأسه وقد أحس بالخطر الداهم, الذي يحتمل ان ينسفه عن جسده, شاهد مراد يجري خارجا من خيمة الذخائر ممسكا بجانبه الأيسر, تبعه العديد من رجاله, اثنان منهما يسحبان شيشانيا جريحا بينهما.

كاد الغضب والسخط يذهبان بوعي احمد. واضح ان تلك الخيمة لم تكن مخزن البنادق. بدأ هو وحمزات يطلقان النار سريعا على المعسكر لتحويل الانتباه عن رجال مراد المتراجعين. مما تسبب في استدارة العديد من القوزاق لمواجهة مجموعة احمد, وتحرك احمد الى الأمام ليرد على النار. بينما احمد يسدد ويردي قوزاقيا آخر متجها نحوه، رأى العديد من رجال مراد يعودون أدراجهم ويندفعون نحو عربة مجهزة بالخيل قرب خيمة الضابط الروسي، قام شيشاني بطعن الحارس الواقف الى جانبها في ظهره.

لم يتسنى لأحمد الوقت حتى يتابع التطورات, فقد أراد منه مراد ان يجتذب النار وهذا بحق الله ما كان هو وحمزات منشغلين بأقصى طاقتهما في عمله, فالظاهر ان نصف قوات الستانيتزا ظنوا

ان الهجوم الرئيس يجيء من مقدمة المعسكر وركزوا ردة فعلهم على احمد ورجاله الخمسة. كان هناك عشرون منهم على الأقل وكانوا يقتربون بسرعة.

فجأة سقط حمزات إلى الوراء، وهو يشتم بغضب، أحنى نفسه تحت شجيرة مستلقياً بقوة فوق جانبه المصاب، وأخذ يعيد تعبئة البنادق للرجال بيده السليمة. ذلك كل ما كان قادراً على عمله.

أخذت الإحاطة بقوة أحمد وحمزات الصغيرة تكتمل.

انطلقت من المجهول أصوات لا يمكن الخطأ فيها، أصوات الخيول الجامحة المجيدة. حملق أحمد من وسط غيمات دخان البنادق ليشاهد ايلدار، والد كوير، وهو يهاجم بعنف عبر طول المعسكر فوق جواده الذي يشخر، ثوبه الأسود يتطاير حواليه مثل جناحي نسر. لقد وصل إلى حظيرة القوزاق، أطلق خيول الجنود، وبدأ يطردها باتجاه ظهور القوزاق الذين بدأوا يحاصرون أحمد مباشرة. خلف الخيول مباشرة جاء ما تأكد أنه عربة الذخائر، ومراد جالس فوقها، يلهب ظهور جياد الكاراباخ ويزيد في سرعته.

صرخ أحمد برجاله "أخرجوا من هنا" وكاد يتعثر وهو يرفع حمزات إلى قدميه بعنف، وألقى بنفسه وبرفيقه الجريح إلى الجانب قبل أن تحطم الجياد المجفلة عظامهم.

كانت خيولهم على بعد خطوات قليلة، مهتاجة وتشد السروع التي تقيدها في وسط المعمعة. أمسك أحمد سروع فرس حمزات بأسنانه ثم ألقى بالشيشاني الشاب فوق السرج، ضرب الفرس على قفاها ضربة موجعة ليجعلها تطير هاربة ثم ركب فرسه وطرد خلفها.

نظر إلى الخلف وهو منحنٍ في سرجه: أصبح هذا منظراً مألوفاً، رصاصات تئز مارة بجانب أذنيه، وخيول القوزاق تهدر خلفه على مسافة قريبة.

إلا أنها في هذه المرة كانت بلا خيالة، فقد أجفلت الحيوانات إلى الإمام قافزة فوق الجنود، وداست ثلاثة منهم على الأقل حتى الموت. بدأ القوزاق يلعنون، وقد انتفخت وجوههم واحمرت من الغيظ، يطلقون رصاصات غير مجدية على الطريق الخالية بينما اختفت خيولهم وهرب الشيشان.

ثارت أمام أحمد غيمة من الغبار: مراد يقود العربة بحمولتها بسرعة، محاطاً بمعظم قوته من الشيشان.

***

بعد مرور عدة ساعات، وقف المساعد إيفانوف مذهولاً داخل مبنى قيادة المعسكر وقد اختفت رباطة جأشه: فذلك الصباح هو المرة الأولى التي شاهد فيها دماغ رجل ينسحق خارجاً من تجويف جمجمته بواسطة عجلة عربة، مما أورثه شعوراً مؤكداً بالتعاسة نتيجة لتلك التجربة.

بدا قائد المعسكر الواقف بجانبه في هيئة زريّة تعادل مشاعره. فقد ظهر جنرال روسي آخر مع ثلاثة من الضباط ذوي الرتب الصغيرة ومرافقيهم في المعسكر فيما بدأ وكأنه دقائق مرّت على هجوم الشيشان. وقف إيفانوف والقائد المسمى جرونسكي على السجادة: فقد استولى الجنرال على المكتب الوحيد الموجود في الغرفة المزدوجة، جالساً بظهره المنتصب ويحدق فيهما. لم يتسن لجرونسكي حتى أن يربط أزرار سترة ردائه العسكري، فيما أخذت عيناه، وهو القوزاقي القصير النحيل، تقفزان بخوف، وهو ينقل جسمه من قدم إلى أخرى، متخوفاً من عواقب تقريره حول هذا الحادث.

بات واضحاً إن الجنرال الروسي يشعر بالقرف من حالة "الستانيتزا". لم تكن الجدران الدفاعية قد أقيمت، ولا تمّ قطع الأشجار، مما ترك غطاءً مثالياً للمهاجمين. وقد اختفت خيول المجموعة، كما ذهب مخزون السلاح الذي رافق الجنرال

كوماروف في رحلته، وسقط عشرة من القوزاق ميتين أو في النزع الخير.

على الأقل، كان إيفانوف مرتدياً ملابس لائقة. قدم تحية عسكرية لائقة.

قال بإقتضاب "أيها الجنرال ايلوفياسكي، يا سيدي!" وقد أغضبه أن صوته أنحبس عند المقطع الأخير.

جاء صوت ايلوفياسكي فظاً، مقتضباً "أين هو كوماروف بحق الجحيم؟".

"إنه هنا يا سيدي" قال جرونسكي، الرجل الذي إنهارت معنوياته وهو يتكلم الروسية بلكنة واضحة ويتمتع بأدب صاحب مطعم بملابس مبقعة بالزيت، قاده إلى مقعد قذر حقير في الزاوية. أشار الى غرفة مجاورة، وهي غرفة طعام الضباط. كان كوماروف مسجى فوق طاولة طعام القوزاق. رفع ايلوفياسكي القماش المضمخ بالدم، كان كوماروف في حالة غيبوبة، وبالكاد يتنفس. جرحه قد تم تغطيته ولكن بقعة بشعة باللون الأخضر المائل إلى السواد بدأت تنتشر عبر معدته. لم يبد الأمر مبشراً بخير، "بحق اسم الله، أين هو جراح السرية؟".

قال القائد القوزاقي "إن ايكاتيرينوجراد هي أقرب مكان، وهي على مبعدة ركوب يوم كامل. واضح أننا أرسلنا خادمه القرشاي لطلب المساعدة. لقد قال المساعد إيفانوف أنه يمكن الوثوق به. ليس لدينا هنا إلا سرية من الرجال ونحن نتدبر أمورنا بأنفسنا. اننا نرسل كل الحالات السيئة إلى الخلف على طول خط الجبهة: وقد بيّن جرونسكي نقطة هامة: وهي إن الضباط الروس لا يشاهدون في هذه الأقاصي البعيدة من "خط الجبهة". لم يكن جنوده يحصلون على الاهتمام الكافي. فقد كان القوزاق مرتزقة قابلين للإستغناء عنهم.

زمجر ايلوفياسكي. لم يكن كوماروف محبوباً من قبله، لكن الرجل جنرال روسي وسوف تقوم متاعب لا حد لها إذا مات في هذا المكان التعيس.

إستغل جرونسكي الوضع "لقد حارب الجنرال كوماروف بشجاعة. هنالك دلائل على أنه قتل الشخص الذي هاجمه. لقد تم إطلاق النار من مسدسه وكان الدم منتشراً في خيمته كلها".

لم يرغب ايلوفياسكي في سماع التفاصيل الدامية. استدار نحو إيفانوف "أين هي أوراقه؟".

"هنا، يا سيدي".

دفع ضابط صغير الرتبة يرافق ايلوفياسكي قائد المعسكر إلى الخلف أثناء دخولهم إلى الغرفة الأخرى. مدّ الجنرال ايلوفياسكي نفسه فوق المكتب الحقير الصغير الذي يمثل قدراً كبيراً من السلطة بالنسبة للقائد، وأومأ بمعصمه إلى إيفانوف ليكسر الأختام عن أوراق كوماروف.

"ليس لدي الكثير من الوقت".

تملكت الحيرة إيفانوف: "ولكن يا صاحب السعادة – إن الجنرال كوماروف هو مساعد الجنرال سوفوروف. وكان مسافراً مباشرة لمقابلته" (بكلمات أخرى هذهِ الأوراق مخصصة لإطلاعه هو وحده).

زمّ ايلوفياسكي عينيه "لقد أرسلت إلى كيزليار على جناح السرعة من قبل سوفوروف لاعتراضه. لقد أراد الجنرال بوتيمكين الذي أسافر بأمر منه أن يطلع على هذه الأوراق بشكل مستعجل".

لم يبقى لدى إيفانوف أي خيار سوى أن يتخلى عنها، غير مدرك، ما إذا كان يساعد بعمله أعداء كوماروف (كانت الفئوية في الجيش الروسي فيالق أكثر من الفيالق نفسها).

إن ايلوفياسكي رجل حاذق، إذ لديه كامل العذر تحت مسمى الإدعاء بالقيام بالتحقيق في الهجوم على كوماروف، لأن يحصل على معلومات غاية في الأهمية. أمر الضابط صغير الرتبة الملحق به أن يفتح صندوق الفودكا الذي يسافر بصحبته، وجلس ليتفرغ لواجبه. أثناء تمعنه في الصفحات, ظل يلقي وابلاً من الأسئلة.

"ماذا حصل هنا؟".

بقي إيفانوف صامتاً. لم يكن أداؤه الشخصي مثالاً يحتذى، وإذا كان هناك شخص يجب أن يتحمل الملامة، فقد أراد أن يكون ذلك القوزاقي الوضيع جرونسكي.

رفع ضابط ايلوفياسكي الصغير الرتبة كأساً، وقال بوقاحة "نخب البقاء حياً"، وهو يغمز لإيفانوف.

إزدرد أيفانوف محتويات كأسه وشعر بالغثيان.

تجرأ جرونسكي على القول "لقد هاجمتنا مجموعة كبيرة من غزاة الشيشان عند الفجر".

ظهر على ايلوفياسكي الاهتمام "كبيرة...؟ إلى أي حد هي كبيرة...؟".

بدأ القائد يتعرق، مما زاد الانطباع بأنه ربما كان صاحب مطعم وملطخ بالدهون في حياه أخرى.

"مئتان... مئتان، ربما أكثر. لقد هاجموا في تشكيلين، من الأمام ومن الخلف... مخترقين خيمة الجنرال. بدا وكأنهم يعرفون بالضبط أين ينام. وحدها تلك الخيمة تعرضت للشق".

"اعتقد يا صاحب السعادة أنه كان الهدف من الغارة. إجراءات أمنية سيئة...".

كان هدف جرونسكي هو إبعاد أي اقتراح بان الأداء المتراخي للمعسكر كان السبب الرئيس في الغارة الشيشانية. كل من في الغرفة كان يدرك ذلك.

بدا على ايلوفياسكي الازدراء "أنا أجد ذلك صعباً على التصديق. لم يتوقف كوماروف هنا سوى ليلة واحدة. ولم يكن هذا الأمر معلومة شائعة. الشيشان يغيرون فقط لكي يسرقوا شيئاً ما. ما الذي سرقوه؟".

"لقد...... هربوا بعربة الذخيرة."

لكن هذه الملاحظة لم يكن لها الوقع الصاعق الذي توقعه القائد. فقد عثر ايلوفياسكي على شيء ما في التقرير، وأخذ يقرأ بإمعان.

رفع نظره باتجاه إيفانوف، وعيناه تلتمعان. "من هو بحق الله الشيخ منصور...؟ ".

رأى إيفانوف طريقة يكفر بها عن نفسه. حاول ان يبدو ملماً بالاسم، لكنه لم يرد. نهض ايلوفياسكي ليغادر الغرفة. وقال لجرونسكي بلهجة فيها تهكم ثقيل:

"إبق مستيقظاً، أيها النقيب، لو أن مئتا جبلي هاجموا هذه الحفرة، لكنتم جميعاً جثثاً في هذه الساعة".

***

رقد شيشاني شاب في مؤخرة العربة وقد فارق الحياة، كان قريباً لكوير. إلى جانبه جلس مراد وحمزات، يدارون جراحهم من أثر الطلقات. لم تكن إصاباتهم خطيرة. فقد اخترقت الرصاصات كتفيهما وكان النزيف خفيفاً. أفراسهم مربوطة إلى مؤخرة العربة التي ظلت تتقافز في صعودها الممر الممتلئ بالصخور، استمر كوير وأبوه في ضرب جياد الكاراباخ بالسياط وكلاهما غير شاعر بالتعب بسبب محرك من الغضب في داخل جسميهما، حتى أنهما كانا يدفعان عجلات العربة فوق الأجزاء الصعبة. وركب بقية الشيشان خيولهم في صمت مطبق، وحدها أصوات الركابات وشخير الجياد كان يحطم السكون.

أول من أبدى رأياً في الغارة هو مراد.

"لم يكن أداؤنا سيئاً... إذا أخذنا في الاعتبار الخطأ الذي ارتكبناه."

حدق فيه كوير، ثم حدق في جثة قريبه وتمتم "خطأ دفعنا ثمنه غالياً".

كان أحمد يركب فرسه إلى جانب العربة، ويترجل بين الفينة والأخرى ليساعد كوير على دفع العجلات بكتفه. بقي صامتاً، يداري أفكاره لفترة طويلة وعندما توقف تبادل الحديث بين مراد وكوير، اقترب من مراد وانحنى حتى يكلمه بالقباردية.

"لماذا وضعوا خفيراً قرب الخيمة، إذا لم يكن فيها شيء ذو قيمة؟ لقد كانت الذخائر في العربة طيلة الوقت".

ابتسم مراد في وجوم "أعتقد أنه كان بداخلها شيء أو شخص ذو قيمة. لدي شعور بأنني قتلت جنرالاً روسياً هذا اليوم، وليس مجرد ضابط عادي".

"يا إلهي، ذلك سوف يؤلمهم" ذهب أحمد بتفكيره إلى الردود الانتقامية.

ظل مراد على تكتمه "لقد حصلنا على ما جئنا من أجله. سيكون الملا سعيداً".

"لقد حصلنا كذلك على بضعة جياد طيبة" لم يتمالك أحمد نفسه من الشعور بفوران العواطف.

فقد نجا هو، وكذلك حمزات، وقد أدى ما طلب منه في غارته الكبيرة الأولى. لقد كانت لديه أمور يمكن التطلع إليها كمحصلة. همس في أذن مراد بغير سيطرة "تعجبني مواصفات تلك الفرس الرمادية، ستصبح والدة جيدة".

لم يكن مراد يشعر بذلك القدر من الحماس، فتنهد قائلاً "أنت تنظر إلى مشروع إستيلاد الخيول وتربيتها بجدية أكثر مما يجب، ولكنك إذا كنت متحمساً إلى تلك الدرجة، بإمكانك أن تطالب بها عندما نصل إلى البيت، أنا على ثقة بأن الرجال لن يمانعوا".

تردد أحمد، ممزقاً بين رغبته في زيادة قطيعه والصداق، وبين رغبته الملحة في أن يكون مقبولاً من رجال الشيشان.

"لا أدري. لا يبدو لي الأمر منصفاً. إذ لا يوجد ما يكفي من الخيول لاقتسامه بين الجميع.... وليست هناك غنائم أخرى يمكن إقتسامها."

صحح مراد كلامه بقوله "يوجد الكثير. سيقوم الملا ببيع الأفراس وتقسيم قيمتها بين الرجال".

وصلت القوة إلى قمة تلال السفوح واستدارت باتجاه القرية الشيشانية.

أصبحت الطريق الآن أسهل، وشعر الرجال بشيء من الانفراج. لقد أصبحوا في مأمن.

مسح ايلدار، والد كوير, العرق عن حاجبيه الأحمرين وترك قيادة العربة لولده. رجع إلى الخلف حيث حلّ فرسه وقفز إلى ظهرها ليركب إلى جانب أحمد.

"لقد حافظت على هدوء أعصابك، يا أحمد الكوباني. توقيتك جيد. ما كنت استطعت أن أصل إلى الحظيرة بدون عملك التضليلي".

أجاب أحمد بقوله: "هذا واجبي أيها "المولَ".

سرّ المقاتل الشيشاني عند مخاطبته بلقب الاحترام. فإن كلمة "مول" عند الشيشان تعادل "تحمادا" لدى الأديغه. كان في قرابة الخمسين من عمره، لكنه يمتلك قوة تفوق ما عند رجال في نصف عمره.

إفتر وجهه ذا الجلد القاسي عن إبتسامة بطيئة.

"إذن، أنت تحب القتال مع الشيشان"

"إنني أفضل حضور الولائم معهم، ولكن إذا كان لا بد من خوض القتال، فأنا معهم".

"إن كلامك طيب. أنا سعيد برفقتك لنا أيها الأخ الأديغه".

بهذا الكلام، انطلق ايلدار، الفارس المشهور في بلاد الشيشان، عبر الشجيرات ليتسلق منحدراً صخرياً، في تسلق عمودي جنوبي نفذته فرسه وكأنها عنز جبلي.

تفقد الممر الممتد أمامهم بحثاً عن الرقيب الذي وضعه هناك. رفع بندقيته عالياً فوق رأسه وهزها حتى يراها الرجل. سيذهب التقرير الآن إلى الملأ: الغزوة انتهت: الرجال عائدون بالغنيمة.

كان لديهم ستة براميل من البارود في العربة، صندوق كبير من المتفجرات، وصندوق يحتوي على خمسين بندقية من أفضل صناعة الموسكوفي. لقد كانت غنيمة قاتلة ملائمة كفدية لحياة شيشاني شاب في هذه الأوقات الصعبة. سيصبح الدفاع عن القرية بشكل ناجح ممكناً لعدة شهور قادمة وسوف يتم ذبح العديد من القوزاق بالمقابل.

انفصل أحمد ومراد عند الاقتراب من قرية الملأ للذهاب إلى مستوطنتهما. كانت مدينا جالسة تغزل عند باب بيتها، تنتظر بذلك الصبر المنضبط الذي تتعلمه نساء المقاتلين للحفاظ على حياتهن. فقد جلست تزاول عملها عدة مرات، تفكر فيما سيكون عليه شكل الحياة إذا لم يعد زوجها.

بعد عدد معين من هذه التأملات، توصلت إلى الاستنتاج العاقل بأن الاستمرار فيها لا يفيد. لذلك فإن كل ما كان يمكنها عمله هو الصلاة لأجل سلامته والاستمرار في حياه أسرتها الفتية.

لقد كان أحد معايير محبتها لأحمد إنها سمحت له بتطبيب مراد. فهو يمتلك مهارة طبيعية في يديه، تحسنت بعد سنتين من مراقبة معالجات أمه.

مزق قميص مراد بعيداً عن الإصابة وتفحص الجرح في الكتف.

"ليس سيئاً جداً. إنها حكة في الجلد. سوف تعيش".

جلس تيمور وجعفر عاقدين ساقيهما أمام الرجلين، يراقبان بتركيز. احسّ أحمد بوخزة ألم. فهذه هي الطريقة التي تعلم بها، وما كان لديه أبناء من صلبه - حتى الآن.

تكلم بصوت عالٍ حتى يستطيع الولدان أن يسمعا. فالتعلم عن طريق التجربة أفضل من أن يتلقى الشخص محاضرة.

"يتعين علي أن أنظفه جيداً، يا مراد، يوجد فيه بعض التراب.... لا بد وأنك سقطت بقوة. ثم إنه متورم. سيساعد الثلج على خفض الورم".

أصدر مراد تعليماته إلى تيمور، وقد أصبح في هذه الآونة صبياً قوياً في الخامسة من عمره.

"أنت تعرف أين ستجد الجليد، أليس كذلك يا هذا؟".

جرى الصبي خارجاً. إذا هو تسلق نحو المنحدرات العالية، فمن المؤكد أنه سيعثر على بعض الجليد: وهو يعرف مكاناً تظلل فيه صخرة ناتئة ممراً ضيقاً من الجرانيت، فالشمس لا تخترق ذلك المكان بحيث يتأخر وجود الجليد تحت النتوءات الطبيعية للصخرة المعلقة طيلة أيام الصيف.

في تلك الأثناء، أنهى أحمد تنظيف الجرح السطحي وضمخه بزيت حصى البان لإبقاء الجرح طريا.

أخذ مراد يدردش حتى يبعد الإحساس بالألم عن نفسه "لقد نسيت أن أخبرك..... منذ بضعة أيام جاء بعض الشيشان يطلبون شراء بعض الأمهار منك, حدث ذلك عندما كنت خارجا لتزور حبيبة قلبك".

"إذن..... هل أريتهم الأمهار أم انك طردتهم....؟".

كشر مراد، فقد كان الجرح يحرقه من وجود الزيت.

"آه، إذن أنت راغب في بيع أمهارك الغالية! حسناً. يمكننا أن نستعمل بعض الذهب.... نحن بحاجة إلى بعض المؤن".

تدخلت مدينا بلطف "نحن حقيقة نحتاج إلى بعض القماش".

إعترض أحمد "سأبيع فلواً أو إثنين من الذكور، ولكنني لن أبيع المهرات الإناث".

عارضه مراد بقوله "ولكن لديك مهرات أكثر مما لديك من الافلاء، فلم لا تبيع الإناث: الأمهار هي أمهار.." وكأنه لا يعرف. نظر إلى مدينا مبتسماً. فقد حان الوقت لكي يقول أحمد الحقيقة.

كافاهم أحمد "إذا بدأت ببيع الإناث، فلن يصبح عندي مزرعة إستيلاد محترمة".

كان وجه مراد شاحباً، لكنه كان يستمتع بهذا الإلهاء، فأستفز صديقه "أظن انك تأخذ موضوع تربية الخيول هذا بجدية أكثر من اللازم يا أخي، أليس كذلك يا زوجتي؟هل تعتقدين أن قومك الشيشان الجبليين سوف يقدرون عالياً تلك الصفات التي يدعي أحمد امتلاكها ؟ لا أعتقد ذلك. فالحصان هو الحصان..."

إلتمعت عيناه الذكيتان وهو يراقب أحمد ينتفخ من شدة الامتعاض "إن الشيشان يعتقدون أن الجواد هو حيوان ضخم بأربعة أرجل سريعة وذيل أيضا".

Twitter: @ketab_n

لكن مدينا كانت قد انتقلت إلى صف أحمد ولأكثر من سبب. فقد كانت تحنو كثيراً على القباردي الكوباني.

ولكونها متزوجة وغير متوفرة له، فقد أرادت لأقرب صديقاتها أن تتزوجه، وإضافة إلى ذلك، فقد ظل مراد يميل إلى الاعتقاد بأن الشيشان هم شعب جدير بالإعجاب ولكنهم أقل رقياً من أسلافه شراكسة حابسا التيريك. فإذا كان فيه عيب فهو هذا، قليل من التكبر.

"إن الشيشان يعرفون عن الجياد بقدر ما تعرف أنت يا زوجي العزيز. هم لا يدللونها ولا يبالغون في العناية بها كما يفعل القباردي، لكنهم يعرفون عن الجياد بكل الأحوال".

عاد تيمور يحمل قطعة كبيرة من الجليد المائل إلى اللون الرمادي مغطاة بالتراب, قام أحمد بنقعها في دلو من الماء حتى أصبحت نظيفة، كسر قطعة منا ولفها بداخل قطعة قماش حتى يضعها على كتف مراد. "أريد للبرودة فقط أن تخترق وليس الماء..." شرح الأمر لتيمور الذي كان يراقب.

إهتمام "يمكنك أن تمسك بها لأبيك".

استمر مراد بالمزاح "هل سمعت ذلك يا أحمد، لقد أصبح الشيشان فجأة مربو خيول! أقسم لك أنه عندما انضممت إلى الغزوة "للمرة الأولى، كان هناك ثلاثة بغال وحمار مشتركين معنا....!"

تشجع جعفر الصغير، الذي ظل حتى اللحظة يراقب بقلق منظر الثقب الكبير في كتف والده، واقترب أكثر، ليمسك بركبة أبيه.

دخل أحمد اللعبة "نعم، حقيقة؟.... وماذا حدث؟"

"ماذا تظن أنه حدث! قابلناهم في طريق عودتنا من الغارة... كانوا مستمرين في الركوب بعزم للذهاب لمحاربة القوزاق !".

بدأ أحمد يضحك، لكنه توقف عندما التقت عيناه بعيني مدينا. لقد تمادى مراد فعلاً.

ضحك مراد غير مصدق "الشيشان! مربو خيول!"

حذره أحمد بقوله: "توقف وإلا فلن يسمح لنا أن نأكل الليلة".

هزت مدينا إصبعاً متوعداً في وجهيهما "أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الخيول أعطوا صديقك هنا أفضل حصان فحل في القفقاس...."

"حسناً قلت يا مدينا. إن زوجك مصاب بالحمى، لذلك يجب أن نعذره على هذيانه".

أحسّ الأطفال بالسعادة لمرأى جميع الكبار يضحكون. شعر جعفر بارتياح كبير عندما أخرجت مدينا الدلو الممتلىء بالماء المختلط بالدم، وانحنى والده ليحمله، برغم الألم.

داعب أحمد شعر الصبي. وصدمته حقيقة أنه ومراد كانا قبل مجرد ساعات قليلة، يقتلون الرجال.

"هناك مسألة شخصية أردت أن أستشيركما فيها" قال أحمد ذلك وهدأت الضحكات. أتقدت عينا مدينا البنيتان الناعستان. إن أحمد يريد أن يعلن عن نفسه. يا للروعة، خاصة اليوم من بين كل الأيام.

أجابه مراد: "هيا استشر ما شئت، تكلم، إنني جريح لدرجة أني لن أجادل. سوف تقنعني بحجتك بسهولة...."

طقطقت مدينا بلسانها "مراد؟ أن احمد جاد".

ولكن طبعاً كان هو يعلم ذلك، وأراد فقط أن يسهل الأمر على الشاب الأصغر سناً منه.

قال أحمد وقد تشجع "شكرا لك يا مدينا، ربما تكوني أنت التي تحتاج إلى أن اطرح عليها أكثر الأسئلة، بكل الأحوال... كما

ترين، لو كنت في الكوبان، أو بين الأديغه، لكانت هناك عملية يجب إتباعها... وسيصبح أناس محددون معنيون بالموضوع".

لم تعد مدينا تسيطر على شعورها بالإثارة .ثم استمر ليقول:

" أما هنا في بلاد الشيشان فانا لا أعرف العادات تماماً".

قال مراد بدبلوماسية، وهو يلعب دور البليد "ما الذي تغمغم بقوله؟ لقد كنت أظن إنني انا المصاب بالحمى".

قالت مدينا بعجالة "الأمر يتعلق بتسيما، أليس كذلك، يا أحمد؟".

تنفس أحمد الصعداء. "ما أروع تفهم النساء لمثل هذه المسائل... لست مثل زوجك الأخرق. إن المرء ليعجب من طريقة كلامه كيف استطاع أن يقنعك بالزواج منه على الإطلاق! .."

"بالكثير من الصعوبة، أؤكد لك يا أحمد! ولكن إذا كنت تنوي أن تطلب من الملا يد أبنته؟"

اكتفى أحمد بان هز رأسه بالإيجاب، وضحك مراد ضحكة لطيفة.

شرحت مدينا الوضع "إن عاداتنا لا تختلف عن عاداتكم، يجب عليك ان ترسل أصدقاءك الأعلى مرتبة إلى بيته نيابة عنك".

أضاف مراد "وذلك هو أنا بالطبع".

رمقه أحمد بنظرة جانبية، ثم سخر منه "ربما، ولكنني ما زلت لا أعرف مدى علو مرتبتك في هذه الأنحاء".

اندمجت مدينا في محاضرتها "يجب أن يكون هنالك ثلاثة على الأقل يتحدثون نيابة عنك وكذلك إذا صدرت إشارة بالموافقة، بعد ذلك يناقشون أمر الصداق".

قال مراد وهو مستمرّ في عبثيته "سنعيد للذئب العجوز كل هداياه......!".

"ليس ذلك تصرفاً مؤدباً ولا هو تقليدي، وانت تعرف ذلك يا زوجي. يجب على أحمد أن يقدم نوعاً جديداً من الثراء. يجب أن يكون شيئاً مهماً لتكريم تسيما".

"مثل ماذا؟ ما الذي يمكن ان يعتبر تكريما؟ الذهب، الفضة؟" بدأ القلق يظهر على احمد.

"نعم" وافقته مدينا "أو شيء ذا قيمة، مثل الأبقار الحلوب او الخراف الفارسية".

مازحه مراد قائلاً "هذا يعني المزيد من الغارات، يا صديقي، يجب أن نقتل المزيد من القوزاق ونسرق مواشيهم حتى يمكننا أن نزوجك".

لكنه كان قد تمادى قليلاً في النكتة. نظر هو ومراد في عيني بعضهما بعضاً: لقد كان عمل الصباح دموياً، وشكل خطراً داهماً على كليهما. استدار مراد بظهره إلى كرسيه وأمسك بيدي صديقه بدفء ومودة.

"أعتقد أن لدى الملاّ ما يكفي من أبقار الحليب والخراف الفارسية " قال ذلك وهو يتحول إلى البحث الجدي "إن ما يمكن ان يقدره عالياً هو بعض من تلك الأسلحة، السيوف وذلك المسدس ذو المقبض الفضي الذي غنمناه الشهر الماضي. تلك ستكون ذات قيمة".

قدمت مدينا لهما الطعام على المائدة، إضافة إلى لبن العيران المنشط لشرابهما. أدرك الرجلان فجأة أنهما يتضوران جوعاً وهجما على اللحم.

"من غيرك سيمثلني؟".

قالت مدينا "أبي واحد. من غيره، يا زوجي؟".

قال مراد بعفوية "أي واحد من أعمامك، لكنني أعتقد أن ايلدار, والد كوير، هو الاختيار الأفضل".

بدت مدينا متشوقة "متى تنوي أن تتكلم؟".

"ما كان الأمس باكراً أبداً، الا يمكنك أن تري أن لدينا رجل واقع في الحب؟ ولكن كيف يمكن لأية صبية شيشانية أن ترفض نبيلاً قبارديا حقيقياً نقي الدم!؟"

هز أحمد رأسه "اسكت عن هذا، أيها الحابسا. آمل أن أكون بالنسبة لتسيما وأبيها مثل أي شيشاني آخر، كلما أسرعنا بالتوقف عن التفكير بأننا نحن القباردي أفضل من أي شخص أخر، كلما كان قبولنا أفضل. يجب أن تعرف أنت ذلك".

نظرت مدينا إلى احمد بتقدير ثم بنظرة باردة إلى زوجها. لكن مراد كان يعرف أنه لا بد من تذليل بعض العقبات، قبل أن يصبح هذا الزفاف حقيقة واقعة.

***

من عادة رجال الملا أن يأخذوا قسطاً معقولاً من الراحة قبل أن يشنوا هجوماً جديداً، هذه هي اللحظة المناسبة لان يتقدم مراد من الشركاء الضروريين لتشكيل هيئة الممثلين عن احمد. لم يكن حماه يشكل أية معضلة لكن أحمد كان لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أن ايلدار سيكون له موقف آخر.

لقد اختار إيلدار بسبب ثرائه, فقد كان المقاتل الأول في قبيلته حينما كان في أوج شبابه، ولا يزال أكثر من ند لرجال اصغر منه سناً في الجرأة والشجاعة. كذلك يعرف مراد أن كوير أحب تسيما منذ زمن طويل وانه محبط منذ وصول احمد إلى ظهرانيهم.

لم يكن مزاجه معتدلاً. أما دخيلته فهي مظلمة وغاضبة مثل منظره الخارجي. لن يتطلب حدوث صراع الشيء الكثير، وقد تأمل مراد انه بالتقدم من أبيه، سيشكل تحالفاً من الالتزام يمكن أن ينزع فتيل احتمال حدوث مشاكل.

لم تكن من عادة الرجل هنا في الشيشان، وكذلك في القباردا، أن يتقدم لخطبة فتاه من نفس القرية، فالتقاليد تقضي بأن يربط الزواج العائلات مناطق مختلفة إلى بعضها، مما يقوي التحالفات ويضمن الذرية الصحية بنفس الطريقة التجريبية التي يتم بها تزويج الماشية. كان هذا الوضع في غير صالح كوير تجاه تسيما والملا، ولكن من الناحية الأخرى، فإن القرابة أمر رقيق حساس، ولا يمكن تخيل وجود عائلة شيشانية أخرى أكثر شجاعة أو ثراء.

لم يكن مراد متأكداً مما إذا كان كوير قد تقدم بخطوبة رسمية. وهذه مخاطرة لا بد من خوضها مع ايلدار.

لذلك ركب في الصباح التالي إلى القرية وشاهد الرجل المسن مشغولاً في تقطيع أوتاد للسياج.

كانت عظمتا كتفي ايلدار تتحركان بإنتظام بينما هو يطوّح بالبلطة. لم يكن في البيت أحد آخر. تذكر مراد بأسف أن النساء سيكنّ جالسات سوية، حزينات ويجهزن لجنازة قريبهن الشاب، وهو الفتى القوي الذي ما كاد يتعرف إليه. كم هو الأمر محزن. صار يفكر في تأجيل الغرض من زيارته.

بينما ترجل مراد عن فرسه، كان ايلدار قد دخل إلى بيته وغيّر ملابسه، مرتدياً ثوبا سميكا جميلاً من القماش الداكن.

تبادل الرجلان التحيات وجلسا لشرب الشاي بالنعناع وتناول حلوى العسل.

"ما الذي يجيء بالمقاتل الحابسا؟ أهي خطط لغارة أخرى؟" دوّى صوته بجلجلة رهيبة. إنه مصمم على الانتقام.

"كلا، سامحني لأنني أريد أن أتكلم في مسائل أخرى في وقت الحزن".

"يجب على الحياة ان تستمر. لقد كان الشاب علي سيقول هذا أيضا. قل ما يحول بذهنك أيها الحابسا".

"إنني أرغب أيضاً في أن تتوب عن أحمد الكوباني في طلب يد تسيما، إبنة ملانا.".

تجهم وجه ايلدار للحظات، ولم يحر جواباً.

عرف مراد أن هذه المقابلة يمكن أن تسير في واحد من اتجاهين. لا يوجد شيء يمكن أن يقوله ويؤثر على النتيجة مع رجل لديه مثل هذه العواطف القوية. على العكس تماماً: فإن أية كلمات قمينة أن تغضبه.

"لقد رغب فيها ولدي كوير لسنوات. أنا اعرف أنها لا تعيره أي اهتمام. اعتقد أن الصبي سيقتل نفسه إذا لم يحصل عليها".

أصيب مراد بصدمة. فإن مثل هذه العواطف البدائية غريبة عليه. وأصبح يتساءل فيما إذا كان من حسن حظه أم أن حياته الأكثر نعومة كانت أقل قيمة بالمقارنة. ثم تذكر فورات الغضب العارم، الانفعالية المدمرة أحيانا لدى أبيه فشعر بالراحة.

"ما كنت أعلم أنك قد ذهبت لتقديم الواجب إلى الملأ نيابة عن كوير، سامحني على إحراجك".

بدأ مراد يستعد للنهوض.

رفع إيلدار يده "كلا، لا تذهب ". نظر إلى الأعلى، وقد كشف التعب المفاجيء المرتسم في وجهه عن عمره الفعلي.

"تقضي عاداتنا أن يكون لنسائنا رأي في اختيارهن لرفاقهن. لقد كنت محظوظا بتلك العادة وأنا أحترمها. لا بد وأن هذه مشيئة الله. بالإضافة" مال متقدماً من مراد "إن أحمد فارس عظيم، وأنا أحبه لأجل ذلك كما لو أنه إبني. سوف نغير سوية عدة مرات، أنت وأحمد وأنا، وسوف نجعل أولئك المرتزقة القوزاق يرتعدون من سماع أسمائنا. أقسم على ذلك أيها الحابسا".

***

الفصل السادس

جلست الأميرة صونيا إلى جانب سرير زوجها. مال الطبيب منحنياً وهو يستمع إلى صدر كوماروف. كان تنفس الجنرال خفيفاً مثل نفس العصفور، لكنه كان واعياً، مع انه مقل في الكلام.

"ليست هنالك أية إشارة على وجود إحتقان، يا صاحبة السمو. اظن أن بإمكاننا القول بدون مجازفة أنه يحرز تقدماً جيداً". أغلق الجنرال عينيه مرة أخرى من حاجته إلى المزيد من النوم أو لادعائه بذلك. فقد سئم من هذه الطقوس اليومية التي يبدو أنها لا تحقق له شيئاً. أحسّ انه في منتهى الوهن وغير ذي نفع. شاهدت الزوجة يأس الجنرال وتملكها غضب عارم.

"التقدم!" إن بإمكان صونيا أن تجعل كلمة واحدة تعبر عن مجلدات. الصدمة من أنه جرح: الغضب من أنه تلقى تلك الرعاية المتدنية بحيث كاد يفقد كل دمه: الاحتقار لذلك الجراح العسكري نصف المتعلم الذي له حق الإشراف على الحالة حتى يصل ابن عمها، الطبيب من سانت بطرسبرج ويضع الأمور في نصابها الصحيح.

جلست مشدودة مثل مدك البندقية، عيناها الخضراوان الرماديتان في مثل برودة العظاءة القاتلة. فكر الطبيب لنفسه أنها ربما كانت جميلة في شبابها لكنها الآن مجرد ثرية ومتعالية.

"سيصل ابن عمي فاسيلييفيتش غداً. أرجو أن يثبت رأيك ومساق علاجك" قالت ذلك بصوت أعلى قليلاً مما هو مقبول.

تنهد جراح الجيش. فقد كان لديه أكثر مما يكفيه ليفعله حتى تضايقه امرأة أرستقراطية متعجرفة من العاصمة. إذ لا يمر يوم بدون أن يكون هناك صف مروع من الإصابات يتعين عليه العناية به. إن القوزاق شجعان إلى حد الانتحار. لم يكن لديهم خيار: فإن الخدمة على الجبهة تضمن لهم مورد الرزق والأرض.لكن التقدم عبر خطوط الجبهة يقدم الدليل على انه مكلف في القوى البشرية بالنسبة للقوزاق في مواقعهم الحدودية والقوات الروسية اللوائية في الأقاليم.

لقد دأب الجبليون على إرهاق الجنود: الخفراء يتم إصطيادهم من قبل الرماة. الدوريات يكمن لها وتصاب بجراح ثخينة إذا لم يقتل أفرادها. كثيراً ما قاتل هو بنفسه إلى جانب الجنود وأجرى العمليات الجراحية فوق أرض المعركة. إن قلة الأغذية وحلول الشتاء القاسي يعنيان أن الجنود من كافة المراتب في جميع الحاميات سيبدأون حملة الربيع الجديدة هذه في حالة بدنية سيئة، خلافاً للجنرال كوماروف، الذي يرقد ساكناً في جسم رجل ضخم لائق، وجيد التغذية.

"يا صاحبة السمو، إنني أتطلع قدماً لكي يتم تقديمي إلى قريبك المتميز. إنه من أخلص آمالي أن يحسّن حضوره من معنويات زوجك، كما لا يستطيع عمل ذلك إلا العائلة القريبة."

قالت الأميرة بامتعاض وضيق، "اوه اتركنا وحدنا الآن" مستهينة بجهود الجراح الذي يتكلم بما يعتقده لائقاً إلى إحدى النبيلات.

الحقيقة هي أن الأميرة صونيا كانت منزعجة بشكل جدي، فإن حياتها في ايكاترينوجراد هي أسعد ما حظيت به حتى الآن. فقد امتلكت قدراً من الحرية لم تتوقعه أبداً. لأنه بسبب كونها من خلفية أرستقراطية بدأت تبهت، فقد تم الإيحاء لها منذ طفولتها بوجوب إنقاذ ثروة العائلة بأن تتزوج الثراء. تم تقديم كوماروف، الرجل

الطيب القلب، إليها أثناء حفلة رقص في مدينة سانت بطرسبرج، في سنة خروجها إلى المجتمع.

لم يكن ينتمي إلى عائلة متميزة: لقد أرادوا لها أن تختار عريساً من عائلة ماليوفيتش أوزينوفييف، فكلاهما لديهما ضباط ويجري إعدادهم لحياه إحترافية "مثالية" بإضاعة الوقت في صالونات سانت بطرسبرج، وضيعاتهم الريفية لبقية حياتهم، مثل معظم المنتمين إلى حلقتها الاجتماعية.

كان كوماروف مختلفاً، فقد كان يؤمن بالجيش, بدون الطاعة المتعجرفة العمياء للقيصر التي يبديها الرجال الأقل ذكاءً. لقد كان يهتم. وكان يحدث صونيا في أمور السياسة: ويسحره المعترك العالمي، وللاستغراب، كانت الأميرة صونيا تجد الحديث عن الجنرالات الفرنسيين أو البولنديين أكثر تسلية من الحديث عمن يقيم علاقة مع من في العاصمة.

لم يكن يتحدث معها بقدر ما كان يتحدث إليها، لكن ذلك بدا جيداً بما يكفي، فقد أحبت الجلوس إلى جانبه والاستماع إلى إستنتاجاته وهي تتخيل ممارسة الحب. كان وسيماً بضخامته وملامحه الخشنة، وبصوت خفيض رنان يبعث فيها السرور.

كان هناك إنجذاب بدني قوي وإشباع بينهما استمر إلى هذا اليوم على الرغم من انجذاباتها المتعددة العابرة للضباط الأصغر سناً.

الأميرة صونيا أميرة قوية الشخصية، شهوانية، وأحدى البذرات التي ألقتها أشجار العائلات النبيلة (في حالتها أبناء عمومة لعائلة رومانوف من الدرجة الثالثة) وقد امتلكت من قوة الإرادة ما مكنها من الوقوف في وجه أبيها والزواج ممن تميل إليه, فإن التذرع بالحب كان فيه بعض المبالغة.

إلا في هذه اللحظة، فبينما هي جالسة إلى جانب سرير كوماروف، أحست الأميرة صونيا بالرعشات الخفيفة الأولى

للإخلاص الحقيقي لزوجها. لم تهتم مطلقاً لرأي الضباط المحترفين الآخرين الذين كانوا ينظرون إلى القفقاس على انه سيبيريا ثانية. فقد تمتعا بحياة رغيدةٍ، هو جندي ممتاز، وخدم قضية الحملة أكثر من أي شخص أخر - أكثر من سوفوروف، الذي كان جزاراً طموحاً بدم بارد. بينما بقي كوماروف محبوباً من قبل جنوده ومن قبل ابنه، وهو إلى ذلك عينة ممتازة من الرجال وهي فخورة به.

ببساطةٍ، لن تسمح له أن يموت بطعنة واحدة من خنجر رجل محلي: جبلي تاعس يرتدي فروة دب فوق ظهره المشحم وعلى لسانه لعنة وثنية. كلما أسرعنا في تنظيف هذه المنطقة من هذه الطفيليات، كلما أصبح العالم مكاناً أفضل للمعيشة فيه.

لم يتحرك كوماروف أو يفتح عينيه. كان إما نائماً أو مستغرقا في أفكاره الخاصة ولا يريد أي تدخل. انحنت إلى الأمام وأمسكت بيده، لكنها لم تشعر بأية استجابة تجعل أصابعه تتوتر. افترضت أنه ينام نوماً عميقاً. عين الضابط المسؤول ممرضة له، لكن الأميرة صونيا لم تثق بأي شخص غيرها ليغير له أغشية وأربطة جروحه. كانت تحب أن تحدق في داخل جرحه، تتفحص أطرافه المتقيحة بتمعن، باحثة عن أي تغير صغير في نوعيتها، مما جعلها تشعر فعلياً بأنها مقاتلة، لكونها كفؤة وغير عاطفية إلى تلك الدرجة: أدركت أن هذه ناحية من شخصيتها تشترك فيها مع كوماروف.

ربما يكون الجرح في طريقه إلى الشفاء، حسب رأيها، لكن النزيف الخفيف استمر بالتدفق، والدم ينز من مكان ما في داخله. لم تصدق نظرية جراح الجيش القائلة بأن خنجر الجبلي "القاما" قد شق جدار البطن باتجاه جانبي، وان الإبزيم المعدني لحزامه السميك قد حول اتجاه الطعنة بحيث تجاوزت أعضاءه الحيوية.

كيف بحق الجحيم له أن يعرف.

بعد قضاء نصف الساعة المعتادة من المراقبة إلى جانب زوجها، بدلت الأميرة ثيابها إلى زي الركوب. عندما توجهت إلى

الخارج كان القرشاي هاشم في موقع مراقبته، مقرفصاً إلى جانب الشرفة وحصانه مسرج وجاهز. يبدو منظره أشبه بكلب الصيد الهرم الذي ناداه سيده فأخرجه من وجاره.

قالت باقتضاب: "ليس هنالك أي تغيير. لكن الجنرال ليس في وضع أسوأ، هذا كل ما يمكنني قوله".

بصق هاشم في التراب بطريقته التي تعبر عن ارتياحه للأخبار.

"هاشم، أحضر جوادي إلى هنا" كانت الأميرة قد عينت القرشاي سائساً عندها لاشغاله. هو يستمتع بالركوب معها: فهو يعتبر ذلك خدمة صغيرة لسيده. كان هاشم والجنرال في نفس العمر تقريباً، وهما صديقان إلى حد ما، رغم أن المركز الاجتماعي والعرق جعلا الفكرة غير قابلة لمجرد التفكير فيها.

ذهبت الأميرة صونيا في نزهة ركوب طويلة جداً بينما ظل هاشم يبذل جهداً في متابعتها، خرجت من الحصن ونزلت عبر خطوط ايكاترينوجراد الدفاعية. اعتاد الجنود على مشاهدة بنيتها القوية المنتصبة الظهر وهي تطير مارة بهم، تركب السرج الجانبي بسرعة عدو منتظمة. فقد كانت الأميرة صونيا تشعر أن المحافظة على برنامجها نظام جيد ولا يسمح بتغذية أية شائعات مغرضة عن حالة الجنرال.

عندما عادت، سرها أن تجد ابن عمها باسل فاسيلييفيتش قد وصل مبكراً عن موعده بيوم. دخلت والقرشاي يسير خلفها مباشرة، فقد كانت بحاجة إلى أن تعطيه نقوداً لبعض المشتريات الصغيرة للإسطبلات. نهض باسل في جلسته منتصباً وقدا اندهش من مرأى الرجل الضخم المشعث الشعر الذي يحمل ندبة جرح السيف في وجهه، يدلف بصمت بحذائه ذي الجلد الناعم وطاقية الفرو الوحشية خلف قريبته الأنيقة.

أغاظته صونيا ممازحة "لا داعي للذعر، إنه غير مؤذٍ إطلاقاً".

تلك هي رحلة فاسيليفيتش الأولى إلى القفقاس، بدا كل شيء جديداً بالنسبة له. ناولت هاشم ملء محفظة من القطع النقدية وخرج بهدوء وبدون أية مجاملات.

كان باسل صديقاً حميماً لها – وهو عضو آخر شاذ في العائلة, هو أذكى بكثير في موقعة في الحياة, والذي يقضي بكونه أرستقراطيا. وقد وجد أن ذلك وحده لا يلبي تطلعاته، تماماً مثل صونيا. لكنه كان محظوظاً بما يكفي لأنه يمتلك ثروة شخصية بحيث يستطيع بها أن يلهي نفسه. وقد استأجر مدرسين ليدرسوه علم النبات والنظريات الأكثر تطوراً في علمي الأحياء ووظائف الأعضاء. ولكنه على أية حال، لم يكن يطيق الكدح الفعلي للتدريب الرسمي في الكلية الطبية، مع أنه واظب على حضور جميع العمليات الجراحية المعقدة وحتى أنه شارك في بعض منها. هو بارع في استعمال يديه، وقد شهد له المجتمع الطبي في سانت بطرسبرج بمواهبه غير العادية. وقد استجاب لنداء الأميرة صونيا بطلب المساعدة إشباعاً لنزوة منه. كان يميل إليها، ولم تكن لدية أية ارتباطات، وظن أن القفقاس ربما يكون "مختلفاً". كان لديه شوق لرؤية هذا "المكان المتوحش" الشهير، وهو التعبير الوصفي الذي أطلق على القفقاس، إذ كان الرأي السائد كتقليعة في صالونات العاصمة هو "إذا لم تكن قد شاهدت القفقاس، فأنت لم تحيا".

زمجر باسل قائلاً "يا الهي، يا له من مكان! ويا لها من رحلة" اضطجع باسترخاء فوق أريكة الأميرة صونيا، وهو يدخن سيجارة تركية. تصرف وكأنه نصف نائم وقد أشاح بوجهه عن أشعة الشمس وغطى نصف وجهه بمعطفه الرمادي الصوفي السميك. كثير من النساء يجدن باسل جذاباً، بشعره البني الناعم الذي ينسدل فوق جبينه العريض، وانفه الاقنى وعينيه الناعستين الصافيتين، لهما نفس لون عيني الأميرة صونيا: الأخضر الضارب إلى الرمادي البارد. كان يمثل التجسيد الكامل للتربية النادرة. يداه أيضاً جميلتان جداً، بأصابع نحيلة توحي بالحنان البدني. لاحظت الأميرة

صونيا انه يمتلك أطول ساقين في العائلة, مدركة إنها الأخرى محظوظة في ذلك الجانب: فقد علق كثير من الرجال بإعجاب على استقامة ولين فخذيها.....

قال باسل وهو يعود إلى تحريك نفسه مرة أخرى "ولكنك تبدين مثيرة جداً، يا أبنه العم العزيزة! إن هواء الجبال يلائمك!"

"إنني اذهب إلى المصحات بانتظام، يجب أن تجربها ما دمت هنا يا باسل. هل قدموا لك الشاي؟ هل كانت رحلتك رهيبة؟"

"مخيفة. لقد نسيت كيف يمكن أن تفوح من الناس روائح مختلفة. إن الأمر يتعلق بنوعية الطعام, كما تعلمين. مع وصولي إلى كيزليار، أصبح بمقدوري أن أكتب أطروحة عن أهمية الخيار المخلل في مطابخ بلاد عبر القفقاس."

"إنني ممتنة جداً لك على قدومك. لا أستطيع أن اترك كل شيء لهؤلاء الأغبياء. أن كوماروف رجل أطيب من أن أضيعه."

رفع باسل حاجبيه "إنني أعجب يا صونيا، هل من الممكن أن تكوني قد تمكنت من خلق زواج سعيد في هذه البرية؟ كم يبدو هذا الأمر بعيد الاحتمال بالنسبة لعائلتنا!"

احمرّ وجه الأميرة صونيا "لا تكن أحمقا يا باسل. أنا اقصد أن لديه عملاً مهماً يؤديه هنا في القفقاس".

"حسناً، لقد زرته لحظة وصولي يا عزيزتي، أن الالتهاب لديه بغيض ولكنه لا يزال قابلاً للسيطرة. سأعمل ما أستطيع، لقد نظفت جرحه واعدت تضميده. سأضطر إلى إجراء عملية صغيرة وستكون مثيرة للاهتمام."

"ماذا عن النزيف المستمر.... إنه يقلقني".

"نعم، لقد فقد زوجك العسكري الكثير من الدماء لكنه قوي البنية وسوف يبرأ بشكل جيد مع العناية المناسبة, ليس لديك ما تقلقين منه".

تنهدت الأميرة صونيا بارتياح. لقد بدأت تشعر بتحسن في أحاسيسها بسبب وجود أبن عمها. ابتسم باسل مداعباً عندما لاحظ تعبير وجهها "إنني اعتقد انك قد وقعت في الحب أخيرا يا عزيزتي صونيا، فهل هذا ممكن؟!"

"لا تكن متعباً يا باسل, يجب أن تستحم وسوف نقوم ببعض الزيارات وبعد ذلك نتعشى في منزل عائلة روسبوف في الساعة العاشرة". كانت الأميرة صونيا تعرف بالضبط كيف تعامل قريبها المفضل.

قال بالفرنسية "كما تقولين، يا أبنه عمي العزيزة" ابتسم باسل وهو كالعادة يعرف كيف يتحمّل مع إرادة أي شخص آخر فقد تم تخطيط نهاره مع بعض التحويلات، وطالما انه لم يشعر بالملل يحل عليه، فهو سيمضيه بما يكفي من السعادة. إن تجنب الملل هو السبب الوحيد لوجوده, وهو ما كان يأمل مخلصاً أن يكون مختصراً وحلواً. إن دراساته تميل إلى إقناعه بأنه فوق كل شيء، سيكون حتماً بلا معنى. إنه بصراحة لم يكن لديه فهم لحياه يعيشها الإنسان من اجل قضية ما كما هي حياه كوماروف.

ومع ذلك فهو إذا استطاع ان يساعد زوج ابنة عمه على النجاة، فإن ذلك سيسره - فقط كممارسة في العلوم الوظائفية للأعضاء. فإن موقع كوماروف في التاريخ العسكري للقفقاس لم يكن يهمه.

لو أنه علم بما يجري في بلاد الشيشان، لكان صعق من معرفته إلى أي مدى يمكن لرجل واحد أن يقترب من تغيير مصير أمة.

***

صدر أمر الملاّ بانعقاد اجتماع في صالة منزله. ركب مراد، الذي كاد أن يتعافى من الجرح في كتفه، مع احمد للمشاركة. دخلا إلى الصالة، وهما يوجهان كلمات التحية المرحة إلى رجال الغارة.

ظهر الضعف على حمزات. لم يكن جرحه بليغاً بقدر ما كان عليه جرح مراد، لكنه جسمه لم يكن قد تعافى من الهجوم على القوزاق إلا مؤخراً، فقد تلقت قوى النقاهة في بدنه ضربات موجعة، وكان يشعر بالبلادة.

على الرغم من ذلك، جلس قريباً من الملا، محاولاً أن يبدو متنبهاً مثل أبيه. كان الملا يداعب مسبحته ويتمتم صلواته أثناء تجمع مقاتليه.

كان حمزات يصلي هو الآخر، لكن احمد لاحظ أن وجهه بدأ يطفح بالبشر تدريجياً من تأثير أفكاره، أضاء وجهه، ولم يصبح حاداً ويتحول ذلك البريق الجدي الذي كان دوما يبدو السمة النمطية الرئيسية التي تشكل تعبير وجه الملا.

فهم أحمد لماذا طوّر الملا عادته في التحدث وعيناه نصف مغمضتان. لقد كانت تلك حيلة غريزية لإخفاء شراسة أحاسيسه.

"ليست هذه المهمة سهلة... ولكنها ليست صعبة أيضا. أنا بحاجة إلى رجل يفهم ما يكفي من اللغة الروسية ليختلط بالناس في كيزليار بدون أن يثير الشبهات".

رفع حمزات يده، وكأنه يطلب الأذن في الكلام. أوما الملا برأسه موافقا.

"لدينا رجلان بهذه الصفات.... أنا أوصي بآتي."

ندت عن وجهه آتي ابتسامة خفيفة. كان جزء من مهارته كجاسوس ومتسلل هو امتلاكه لوجه خالٍ من التعابير مما يجعله يمر بالناس ولا يلاحظونه.

أثنى آرسبي على الاقتراح "يجب أن يذهب آتي. لو أننا أرسلناه إلى الستانيتزا، لربما لم نخسر أحد أقاربنا. يجب أن يكون لدينا معلومات أفضل... أيها الملا".

ملأت الغرفة همهمة الموافقة.

تحدث الملا بحزم "ليست المسألة مجرد معلومات، إن المسألة تتعلق أيضاً بالتنسيق، وهذا هو السبب في أنني يجب أن أسر إليكم بمسألة مهمة أخرى".

توقف، ليسمح بدرجة السّرية فيما هو مقدم على الكشف عنه أن تؤثر في كل واحد منهم.

"لقد سمعتموني كلكم وأنا أتحدث عن الملا العظيم في آلدي.... "أوشورما". الرجل الذي يسمونه الآن الشيخ منصور".

دارت عبر الغرفة موجة من الإثارة. لاحظ الملا هذا الأمر: فوجيء بكون هذا القدر الكبير من مقاتليه قد أصبحت لديه معرفة بأنشطة أوشورما.

نظر احمد متسائلاً إلى مراد الجالس إلى جانبه، هز الآخر رأسه فلم يكن أي منهما قد سمع بالملا القادم من آلدي.

قال أحمد بشيء من الندم "لقد فاتتنا بعض التطورات في مستوطنتنا الصغيرة." استمر الملا في خطابه "لقد أرسل اوشورما، الشيخ منصور، رسالة إلي شخصياً، يقول فيها بأنه يتعين عليه أن ينشيء قوة ذات شأن خلال الشهرين القادمين حتى يتمكن من مهاجمة "الستانيتزا" الروسية في كيزليار. يجب أن نؤدي هذا الأمر بشرف وكفاءة".

تملكت أحمد الحيرة، ونظر إلى مراد طالباً التفسير. لأن ما جعله يستغرق في التفكير لم يكن حداثة المعلومات التي يجري تمريرها ولكن درجة الخطورة. ليس هناك زعيم قباردي يمكن أن يكشف عن نوايا عسكرية مثل هذه في منبر مفتوح مثل هذا. ليس المقاتلون بحاجة إلى أن يعرفوا أهداف معركة ما قبل حدوثها بأسابيع، خاصة عندما يكون العدو نشيطاً في شبكة تجسسه مثلما هو الملا نشيط أيضاً. لم يتفهم مراد نظرة القلق على محيا أحمد، واستمر في تركيز انتباهه على الملا.

ظهر انزعاج مشابه على شيشاني آخر لم يعرفه أحمد، جالس إلى جانب آرسبي من هذه الخطة.

"إذا سمحت لي بالحديث أيها الملا،.... إن كيزليار على مسافة ركوب يومين من هنا. لا يمكننا الوصول إليها...."

أسكته الملا بإشارة أمر من يده.

"يكفي هذا، طبيعي أن المسافة تشكل عقبة، لكن لدينا خططنا. على أية حال، هنالك مسائل أخرى يتوجب علي الاهتمام بها الآن". تكلم ببرود إلى الجمع بصفته قائد المقاتلين."سنجتمع مرة أخرى بعد صلاه الجمعة القادمة. سيكون آتي قد عاد في ذلك الوقت من مهمته في كيزليار. والآن، يجب أن تعذروني، هنالك ضيوف ينتظرون مقابلتي".

بدأ المجتمعون ينهضون لمغادرة الصالة. هنالك أمر كبير في الجو. أدرك المقاتلون والكهول أن الملا يقوم حالياً باستدعاء الكبار من قرى أخرى في المنطقة، ليحشدهم في حملة الشيخ منصور.

لم يتمكن الملا من السيطرة على التهدج الخشن في صوته أو العصبية الملحة في حركاته. استأذن في المغادرة بتسرع، وانتبه أحمد إلى قوته الجسدية. لا بد وانه كان محارباً رهيباً – ولم يكن ذلك قبل سنوات طويلة. نظر الملا إلى مراد نظرة مختصرة قبل مغادرته، كما لو أنه يمنحه الأذن للحاق به أثناء خروجه.

تذكر أحمد الغاية الأخرى من زيارته للقرية، فأمسك بقوة بذراع مراد "لا تتكلم في شأني الآن! ليس هذا هو الوقت!"

أرخى مراد قبضة أحمد "يا أحمد! إما أن يكون الأمر الآن، أو لا يكون ابداً، ستصبح الظروف أسوأ، وليس أفضل, بإمكانك أن تشاهد ذلك بنفسك: إننا على شفير الحرب".

عبر مراد الصالة لينضم إلى الملا، وانطلق كلاهما وهما يتشاوران في هدوء إلى مسافة قصيرة. راقب أحمد بينما تحادث

الرجلان خارج الصالة بمسافة قصيرة. في البداية، عبس الملا وكأنه قد صرف انتباهه لكنه بعد ذلك أطلق نظرة باتجاه احمد، واوما برأسه في وقار.

أراد احمد لو أن الأرض تنشق وتعفيه من الساعة القادمة من الانتظار.

بينما كان آخر المقاتلين يغادر الصالة، ألقى كوير بنظرة إلى الخلف باتجاه أحمد. مرة أخرى، لم يستطع أن يعرف ما إذا كان تعبيره يشير إلى الغضب، الشك، أو الرغبة في الانتقام, لماذا؟

لم يكن احمد مسؤولاً شخصياً عن موت قريبه. بات يشعر بالحيرة.

ظهر حمزات إلى جانبه "يجب أن تأتي معي يا احمد. لا يصح تواجدك هنا الآن".

توقفا للحظات خارج بيت الملا، بينما عاد مراد ووالد زوجته ووالد كوير، ايلدار إلى الدخول إلى البيت. بعد ذلك مشى الشابان مبتعدين عن البيت وجلسا سوية فوق صخرة تحت أوراق شجرة القضبان. كان نور الشمس يخبو بسرعة. سرعان ما ستصبح السماء في سواد محيط عظيم عدا بريق النجوم. حدّق أحمد إلى الأعلى من خلال أوراق الشجر وبدت السموات ودودة.

قال احمد برضى واضح عن كون القتال يستجمع الزخم "ستكون هذه الغارة عملاً كبيراً"....

"إن ملا آلدي رجل عظيم يا احمد، لقد سمعت بأن القبائل الأخرى تتجمع تحت رايته. سوف يوحد الشيشان مرة واحدة والى الأبد. أن اكبر مشكلة هي طبيعتنا الميالة إلى المشاكسة. يجب أن نتعلم أن يتسع صدر الواحد منا للآخر. إذا استمرينا في التقاتل بين بعضنا، كيف سنتمكن من الانتصار على عدو مثل روسيا؟".

"لم أكن اعلم بوجود مثل هذه المشاكل، أليس جميع الشيشان متحدين ضد روسيا؟" قال احمد وهو يعبر عن قلقٍ صادق.

"أتمنى لو كان ذلك صحيحاً يا صديقي. ولكن الجواب هو كلا. بعض القبائل الشيشانية تأخذ الأموال من "الجاور" وتساعدهم على تحقيق مصالحهم. سوف يغير أوشورما كل ذلك".

جلس احمد متفكراً للحظات، ثم نظر باتجاه الملأ حيث كان يجري تقرير مصيره، ثم غيّر موضوع الحديث بشكل مفاجيء.

"لماذا يكرهني كوير إلى هذه الدرجة؟"

أشاح حمزات بوجهه ببطء، "لا أستطيع أن أخبرك".

لم تكن لدى احمد الرغبة في متابعة الموضوع أبعد من ذلك حتى لا يحرج الشيشاني الشاب. مال إلى الإمام ووضع يده على كتف حمزات السليم "أنت تبدو متعباً. هل تنام بما فيه الكفاية، أم انك تتألم؟ بإمكاني أن أحضر لك بعض العلاجات...".

تنهد حمزات "أشكرك يا أخي. إنني ممتن لك" نهض واقفاً وتمطى "أنت تعلم، أنني لست رجل قتال، وهذه القضايا تؤثر فيّ بعمق. اتمنى لو كنت شجاعاً حقاً، مثلك أنت".

قال ذلك بكل الإعجاب الممتعض من شاب إلى مثله الأعلى.

تمنى احمد لو أن بإمكانه أن يقول شيئاً لائقاً ليساعد به صديقه الشاب. ولكن كل ما كان يريد معرفته بأنانية، هو ما يمكن أن يتمخض عنه ما يدور داخل صالة الملأ، وما إذا كان الصداق الذي يتفق عليه سيصل إلى ما يمكنه الحصول عليه فوراً. لم يعد يعتقد أن بإمكانه الانتظار أكثر من ذلك حتى تصبح تسيما زوجة له.

أشرق وجه حمزات الباهت في العتمة "سوف يقبل بك أبي، يا احمد، لا حاجة بك إلى القلق. سيكون سعيداً بمقاتل كصهر له، وسوف تستمر ذريته من خلالك، كما يرغب هو أن تستمر".

"أنت صديق صدوق" قال احمد بدون تفكير مسبق واحتضنه بدفء في عناق ودود.

فوجيء برؤية الدموع في عيني حمزات عندما افترقا, وأسرع ابن الملا يغذ الخطى إلى ساحة القرية للانضمام إلى أصدقائه.

بقي أحمد في العتمة ينتظر وحيداً خروج مراد وظهوره. مرت أمامه حياته كلها وهو يفكر بجدية الخطوة التي يقدم عليها، هل تعلّم ان يسيطر على غضبه بما يكفي لأن يتخذ لنفسه زوجة؟ هل قاتل بما يكفي لان يعرف حدود شجاعته، وليس لأن يخاطر بحياته بدون ضرورة، مع وجود عائلة محتملة عنده ليفكر فيها؟ هل توصل إلى حل بالنسبة لشعوره بالعار تجاه افواسا، شقيقته الوحيدة، حتى لا يتسبب شعوره ذلك بتعكير حنوه على تسيما؟

جاء مراد اليه، باشاً مبتسماً، واحتضنه ايلدار، والد كوير إلى صدره حتى كاد يحطم أضلاعه.

أعلن ايلدار "أقول لك، يا أحمد الكوباني، أن الملا رجل يفاوض بصلابة! سيتعين عليك أن تعمل بجد من أجل زوجتك – لكنها لا تقدر بثمن – وكلنا يعرف ذلك: لذلك فكل ما تقدمه لا يعتبر كافياً".

التمعت أسنان ايلدار ببياض صافٍ، لكن ضحكته كانت ماكرة. كان بإمكان أحمد أن يقسم بأن إيلدار سعيد لكون الملا قد فرض عليه مثل ذلك الحمل كصداق للعروس.

في تلك اللحظة فهم أحمد الموقف. لا بد وأن كوير هو الذي تقدم بطلب يد تسيما، والواضح أن الملا قد ضاعف الصداق الذي عرضه إيلدار نيابة عن ابنه. وبذلك تم ارضاء كرامة جميع الأطراف، حتى ولو أن كوير نفسه قد أصابه الخذلان.

"سوف نكون اقارب، اذن" وافق أحمد بصوت خفيف.

بينما احتضنه ايلدار مرة أخرى، رأى أحمد مراداً واقفاً خلفه، وقد عقد ذراعيه على صدره، وبدا عليه السرور من نتيجة مفاوضاته.

"المزيد من الغارات، بكل تأكيد" هز مراد رأسه بجدية.

***

عمل أحمد ومراد كفريق متكامل خلال الأسابيع القليلة التالية, في إدارة مستوطنتهم وتخصيص بعض الوقت كلما استطاعا للقيام بقليل من "الصيد". فقد كان أحمد متشوقاً إلى زيادة ثروته حتى يلبي متطلبات الصداق. وقد أخبره مراد كذلك أنه يتوجب عليه أن يساهم بالغنائم مع رجال الملأ فقد نصحه بقوله "إن ذلك سيساعد على اندماجك فيهم: وعلى ذلك فقد كان لدى أحمد سبب آخر ليكون متهوراً.

لقد أصبحت "الستانيتزا" التي هاجموا فيها الضابط الروسي محصنة بشكل لا يمكن معه الإغارة عليها مباشرة. فقد أحضرت التعزيزات إليها من خط الجبهة. مما يعني أن الذخائر أصبحت تشحن إليها بانتظام أكثر. وكانت هذه قوافل العربات التي بات الشيشان ينظرون إليها بلهفة.

لكن كانت لدى مراد وأحمد مشاكل أخرى، فأينما اتجها، وأي كمين صغير يخططان له، كانا يجدان كوير ومقاتل آخر أصغر سناً، واسمه ايدمير، يرافقانهما كظل لهما.

سأل أحمد مغضباً "هل تعتقد أنه يشكك فيّ، لقد أعدت حمزات – كان سيموت! لقد عملت معك موسماً – كيف يمكن له أن يشكك فيّ؟"

"إن لديه أسبابه الخاصة لكي يرغب في أن يسيء إلى سمعتك".

"لقد اختارت تسيما بحرية"

"لدى كوير مسٌّ من الجنون. إنه لا يستطيع أن يتقبل تلك الحقيقة".

مرة كل شهر، كان تاجر متهوّر من ايكاترينوجراد يقوم برحلة أسفل خط الجبهة إلى "الستانيتزات" وفيما بينها، كان يبيع الفودكا، بعض الذرة واللوازم الصغيرة الأخرى إلى الجنود القابعين في أبراج الاستطلاع الأصغر. هو رجل أوسيتي، من شعب جبلي مختلف، آثروا البقاء خارج الحروب وكان الشيشان يحتقرونهم من أجل ذلك. ظل هذا الأوسيتي السكير على الدوام يغير طريقه وأيام مروره لكي يتجنب الشيشان. وفي هذا اليوم اصطحب معه جورجياً خائناً رث الهيئة في مثل حالته من السكر وأجلسه بجانبه ليقوم بحراسته.

همس أحمد بحماس وهو يتجسس بناظور مراد المقّرب "أنظر إلى تلك البندقية! إنها ليست من البنادق التي يصرفها الجيش الروسي! من أين جاء الجورجي بقطعة سلاح مثل تلك؟".

صفَّر مراد معجباً "لا بد وأنه حصل عليها في إشتباك ما، إنها مصنوعة باليد، وهذا أمر مؤكد. لا تجعلنا نتصرف كطامعين، إذا اكتفينا بزيارة صغيرة إلى تاجر الفودكا في هذه المرة، وأخذنا منه سلعة او أثنتين، فإن ذلك سيعزز من ثقته في العودة مرة أخرى".

قفز أحمد ومراد إلى سرجيهما وانسابا نزولاً في مجرى جاف باتجاه السهل المفتوح.

اختبآ خلف بعض الشجيرات، بانتظار أن تصبح العربة محاذية لهما. كان النهار صيفياً هادئاً مبكراً: سماء خالية من الغيوم، ملائمة للجري وسط المناظر الطبيعية الممتلئة بالأزهار البرية الرائعة. وقفت خلفهما القمم الشامخة لجبال القفقاس مهيبة جميلة تحت ضوء الشمس، وقد التمع الثلج على رؤوس أعلى القمم نظيفاً مثل البلور.

دوّى صوت طلقة: انحرفت عربة الثيران، وبعدها قام السائق بضربها بالسياط في هياج مضطرب.

"بسم الله". إذا كان ذلك كوير مرة أخرى، فأقسم أنني..... ".

ولكن قبل أن يتمكن أحمد من إنهاء قسمه، إنطلق كوير نفسه متجاوزاً له، وخطف سروع عربة الثيران الهاربة، وسحبها بشدة حتى توقفت فجأة. قفز زميله أيدمير إلى مؤخرة العربة وطوّح بعقب بندقيته فأصاب الجورجي في مؤخرة رأسه بين الأذنين. سقط الجورجي مذهولاً والدم الأسود ينز من فمه ومنخريه.

صرخ أحمد ومراد بأقوى ما تستطيعه رئتيهما "لا تقتلوهما! هل جننتما! توقفا عن هذا! إن هذا يخصنا!" .

قفز كوير مترجلاً عن جواده ووقف أمامهما واضعاً يديه على ردفيه.

"أنتما تريدان بندقية الخائن؟ هذا الأساتين القذر النتن الرائحة، الذي تحالف مع جورجي "جاور"، لماذا لا ترغبان في الذرة، إن قريتنا بحاجة إليها".

"يا كوير، ليس هذا الوقت ملائماً للجدال. إذهب من هنا قبل أن تداهمنا دورية ما".

"سآخذ العربة وكل ما فيها. خذ أنت البندقية إذا أردت".

"نحن لا نريد أن نجر النيران على أنفسنا في هذا الوقت بالذات!" صرخ فيه أحمد "أنت تعرف تعليمات الملا يا كوير، فلا تكن متهوراً".

"أنت ليس لديك أية مبادىء. أنت فقط تكنس من أجل صداق عروسك. هذه حرب مقدسة وينبغي أن لا نظهر أية رحمة".

استدار كوير حول نفسه باتجاه التاجر الأوسيتي الذي كان قد سقط عن عربته وأصبح جاثياً على يديه وركبتيه وهو يتمتم بصلوات مبهمة. بدأ يرسم علامة الصليب على نفسه تكراراً وبعصبية. مما زاد في حنق كوير أكثر فأكثر. صوب بندقيته

واطلق النار من مسافة قريبة، اختفى وجه التاجر كلياً وبعد ذلك سحب كوير سيفه وقطع السيور التي تقيد الثورين، ثم أخرج الثورين عن الطريق إلى داخل الشجيرات وهو يضربهما بالسوط على ظهريهما: سيعود إليهما عما قريب. ربط هو وأيدمير جواديهما إلى العربة وانطلقا بها نحو سفوح التلال وهما واقفان في موقع القيادة، يصرخان مثل قادة عربات القتال.

التقط أحمد البندقية في حالة من الذهول، وهي صناعة أوروبية متقنة. لم يكن هناك ما يمكن أن يفعله من أجل كوير. يمكن تعديل مزاجه الناري في أوقات أفضل من خلال أنشطة بناءة: مثل زراعة المحاصيل، الاهتمام بالماشية وبناء الزرائب. لم يتزوج صغيراً بسبب الحرب، وبقي وحيداً أكثر مما ينبغي، لأجل تسيما. لقد أخذ حبه المثالي يتحول إلى استحواذ مرير. وأخذت بذور التمرد عنده تظهر أسوأ ميوله.

"إن "الجهاد" هو بالضبط مالا يحتاج اليه كوير" قال مراد وهو يردد أفكار أحمد بصوت عالٍ، بينما هما عائدان ركوباً إلى مستوطنتهما.

كانت الاستعدادات لمعركة كيزليار تتقدم بشكل جيد. يحتمل أن يتلقيا دعوة إلى الاجتماع في أي يوم خلال فترة قريبة. لقد كان يفكر في أمور كثيرة. أما تسيما فقد كانت متلهفة إلى أن تزف إليه قبل ذلك الوقت.

***

في تلك الأثناء كان آتي يستمتع بوجبة لذيذة في سوق كيزليار المزدحم، إذ أنّ هذا الحصن الصغير مشهور بتجارته في سمك الرنجة المملح، السلمون المدخن والتروته، بينما اشتهرت نساء المنطقة بصنع القماش وبيع أطوال منه لصنع سترات الشراكسة المسماة "بيشميت".

استطاع آتي، الرجل الصغير الجسم بشعره الذي يشبه شعر الفار وملامحه غير المميزة، أن يتمشى بين الجموع, يتذوق الأطايب من صواني النساء والبائعات ويساوم في أسعار القماش، بدون أن تبدو عليه اقل إمارات الشبهة. فبالإضافة إلى إجادته اللغة الروسية، فهو يتكلم التترية بطلاقة، وهي اللغة المشتركة في الجبال، ومع هذا كان يشعر وكأنه في بيته في أية بقعة من التجمعات المدنية القفقاسية.

إن كيزليار حامية متوسطة الحجم ذات موقع إستراتيجي على نهر التيريك الأسفل. أعتبر كثير من الروس كيزليار عاصمة القفقاس بسبب سهولة اتصالها جنوباً بالجبال وشمالاً بالطريق الرئيسة التي تتصل بموسكو وسانت بطرسبرج. بيوتها مبنية من الطين وقضبان أغصان الأثل مع وجود عدة مساكن جبلية مبنية بالخشب فيما بينها. كان الجنود الروس والقوزاق منجذبين إلى أسواق كيزليار بقدر انجذاب المدنيين. كانت مهمة آتي هي معرفة ما اذا كان يتم جذب المزيد من الجنود إليها، وما اذا كانت لدى الروس معرفة مسبقة بما كان سيحدث. لقد حضر سابقاً إلى كيزليار في عدة مهمات بتكليف من الملا، منذ ذلك الاجتماع الذي عقد في القرية بعد الظهر. تلك هي المرة الأولى التي سمع فيها باسم الشيخ منصور.

وجد نفسه في إحدى الأمسيات جالساً على عتبات مشرب صغير، يراقب بهدوء توارد الضباط الجدد. بإمكانك دائماً ان تميز الضابط القادم من موسكو حديثاً: لأن زيه يكون مكوياً جيداً وشريط الزينة المجدول لامعاً، والوجه باهت اللون، ولم يلفحه الطقس. ظهر لآتي أن عدد الضباط أكبر منه في زيارته الاخيرة. وزيادة الضباط تعني أنّ المزيد من الوحدات قد تم تجنيدها إلى هنا.

لقد وقع اختياره على هذا المشرب عندما لمح وجهاً مألوفاً يتجول خلال سوق كيزليار حاملاً كيساً من الفراء.

نلك هو ارتونيان الأرمني والمعروف جيداً لدى آتي على انه مخبر مدفوع الأجر. كان يتخيل أنه عندما يسافر عبر بلاد الشيشان، لا أحد يعرف عن عمله ذا الوجهين. لكن الملأ كان قد ميزه منذ وقت مبكر وحافظ على علاقة طيبة به، بدلاً من ان يكشفه. وكان الجميع يزوده بمعلومات مغلوطة.

لاحق آتي الارمني خلال تجارته اليومية على أمل أن يلتقط منه طرف خيط مفيد. وهكذا توصل إلى هذا المشرب حيث رأى ما أثار اهتمامه الجاد: ارتونيان يجلس مع ضابط اشقر ضخم الجثة تبدو عليه ملامح المرض. تحادث الرجلان همساً لفترة ثم بدءآ جولة في المشارب، بينما آتي يمشي في اعقابهما. وهكذا هو هنا، قابع بجوار شرفة مشرب آخر، عندما سقط الضابط الأشقر الضخم من الباب وتمدد على الرصيف إلى جانبه. خرج ارتونيان خلفه بوقت قصير، يحمل زجاجة فودكا، ثم رفع الضابط الروسي ليوقفه على قدميه.

"هيا بنا يا ايفانوف. دعنا نعيدك إلى المعسكر".

"كلا، ولماذا بحق الجحيم. لدي إجازة لهذه الليلة، واقسم بالله أنني سأستفيد منها كاملة. استمر في الجولة يا ارتونيان."

سأل الارمني "تريد أولاداً ام بنات". لحسن الحظ أن ابتسامة آتي إختفت داخل طاقية ثوبه.

كان ارتونيان يستجمع الجرأة على إهانة الضابط عندما يكون مخموراً لدرجة انه لا يلاحظ "نساء محليات! يا الهي، أدفع أي شيء مقابل ضحكة!".

"دخن معي أولاً، أنت بحاجة إلى ان تصحو إذا كنت ستتمكن من الاداء".

جلس الرجلان على الدرجات واشعل ارتونيان سيجاراً.

"اما من أخبار عن كوماروف؟"

هز ايفانوف رأسه "مسألة سيئة. لقد كدت أموت يا ارتونيان. لعنة الله على الموضوع، أن يتم تجريدي من عشرة سنوات من...."

"ستعود إلى وضعك السابق. أنت على الأقل لم يشق بطنك".

"سيتم شق بطون الكثير من الجبليين قريبا، أستطيع ان أعدك بذلك....".

"الشيخ منصور...."

قفز ايفانوف واقفاً على رجليه فجأة "إخرس بحق المسيح . هل تريد ان يتم طردي من الخدمة؟"

لم يعد مخموراً بأيّة درجة الآن. لقد أصيب بالرعب، وأدرك انه قد سمح بلحظة من الطيش والحماقة.

نظر إلى ارتونيان دونه، وقد بدا ذهنه يصفو. ثم قال بصوت أجش:

"ما الذي أفعله أنا هنا بحق الجحيم، كيف وصلنا إلى هنا؟"

نهض ارتونيان ببطء شديد، حتى لا يظهر بمظهر من فقد السيطرة على الموقف "إهدأ ايها الرجل العجوز، أنت عصبي جداً منذ اشتباكك الصغير".

"اسمع, اذا مات كوماروف سيكون هناك تحقيق. لماذا كان يسافر مع اقل قدر من الحراسة، لماذا تصادف وجود تلك الكمية الكبيرة من الأسلحة في المعسكر بنفس الوقت.... لقد جردوني من رتبتي وعلي فقط ان اجلس متسكعاً وانتظر اللوطي التافه العجوز حتى يموت. إن مستقبلي متعلق بطعنة من خنجر شيطان وثني. يا خسارة كل تلك التربية، التعليم، والإنجازات".

كانت بقعة الصحو المقتضبة عند ايفانوف تتحول إلى جيشان عاطفي من الإشفاق على النفس.

"والذنب في ذلك يقع عليك جزئياً يا ارتونيان، بتحريكك الدب العجوز بكلامك الكثير عن فلان الفلاني وقدرته على تجهيز جيش".

سأل ارتونيان بهدوء "أنت لا تتفق مع كوماروف......"

"كلا، لا اتفق معه، ان كوماروف يخدع نفسه اذا كان يعتقد انه يمكن إحراز انتصارات مشرفة هنا. سوف يجتمع علينا أولئك الجبليون الأوغاد مسببين المتاعب مثل بلاء الناموس".

"أنت اذن مع سوفوروف"

"إما الابادة او الترحيل. نعم انا معه".

"قد يستمر هذا إلى الابد"

"هراء، هل أنت تشكك في قوة جيش القيصر؟ يا صديقي الطبيب، نحن لم نبدأ بعد."

"ولكن الكلفة....."

"ليس لدى هؤلاء الجبليين غير الاستعراض، بقدراتهم الاستعراضية في الفروسية وسيوفهم البراقة. اذا ضربناهم بقوة – وانا اعني بقوة حقاً – فإن روحهم المعنوية سوف تتبخر. لقد رأيت الأمر يحدث سابقاً. انهم رعاع، أترى معي، لا انضباط، لا معتقدات، ولا قيادة. إنهم ميتون أخلاقياً".

تناول ايفانوف زجاجة الفودكا من الارمني وجرع منها جرعة كبيرة، وهو مستمتع بمقولته

"ميتون أخلاقيا. أقول يا ارتونيان، هل سنحصل على الفتيات أم لا؟"

نهض بشكل مفاجيء ثم ترنح مبتعداً في الليل. حدق ارتونيان في أثره لعدة ثوان، وهو يحسب في اية نقطة سيتحول ايفانوف إلى اللؤم. اذا كان هناك أي شيء قد تبخر فهو شجاعة ايفانوف. فهو لم

يسكر إلى هذه الدرجة في كل الزمن الذي مارس فيه ارتونيان مهنة التجسس هذه.

لحق بالروسي إلى زقاق مظلم.

بقي آتي ملتفاً بمعطفه لبعض الوقت. لقد استدعى الموقف منه الكثير من ضبط النفس حتى لا يهجم على الجزار الروسي ويحز عنقه.

لم يتمكن من النوم بعد كل الذي تناهى إلى أسماعه. توصل إلى قناعة بأنه أصبح لديه ما يكفي من المعلومات لان يقدم قضية إلى الملا، وهكذا بدأ رحلته إلى البيت قبيل الفجر.

***

جمع الملا المقاتلين، كما هي عادته، بعد صلاة ظهر الجمعة لكي يستمع عن الاستعدادات للهجوم على كيزليار. لم تكن هذه الغزوة من إعداده. فقد أمره ملا منطقة آلدي ان يجهز جيشاً وينتظر تعليماته. لم يكن باستطاعته أن يفعل المزيد ولذلك شعر بالإحباط. لقد كان رجاله جاهزين. لقد استدعى العديد من رجال القبائل من الجبال المجاورة.

سيكون باستطاعته، عندما يحين اليوم، ان يدفع إلى الميدان بقوة كبيرة إلى الحد الذي يجعله فخوراً بها.

في تلك الأثناء، نشطت شبكة من الجواسيس في العودة اليه بنتفٍ وقطع من الأخبار، بعضها متضارب، وبعضها الآخر يؤكد المعلومات التي تفيد بأن الحامية الروسية في كيزليار مدركة حقاً للخطط المعدة للهجوم.

جلس مراد مع ايلدار، والد كوير، والذي كوفئ بشكل كريم على دعمه لخطوبة أحمد بان قدما له البندقية الأوروبية التي غنمها الصديقان، جلس في هذه اللحظة بينهما، وهو يحتضن سلاحه القيم

المزين بالفضة المخرّمة فوق ركبتيه المعقودتين. لم يظهر لكوير أي أثر.

دخل الملا إلى صالته يتبعه كبار أهل القرية. رفع يده طالباً الصمت، وبدأ يتكلم، موجزاً المعلومات التي حصل عليها آتي.

قال وهو يصعّر خده "يبدو أنهم يتوقعوننا، هنالك حتماً تحشيد للجنود داخل كيزليار وحولها. لدينا تأكيد بأن مراد قد قتل حقاً جنرالاً روسياً في الغارة على الستانيتزا".

سرت همهمة من الموافقة حول المجموعة.

"اريد أيضاً ان اشكر أخوينا "الأديغه" على مساهمتهم الكبيرة في مخزونات القرية في الأسابيع القليلة الماضية. إن مهارتهما في الإغارة ذات فائدة عظيمة لنا، وإنني أحمد الله على حمايته لهما في ساعة الحاجة هذه."

مال آتي إلى الإمام، آملاً أن يعطى الأذن في الكلام.

عبس الملا، وقد تذكر أنه وعد الجاسوس بإعطائه فرصته "حسناً، يا آتي".

"يجب أن نكون في منتهى الشجاعة. أخشى أن لا يكون النصر في متناول اليد. أنا لست على ثقة من ان الروس سينسحبون من أراضينا أبداً. انا لا اعرف حجم الجيش الروسي، أو لماذا يثابرون على سرقة أراضينا. على اية حال، هنالك طريقة أخرى للعيش بسلام.... إنني التمس منكم السماح".

جاء تلقي كلمات آتي متنوعاً. فقد كان البعض لا يطيقون صبراً حتى يسمعوا من الملا التاريخ المحدد لاستدعائهم للالتحاق براية الشيخ منصور. آخرون احترموا معرفة آتي المتخصصة ورأيه، على اعتبار انه كان لديه اتصال مباشر أكثر "بالجاور" أكثر من أي شخص آخر.

"هنالك بعض رجال القبائل الذين ابرموا تسويات مع الروس. إنهم يدفعون الضرائب، وقد ألقوا السلاح، ويسمحون للأوغاد بالمرور بحرية من خلال مناطقهم. بالمقابل فإن قراهم تنجو من الإحراق ولا يتم اغتصاب نسائهم. إنهم أحرار في الاستمرار بحياتهم في سلام كما عاش أجدادنا. من بعد إذنك، أيها الملا، يتوجب علينا أن نفكر في مثل هذا البديل.".

ولكن، بينما هو يطرح السؤال، قفز كوير إلى وسط دائرة الاجتماع، مشهراً خنجرين من حزامه، قرفص على حقويه، جاهزاً للقتال. صدرت عن الجمع زمجرة من الأصوات، مندهشة من غياب الاحترام للملا، معترضة على تحدي الاحترام التقليدي للكبار في الاجتماع.

صرخ كوير بملء حلقه "سيبرئني الملا! أي رجل يرغب في رؤية نهاية الحياة السلمية بين الشيشان: أي رجل يفضل الموت السريع على الكفاح الطويل من اجل الحرية - فليأت اليّ الآن. ليأت اليّ."

لم يتحرك أحد. ولا حتى الملا، الذي لم يصدر عنه أي رد فعل بينما كان هذا العرض غير الملائم يحدث. ربما أراد ان يعرف إن كان تطرف كوير يصيب الآخرين بالعدوى. أو انه يفقدهم التعاطف معه. لقد كان هذا إجراء تطهيرياً لنبذ ضعاف القلوب قبيل المعركة.

إقترب كوير من آتي وصوب أحد الخنجرين نحو عينيه.

"لقد تلطخت من جراء اتصالك "بالجاور" أنت لم تعد أهلاً للثقة بعد الآن".

تدخل حمزات بصوت غير عادي في حزمه "لقد تماديت كثيراً، يا كوير! إن آتي مخلص بقدر إخلاص النبات المتسلق لشجر البلوط".

قال كوير بقرف "انه لا يستطيع أن يسرق ثوراً. إنه لا يصلح إلا للاستراق."

رفع الملأ يده بحدة "إجلس يا كوير. يكفي هذا".

لاحظ أحمد أن صوت الملا كان يحمل الدفء، ويكاد يمتدح كوير على المغامرة بموقفه المتطرف.

لاحظ الأمر كوير أيضاً، ثم اتخذ مجلسه بقدر كبير من الكبرياء، وهو يلقي بنظرات الانتصار باتجاه أحمد.

بقي الملا صامتاً، لكن تحديقه انتقل إلى الدائرة، متوقفا للحظة للتحديق في عيني كل مقاتل بدوره.

"هل يرغب أي واحد في التفاوض مع "الجاور"؟ أنت؟ أنت؟ ماذا عنك يا مراد؟.

"أيها الملأ، لا يصح ان تسألني. إن ولاءاتي لا تختلف عن أي شيشاني آخر".

"حتى بالرغم من انك ستركب إلى موت محقق؟".

قال مراد ببرود أعصاب "ستتم مشيئة الله" مما جعل احمد يلتفت اليه مندهشاً.

وقتها فقط، عندما رأى مقدار جدية مراد، أدرك بأن الإبادة احتمال حقيقي جداً: وقتها فقط بدأ أحمد يفهم ضخامة التهديد الروسي. وبأن كيزليار هي مجرد البداية.

أدرك فجأة انه قد بلغ مرحلة الرجولة. لم يمض على مغادرته الكوبان أكثر من سنتين، صبي ممتلىء بالآمال العالية، والآن هو على وشك أن يخوض معركة حقيقية، رجل جاهز لأن يضحي بحياته من أجل قضية. لم يعد يخاف من رائحة الدم. لم يعد ببساطة قادراً على الهرب. فقد حان الوقت لكي يقف ويدافع عن كل الأشياء التي يحبها في حياته الجديدة.

ملأ الغرفة صمت عميق. كان كل مقاتل يفكر في خطوط متشابهة لتفكير أحمد: في تفسيرهم الخاص للالتزام النهائي. فجأة، كسر صوت الملأ نوبة الصمت.

"وحتى لو قبلنا نحن كقرية بالسلام مع "الجاور" فإن كثيراً من إخواننا لن يقبلوا. سوف يتم اضطهادنا بكل الأحوال لان "الجاور" لا يميز بيننا مطلقاً. نحن بالنسبة لهم متشابهون، لاننا رجال جبال غير منضبطين وغير مناسبين. بكلمات أخرى، يا أعزائي المقاتلين، ليس لدينا خيار إلا في القتال حتى التضحية الكبرى".

انطلق زئير مفاجيء من الموافقة، وقفز كوير واقفاً على رجليه ثم اندفع إلى الخارج، وبدأ يطلق النار من بندقيته نحو السماء بشكل متكرر. لم يعد تخليه عن الأدب يسبب الصدمة.

إنفضّ الاجتماع بعد ذلك بوقت قصير، وتفرق الرجال متجهين إلى بيوتهم لأداء صلاة المغرب.

كان أحمد قد إستأذن من مراد قبل الانطلاق إلى البيت سويةً، وذهب ليبحث عن تسيما. فقد كان هذا يوماً مصيرياً بأكثر من ناحية.

سلك طريقاً خارجاً من القرية، صعد في منحدر حاد إلى مكان يعرفه من قبل: فقد اختار سكان آخرون هذا المرتفع الجبلي من قبل وتركوا مجرد إشارة على تواجدهم. كان هناك صليب حجري هائل، تذكار ديني قديم مثل التذكارات العديدة الأخرى التي تملأ جبال القفقاس، وكانت تعتبر مقدسة حتى من قبل أكثر المسلمين المتطرفين من الشيشان. قال البعض بأن الصليبيين الهاربين من الشرق جاءوا إلى الجبال، أو أن الشهداء المسيحيين انسحبوا إلى هناك هرباً من الاضطهاد من قبل الأتراك. ومع ذلك فإن الأساطير القديمة والأغاني تقترح أنه حتى الأجداد الأوائل للشيشان كانوا مسيحيين، وانه لذلك السبب بقيت الصلبان على احترامها.

كانت تسيما جالسة على قبة حشيشية تحت الأثر. كان المكان محاطاً دوماً بالأزهار في الصيف: وهي عطايا بسيطة من المصلين الذين قدموا النذور. هرع أحمد صاعداً لتحيتها.

سالت بقليل من الخجل "هل انتهى الاجتماع" فقد حمل وجه أحمد حداً من كثافة التعبير جعلتها تشعر بالترقب والعصبية مما قد يقوله اليوم.

"نعم يا تسيما. سوف نضطر إلى الذهاب للحرب بصحبة الشيخ منصور العظيم قريباً. لست متأكداً متى سيحصل والدك على الإشارة. لكن قبل ذلك..."

وضعت تسيما يداً حانية على معصم أحمد "نعم يا أحمد؟" وأدار راحة يده ليطبق بها على يدها.

"قبل ذلك، يجب أن تعدي الخطط لزفافنا. لقد أتممت بالأمس دفع الصداق إلى أبيك، وأود منك أن تطلبي إذنه لزواج سريع. هذا طبعاً، إذا كنت راغبة يا تسيما في الارتباط برجل سيرتحل عن فراش الزواج بعيداً إلى الحرب".

"لا يمكن لفتاه شيشانية أن يكون لها عريس أكثر تشريفاً" قالت تسيما بحزم ووضوح. تحت الصليب القديم، ختما على اتفاقهما بقبلتهما الأولى الأطول والأكثر حميمية ".

***

الفصل السابع

اجتمعت تسيما وصديقاتها، بمن فيهن مدينا, في منزل الملا. كانت تلك أمسية زفافها. كان يجري الترحيب خارج ساحة القرية، بالشيشان القادمين من القرى المحيطة من قبل أقاربهم، وتعرض عليهم أماكن للاستراحة مع المرطبات في السرادق الذي نصب لهذه الغاية.

دبت الحيوية في القرية برمتها من التوقعات: بالنظر إلى الخوف اليومي من حملات الانتقام التي كانوا يعيشون تحت رحمتها، لقد كان الأمر أقرب إلى الأعجوبة حيث وضع أهل الجبال همومهم جانباً وامتلأت نفوسهم بروح الأمل في هذه الأمسية الصيفية الدافئة.

ارتدت تسيما وصديقاتها أثواباً بيضاء. مشدودة من الوسط بوشاحات الخصر الجلدية التقليدية. وقفن سوية وكأنهن دغل من أشجار القضبان يتهادين أثناء تحدثهن (وكأنما تحرك ريح خفيفة أجسادهن) بينما يقمن بتجهيز ملابس تسيما.

لكن تسيما كانت الأكثر نضارة بينهن، ترتدي قماشاً ذهبياً رائعاً فوق رأسها، مزيناً بورود مطرزة بيضاء احتفظت لها أمها بها لترتديها في هذا اليوم فقط. لو أن أمها عاشت لكي تراها الآن. تنهدت تسيما ولاحت على وجهها الجميل مسحة من الحزن. لاحظت مدينا، أقرب صديقة لها تحولها المؤقت.

سألتها وهي تجرها إلى التحدث: "أخبرينا مرة أخرى" فقد أرادت أن تسمع إلى أية درجة أجاد أحمد تلاوة الأسئلة الطقوسية –

ففي نهاية الأمر، هي التي دربته على التسلسل الصحيح لاختبار. "ما قبل الزواج" في اللغة الشيشانية.

كل فتاة ترغب في أن تطرح عليها تلك الأسئلة الطقوسية، وان تعطي الأجوبة الصحيحة. كن يحلمن بها في صباهن، ويعشن على ذكرى جمالها حين يصبحن أرامل.

"سألني أولاً "جواد من هو الأسرع؟" واجبته بشكل طبيعي "جواد أبي طبعاً".

أومات مدينا رأسها موافقة "ثم سألك" فروة من هي الأكثر دفئاً؟"

قهقهت تسيما وهزت رأسها "كلا، لقد سألني، فروة من هي الأقصر. لقد أخطا في اختيار الكلمة الشيشانية"

انفجرت الفتيات ضاحكات.

لذلك قلت له "إن فروة أبي هي الأكثر دفئاً يا أحمد، على الرغم من انها متهدلة وبشعة".

فأحمر وجهه عندما أدرك غلطته.

شجعتها مدينا "ولكنه بعد ذلك امسك بيدك"

"نعم لقد أمسك بيدي وهمس "يا تسيما، وعسل من هو الأحلى؟"

تدخلت فتاة أخرى بقولها "وهل قبل يدك؟"

"طبعاً! إن أحمد دافىء القلب ".

"وبعدها, ماذا قال؟"

"حسناً، لقد قلت أن العسل في بيت أبي هو أفضل ما يمكن العثور عليه....".

ندت عنهنّ تنهيدة رضى عامة على هذا الحوار، رغم أن الكلمات كان عمرها قرون من الزمن. وقد تم ترديدها مئات المرات في عدة مغازلات.

"بعدها قلت له أن قلبي هو الأسرع خفقاناً له، وان حبي هو أدفأ ما سيعرض عليه، وان أرق لمسة سيجدها ستكون لمستي، مثل نسمة باردة في الليل بعد حرارة النهار".

امتدحتها مدينا بقولها "ذلك كان قولاً مستحسناً منك".

"ولكن الجزء الأفضل كان عندما قدمت له الشاي، فابتسم وطلب مني أن أضيف إليه المزيد من السكر."

فقلت له: "أنت فعلا تعرف كيف تطلب. وبعدها انتهى الاحتفال".

ران على الفتيات صمتٌ قصير، بينما كانت كل واحدة منهن تحلم باليوم الذي سيسأل فيه خطيب كل واحدة منهن الأسئلة نفسها، وسيتعين عليهن أن يعثرن على أكثر العبارات أناقة حتى يجاوبن بها.

في تلك الأثناء، كان أحمد مضطرباً في بيت عائلة مدينا. ففي غياب والدي مراد، أصبح هذا البيت مأوى له لليلة التي تسبق ليلة الزفاف. كانت حنيفا, والدة مدينا، قد جهزت الشاي وكعكة العسل والحلويات في الكاسات الفضية الثمينة الملأى بخميرة العسل لتمضية الساعات خلال يوم الاحتفال هذا. كانت تجيء اليهم بين الفينة والأخرى، قصيرة القامة مائلة إلى البدانة قليلاً، ترفل في ثوب فضفاض من الحرير الأزرق، مع طوق صغير يمسك بغطاء رأسها فوق جبينها. لاحظت نفاذ صبر أحمد الذي يكاد يفقد السيطرة على نفسه من طقوس عقد القران.

"هذا يوم تسيما المميز – لا تجلب لها سوء الطالع بإظهار نفسك أيها الشاب!" قالت ضاحكة وهي تشير إلى المصاريع الخشبية على الشبابيك "لقد أحكمت إغلاقها!".

تقضي العادات أن يمضي العريس الليلة التي تسبق الزفاف في منزل أقرب الأصدقاء اليه: سيصطحب مراد أحمد إلى بيته ثم إلى حيث يستهل زواجه، ثم يقف حارساً على باب غرفة العرس حتى الفجر الذي يلي ليلة الزفاف. بعدها يعيد أحمد إلى بيت الضيافة، وهم في هذه الحالة "انسباء" مراد، كما هي العادة، بينما يتم إعادة استقبال العروس بين صديقاتها.

لم تكن هذه العادات غير مألوفة بالنسبة إلى أحمد: فهي بالأساس التقاليد المغرقة في القدم المتبعة بين قومه "اديغة" الكوبان وجميع أقوام القفقاس الآخرين. جلس يصغي إلى الضجة التي تتصاعد أمواجها في ساحة القرية. وقد قامت مدينا ونساء البيت الأخريات بتحضير لباسه التشير كاسكا لذلك اليوم، هدّبن حوافها بأطول خيوط تطريز الذهب التي أحضرها لهن معه، كآخر صلة له بشقيقته افواسا ووالدته. كان يحب لو أن نساء عائلته قد جهزن سترته ورداءه، ولكن مدينا كانت تأتي بعدهن كأقرب صديقة أنثى له، وأصبح بذلك من اللائق أن تقوم بتشريفه في هذا الشأن.

سمح لنفسه بلحظة من الغرور، ليفكر فيها بأنه يبدو وسيما في يوم زفافه. لقد ازداد عرض كتفيه بالعمل الشاق الذي بذله في بناء مستوطنته في العام الماضي. وقد اتخذ وجهه لوناً أكثر تلويحاً بسبب هواء الجبل النقي والشمس الساطعة. كانت يداه قد تصلبتا لكن معصميه وذراعيه أصبحا أكثر تفصيلاً وقوة، مما يليق أكثر بتجربته كمقاتل متمرس. كان راضياً عن نفسه ويشعر بأنه "أديغه" في كل بوصة من.... كيانه. لقد كان والداه سيفخران به.

أجفله مراد بصفعة على ظهره.

"كن صبوراً!" قال له، بصوت أعلى وأكثر مرحا مما عرف عنه. فقد كان مراد منضبطاً وأنيقاً دائماً، فوجيء أحمد كثيراً عندما شاهد التصرفات الصبيانية والمرح يطغيان عليه.

"لن يطول الأمر بعد الآن، أنظر!" أشار مراد إلى الخارج من خلال شق في الشباك الذي أغلقت سحاباته. تقضي التقاليد بأن يبعد أحمد عن هذا الجزء من الاحتفال، وهو رقصات الزفاف والوليمة. لان هذا هو احتفال تسيما بمكانتها الاجتماعية الجديدة. تضافرت الآلات الموسيقية والطبول في إصدار ألحانها لرقصة إيقاعية مثيرة: تدافع شباب القرية إلى الأمام حول المكان الذي أجلس فيه الملاً وحمزات وأعضاء آخرين من عائلتهما، وقد لبسوا أفخر ثيابهم وأسلحتهم. كان المرح والرقص العنيف على وشك أن ينطلق. نظر القباردیان إلى بعضهما بعضاً بعيون دامعة وقد تذكرا عائلاتهما وأصدقائهما في أراضيهما. تعانقا بحرارة ولم يشعرا بالحاجة إلى الكلمات للتعبير عن المشاعر العميقة التي تتدفق بينهما في تلك اللحظة.

في هذه الأثناء، حان وقت إخراج العروس، فظهرت مع حاشيتها من الصديقات في الطرف الآخر من الحلقة. تحلق العديد من الشبان والشابات يتبادلون النظرات في حياء، يحدوهم نصف الأمل بأن تكون هذه المناسبة هي الوقت الذي يتواصلون فيه مع رغبات قلوبهم. أشعلت نار احتفالية كبيرة على ضوء الغسق، ترسل زخات من شراراتها إلى الأعلى كأنما يجذبها تيار مغناطيسي من ضياء البدر المتكامل. تم تزيين كل البيوت الواقعة حول ساحة القرية بالمشاعل المضيئة، بحيث أصبح مكان الالتقاء كله يسبح بالضوء الذهبي الخافت، وأضافت بوميضها مزيداً من البهجة على المحتفلين.

تنقلت الفتيات الصغيرات بخجل بين المحتشدين، وهن يقدمن شرائح من كعكة العسل، الفواكه والحلويات الفاخرة. ابتدأ الرقص الجدّيُ فجأة وبدون مقدمات ووجد الجبليون الحرية في التعبير عن قوتهم وخفة حركتهم بخطوات من أقدامهم بدت مستحيلة على المتابعة بسبب سرعتها وإيقاعها المثالي.

الشباب يتقافزون في دوائر بكبرياء وخفة، بينما تتهادى الصبايا بنعومة وحياء ويتصرفن كأنهن الضحية البريئة التي تحاول الهروب من الهجمات المهتاجة للذكور المعتدين الذين يطاردونها، معيدين بذلك تمثيل الطقوس المغرقة في القدم عن الغزل، تعالت الموسيقى بانضمام أعذب أصوات القرية، التي يعدد الرجال فيها فضائل العروس، وملذات الحب في الزواج.

استمر الرقص والغناء بدون توقف إلى أن أحضرت الصحاف الكبيرة الممتلئة بالخراف المشوية من المناقل وبدأ توزيعها بكرم واضح. وهنا ابتدأ الاحتفال بقوة، إذ تمت المشاركة في المخللات، المعجنات، الاطعمة الشهية المحلاة، وكل المخزونات القيمة لدى هؤلاء الناس المحاصرين في أمسية من الانفراج.

حتى الملأ المتجهم، الجالس معقود الساقين صامتاً، سمح للتعبير على وجهه أن يسترخي ليصبح رائقاً.

أول من لمح الغرباء هو حمزات. أشكال قاتمة الألوان تتحرك مقتربة على ظهور جياد واثقة الخطى.

الاحتكاك المزعج للجام الخيل بأسنانها بينما ترجل الفرسان وتقدموا خارجين من العتمة نحو التماع ضوء المشاعل. اشكال ظلية، الآن تراها ثم لا تراها.

قال حمزات بصوت متهدج "أبتاه... إنه ملأ آلدي...!" وكانت يده التي تشير إلى الضيف ترتجف بشكل ملحوظ.

وقف في وسطهم كأنّه رؤيا، انتضى عنه "البوركا" بحيث بدت ثيابه البيضاء أشبه بالشبح أمام انعكاس ألسنة النار المتقدة. لم يدخل وسط حشد الراقصين والمحتفلين، بل اتخذ لنفسه موقعاً على مرتفع صغير في إحدى زوايا الساحة، ضمن انعكاس أضواء النار.

أضفى ضعف الإضاءة على وجهه المزيد من الملامح الصقورية، وظهرت الظلال الداكنة وعظام الوجنتين بشكل أكثر نبلاً ورهبة مما قد يبدو طبيعياً لدى أي رجل آخر.

قفز الملاّ واقفاً على رجليه، وكأنه صقر يهب لرؤية طير مفترس آخر مقلعاً. ران الصمت المفاجيء على الجمهور، توقفت الموسيقى وانتشر اسم الرجل العظيم بين الحشود، مثل ريح مفاجئة تحرك أوراق الشجر الناحلة.

حيّاه الملاّ بصوت عالٍ وهو يمشي باتجاه ضيفه بسرعة. "هذا شرف..... هذا شرف حقاً. يا مرحباً بمنقذ بلاد الشيشان. مرحباً".

تهادى صوته ثم اختنق عند نهاية كلامه- فهي المرة الأولى التي شعر فيها بأنه قد فقد سلطته. اندفع إلى الإمام، وتفرق الجمهور حتى يتمكن قائدهم من الوصول إلى المرتفع من الأرض الذي يقف عليه الشيخ منصور العظيم، منتظراً. مد الملاّ يده النحيلة، وانحنى الشيخ حتى يتمكن من الإمساك بها.

انسابت الطاقة بين الرجلين, واجفل كلاهما، فقد بدت المصافحة وكأنها صاعقة يجري تفريغها في الأرض. تلاوحت ثنايا ثوب الشيخ أذ انتصبت قامته ليخاطب الشيشان، بصوت ثابت ومرتفع.

"انني.... أهنئك على سعادتك أيها الملا! لن تتحقق لي السعادة شخصياً إلا بعد أن نكون قد طردنا الكافر الأخير من أراضينا. هذا ما جئت لأقوله لكم يا إخوتي الشيشان" اخترقت عيناه كل رجل، وجعلت كل رجل بدوره يشعر وكأنه الوحيد الذي يوجه له النداء باستثناء الآخرين جميعاً. كان صوت اوشورما يحتك بالأسماع بقوة اختراق تنبع من قوة التزامه بالقضية.

نادراً ما قضى إنسان حياته بهذا القدر من التطرف لقضية شعبه. كان مخلصاً لأنه فهم بوضوح أكثر من أي رجل آخر، ما

سيكون عليه مصيرهم بدون المقاومة: اجتثاث الجنس كله، وإبادة الشيشان حتى آخر رجل فيهم.

"جئت أيها الاخوة لأقول لكم أن يوم الخلاص قد اقترب. لن نتحمل بعد اليوم أن يدنس " الجاور" الروسي مساجدنا أو يطأ على أرضنا الطيبة. لن يعود يسمح لهم بسرقة مواشينا أو إحراق بيوتنا....! أقول لكم أيها الاخوة، ان وقت "الغزوة " قد حل علينا. لقد جاء زمن الحرب المفتوحة على هذا الغازي الكافر، "هذا الشيطان" الذي يغتصب نساءنا ويذبح أطفالنا....!.

انضموا الي في كيزليار.... انضموا اليَّ في كيزليار ودعونا نعلم هذا الكافر معنى "الجهاد".

"الجهاد....!" "الجهاد....!" صرخ كوير وانضم اليه الحشد منادين باسم القائد العظيم، حتى أصبح الصوت يصم الآذان وتتجاوب أصداؤه في قمم الجبال المحاذية لهم. لو أن الشيخ منصور أعطى الأذن بالهجوم في تلك اللحظة، لغادر الرجال المجتمعون عن بكرة أبيهم في القرية وتبعوه حتى آخر نقطة على وجه البسيطة.

بدأ الشباب الشيشان ينشدون "الشيخ منصور! الشيخ منصور" وهم يلتفون حول قائدهم العظيم. هرب الأطفال باكين صارخين إلى تنانير أمهاتهم وغطت الصبايا آذانهنّ هلعاً من صراخ جميع رجالهم غير المقدس والمقدس بنفس الوقت.

رفع الشيخ منصور يداً معروقة طويلة، وساد الهدوء.

دعاهم اليه بهمسة خارقة "هل انتم معي؟"

"نعم...! نعم..... نعم....!".

فجأة، أصبح صوت أوشورما ممتلئاً، صوت الجنرال القائد المطلق في وسط الميدان.

"إذن، انضموا اليّ أيها الرجال أصحاب الدم الشيشاني النقي.... انضموا الي في بيت الملا. سوف نصلي، ثم سوف نتشاور."

قفز الشيخ منصور نازلاً عن مكان خطابه بدون أن يضيف كلمة أخرى، وأمسك بذراع الملا. ثم خطا الزعيمان وكأنهما رجل واحد إلى منزل الملا وقد التف حولهما كل مقاتلي القرية في صفوف متراصة.

وقفت تسيما ومدينا وكل الصبايا الأخريات وهن يرتجفن في الزاوية البعيدة من الساحة: ليس بفعل البرد، لكنهن كن يرتعشن خوفاً وحزناً. انضمت اليهن حنيفا، والدة مدينا, مطأطئة رأسها بقلق ظاهر.

كان وجهها حزيناً. لو أن الاحتفال انتهى بالطريقة التقليدية، لترتب عليها أن تقود تسيما إلى غرفة العروس، وتشعل ناراً صغيرة من قطع الأغصان على شكل حلقة عند قدمي الفتاه لتبعد عنها الأرواح الشريرة إلى أن يجيء أحمد مطالباً بها. وسوف يقوم بقطع حزامها الجلدي "بالقاما" التي يحملها كرمز على اتحادهما.

لو أن الاحتفال انتهى بالطريقة التقليدية، لأستمر الأزواج في القرية بالرقص طيلة الليل، مستعيدين ذكريات مسرات فراشهم الزوجي، ومن يعلم, فقد يعدون بعضهم بعضاً بممارسة الحب وزيادة أعداد أسرهم في تلك الليلة بالذات.

لو أن الاحتفال انتهى بالطريقة التقليدية، لتشارك المقاتلون الشباب في القرية بالنظرات والرقصات مع أجمل الصبايا الذين يرغبون فيهن، واظهروا مقدار شجاعتهم بالحركات الرشيقة التي يؤدونها فوق حلبة الرقص، متباهين مثل الأحصنة، ملوحين "بالقاما" فوق رؤوسهم كما يفعلون في ميدان المعركة. ولكن ما كانت تراق قطرة دم واحدة.

"لماذا كان عليهم أن يحضروا؟" أحاطت إحدى الصبايا تسيما بذراعيها وبكت على كتفها. عضت تسيما على شفتها, في محاولة لإظهار الشجاعة، وعدم الاستياء من هذا التطور العنيف للأحداث في ليلة زفافها.

استجمعت حنيفا شجاعتها "لا تقلقي يا جميلتي". قالت ذلك وهي تضع يدها بحزم على خد تسيما وتمسح بها دمعة صامتة. متجاهلة. "سيظل الحديث يدور حول عرسك لأجيال قادمة. سيقول الناس: لقد كان في تلك الليلة التي حضر فيها اوشورما العظيم إلى قريتنا..... سيقولون...."

لكن تسيما أشاحت بوجهها الجميل بعنف وابتدأت تبكي.

"لا يهمني ما سيقوله الناس لاحقاً. أريد أن أكون سعيدة الآن".

أصبحت تسيما وحدها. فهل سيأتي إليها أحمد في هذه الليلة؟ هناك طريقة واحدة ينتهي فيها الزفاف إلى نهاية سعيدة، سواء كان حسب التقاليد أم غيرها".

***

ارتعد المساعد إيفانوف عندما انزلقت بقايا زجاجة الفودكا إلى حلقه المتشقق من الجفاف.

تدحرجت القنينة الفارغة مبتعدة تحت السرير. لم يكن هذا الكسل القسري المفروض يلائمه مطلقاً وبات يعجب مما يمكنه أن يفعله لتقصير مدته. فكلما حاول أن يركز دماغه على الخطوط المتاحة لتقدمه الشخصي, وجد أن الصورة المقرفة للجمجمة المسحوقة تسحب منه نسغ الطاقة وتجبره على العودة إلى التعاسة مرة أخرى. فقد كان في "وجار الكلب" حسب التعبير العسكري، وليس هناك حالياً ما يشبع غروره سوى الفودكا. عاد إلى الاضطجاع على حشية القش وزمجر منادياً على الرجل الذي يقوم على خدمته.

"قنينة أخرى عليك لعنة الله".

حرك القن القوزاقي تشيرجين مؤخرته وهو جالس مباشرة خارج باب غرفة ايفانوف وبدأ ينتحب "أمر ممتاز يا سيدي أن تطلب، ولكن من الذي سيدفع؟ إن لوحة حسابك لدى مأمور المستودع ما تزال مقلوبة نحو الحائط. لا أستطيع أن أعود إلى هناك يا سيدي، فهو سوف يركلني بقوة مثل المرة الأخيرة".

"سأضربك ضرباً مبرحاً إذا لم تخرج وتعود اليّ بقنينة قبل شروق الشمس. انقلع من هنا يا كومة من القذارة."

قد تكون مضت ثواني أو ساعات حين أحس بوجود يد نتنة الرائحة على حلقه. كان هناك شخص يتنفس بقوة في وجهه بأنفاس كريهة مثل تجشؤ مكبوت.

ألقى ايفانوف بنظرة واحدة إلى الوجه المتجهم ذي الندوب وانتفض جالساً.

"يا أم يسوع، هاشم، لقد كدت تخرج الحياة مني رعباً! كيف تجاوزت الحراس؟ الأمر يدعو للسخرية: إن هذا المكان مفتوح على اتساعه مثل..."

قبل أن يتمكن من النطق بتعبير مقارنة بذيء، ضغط هاشم على حلقه بقوة حتى انه صار يقرقر.

"الجنرال كوماروف. الآن".

تجشأ ايفانوف. أهذا استدعاء لإعدام فوري، محكمة تحقيق، أم أنه كمين؟ لم تكن لديه أية فكرة عما يمكن أن تكون غاية هاشم، في غياب التفويض المكتوب من كوماروف.

ومع ذلك، فإن الحقيقة هي أنه لم يكن في موقع يمكنه من الجدال. لأن هاشم يدس "القاما" بين أضلاعه إلى درجة انها يحتمل أن تشق جلده لو أنه حاول مجرد التنفس بقوة.

نهض كوماروف وهو يرتجف، أغلق نصف أزرار بنطلونه وسحب سترته. مشى الرجلان بدرجة مشكوك فيها من الألفة الجسدية لشخص من القرشاي وضابط روسي الماني المولد، على طول ممر المهاجع العسكرية خارجين من حصن ايكاتيرينوجراد.

تلقوا بضع نظرات مستغربة: ولكن بما انه كان يجري ابرام كل أنواع الصفقات في جميع الحصون على طول خط الجبهة، مثل المباشرة في الأنشطة السرية، وتبادل التجارة غير القانونية، فإن المراقبين سرعان ما نسوا أمرهما.

شعر ايفانوف بارتياح لأنه لم يتم اقتياده إلى زقاق مسدود، ولكن إلى منزل قائده. رأى الأميرة صونيا واقفة في القاعة، جميلة فاتنة كالعهد بها. ما كان أحد يفكر أن المساعد ايفانوف قد قضى شهراً في التوقيف أو الخوف من محاكمة عسكرية، بالحكم من تحيتها الدافئة بابتسامة رائعة.

نطق بالكلمات المألوفة باللغة الفرنسية بطريقة عصبية إلى حد ما "إنني اشعر بالأسف يا صاحبة السمو لأنني ارتدي ملابس لا تليق أبداً باستقبالك لي...." وهو يكره كون لغته الفرنسية مثقلة باللهجة الألمانية، بينما لغته الروسية لم تكشف عن أصوله.

قالت باقتضاب "اصعد إلى فوق. لم ينته كل شيء إلى الضياع" ومنحته ابتسامة رائعة أخرى.

هل كان كوماروف يتعافى؟ لم يسمع أية إشارة إلى ذلك في المعسكر. أصبح معلوماً أنه تم طرد طبيب الجيش. ودفع ذلك الإجراء ايفانوف إلى أن يخشى الأسوأ.

قال ايفانوف لنفسه "ما هي اللعبة؟" دفع هاشم "بالقاما" في أضلاعه بقوة ليفهمه انه سرعان ما سيدرك الوضع.

رقد الجنرال مستنداً إلى الوسائد، ما زال شديد الصفرة ولكنه خلاف ذلك مستجمع لقواه العقلية. لقد خسر كمية رهيبة من وزنه

مما جعل رأسه الذي يشبه رؤوس الأجلاف يبدو مبالغاً في الكبر، باعثاً على الرهبة فوق كتفيه المنكمشين. شعر ايفانوف بامتعاض شديد من رؤية هذا الرجل الجريء الممتلئ حيوية في الفراش، وقد ظهر عليه التوحد والواقعية إلى درجة مخيفة. وقف قريباً منه رجل غريب في منتهى الأناقة، أعطاه انطباعاً بأن عمله طيلة اليوم ينتهي عند الوقوف وارتداء ملابسه.وبالحكم على تعقيد ربطة عنقه، بدا وكان الأمر مرهق.

فوجئ ايفانوف من الرنين المفاجئ لصوت كوماروف. لقد شفي الرجل، فعلاً.

"ايفانوف، هذا ابن عمي وطبيبي، باسل فاسيلييفيتش. لقد اجترح معجزة، يجب أن تشعر بالامتنان."

ضرب ايفانوف كعبيه ببعضهما، وانحنى انحناءة شديدة.

لم يكن في نية ايفانوف أن يضيع الوقت على مشاعر الندم أو بحث ما بعد الوفاة.

"سيدي، بكل احترام "......".

"لا تتكلم يا ايفانوف. انا مدرك أن كلينا في وضع لا نحسد عليه. لست اهتم لذلك البته. زخم الأمور يتصاعد ومن الحيوي أن أصل إلى ايكاتيرينوجراد لا تحدث مع سوفوروف قبل أن يبدأ تطاير الرصاص."

طبيعي أن يعرف ايفانوف ما يجري التخطيط له، فإن الإشاعات تطير حول أمكنه مثل المعسكرات عندما يتم تحريك وحدات كاملة وإرسالها باتجاه الشرق على خط الجبهة.

معركة التحام ضارية: تلك كانت الخطة بشكل واضح.

"سوف يقوم سوفوروف اللعين بالتحرك في وقت أبكر مما يجب. إنني أعتقد بأننا يجب أن نتقدم بتوقيت أكثر مهارة من هذا".

حدق إيفانوف في باسل ثم سأله "هل صحة الجنرال جيدة لدرجة تسمح له بالسفر؟".فهو ليس مغرماً بالمسؤولية عن انتكاس كوماروف في رحلة ركوب متعبة.

أجاب باسل بإبتسامة متعالية "إنني قادم أيضا".

"الطبيب الشخصي.... لا بد وأن ذلك سيحول الاهتمام، مثل الاستمتاع بالمناظر. لقد سمعت بأن وادي الكوبان غني بشكل خاص بالأزهار الجبلية في هذا الوقت من السنة".

"قل ما عندك، لا تهتم لوجود فاسسيلييفيتش" قال كوماروف بضيق "ماذا يدور من إشاعات في الحصن؟".

"إن الشيشان يتحشدون حول الشيخ منصور. إنهم يتجهون صوب كارجينسك, وتلك هي منطقة الغابات خارج كيزليار".

"إلى أي درجة يبدون مستعدين؟".

شعر ايفانوف بشيء من العصبية "حسناً، بفضل "هدايانا" الصغيرة، فهم مسلحون حتى أسنانهم".

كشف باسل فجأة عن عقله المتوقد – لم يكن فيه شيء أسرع من ذهنه.

"لقد بدأت أدرك الصورة – أنت تقصد أنك وضعت تلك الأسلحة حتى يسرقها أولئك الجبليون، حتى تجرهم إلى حرب مكشوفة؟".

"أحسنت يا باسل" زمجر كوماروف "طبعاً ذلك غير رسمي، وهي كذلك لعبة خطيرة. نحن لا نستطيع أن نهزمهم إذا التزموا بتكتيكات الإغارة والفرار في هذه الجبال التي لا تنتهي.

ونحن لا نستطيع كذلك الاشتباك معهم في السهول مرات عديدة. لماذا؟ لأن الشيشان مقاتلون رائعون. ذلك ما يسيء سوفوروف تقديره. الأمر هكذا: في كل مرة يقابلوننا فيها، هم

يتعلمون استراتيجيات عسكرية جديدة – أنا واثق من أن الشيخ منصور سيتعلم، وبمجرد أن يفهم هؤلاء الأشرار أصول الحرب الكلاسيكية، فسوف يصبح الأمر بالغ الصعوبة علينا في قهرهم. لست أنوي أن أخسر أكثر مما أنا مضطر إليه من القوات الإمبراطورية. إنني مؤمن بأن كل ما يحتاجه الثوار هو جنرال كفؤ".

"إذن أنت تؤيد القيام بضربة ضخمة مخطط لها بعناية".

"تحديداً. الأمر كله يخضع للعقل. يجب إقناع الثوار بأنه لا يمكن قهرنا. يجب تدمير الروح وليس مجرد الجسد. يجب بناء قوة الأمل الكبير و الشيخ منصور وسمعته و بعد ذلك يجب تحطيمه".

تمددت يدا الجنرال كوماروف ذات العقد والمكسوة بالشعر القاسي بدون حراك فوق المفرش الكتاني الأبيض النظيف لفراشه. مما أعطى لكلماته قوة غرائبية كونه لا يؤدي بها أية إشارات، كما كان يفعل عندما يعطي الإيجازات إلى الجنرالات أو مساعديهم. فقد تكلم هدوؤه عن اقتناعه.

"أريد من سوفوروف أن يسمع هذا الكلام مني، لأنه لا أحد آخر ستكون لديه الشجاعة ليصارحه به مباشرة. فهم جميعاً صيادو أمجاد يمشون فوق مهاميزه.. رجال موافقون على كل ما يقوله وليسوا محاربين ذوي تجربة على الجبهة مثلي".

تجرأ ايفانوف على السؤال وقد طمأنته الطاقة الكامنة في كلمات كوماروف "وماذا عن جرحك يا سيدي؟"

"هذا الرجل باسل فاسيليفيتش خارق للعادة أعاد فتح جرحي مرة أخرى، يبدو أن جرّاح الجيش قد ترك قطعة من أحشائي فالته بدون غرز. لو أنني تركت الغرز التي أخاطها في مكانها، لشفيت أمعائي وهي ملتصقة ببعضها وتعقدت حتى سببت موتي، ما هو التعبير الطبي يا باسل؟"

"التصاقات".

"نعم، هي هذه". لمعت عينا كوماروف مثل رجل أعيد إلى الحياة من الموت، لكن وجهه كان باهتاً وجبهته متلبدة من التعرق.

لم يكن ايفانوف قد تأكد بعد من أن جسد الجنرال لن يضعف قبل روحه.

نظر إلى باسل متوقعاً منه التوكيد. لكن باسل اكتفى بالابتسام ونفض كتفيه. عرف ايفانوف هذا النوع من الناس. كل شيء بالنسبة له لعبة عظيمة: لا شيء مهم. هو رجل خطير، مقامر ليس على الموائد ولكن مع القدر. كانت لدى ايفانوف كمية قليلة من المبادئ، ولكنه على الأقل كان يمتلك بعضها. أدرك أن باسل ليس لديه أياً منها.

دخلت الأميرة صونيا إلى الغرفة واستولت عليها في رداء من الحرير الرمادي المثير "سوف أقوم بسرقة باسل بعيداً عنكم الآن. لقد قضى وقتاً أكثر بكثير مما يجب في غرفة المرض هذه وأنا بحاجة إليه لنكمل الرباعي. المساعد ايفانوف؟ خسارة أنك لم تستطع أن تبقى، حقيقة يا زوجي، آمل فعلاً أن لا يقع المساعد في مشاكل بسبب إبعاده عن واجباته.....".

كانت هذه طريقة الأميرة صونيا الموهوبة في جعل ايفانوف يدرك أن زيه كان في حالة أسوأ بكثير من أن تضمه إلى أي ارتباط اجتماعي لهذا اليوم. أحمرّ وجه ايفانوف. فهو متمسك بالمظهر اللائق في كل الأوقات لكونه ضابطاً ألمانياً في الجيش الروسي. لكنها هي فقط هذه المشكلة الصغيرة، وهي منظر الدماغ المسحوق في ذهنه، التي تتدخل في إجراءات الصباح الباكر عنده.

أمره كوماروف بقوله "عد إلى هنا في الخامسة من صباح الغد".

تجرأ ايفانوف على السؤال "هل هذا أمر رسمي؟" وهو يأمل في أن لا يكون صوته قد بدا ضعيفاً إلى حد مهني.

تمتم كوماروف في قرف "أخرج من هنا".

ذلك أمر جديد. في الماضي كان سيهدر صائحاً.

تجول ايفانوف خلال أسواق كيزليار، في محاولة للتخلص من الصداع الذي يكاد يعمي بصيرته. كل هذا الكلام عن المعارك الضارية أكثر مما يحتمله في هذه الساعة من النهار. شعر بحاجة ماسة إلى شراب.

دخل الى نزل غير بعيد عن معسكره، محظور على الجنود وصغار الضباط. وبما أن الساعة هي العاشرة صباحاً، لم يكن هناك احتمال كبير في أن يشاهده ضابط أعلى منه رتبة.

من سوء حظه أن ارتونيان وماكس، الارمنيان اللذين كانا متلازمين كاللصوص، لقيا ترحيباً مطولاً في لعبه قمار بالورق استمرت طيلة الليل مع ضابطين من نفس لواء ايفانوف. كانا ما يزالان منهمكين في اللعبة بقوة حين دخل إلى النزل.

أول من لاحظ دخوله هو الكونت باخونين، نقيب وقح صغير السن من لوائه "إنني أربح. ابق واحتفل, لن يأخذ هذا وقتاً طويلاً."

قال له ماكس "إخرس", وهو يهز خواتمه الكبيرة على أصابعه السمينة "إذا كنت لا تزال في اللعبة، فألعب. ليس هذا وقت الثرثرة التافهة".

"إحتفظ بشعرك على رأسك!" تسببت هذه الملاحظة في ضحكة جماعية، لأن ماكس، مثل بقية الرجال ذوي الصلعات في الدنيا كلها، كان يمارس ألعاباً كثيرة بالخصلات القليلة المتبقية على رأسه، وهو يشدها من أحد صدغيه إلى الآخر مرورا بالصحراء اللامعة على قمة رأسه. عبس ماكس وأعاد ارتداء قبعته الفارسية, نظر الى الأعلى باتجاه ايفانوف وابتسم, ثم تابع تركيزه على الأوراق التي في يده.

سحب الكونت باخونين نفسا عميقا من سيجارته, ثم لعب وربح الجولة، القى ماكس بأوراقه على الطاولة في قرف. لديه من المال ما يمكنه من الخسارة. فهو أغنى تاجر في القفقاس, قام اللاعبان الآخران بنفس العملية ثم نهضا واقفين لتحريك رجليهما.

سحب باخونين الوسيم الصغير السن ايفانوف على جهة.

"ما الخطب أيها العجوز؟ انك تبدو شاحبا, كيف هي حالة الجنرال؟ لقد سمعت ان الأمر لن يتعدى بضعة أيام".

قال ايفانوف "ذلك صحيح, وقد هبط عليه الإلهام فجأة فقرر ان يمارس الكتمان "هي مسالة مجرد أيام. لا تشيع الأمر, لكنه لن يكمل الأسبوع حياً".

تجرأ الضابط الصغير على ان يواسي،. فهو في نهاية الأمر برتبة كونت وروسي حقيقي وليس ألماني المولد واحتصل على اسم روسي، ان بإمكانه ان يحكم بالجلد على جندي نفر لأنه يتجاهل لقبه, انه نقيب ذو اسم لامع, وليس مجرد ضابط من النبلاء.

استعاد ايفانوف رباطة جاشه في الحال. لقد افتتحت بلاد آبائه من قبل جيش القيصر على الجبهة الغربية واضطر أبواه الى الانتقال الى المناطق الحدودية الفقيرة بالقرب من شبه جزيرة القرم, وان يكدحوا في سبيل النزر اليسير من الرزق فيها بعد ان غيروا أسماءهم ذات الأصول الألمانية، هو ابن الجيل الثاني الواقع تحت الحكم الروسي وقد أبدى من الشجاعة والمهارة ما جعله مؤهلا لأن يرسل الى الكلية الحربية في موسكو. حيث كان تقدمه سريعا. واستحق الاهتمام الذي حصل عليه بجدارة. لقد حظي الألمان في الجيش الروسي بالاحترام بسبب مقدرتهم العسكرية الطبيعية وإخلاصهم غير المتذبذب للقيصر، كان ايفانوف ضابطا مثاليا.

ومع ذلك فكل خدمته ظلت نظرية بحيث كان الهجوم على الستانيتزا يشكل المرة الأولى التي اقترب فيها ايفانوف من الموت... على الجانب المتلقي لضربة السيف والرصاصة,

ويمارس القتال بالأيدي، لم يقع تحت أي ضغط ليتصرف بإبداع في حياته، وقد اخترق هذا الاحتكاك المفاجئ بالقتل الدرع العظمي الرفيع للمساعد ايفانوف, الضابط المحترف.

لكن كوماروف كان يتعافى, وقد اقتنع ايفانوف بان البقاء الى جانبه هو أفضل فرصة لديه للحصول على توصية في التقارير. فهو لا يريد ان يقع تحت وصاية نبيل صغير السن من سانت بطرسبرج, على الأخص شخص مدلل ناعم اليدين مثل باخونين, لقد مات أبوه وما زالت يداه الصلبتان المليئتان بالعقد والثآليل على المحراث في جهد يائس لإعطاء ايفانوف فرصة من نوع ما. لم يكن هنالك تقليد "لواء العائلة" في ماضيه.

لا عجب ان كوماروف يحرص على مستقبله ومصلحته فقد انقشع الضباب فجأة وأدرك ايفانوف ان الحرب مسألة سياسية بالكامل حتى داخل الجيش.

حدق في النقيب "اللامع" بعينيه الزرقاوين تقدحان شررا داخل وجهه المنتفخ الى درجة غير طبيعية. لا يليق بملامح ايفانوف المتناسقة أن يفقد السيطرة على تناول المشروبات الروحية: فقد بدا شكله فاسقاً بعد مجرد ليلة سيئة واحدة فكيف بشهر كامل.

"اخبار سيئة"؟ لا أظنها كذلك، ليس هناك شيء اسمه أخبار سيئة في الحرب، هناك مجرد تغيير في خياراتك, الم يعلموك أي شيء في مدرسة المرشحين يا عزيزي الكونت باخونين؟"

أجاب باخونين بمرح "لقد حاولوا ولكنني محصن ضد المعلومات, اهدأ، ألا تهدأ؟"

"لم اقصد أية إساءة" وهكذا انقذ باخونين نفسه من المأزق بلباقة، فالأرستقراطي الشاب يستمتع بالحياة أكثر بكثير من ان يخلق لنفسه عدوا من أي شخص, وعلى الأخص هذا الألماني. سيمضي سنتين في القفقاس حتى يرضي والده, يمتع نفسه خلالهما,

وبعد ذلك سيتزوج فتاة ثرية ويعود الى بلده, الى مزارعه. ان الحياة تبتسم لباخونين.

دفع ايفانوف بجرعة من الفودكا الى حلقه ثم اتخذ طريقه نحو الاسطبلات ليتفقد جواده وعدة الركوب تحضيراً لمهمة الصباح, أدرك ايفانوف للمرة الأولى منذ أسابيع طويلة انه ما زالت لديه الشجاعة الكافية ليعود الى امتطاء السرج مرة أخرى، لم يفقد كل شيء.

***

استمع احمد الى خطبة اوشورما العظيم من داخل منزل حنيفا. عندما شاهد جمع الرجال يندفع الى الإمام وقد تخلوا عن وليمة الزفاف، اندفع نحو الباب وكان سيخطف تسيما بين ذراعيه في تلك اللحظة وذلك المكان لولا أن استوقفه مراد.

هتف احمد "يجب ان أتحدث إليها".

"فكر بعاداتنا" الخابزه"! هل ترضى ان تتبع امرأتك الى غرفة النوم مثل جرو وضيع وتغامر بان تعلم بذلك كل بلاد الشيشان في هذه الليلة؟"

القى احمد بنفسه على الأريكة وضربها بقبضته بقوة "اللعنة على هذه الحرب"

انتظر مراد حتى هدأت سورة غضب احمد، ثم تكلم ببطء "ليست سعادتنا الشخصية بذات أهمية عندما تكون امتنا، بل وبيوتنا بالذات مهددة بالهجوم, ليس لدينا خيار يا احمد, الا الوقوف الى جانب إخوتنا الشيشان في هذه الليلة. هلم بنا... يجب ان ننضم الى الملأ".

بدت ساحة القرية مهجورة أثناء عبور القباردييين لها سيرا على الأقدام نحو الاجتماع. انساب صوت النساء من الصيوانات المزينة بالأشرطة وهن ينشدن أغاني حزينة بطيئة للتذكير بانتهاء

يوم الزفاف هذا، صدح صوت إحدى النساء برنين محبب فوق أصوات الأخريات وهي تشدو بأغنية قديمة حزينة:

كان شعرها اسود لماعا، مثل حرير لايبزغ الأسود.

لكنها مزقته عن رأسها لشدة حزنها.

لقد سقط رئيس بيتها.

انساب جواده الأسود خلال المعركة.

بينما صبغت أكمامه الدماء التي سالت من سيوف بشوقوي

منذ تلك اللحظة بدأت الزوجات والأمهات يحضرن أنفسهن لموت الذين يحبونهم, أصابت احمد رعدة من التفكير في مقدار ما تحمله من رعب خالطه مقدار مماثل من الغضب على القدر الذي أرسل رياح السموم في ليلة زفافه.

بينما هو يسير باتجاه بيت الملا أصبح بمقدوره ان يرى صغار الأولاد وشيوخ القرية يقومون بالتحضيرات. الخيول تسرج, الأكياس تملأ بملح البارود، الذرة، الملح، قدحات الصوان وكل اللوازم الضرورية للحملة, وتناهى الى سمعه الهدير المتواصل للعربات وعائلات القرى الأخرى العائدين الى بيوتهم, لاتمام التجهيزات نفسها لرجالهم, كان اوشورما، الشيخ منصور, يخاطب المقاتلين شارحا الخطة النهائية للمعركة.

واختتم كلامه بقوله "سرايا من ثلاثمئة خيال, تحت قيادة هؤلاء النواب" وهو يشير الى عدة زعماء يرتدون الأثواب السوداء واقفين بين الشيشان "سنجتمع في كارجينسك بعد ثلاثة أيام. ارتحلوا في مجموعات صغيرة باتجاه الشرق عن طريق الجبال, خلف القمة الكبيرة لجبل كازبك حتى تصلوا الى ممر داريل. يجري نهر التيريك من هناك مباشرة باتجاه الشمال نحو المناطق الروسية, ثم ينحني بحدة نحو الشرق عند ايكاتيرينوجراد.

ان الممر الآن تحت سيطرة الروس, لانه طريقهم للاختراق الى جورجيا وهذا خياركم, بإمكانكم البقاء في الجبال والسفر الى الشرق لمسافة ابعد حتى تصلوا الى نهر آسا, ثم تنحدرون من ذلك الشق الصخري، الأمر المهم هو عدم إثارة الكثير من الاهتمام والتجمع الى الشرق من كيزليار في غابات كارجينسك"

بدا الأمر سهلا على الكلام لكن كل رجل عرف ان الرحلة نفسها ستكون تحديا قاسيا، ان ممر داريل هو الطريق القديم من روسيا نحو بلاد عبر القفقاس, وقد شيدت ملكة جورجيا المسيحية تمارا قصراً في منتصف الشق الصخري الصاعد منذ القرن الثاني عشر الميلادي. والقصر محفور في وجه الشق الصخري نفسه، استطاعت قواتها ان تتحكم في كل التحركات القادمة من خلال ذلك الممر من تلك النقطة الهامة سواء كانت متجهة شمالا او جنوبا. كان يلقى بالمجرمين من متاريس القصر الى حتفهم في مياه نهر التيريك المزبدة, نحن الآن في الصيف وسيكون النهر على أكبر اتساع له, ويشغل كامل عرض الممر تقريبا, وتنهمر شلالات الصيف مثل الستائر عن الجدران الجرانيتية المرتفعة, وستكون المسالك المحفورة لجعلها ممرات رطبة ومكسوة بالرذاذ والطحلب وكذلك كل الحجارة, ولن يتسنى للشيشان اية فترة راحة من الصعوبات ما بين الكمائن المحتملة لدوريات "الجاور" وخطورة المنطقة.

لكن ظل هناك احتفال واحد مهم بالنسبة لأحمد يتوجب عليه إتمامه قبل ذهابه الى المعركة، فقد وعد حبيبته ان يزف إليها قبيل انطلاقه الى الحرب وقد اقسم بالله ان ينفذ وعده. سيقوم مراد بمرافقته في وقت متأخر من الليل بعد ان تنام القرية أخيرا, إلى جناح تسيما.

استمر تدفق مقاتلي الشيشان لليوم التالي ولثلاثة أيام وليالي بعدها بصمت من سفوح التلال نحو أقصى نقطة في شرق خط الجبهة الروسية في كيزليار. ظلوا يسيرون ركوبا لعدة أيام وهم

متخوفين من الدوريات الروسية – وعندما يقابلونها كانوا يقومون بحركات التفاف مضنية حتى يحافظوا على عنصر المفاجأة، كانوا يتحركون بصمت كأنما يركبون أجنحة بينما تتجاوب أصداء صرخة الشيخ منصور بهمس أجش بين ثنايا الجبال "الجهاد! الجهاد! ".

بعد حوالي أربعة أيام اقترب احمد ومراد ومجموعتهما من معقل كارجينسك, على بعد خمسة "فيرستات" من حصن كيزليار، كانت الخيول مجهدة. والفرسان عاجزين عن الكلام من شدة التعب والجوع. وما كان الكابوس قد ابتدأ بعد. تفحص مراد المنطقة الواقعة أمامهم بمنظاره المقرب وأومأ برأسه الى احمد موافقا "قرار حكيم, ان المكان يحتوي على أحراش كثيفة ويقع على مرتفع ومثالي كنقطة تجمع لأي جيش يريد ان يشن هجوما على كيزليار. يجب ان نستولي عليه".

أغلق منظاره ونادى على رجاله المنهكين "ليس بعيدا، نحن على الطريق الصحيح, الى الأمام أيها الرجال" اقترب منه احمد المتعب وأوقف فرسه الى جانبه "ليس من المعقول ان نهاجم العدو اليوم، الخيول بحاجة الى الاستراحة".

"أتوقع ان يجمع الشيخ رجاله, انه بحاجة الى اكبر قوة ضاربة يمكنه قيادتها، ربما في الغد او بعد غد، لا احد يستطيع ان يجزم".

استمرت المجموعة في امتطاء خيولها بصمت عبر منطقة شجيرات حتى أصبح مرتفع كارجينسك على مسافة اقل من ميل. كان الوقت قريبا من الظهر, الريف حوله صامت بطريقة غريبة وقد اختفت أغاريد الطيور.

وضع مراد منظاره على عينه مرة أخرى وهتف فجأة "بسم الله! ان المعركة قد انتصفت! ان الشيشان يقاتلون!"

دخل الرجال في حالة الإدراك بصدمة، اندفعوا الى الإمام بدون أدنى اعتبار لحالتهم البدنية حتى يقتربوا ليحظوا برؤية

أفضل، سرعان ما أمر مراد رجاله بالتوقف في موقع يمكنهم فيه رؤية المعركة كاملة، أصبح من الممكن سماع هدير المدافع ورؤية انشطار القذائف البشع، راقب معظم الرجال مراد, وليس القتال، لأنه قادر على الإحاطة بالفوضى المنتشرة أمامهم بينما هم لا يستطيعون.

كان وجه مراد متجهما بينما ينتقل منظاره من انهيار الى آخر. بعض فرسان الشيشان يخوضون اشتباكا عنيفا بالسيوف ضد الكتائب القوزاقية, تناوبت الهجمات والهجمات المضادة أمام عدساته في تتابع مغيظ, فقد بات واضحا ان القوات الروسية تسيطر على السهل سيطرة تامة، ويتابعون تقدمهم نحو مرتفع كارجينسك لاستعادة قمته, فجأة لمح مراد جواد الشيخ منصور الكاراباخ الأبيض المميز عند حافة خط الأشجار القريب منه, سيدافع رجل الدين عن المعقل حتى تتكوم الجثث عالية وقد دفنت يده التي تحمل السيف بداخلهم, كانت القوة المتفوقة عدديا من جنود القوازق والروس تقتنص الشيشان المتجمعين حول الشيخ منصور وهم يتدافعون الى الأمام موجة اثر موجة.

صرخ مراد في مجموعته "اوشورما...... هناك.... انه في خطر, الى القتال أيها الإخوة, هذا هو ما جئنا لأجله!" وبدون مزيد من الكلمات، هجمت مجموعة الشيشان عدواً خلف مراد مشهرين سيوفهم، يهتفون ملء حناجرهم المتشققة بصرخة هادرة "الله اكبرا".

ماذا يمكن ان يكون عليه شعور الجندي القوزاقي في ذلك اليوم، وقد اضطر الى المكابدة من خندق الى آخر حتى يصل الى ذلك التل ذي الأحراش, ان يدفع بحربته المثبتة الى البطون الضامرة لحوالي دزينة من الجبليين المجانين ويشاهد قمة المعركة قريبا منه, وبعدها ان يسمع الصرخة التي تجمد الدم في العروق تصدر عن مجموعة من الكفار، يهاجمونه من الخلف, بينما السيف يشق عموده الفقري من الرقبة حتى الورك. وان يسقط على وجهه

ميتا من الرعب، الى النسيان. ذبحت مجموعة مراد وقطعت اللحم عبر القوزاق المتجمهرين الذين حاصروا قائد الشيشان العظيم. استمر المقاتلون الشيشان في القتال لمدة خمس عشرة دقيقة طويلة بدون استكانة ضد القوزاق المتفوقين عدديا حتى تمكنوا من كسر الحصار وتم تحرير الشيخ.

استدار مراد بفرسه لتقييم حركته التالية والبحث عن احمد, رأى صديقه يطارد اثنين من القوزاق مشهرا سيفه "الشركسي" الهائل وحز به ظهر أحدهما، رجع هذا بظهره الى الوراء من شدة الألم ثم انهار عن جواده في حركة واحدة، استدار القوزاقي الآخر المحظوظ وولى هاربا لينجو بحياته.

هجم مراد بسرعة خطيرة داخل سيل ماء جاف وقد اهتاج من رائحة الدم ومنظره, وراح يطارد فارسا قوزاقيا يحاول الفرار من الصراع بهروب أعمى نحو الأحراش القريبة.

فجأة, وبينما هو يعدو الى داخل الحرش, شاهد فارسين روسيين يهجمان باتجاهه مباشرة وبأقصى سرعة، كان يعدو لحظتها داخل ممر ضيق بين الأشجار الكثيفة بحيث أصبح الفرار مستحيلا. لم يتوقف مراد بل استمر في الطراد بغريزته وقد خفض رأسه فوق رقبة فرسه, وهو يهدف الى المرور عن يسارهما. لحظة وصول الروسيين اليه لوح بسيفه في حركة قوسية واسعة وحز في كتف اقرب الفارسين المهاجمين اليه. ندت عن الروسي أنة الم وسقط الى الجانب بينما حجب جواده عن مراد مكان وطريقة سقوطه. استدار مراد بسرعة ليحمي ظهره لكن الفارس الآخر كان قد بدل قناعته في الهجوم واستدار ليهرب مسرعا خارجا من الحرش باتجاه الخطوط الروسية.

سحب مراد نفسا عميقا وحام في المنطقة بحثا عن الجندي الذي جند له؛ كان جواد الروسي واقفا في سكون في مكان قريب،

لكن الفارس اختفى. مشى بفرسه بحذر وقد اشهر سيفه استعدادا لأية متاعب.

بمجرد ان استدار ليغادر المكان قفز الروسي خارجا من الشجيرات خلفه. واسقط مراد وسيفه إلى الأرض.

تعارك الرجلان وتدحرجا سوية وكلاهما يسعى الى السيطرة, لكن لم تكن للروسي أية فرصة لان مراد صعد فوقه بسرعة. سحب القاما وهو يفح بعدائية سامة, امسك بخناق الروسي بقوة بقبضته اليسرى بحيث ثبته الى الأرض بلا حراك ثم رفع ذراعه اليمنى ليسدد بها نصل القاما الى هدفها.

شتمه ضحيته بصوت عال "اللعنة على روحك الثائرة ايها الشيشاني.... لو انني كنت قادرا فقط على استعمال ذراعي اليمنى".

تجمد مراد. لم يعد يقوى على توجيه الضربة, فقد تكلم العدوّ باللغة الشركسية. لقد نطق باللهجة القباردية وهتف فيه "شركسي..! انت تكلمت بالشركسية!" التمعت القاما في يد مراد بينما سلطها نحو فم الرجل باتهام عنيف "هل انت من الأديغه؟" حدق في الوجه الوسيم رغم إصابته, لمراهق بعينين زرقاوين غائرتين تمجان شررا وبلون بشرته الأشقر, هذا حتما ليس روسيا سلافيا.

"اقسم بالله إنني اديغه إنني من القباردي" تحداه الشاب بكبرياء وهو يقاوم تحته مثل شبل النمر. كانت أذنا مراد ضاجتين بالأصوات,...... فالمعركة ما زالت محتدمة في مكان غير بعيد خلفه, المدافع تهدر والدم يتدفق ثائرا في شرايينه, وبلغت الصدمة أوجها في هذا الاكتشاف: اديغه يقاتل ضده! شركسي وفي صفوف جيش "الجاور"!

انها خدعة, لابد انها خدعة. أطلق الشتائم بصوت عال ثم تعارك مع الشاب حتى استعاد السيطرة عليه بقبضته الحديدية "ابق هادئا, عليك اللعنة!" ضغط القاما الى جانب حلق الجندي "ما الذي قلته,لا تحاول ان تستغفلني!".

أغلق الجندي الشاب عينيه وقد استعد للموت لكنه تكلم بسرعة بلهجة قباردية واضحة حسنة المخارج بحيث أدرك مراد في قرارة نفسه ان هذه هي لهجته الأصلية "لا!لا! إنني أقول الحقيقة، إنني اديغه, اقسم لك, اقتلني الان ولننته من هذا الأمر!"

قفز مراد واقفا على رجليه لكنه ابقى صدر الشاب بين قدميه وأبقى القاما مسلطة نحو قلب الجندي "اذا كنت من القباردي, فمن أية قبيلة أنت؟" فتح الشاب عينيه على اتساعهما وبريقهما.

"انا من قبيلة الميسوست"

"من هو"البشه" عندكم؟"

بدأ الجندي يتنفس بسهولة أكثر قليلا وتكلم بثقة "ان أميري هو ميسوست سيرابي, لو انك ترفع ثقلك عن صدري فربما أستطيع ان أتنفس وأتكلم أيضا بشكل لائق!".

علم مراد في هذه اللحظة ان الشاب يقول الحقيقة. وحده القباردي يمتلك الشجاعة الكافية لان يتكلم بهذا القدر من الغرور بينما يمسك رجل آخر بحياته في يده.

قال مراد وهو يطلق سراح الجندي "حسنا ايها القباردي" نهض واقفا وهو متعب بينما رفع الميسوست نفسه عن الأرض بصعوبة وبدأ ينفض عن نفسه الغبار. هو صغير السن جدا ولا يتجاوز عمره الستة عشر او السبعة عشر ربيعا. شاب جميل الهيئة متناسق الجسم "ماذا اذن تفعل مرتديا هذا الزي؟"

تكلم الصبي بصوت أكثر ثباتا: "لقد امرنا أميرنا بالانضمام الى جيش الكافكاز وهكذا فعلنا وتم تعييننا في كيزليار".

غمر الحزن مراد "هل تعني أن هناك المزيد منكم هنا في هذا اليوم؟"

أجاب الصبي مباشرة "نعم، معظمهم من الميسوست، ولكن أيها الـ" تحمادا "، أنت قباردي أيضاً، ما الذي تفعله، وانت هنا تقاتل مع الشيشان؟".

سمعا صوت حوافر خيل تهدر مقتربة. جمع مراد أعنة مطيتيهما بسرعة "أخرج من هذا الممر بسرعة، فنحن هنا في خطر..." جذب ذراع الصبي السليمة وسحبه نحوه للاحتماء بالأشجار.

ظل مراد محتضناً الميسوست بقوة أثناء مرور مجموعة من خيالة القوزاق مسرعين، باتجاه الخطوط الروسية. غطى وجه الصبي بقوة الغريزة بيده في حالة شعر الصبي بالالتزام ليصرخ طالباً النجدة. لم يكن هنالك متسع من الوقت للشرح، فقط لمجرد إطلاق الحقائق الأساسية، "نعم، إن اسمي هو حابسا مراد، وانا من جلاخستني التيريك! أما بالنسبة لوجودي هنا، فإن دوافعي هي في مثل غباء دوافعك..".

نظر مراد إلى الأسفل نحو وجه الشاب الملطخ بالدماء والغبار، وقد استدار نحوه متطلعاً إلى الأعلى من ثنية ذراعه، فضولياً متشوقاً للتفهم، ومع ذلك بنفس التشوق إلى القتال، أحسّ مراد في تلك اللحظة السريعة باندفاعة حب غير عقلانية نحو هذا المقاتل، الذي يمكن بسهولة أن يكون هو أو أحمد و أو حمزات, لانهم جميعاً يخضعون لإدارة سلطات أعلى منهم، الأمراء، الملالي، الأئمة والشيوخ،.... وقد قاموا جميعاً مدفوعين للقتال في سبيل قضايا أكبر من رغباتهم الشخصية. ذلك هو موقع الخطأ: لم يكن هناك مكان للحب، أو للامل، أو حتى الثقة. كان يجب أن يكون هو الحابسا والصبي الميسوست أصدقاءً، رفاق سلاح على نفس الجانب من أي صراع، تماماً كما كان أسلافهم لقرون ماضية.

سينتصر الروس إذا نجحوا في وضع رجل ضد رجل، قبيلة ضد قبيلة على هذه الوتيرة. أصبح بإمكان مراد أن يستشف

المستقبل ممتلئاً بالفئوية والعنف، وهي كارثة قوية تعادل تدمير القفقاس كله نتيجة زلزال، وقد اتحدت الأنهار العظيمة لتشكل فيضاناً عملاقاً واحداً. وقد اندفعت كل شعوب الجبال ضد بعضها البعض كاندفاع الحصى فوق الشواطئ المدمرة، بينما تدحرجت فوقهم موجة مد روسية واحتوتهم.

اقتنع مراد بأنه لو قتل هذا الشاب الأديغه الرائع اليوم لكانت هذه أعظم مأساة في حياته. لقد أصيب العالم بالجنون، حتى اقترب إلى هذا الحد من التسبب في مقتل قباردي آخر.

قال بصوت خفيض "خذ، إركب جوادك وعد إلى خطوطك قبل أن يقبض عليك بعض جماعتي الشيشان ويقطعونك إرباً". دفع بالجندي الشاب بخشونة نحو جواده وساعده في امتطائه، فقد كانت كتفه الجريحة تنزف بحدة.

نظر الميسوست الشاب إلى مراد تحته في دهشة. ماذا يمكن أن يقال للرجل الذي أعاد إليه حياته؟ الحمد والشكر لله، الحمد والشكر لله".

ركب القبارديان جواديهما مبتعدين إلى جهتين متقابلتين.

مدّ الشيخ منصور ذراعه العارية الملطخة بالدماء في تحية لأحمد.

"الحمد والشكر لله..... سنقاتل في يوم آخر".

أمسك أحمد بالذراع الممدودة بدون أن ينطق بأية كلمات، ثم شاهد الشيخ يستدير فوق جواده الأبيض ويقود الانسحاب باتجاه الشجيرات الشوكية التي خرجت منها قوة مراد الشيشانية.

ماتت الطاقة عبر ميدان المعركة بأجمعه، وكأنما بفعل انسحاب تيار خفي. بدأ هؤلاء الذين جرحوا في الانين خوفاً واخذوا يرددون صلواتهم.... سرعان ما سيقوم الروس بالبحث عن الأحياء في ميدان المعركة والقضاء عليهم.

كانت عادة وممارسة الجيش الإمبراطوري الروسي في التمثيل بالجرحى وجثث القتلى من الجبليين، لأنهم يعرفون أن ذلك يحزن قومهم بما يفوق الاحتمال. فهذا جزء من السياسة العسكرية لاستخدام أية وسيلة، عادلة أو ذميمة، لتحطيم معنويات العدو. لا يمكن لجيش منسحب أن يتوقع أية رحمة، لذلك حاول العديد من المقاتلين الشيشان أن يساعدوا الجرحى وقتلوا أثناء محاولاتهم. إذ كان القناص القوزاقي يطلق النار على ظهر الرجل الذي ينوء بحمل شيشاني آخر جريح، فيموت الاثنان متعانقين. استطاع بعضهم أن يركب خلف زميل مقاتل وينجو. واستسلم البعض الآخر فرقدوا على الأرض وهم يتلون الصلوات.

تلفت أحمد حواليه وهو يبحث عن مراد في لهفة. كان يعلم في قرارة نفسه أن الروس قد ربحوا معركة كارجينسك، وكان يرغب في الخروج مع الشيشان المنسحبين، لكنه ظل يدور بدلاً من ذلك، ملوحاً بسيفه، متجنباً الطعنات الخطرة من القوزاق.

لقد قتل أحمد ما يكفيه من الأعداء، لم يعد يحصي الجنود القوزاق الذين ذبحهم، وطفق ينادي باسم مراد وسط غيوم دخان البارود، مرة تلو الأخرى. حاملاً سيفه الهائل بيد، وبالاخرى "القاما" التي لا تقدر بثمن. أما فرسه الموثوقة قارا، فقد ظلت تستدير وتقفز، وترفع قائمتيها الأماميتين في عدوانية واضحة، كما يفعل الجواد المقاتل الحقيقي، مبتعدة بخطوها عن الأموات والجرحى، متجاوبة مع أخف ضغطة من ركبة مراد، أو جذب لطيف للعنان. ما كان مقدّرا لأحمد أن يموت اليوم، ليس في اليوم الأول من حياته الزوجية. فإن الله سيحفظه لتحقيق المزيد من الأمجاد. ثبت أحمد في موقعه وقد جعله إيمانه يشعر بطريقة ما أنه لا يمكن قهره. نادى على كل الرجال في مجموعته ليقتفوا أثر قيادته. لقد غادر الشيخ منصور أرض المعركة، ولذلك لم تعد التضحية بأرواح المزيد من الشيشان مجدية.

ابتدأوا بالطراد باتجاه الغرب خلف التشكيل الرئيس لقوات الشيخ منصور، بينما ظل أحمد يشد كل عضلة في جسمه لعله يحظى بلمحة من مراد أثناء إنطاقه. فجأة، دخل النبيل الحابسا في مجال إبصار أحمد المرهق من جهة اليمين ودخل في نفس سرعتهم على بعد بضعة أقدام.

كل ما استطاع أحمد أن يصيح به هو كلمة "سالم!" بكثير من الارتياح.

صرخ به مراد مجيباً "عشرة قتلى".

صعد مقاتلو الشيشان الممرات المؤدية إلى سفوح التلال وخيولهم تتعثر من شدة الإجهاد، صامتين من شدة الإعياء وقسوة الهزيمة، عائدين إلى الأمان لدى القمم القوقازية. قطعوا العديد من الأميال قبل أن تبدأ خيولهم بالسقوط من شدة الجهد المبذول. توقف أحمد ومراد وقيدا راحلتيهما حيث تجمع حشد كبير من الشيشان في حرش صغير غير بعيد عن ضفاف نهر التيريك. جلسوا متحلقين في مجموعات مرهقة، فوق مرتفعات معشبة بين الجداول التي تسيل باتجاه النهر العملاق، وتغذيه بمياه الينابيع الصافية. نظر مراد بعينين نصف مغمضتين إلى رجل طويل القامة يرتدي ثوباً طويلاً وقد أسود وجهه. ذلك هو ايلدار، والد كوير: "تحياتي يا مول الم تكن أنت في مجموعة حمزات؟".

أغمض أحمد عينيه، وهو يصلي حتى يسمع عن نسيبه أخباراً طيبة.

"نعم لقد كنا كذلك" زمجر المقاتل العظيم "ولكننا تفرقنا أثناء المعركة. لقد شاهدنا معظم أفراد مجموعتكم وهم يغادرون... لم نستطع اللحاق بكم".

ثوب ايلدار ما زال يلتمع من الدم الطازج. لم يصعب على أحمد أن يتخيل كيف خلص هذا المقاتل المتمرس نفسه.

سأل مراد بشيء من الانزعاج "قل لي، ما الذي حدث هناك هذا اليوم؟"

أقترب العديد من الشيشان الآخرين ليسمعوا ما لدى الثور العجوز ليقوله. بصق في قرف قبل أن يتكلم، ثم بلل فمه بجرعة ماء، وتكلم بهدوء.

"لقد خيمنا في الأحراش الليلة الماضية. لم يكن العديد من رجال الشيخ قد وصلوا بعد، وقد حضروا لاحقاً في هذا الصباح. هاجمنا الروس فجأة عند الفجر: بقذائف المدفعية الثقيلة أولاً، وبعد ذلك بفترة، هجم علينا القوزاق الخيالة قبل أن نتمكن من إعادة التجمع."

تدخل احمد "هل تعني.... أن الروس كانوا يعلمون بقدومنا؟ هل شاهدوا معسكركم من كيزليار؟".

أومضت عينا ايلدار الداكنتان "لا أعرف كيف علموا. لقد كانوا جاهزين لنا. لقد فقدنا نصف رجالنا – وفقد الشيخ حتى أكثر من ذلك. إنه فخ!". انتضى ايلدار الثوب وفرك بقع الدماء عن ساعديه. قام مقاتل شاب بتكريم الرجل المسن بان بسط رداءه المتسخ في جدول قريب. اصطبغت المياه الجارية باللون الزهري، لكن أحداً لم يقل شيئاً. فقد كان العديد من رفاقهم في عداد المفقودين.

أجال مراد بصره في الآخرين "هل من شيء آخر؟ هل من انباء أخرى؟"

وألح في سؤاله، مخاطباً كل رجل بدوره. لم يبد عليه القلق بقدر ما بدا عليه التحليل.

لم يفهم أحمد ما حدث ولم تكن لديه فكرة عما يجب عمله لاحقاً. فقد كان عقله يدور بسرعة حول فكرة المكيدة، المذبحة على هذا الحجم.

تحدث صبي غير معروف، لم يكد يبلغ السادسة عشرة، بصوت مسموع "بينما نحن خارجون، صاح فينا أحدهم بأن نبلغ الجميع أنه يتوجب علينا التجمع في قرية آلدي. بأن الشيخ قد أمر بذلك".

بدا الاهتمام على وجه ايلدار "إن قرية آلدي مكان إقامة الشيخ في وسط الجبال. ما الذي يخطط له هذا النسر العجوز، إنني لأعجب".

حدق مراد في المجموعة "ماذا تظنون أيها الرجال؟" لقد دعا الشيخ منصور المقاتلين إلى آلدي"، ولكنه لم يكن باستطاعته أن يفرض إرادته عليهم، فقد كانت العادة أن يكون كل شيشاني حراً ليتخذ قراره الخاص به، والآن، بعد الهزيمة، أصبح الأمر حيوياً.

شعر أحمد بالاضطراب والقرف والاحباط وقال "أنا، شخصياً، سوف أستمر بالركوب إلى بيتي"، كان يشعر بالحاجة إلى هدوء بيته ليفكر ويستريح أكثر من حاجته إلى السبب الواضح، وهو أن لديه زوجة جديدة بانتظاره. لكنه لم يمانع في أن يكون مادة للقليل من البذاءة بين الرجال، في هذه الظروف الحزينة. أغاظه مراد بقوله: "نحن نعلم أنك ستذهب إلى بيتك، حضرة العريس!" انتشرت موجة من الضحك.

ثم أضاف قائلاً "لا أحد، ولا حتى الشيخ نفسه، سيلومك على تشوقك للانضمام مجدداً إلى عروسك".

ابتسم أحمد في أناة "أنا أتحدث عن نفسي فقط. بإمكانكم أن تقرروا بأنفسكم. أنا لن أذهب إلى آلدي، أو أي مكان حتى أقاتل كما فعلنا اليوم. لا بد من وجود بعض التنظيم لمقاتلة موقع محصن – ليست هذه إغارة مثل غزواتنا الأخرى. ببساطة، لا يمكننا أن نضرب جيشاً هائلاً ثم نهرب"..

سرت بين الرجال همهمة، بعضهم يتفق معه، والبعض الآخر مستاء بشكل واضح من أن ينتقد أحمد، وهو قادم حديث العهد نسبياً، الشيخ منصور العظيم بتلك الطريقة المكشوفة.

تكلم أحد رجال مجموعة مراد "يا مراد, نحن سعداء بالقتال من أجل القضية ومن أجل الشيخ منصور. ولكن كما يقول أحمد، فإن على قادتنا أن يحسنوا التنظيم أفضل من هذا. يجب أن لا نقاد إلى أفخاخ مثلما حدث اليوم ".

"لن يبقى الكثير منا ليقاتل... إذا تكررت حادثة اليوم" أضاف مقاتل آخر.

تدخل مقاتل ثالث "يجب أن نكتفي بأفضل ما نعرفه، نحن نعرف قتال الجبال، وليس هذه المدافع غير المرئية التي ترعب خيولنا وترسل الحمم النارية لتسقط فوق رؤوسنا من أمكنة لا نعرفها". هكذا جاءت معظم ردود الفعل في أغلبيتها متوافقة مع أحمد.

مدّ مراد يده إلى عنان فرسه وأعاد إمتطاءها" إذن أنا أفترض أن نعود جميعاً وننتظر التطورات، فهل انا محق؟"

خالفه ايلدار وقلة من مجموعته. لكنه عرف السبب. فالى الآن, لم يسمع أي خبر عن كوير وارسبي وايدمير, فربما يرغب ايلدار في ان يلقي بنفسه في أتون الحرب مع مغيب الشمس, اذا كان المزيد من أقاربه قد قتل.

لم يشا احمد ان يفكر بنفس الطريقة في حمزات. فالله حتماً يقف إلى جانبه.

***

الفصل الثامن

في منتصف مسير نهر الكوبان المتعرج، وبعد ان يستدير في اتجاهه نحو الغرب الى بحر ازوف، كانت مدينة ايكاتيرينودار تعج بالحركة انها "هدية القيصرة كاترين" مدينة مصيف قوزاق الكوبان, وقد أصبحت الآن مقر القيادة الشرقية لجيش الكافكاز، وقد بدأت تعكس مرتبتها السامية كمركز للسياسة والتجارة والحياة العسكرية.

قبل مجرد سنة واحدة كان عدد سكانها اقل من ستمئة، القليل من الإداريين والتجار ومجموعة صغيرة من الحرفيين. اقسم الجميع انه حسب معدل التدفق الحالي فانها سوف تتمدد لتصبح عشرة أضعاف ما هي عليه خلال العقد الحالي. البيوت تقام في كل الأمكنة وكل أنواع الأعمال يزدهر من صيد الأسماك الى النقل بالعربات والى التموين ـ وتمتلئ جوانب المرفأ, بالمستودعات بعضها مموّل من قبل القوزاق أنفسهم بضعفي السعر العادي.

وجد كوماروف مدينة ايكاتيرينودار أكثر بدائية، أكثر توحشاً وأكثر خشونة بالمقارنة مع حاميته الصغيرة الناعسة حيث منزله: ايكاتيرينوجراد على نهر التيريك.

لقد كان المناخ على الكوبان اشد قسوة, معرضاً الى الرطوبة والأمراض أكثر من حصنه الجبلي المنشط. جلس الجنرال كوماروف أمام قائده، الجنرال سوفوروف في مقر قيادته المتواضع. لم يتم تقديم شيء سوى الشاي: فالجنرال سوفوروف معتدل في الطعام، قرر كوماروف ان لا يدخن لان صدر الجنرال كان يصفر مثل آلة الهارمونيكا من تأثير الهواء الرطب. كان

سوفوروف يقرا تقريراً مفصلاً عن معركة كارجينسك، والذي سبب له سروراً اقل بقليل مما توجب.

اعترف سوفوروف بشيء من عدم الارتياح "يقول العقيد بييري ان خسائرنا كانت جسيمة، طبعاً التعزيزات ليست مشكلة، خسارة ان نفقد رجالاً من نوعية كوشينسكي وهو عقيد – الإصابة ذات الرتبة الأعلى، خمسة وعشرين ضابطاً في المجموع". القى بالأوراق على طاولته بقوة ونظر الى كوماروف باهتمام واضح مشوب بالغطرسة.

"يقول بييري ان هذا القسيس القادر على إثارة الرعاع, الشيخ منصور قد استطاع ان يفلت, وان بعض الجنود ذوي القدرات الخاصة قد تمكنوا من سحبه من قبضتنا في اللحظة الاخيرة".

لم يحر كوماروف جواباً. أراد من سوفوروف ان يكشف المزيد من أفكاره أولاً. وهو يفضل ان يظن بان العقيد بييري قد أعطي المسؤولية عن معركة كارجينسك فقط لانه هو, الجنرال كوماروف كان مصاباً، فهو في التحليل الأخير أعلى رتبة من بييري لانه عميد. على اية حال فهو يعرف ان بييري رجل مبتدئ لحوح وعدائي, وان سوفوروف النجم الصاعد بنفسه, كان معجباً به.

"كذلك يقترح بييري ان منزلة الشيخ منصور قد تأذت بشكل سيء. لقد فقد ماء وجهه في الهزيمة, ويحتمل كذلك ان أغلبية تابعيه قد عانوا لكن انت وانا لسنا على تلك الدرجة من التفاؤل, يا صديقي".

لم يبدِ كوماروف أي ردة فعل ازاء هذه الصيغة غير المتكررة من الخطاب. ان سوفوروف بحاجة اليه الآن. شعر باقتناع هادئ.

"ربما يعود الى أسلوبه في القتال المعتمد على الضرب والهروب." اجابه كوماروف باسلوب واقعي."انا اتفق معك"

"اين هي قاعدة عملياته؟ يجب ان تصل الى الجرذ وجرائه في جحرهم قبل ان يولدوا الطاعون"....

"انها قرية الدي الواقعة على نهر سونجا/ شرقي نهر التيريك في قلب مناطق الشيشان".

مدّ كوماروف قامته حتى يعثر على الموقع على خارطة العمليات وأجفل مقطباً فهو أحياناً ينسى إصابته ويتوقع من جسمه ان يمتلك قوته وعنفه المعتادين. لقد كان متعباً بعد الرحلة الطويلة من التيريك.

أبدى سوفوروف من اللباقة ما منعه من التعليق على الهزيمة في "الستانيتزا" والتي ادت الى اصابة الجنرال. لقد بدا يفهم التفكير الذي يدور خلف انشطة كوماروف غير التقليدية, حتى لا يقال السرية. ولكن ان يعرض ضابط من رتبة على تلك الدرجة من الرفعة نفسه الى تلك الدرجة من المخاطرة هو محض جنون، حتى في هذه اللحظة لم يستطع ان يفهم لماذا خاطر كوماروف بنفسه مسافراً طيلة الليل لمجرد زيارته.

نظر كوماروف اليه بعينين ماكرتين، "حتى تتمكن من إطباق الفخ، عليك أولاً ان تضعه في مكان استراتيجي, ثم عليك ان ترسخ فيه الثقة حتى يهرع الجرذ اليه بوقاحة. تذكر أيضاً يا صاحب السعادة ان الجرذ المحاصر سوف يقفز نحو حنجرتك بدلاً من ان يستسلم".

تحدث كوماروف بقوة اشد مما يلزم عن الخبرة الفعلية مع الزواحف, والتي وجدها سوفوروف معادية. أصبح واثقاً من ان كوماروف يستفزه.

"ان توصيتي هي في إجبار اوشورما على الخروج من مخبئه, وليس محاصرته في زاوية" تابع الرجل الأكبر سناً بنعومة.

"اوشورما....؟ كان اهتمام سوفوروف اكبر من ان يزعج نفسه بإخفاء ضعف معرفته.

"هذا هو اسمه الحقيقي: اوشورما الواعظ. يقال انه لا يدانية احدٌ كخطيب. كان يعتقد في زمن مضى انه أجنبي وانه راهب يسوعي إيطالي. من يعلم... يمكن ان يكون أي شيء, مع انني شخصيا اشكك في مثل هذه الدعاية, لكننا سنقع في خطا جسيم اذا أسأنا تقدير درجة ثقافته".

بدأ سوفورروف يشعر بالتململ. فهو لم يحب أبداً التأكيدات القائلة بان الثوار لديهم اية ثقافة او مواهب ابعد من السرقة والقتل لكن كوماروف أصرّ على موقفه: فهو لديه أسبابه.

"في بداية مواعظه على نهر السونجا, قبل حوالي ثمانية عشر شهراً, في شهر آذار من عام 1784 ضرب زلزال كل بلاد الشيشان, وقد فسر القرويون ذلك على انه إشارة من الله, وبدون أدنى شك فقد استفاد اوشورما من طبيعتهم المؤمنة بالخرافات, فهم يؤمنون بانه معين كقائد لهم من قبل القدرة الإلهية".

"هل هناك غاية من وراء هذا الكشف, يا كوماروف؟

"هل تؤمن انت بالحق الالهي للملوك؟ بالسلطة الكاملة للقيصرة "كاترينا" سلمها الله؟ هل انت تقاتل لانك تؤمن. في العدالة المطلقة لقضية الإمبراطورية؟"

"هل انت مجنون؟ انت لا يحق لك ان تكرم هؤلاء الكفار بمثل هذه المقارنات. الأغلب الأعم اننا نتعامل هنا مع قسيس معتوه".

"انا فقط اريد ان اوضح لك يا صاحب السعادة باننا لا نقاتل جيشاً هنا بل نقاتل قضية. بمقدور الشيخ منصور أن يأمر جميع بلاد الشيشان ان تقدم عشر حنطتها الى قواته وسوف يحصل عليها خلال أيام. حيثما يسقط رجل هنالك دوما رجل آخر ليحل محله, وهو غير مضطر لان يدفع روبلاً واحداً لقواته المقاتلة. ان الناس

يتقاطرون حوله على رواحل كفؤة ومسلحين حتى الأسنان. وتذكر ان لديه كل القوقاز الذي يمكن ان يثيره, ان بإمكانه ان يتسبب في حريق غابات".

نظرت عينا سوفوروف القريبتين من بعضهما بنصف إغماضة الى كوماروف بشعره الخفيف المائل الى المشيب وسحنته العابسه, انه سوفوروف الذي يبدو مثل قسيس معتوه وليس الشيخ منصور.

"اذن انا محق في ان آمر بسياسة قتل إحراق، الا تتفق معي, تدمير كل نباتات الذرة الواقفة او اية محاصيل أخرى في ذلك الإطار".

لم يكن هذا هو الجواب الذي أراد كوماروف ان يسمعه.

"لكن ذلك سوف يخلق مجاعة".

"لقد قلت بنفسك: انصب, الافخاخ في أمكنة استراتيجية. يجب علينا ان نجعل هذا المنصور شخصية يائسة، اما لاستدراجه الى مكان مكشوف. او بإضعاف قاعدة قوته. ان الرجل الجائع لا يستطيع ان يقاتل في هذه الأنحاء."

شعر كوماروف باليأس. فهو يميل الى فقدان النقاش ولم يعرف كيف يقنع سوفوروف بترك الطرق الأخرى للتطبيع مفتوحة. فالظاهر انه مصمم على سلوك اقل الأشكال الشريفة من التدمير الشامل. فحيث كان كوماروف يامل في خلق استراتيجية تؤدي الى هزيمة مؤكدة فان الجنرال سوفوروف لم يكن بامكانه ان يفكر في الجبليين على أساس انهم أي شيء أكثر من متوحشين دون البشر, يجب استدراجهم وافناؤهم بكل الوسائل، جرب كوماروف الملاذ الأخير لمجرد كسب الوقت.

"لدي رجل ارغب في إرساله هناك لجمع المعلومات, من بعد إذنك؟ أيها الجنرال، انه قادر على تسليم تقارير دقيقة ومتخصصة

وهو يتكلم الشيشانية بطلاقة ولهجات أخرى كثيرة, لقد استخدمته مراراً".

"لا أستطيع ان اتهم معلوماتك بالخطأ يا كوماروف، بل انني أخطّيء فقط الاستنتاجات التي تتوصل اليها مما تحصل عليه" انحنى سوفوروف الى الأمام، لم يستطع كوماروف ان يتأكد مما اذا كانت هذه الحركة تمهيداً للتحدث اليه بألفة ام انه للتأكد من ان كلماته قوية بما يكفي.

"لن تكون هناك اية عمليات سرية من أي نوع" أضاف صوته الرفيع قوة غريبة الى قسوة كلماته،" إنني اقدر رغبتك في ان تكون نشيطاً في الميدان يا كوماروف، بعد هذه المدة الطويلة في القيادة، هذا أمر يمكن فهمه، واجرؤ على القول انه أمر يدعو الى الإعجاب. لكن هذه حملتي انا, وسوف يكون لي مطلق السيطرة الوحيدة على سياستها, يؤلمني ان أتحدث الى رجل في مثل رتبتك العالية بهذه الطريقة، لكن مقتضيات الموقف تتطلب هذا فهل أوضحت كلامي لك؟"

ابيضت شفتا كوماروف من الغضب. تدفق الادرينالين في جسمه من جرّاء الإهانة التي ألحقها به الرجل الآخر. انفجر العرق الساخن على كل جلده. شعر كان بطنه قد حزت مفتوحة وان الدم يتدفق الى داخل بطنه, فقد اشتعلت النار فيه.

"سوفوروف. انا لست مجرد فارس اخرق، يحمل رغبة في ارتداء قلنسوة وشارب مستعار! انني أتكلم الشيشانية بطلاقة ولو كنت ارغب في التطوع بنفسي لقلت ذلك مباشرة. لا تهن شرفي ولا رتبتي، فليست لدي رغبة في لعب دور العميل المثير للقلاقل! (بالفرنسية).

"لكنني فكرت ان هذا هو ما كنت تفعله طيلة الوقت! انني سعيد لان ولاءك واضح. انت رجل أحب ان أقف الى جانبه كتفاً الى كتف يا كوماروف".

نهض سوفورروف واقفاً, فقد انتهت المقابلة بالنسبة لما يهمه.

رفع كوماروف نفسه عن كرسيه بتصميم خاص: لان سوفورروف ليس مثال الرجل الذي يمكن ان يرغب في ان يتلقى منه العون، لا في هذه المناسبة ولا في غيرها. فهو رجل باهر, مخطط, بارد وقميء, لئيم, يحمل عقلية يتملكها الاستحواذ. طبعاً سيؤدي عمله بنجاح باهر, لكن الإمبراطورية المجيدة تستحق مدافعين عنها أكثر نبلاً من مثل هذا الرجل.

"سأرسل رجلي هذا الى منطقة السونجا. انا لست مقتنعاً بتقرير بييري عن انه تم إضعاف الشيخ منصور. أنصحك يا صاحب السعادة ان تؤجل خططك وتنتظر تقييم جاسوسي للموقف, قبل أن تبدأ في حملتك الهجومية مرة أخرى".

بدا سوفورروف عديم الصبر "يجب ان لا نفقد زمام المبادرة! أريد ان انتهي من هذه الحملة قبل نهاية فصل الصيف، على اية حال بإمكانك ان تبدأ بعملك طالما اننا ننتظر قافلة امدادات. اتمنى لك نهاراً سعيداً يا كوماروف، وهون على نفسك، الا تفعل؟"

نطق بهذه الكلمات بطريقة غير لبقة وبدون اهتمام اصلي وبتعبير ينم أكثر عن رأيه بان كوماروف قد تجاوز قمة صعوده المهني.

عاد كوماروف الى مسكنه وهو يفور من الغضب.

"الأحمق اللعين. انه عبارة عن آلةٍ حربية، وليس مكوناً من الدم واللحم على الإطلاق"

جلس على فراشه بتهالك في ثكنة الضيوف بقيادة الجيش. كان طبيبه, باسل فاسيليفيتش قد وصف له جرعة من الكينين على أساس مسكن للألم, ابتلعها كوماروف بجرعة واحدة بدون تعليق. فقد كان بحاجة ماسة إليها. حدق المساعد ايفانوف في جنراله باحترام ولكن أيضاً بشوق الى الأخبار.

"لديك التصريح, يا ايفانوف"

بات ايفانوف اكثر من سعيد لاتاحة الفرصة له حتى يبرهن عن فاعليته مرة اخرى- بالنسبة لنفسه كما بالنسبة الى رؤسائه "اشكرك يا سيدي"

"خذ هاشم معك. انه يتكلم لغتي التتار والشيشان. فقد سكن شعبه القرشاي مع القبائل الجبلية لمدة طويلة. لن يبدو الأمر مستهجناً كلياً لواحد منهم ان يسافر مع" تاجر" الماني مرتد".

"أفضّل يا سيدي ان اذهب لوحدي" كان ايفانوف يشعر بحماقة وعناء غير عاديين هذا الصباح. رد عليه كوماروف بصوت معتدل "اما ان تنفذ ما أقوله او انك لن تذهب على الإطلاق"

"حسناً جداً يا سيدي،" عرف ايفانوف ان مصلحته تكمن في عدم المجادلة.

اعتدل باسل في جلسته من موضعه القريب من الباب.

"افهم من هذا ان المساعد ايفانوف سيتوجه الى الجبال ليستعلم ما اذا كان الكفار ينوون التجمع مرة أخرى؟". سال بكسل واسترخاء" فهل ذلك نوع من التورية الكلامية عن تهريب المزيد من الأسلحة؟"

أطلق كوماروف باتجاهه نظرة عدائية "انت تتابع الأحداث باهتمام لصيق جداً بالنسبة لرجل يعترف بانه لا يهتم لشيء ابعد من قليل من البحث الطبي, يا ابن العم العزيز".

"حسناً, الأمر يجبرني على تحويل تفكيري".

أصبح كوماروف على وشك ان يطلق شتيمة، لكن ذكرى قدرات باسل الطبية الرفيعة منحته الصبر.

استمر باسل في الكلام, "انا لدي خطة صغيرة خاصة بي، فهل لديك الوقت للإصغاء؟"

شيء ما في نبرة صوته اجبر كوماروف على ان يرفع رأسه. ربما كانت غريزته الحيوانيةِ الايحائية القوية: فقد اشتمّ رائحة طاقة جديدة تتعاظم في باسل وأثارت هذه فضوله.

"أحب ان أسافر متنكراً مع ايفانوفيتش الشجاع" أعلن باسل.

انفجر فيه كوماروف" هذه حماقة مضحكة! الأمر غير وارد ابداً. بالكاد وافق سوفوروف على طلبي إرسال مساعدي. هذه ليست رحلة استكشاف يقوم بها أحمق لعين يا باسل، للعودة ببعض الأعشاب لحفظها مضغوطة او لإحضار حشرات يمكن وخزها بدبوس! بصراحة, اعتقد ان هواء الجبال قد صعد الى رأسك وجعل دماغك خفيفاً, كما يقولون".

فاجأه باسل بان تحول الى العناد الشديد "أنت مدين لي بمعروف صغير. انت ما كنت لتكون هنا لو انني لم اعد ترتيب أحشائك ايها الرجل العزيز. سوف اكتب رسالة مختومة تعفيك من اية مسؤولية عن مصيري, وسوف ترث صونيا ثروتي اذا مت. فهل ذلك يساعد؟"

أصيب كوماروف بحاله قرف واضح "لا يساعد بأقل قدر, وانت تعرف هذا".

استدار باسل نحو الضابط الألماني "في حالة كونك تشعر بالقلق, يا عزيزي المساعد, يتوجب عليّ إعلامك انني رام ماهر وأتكلم الفرنسية والألمانية واللاتينية واليونانية وقليل من البولندية, وفي حالة انك أصبت بجراح بدلاً مني, فإنني احمل حقيبة طبية ممتلئة وسوف أحسّن من فرصك للنجاة بحياتك بقدر هائل. كذلك سأحرص على ان أكافئك بكرم بالغ عند عودتنا. هل نقول بمبلغ الف روبل؟"

اتسعت عينا ايفانوف ولكنه عرف ان الأفضل له هو ان لا يرد.

استشاط كوماروف غضباً" صمتاً! أنت تحرض ضابطاً على ارتكاب جريمة يا باسل! هذه ليست نزهة لعينة!".

"وهذا بالضبط السبب الذي أريد الذهاب لأجله. لقد كانت حياتي "تزهة" كما تقول. لمدةٍ أكثر بكثير مما ينبغي"

"اذن يمكنك ان تشتري رتبة في الجيش على الجبهة من خلال القنوات الرسمية".

"ذلك يستغرق وقتاً طويلاً جداً وربما أغير رأيي في الفكرة خلال ستة اشهر. لا، الوقت هو الآن. انه القدر يا كوماروف, الا تستطيع أن ترى ذلك؟"

انحنى باسل الى الإمام فوق طرف سرير كوماروف، وقد تصالب تعبير عن التصميم الشديد على ملامحه،" القدر الذي جعل الخنجر يضرب في ابزيمك: القدر الذي أوصلني الى هنا أبكر مما كان متوقعاً وأنقذت حياتك: ، القدر الذي جعل الجبليين يتقاطرون في الوقت الذي يحدث فيه ان اصل الى مسرح الأحداث".

غمغم كوماروف, في تردد "القدر" انت في مثل سوء الشيشان الملاعين".

عرف باسل ان الجنرال يضعف ما دام كل ما يستطيعه هو ان يتصرف بازدراء.

"لقد جهزت خطتي كلها, سوف أدعي بانني بولندي هارب من الخدمة. يستطيع ايفانوف ان يكون ألمانياً هارباً من الخدمة انضممت اليه ويمكن لهاشم ان يكون وسيطه"

جرب كوماروف ذريعة أخرى" لن يعجب الأمر صونيا".

"ليس على صونيا ان تعلم عن معرفتك بالموضوع. يمكنك ان تقول لها انني هربت من تلقاء نفسي وانك عجزت عن منعي خوفاً من ان يكتشف سوفوروف الموضوع. الحقيقة هي، يا ابن عمي،

انني سأذهب بكل الأحوال مع موافقتك او بدونها, لذلك فالأفضل لك ان ترسلني مع مرافقة من نوع ما".

"انا لا أوافق على هذه الخطة يا باسل. انت لست جندياً في الجيش ولذلك لا أستطيع أن آمرك بعدم الذهاب. لكن، بعد مقابلة هذا الصباح مع سوفوروف, الأفضل لك ان لا توقع نفسك في أية مشكلة. سوف نبدأ رحلتنا المتجهة شرقاً في الحال, سوف يغادرنا ايفانوف وهاشم في مكان ما قرب نهر المالكا، يحق لك ان تغير رأيك ما بين الآن وذلك الوقت. ايفانوف، اذهب وقم بالتحضيرات واخبر القرشاي".

ادى ايفانوف التحية بحماس ظاهر. بدا وكأنه رجل جديد لوجود عمل عليه تأديته. لم يكن سعيداً بوجود أرستقراطي روسي ذاهب في رفقته للتسلية, ولكن بما ان هاشم سيرافقهم ،فسوف يكونان محترفين اثنين مقابل مغفل واحد. باذن الله ، اذا كان باسل يرغب في ميتة سريعة فربما يحالفه الحظ في هذه الرحلة.

***

استغرقت القرى الشيشانية وقتاً طويلاً حتى تتعافى من معركة كارجينسك، عاد بعض المقاتلين في مجموعات صغيرة جائعين، منهكين، وفي حالة نفسية متجهمة. أصيب العديد من هؤلاء بجروح قاسية ستحتاج الى أسابيع حتى تشفى، وذلك ليس بالسرعة اللازمة للقيام بمواجهة على نطاق كبير من الغزاة. عاد كوير وارسبي وحمزات الى بيوتهم سالمين بعد احمد ومراد ببضعة أيام. ظل الشاب ايدمير مفقوداً لمدة أطول بكثير فقد جرح وهرب من كارجينسك وسط الارتباك، فضلّ طريقه وبقي مع مجموعة اخرى من رجال الملاّ حتى شفي الجرح العميق في فخذه بما يكفي لان يقوم برحلة العودة الى بيته راكباً.

وقد زاد غياب ايدمير في سوء حالة كوير النفسية فقد زادت حالات كآبته وبقي في عزلته حتى بعد ان عاد قريبه.

كان يصعب على القرويين القاطنين في أعالي الجبال، التي تشرف على روعة وادي نهر التيريك، ان يصدقوا بوقوع مذبحة عنيفة مثل معركة كارجينسك ، لم يتحدث احد من الرجال بالتفصيل الى عائلته عن الهزيمة. لكن المقاتلين العجائز يمكنهم ان يخمنوا كيف سارت وتيرة القتال بالضبط من النظر الى لفتة الرأس المواربة للناجين من القتال. فهم أيضاً قد خاضوا الحرب بغير نجاح في وقت ما، ولم يكونوا بحاجة الى من يذكرهم بميدان معركة في حالة هزيمة. لذلك كانوا يسكتون الأولاد الصغار الراغبين في القصص اذ يغمغمون في غضب "اتركوا الرجال بحالهم." ويفهم الأولاد الصغار بطريقة ما ويتركون الرجال بحالهم. اما بالنسبة للنساء اللاتي لم يعد رجالهن وأولادهن، فان مواجهتهن بحقيقة ان رجالهن قد ماتوا عبثاً ستكون اشد قسوة.

انتقلت العائلات المنكوبة للسكنى مع الأقارب. فالحياة يجب ان تستمر. ترتب على احمد ومراد الكثير من العمل, تقدم الصيف وأصبحت المزروعات بحاجة الى العناية وصار لا بد من إقامة الأسيجة للتحضير لمزرعة تربية الخيول التي يخطط لها احمد.

كان احمد مشغولاً بالاهتمام بالأمهار في الحقل عندما أحضرت له تسيما طعام غدائه في احد الأيام. فوجئ بهذا التصرف، ففي العادة يأتيه احد الخدم على ظهر الفرس باللحم المطبوخ او الارز الساخن في الدلو.

لقد سارت كل المسافة نزولاً من المستوطنة الى حيث يعمل زوجها وجلست على حافة مرتفع لكي تدعوه الى الطعام.

ابتسمت له قائلة "اجلس الى جانبي يا زوجي" وقد أسعدها ان استعملت الكلمة.

"انت تتعبين نفسك اكثر مما يجب في شأني" ومد احمد يده الى وجبته بدون ان يقصد كلمة واحدة من شكواه. فهو لم يعرف في حياته مثل هذه السعادة او مثل هذا الأمان. فقد أصبحت تسيما رفيقة

أحلامه، محبة، هادئة، وأكثر حكمة مما تمليه سني عمرها. لقد توصل الى تفهم مدى صعوبة حياتها الماضية في إدارة شؤون البيت للملا وحمزات، اللذين لم يكن لدى أي منهما أي ميل للإشراف على فلاحة أراضيهم. وقد تعلمت ان تؤدي حمل الرجال والنساء. لذلك فان الحرية التي منحها إياها وجودها في مستوطنة احمد الصغيرة قد خفف من أعبائها وجعلها تصبح أكثر أنوثة. ورغم ذلك فقد عملت تسيما بجهد اكبر مما تخيل ان تبذله على الإطلاق، فهي حائكة خبيرة وتعمل بلا كلل في صناعة ملح البارود, كما علّمت خدمها كيفيّة استخراج العصير من أشجار الجوز وذلك بشق اللحاء في الربيع وربط فنجان أسفله لالتقاط النسغ، لم يكن الزوجان قد عاشا سوية أكثر من شهرين, ومع ذلك فقد بدت المدة غير محدودة وانطوت على حياة مبنية على أسس ثابتة.

سالت تسيما "ستعود الى القتال مرة أخرى قبل نهاية الصيف. أليس كذلك يا احمد؟"

"قد يحدث ذلك ان كانت هذه ارادة الله"

"ما كنت لاثقل عليك بإخباري لو انه توفر لدينا المزيد من الوقت..... كنت سأنتظر. سامحني يا زوجي".

نظرت تسيما اليه مباشرة بعينيها الرماديتين الجميلتين اللتين تشعان بحيوية مختلفة، وفهم احمد.

"هل هناك طفل؟"

"لدي بعض الدلائل، تقول حنيفا ان الأمر قد يحصل, لكن الوقت ما زال مبكراً جداً". ركع الى جانبها واحتضنها بقوة "الحمد لله والشكر! سيكون هذا سرنا اذن".

ضحكت تسيما "آه, لا يمكنك إبقاء هذه الأمور سراً بين النساء. لكنك الرجل الوحيد الذي يعرف، أيها العزيز"

تبادلا القبل، لكنهما لم يقولا المزيد. فان الحياة ثمينة بالنسبة للأحياء كما هي بالنسبة للذين لم يولدوا بعد.

عاد احمد الى واجباته بحيوية متجددة وهو يكرر"الحمد لله والشكر. الحمد لله والشكر" كلما توقف لالتقاط أنفاسه وتذكر أخبار تسيما.

بعد بضعة أيام وبينما هو جالس مع مراد بعد انتهاء وجبة العشاء, كان احد الخدم يرفع الصحاف والأطباق، وأولاد مراد يتدحرجون على الأرض أثناء لعبهم، ومع ان الأيام كانت دافئة, الا ان الأمسيات والليالي بدأت تزداد برودة، وهو مؤشر على اقتراب الخريف في منتصف الصيف، النار تهدر كبيرة في المدفأة. اشعل مراد غليونه من شرارة ثم استلقى على أريكته, نفث سحباً من الدخان ليضحك ابنه جعفر، حاول جعفر أن يتنشقه مثل الرجال وبدا يسعل.

أمر ما يشغل تفكير احمد جعله يتحدث بحدة لا تتناسب مع هذه اللحظة الوادعة.

"اذهبا الى الخارج لتلعبا أيها الطفلان. ان هذا الدخان القذر سيء لكما". فوجئ مراد وكذلك مدينا، لكن تسيما فهمت وأشارت الى الصغيرين ومدينا والخادمة مصاحبة لهم بالخروج.

انحنى احمد الى الإمام "لم تخبرني ابداً عما حدث لك في كارجينسك. كان هنالك شيء رغبت بالتحدث فيه وبعدها لم تتطرق الى الموضوع, فهل كان أمراً مهماً؟"

تنهد مراد "هذا صحيح, يجب علينا ان نبحثه. لقد كان الوجود في البيت رائعاً"

كاد احمد ان يخبر مراد عن تسيما في تلك اللحظة لكنه كبح جماح نفسه "هل كان الأمر يتعلق بالشيخ منصور؟"

"كلا, لقد حدث أمر غريب في الأحراش أثناء المعركة, فبينما كنت أحاول العودة للانضمام الى فرقتنا, هاجمني فارس روسي شاب. أسقطته عن جواده, تعاركنا وجرحته، صرخ هاتفاً واستطعت ان أميز صوته بوضوح. لقد تكلم لغة الأديغه. كان قبارديا!"

أصيب احمد بالذهول.

"نعم, هو قباردي من "اليسوست" يرتدي الزي العسكري الروسي ويقاتل الى جانبهم".

"لكن ذلك مستحيل! هل كان لوحده؟ ماذا حدث بعد ذلك؟"

تردد مراد، ثم قال "ساعدته على امتطاء جواده وتركته يهرب, لكنه اخبرني بنبأ اغرب قبل ان يغادرني: لقد قال ان هناك العديد مثله يخدمون في القوات الروسية المسلحة بموجب أمر من اميرهم, لقد كان مجرد صبي".

كاد احمد ان لا يصدق ما يسمعه، "لو سمع بهذا اصدقاؤنا الشيشان, لو ان كوير او ايدمير سمعا بهذا مطلقاً....."

"لذلك السبب لم أتحدث بهذا الشأن, عندما يكتشفون ان هناك شركس يقاتلونهم- يقفون في صف العدو- كيف سيكون رد فعلهم تجاهنا؟ هل يستمرون في الثقة بنا بعد ذلك؟"

"ماذا تعتقد؟ ربما يتوجب علينا ان نخبر الملاّ بما نعرفه قبل ان يسمعه من مصادر أخرى".

أصيب احمد بالإحباط، "انت على حق بالطبع، لقد أكرمنا هؤلاء الناس ووثقوا فينا، لا يمكن ان نخفي المعلومات عنهم. لكن ربما ينبغي علينا ان نمرر الخبر عن طريق حمزات وليس للملاّ مباشرة حتى لا نتسبب في إحراج الملاّ".

أحسّ مراد بدبيب الحزن "انها المسائل التي تشبه هذه التي تبقي شعوب القفقاس متفرقين. لقد اقسم العديد من أمرائنا في

القباردي يمين الولاء لجنرالات القيصرة في الماضي. وقد تلقوا الذهب والعطايا مثل صكوك الأراضي والمناصب العسكرية".

أصيب احمد بالذهول, فقد ترك الكوبان لكي ينضم الى شراكسة القباردا على اعتبار انها المكان الوحيد الذي سيكون فيه بمأمن من الغزاة, وها هم قد استسلموا الى "الجاور"! كم هو سعيد الحظ لأنه قد بقي مع الشيشان!

"لم اعرف ذلك. ان شراكستنا الكوبان لا يمكن ان يقبلوا بمثل تلك التحالفات. في الواقع انا مندهش تماماً لكون أمير شركسي يسمح لرجاله ان يقاتلوا ضد قبيلة قفقاسية أخرى هي الشيشان".

ابتسم مراد في حزن "لديك الكثير لتفعله يا صديقي: لو ان قبائلنا تتحد كقبيلة واحدة، فلن توجد قوة على الأرض تتجرا على ان تطمع في أراضينا".

شعر احمد ببرد شديد برغم حرارة المدفأة، لم يكن يمتلك معرفة مراد بالسياسة. فقد أراد للعالم ان يكون باللونين الأبيض والأسود، الطيب والخبيث، وان يحيا في بساطة وشرف. لكن بدا له انه ليس هناك مكان في القفقاس لم تتسرب اليه الخيانة، حيث بقيت "الخابزه" و"النيمس" في امان. بالنسبة لرجل اديغي على وشك ان يصبح اباً. حمل له هذا الادراك الكثير من الالم.

***

القى هاشم بنظرة فظة على ملابس ايفانوف وباسل، هي الساعة الرابعة في الصباح والبعثة على وشك ان تنطلق من حصن جورجييفسك. فقد توقف كوماروف وحاشيته في هذا الحصن المزدهر القريب من نهر مالكا على طريق رحلة عودتهم الى ايكاتيرينوجراد.

هذا الحصن على خط الجبهة هو اقرب ما يمكنهم الوصول اليه الى منطقة الاشتباكات بدون ان يكشفوا أمر مهمتهم الى شبكة

جواسيس الأعداء. كانت بلاد القباردا تقع عبر نهر المالكا والتي يعتبر المرور من خلالها نحو الجبال الشرقية لبلاد الشيشان آمناً.

زمجر هاشم بخشونة وهو يشير الى ايفانوف "انت، انت لا بأس بك, لكن هذا سوف يفضحنا" وألقى إلى باسل بنظرة ازدراء "انه يمشي مثل أبناء المدن"

ضحك باسل وارجع رأسه الى الوراء "يا هاشم، اقسم لك انني سأكون رجلاً مختلفاً بعد ان اقضي يومين في السرج"

بصق هاشم ثم امتطى جواده "حسن".

كان ايفانوف قد قرر أن يسافر على أساس انه فار من الخدمة منذ وقت طويل، ويتاجر بالأسلحة المسروقة، يحرضه على ذلك العمل هذان المجرمان الفاران ذوي الشخصيات المريبة.

وقد حمل ثلاثتهم ترسانة من الأسلحة الشخصية تجعل أي شركسي او جبلي يعيد التفكير قبل ان يتحداهم. كانت الأسلحة التي يتاجرون بها قديمة وجديدة، بعضها موروث والبعض الآخر مسروق، فتلك هي التشكيلة الصحيحة لمثل هذه الهويات.

كانت ملامح باسل شقراء بما يكفي لان يعتبر بولندياً، وكان فعلاً يتقن اللغة لحد التحكم. وقد كان البولنديون شانهم شأن الألمان يحشرون إجبارياً في خدمة القيصر. وقد اسر الكثير منهم من قبل الجبليين, وكان معروفاً انه لا الشيشان ولا أي من القبائل الشركسية تجبر أبناءها او أسرى الحرب لديها على القتال معهم او لأجلهم, فالحرب في مفهومهم مسالة شرف ولا يجوز لاي رجل ان ينغمس في قضيتهم ما لم يفعل ذلك مختاراً بحرية. من اجل ذلك، اختار العديد من الأسرى او الفارين من الخدمة ان يبقوا مع القبائل, يعتنون بمواشيهم او حقولهم ونادراً ما يبذلون أي جهد للهروب عائدين الى وحداتهم.

كان الجنرال كوماروف قد امر ايفانوف بتوفير سترة خيالة روسية ممزقة بالرصاص لباسل، والتي لبسها فوق السراويل الشركسية وتحت ثوب شركسي، اختار ايفانوف لنفسه ملابس جبلية كاملة وارتدى فوقها طاقية تشيركيسكا من الفراء المشعث وقد القيت عبر الجزء الخلفي من سرجه "بوركا" قديمة متعفنة ، وهي صناعة محلية مهترئة حصل عليها من ركوبة بدون فارس بعد هزيمة كارجينسك. لكن باسل رفض ان يتخلى عن لباسه الكتاني الفخم المصنوع في موسكو، والذي كان يتوهج ببريق مشع على رقبته، شعر ايفانوف وهاشم منذ تلك اللحظة باليأس تجاهه.

تكلم كوماروف بغطرسة استمدها من سلطته "يا باسل، لن يسمح لك بتعريض هذه المهمة للخطر. اذا كنت مصراً على المضي في هذه النزعة الصبيانية، فعد الى داخل المنزل وانزع ملابسك كلها حتى تصل الى الداخلية"

تنهد باسل "وهل هذا ضروري؟.

"الأحمق اللعين يرتدي ملابس داخلية عليها الحروف الأولى من اسمه ويريد ان يعرف ان كان الأمر ضرورياً!" زمجر كوماروف، حتى باسل نفسه الذي ظل يراقب شفاءه يومياً، أصيب بالدهشة.

عاد الى الظهور بعد لحظات وقد ارتدى ملابس أساسية ملائمة تحت سترته، وفي مزاج يميزه المرح الغامر. فقد ظل دوماً يريد ان يعرف كيف يكون شعور المرء "الفقير الأحمق المطعون بالشوكة" كما قالها في إحدى المرات المؤلف الإنجليزي شكسبير، وهو الآن على وشك ان يكتشف ذلك الشعور، مما سرّة بعمق.

غادر الثلاثي حصن جورجييفسك قبيل شروق الشمس، قبل ان يشاهد أهل البلدة مظهرهم المخيف. تقدم هاشم وايفانوف في صمت، يعرف هاشم الطريق جيداً، وهي طريق سوف تجنبهم

القرى والمستوطنات، وتعبر نهري المالكا والباخسان في مخاضات غير عميقة وتأخذهم نحو المنحدرات العالية لسفوح التلال.

تقع بلاد القرشاي على بعد أميال قليلة باتجاه الغرب, ويعرفها هاشم منذ طفولته كما يعرف ظاهر يديه. كان ايفانوف وهاشم قد شاهدا ما يكفي من القفقاس بحيث أنهما لم يهتما لعظمته، لكن باسل ظل يتعجب من وادي شيجم العميق، الأكثر إبهاراً من تلك الأودية التي تصب في نهر التيريك الى الشرق بمسافة ابعد، ببحيراته البراقة الصغيرة ومنحدراته الصاعدة المغطاة بأزاهير منتصف الصيف.

بلغوا المنحدرات العالية بحلول الليل، هنا أيضاً شعر باسل بالحبور, فالليلة يقضيها تحت النجوم ولا يسمع فيها سوى نعيق البوم وزمجرة الكلاب البرية يملآن السكون. كاد يؤمن بانه سيجرب بعض الرؤيا الخارقة في هذه الظروف لكن حالته البدنية منعت عنه أية تجربة بهذا القدر من رفع المعنويات. فقد مازح هاشم قائلاً انه سيتخلى عن مشية ابن المدينة المتأنق، رحلة ركوب صعبة أخرى في الصباح ولن يعود قادراً حتى على الوقوف, ناهيك عن المشي او الجلوس الصحيح.

على العكس من ذلك اخذ ايفانوف يتحسن في وضعه النفسي مع تقدم الوقت. لقد نشأ على شريط قاسٍ من الأرض قرب الحدود البولندية, وظلت الجبال تستفز فيه روح الريادة, فان الابتعاد عن الحانات واستهلاك الكحول بكثرة يعطي تأثيرات مباشرة. صفا ذهنه، انتفخت رئتاه وتعمقتا وقد تراجعت كوابيسه.

لم يفكر هاشم في أمور كثيرة، ما عدا كونه قريباً من مكان ولادته، مما جعل ذهنه يشرد نحو ذكريات قليلة عن حياة القرية التي عاشها مرة. وفقدها كشاب ولم يعد قادراً على العودة إليها, فقد باع نفسه إلى من يدفع أعلى الرواتب.

ظل الرجال يرتحلون لمدة أربعة أيام وأربع ليالي, يمرون أحياناً بمجموعة من الرعاة الذين يدلونهم على نبع ماء او يخبرون هاشم عن ممر مناسب للعبور الى الأعلى أمامهم في السلسلة الواسعة. سرعان ما عبروا جبال اوسيتيا وأصبحوا في بلاد الشيشان.

ساعدت طريقة ايفانوف في اللفظ الخارجة من حلقه على جعل تنكره بشخصية اللص مقنعة للغاية، وكان الطقس مثالياً لأجل هذا التسلق إلى قلب سلسة جبال الشيشان الرئيسة، فلا انجماد ولا مطر بل سماوات خالية من السحب تحوم فيها الصقور بكسل، ولليالي بدت فيها السماء عميقة ومظلمة إلى درجة بدت فيها وقد سقطت مبتعدة عن الأرض كلياً، وتركت خلفها فراغاً اسود جعل الجنة تبدو قريبة وكأنها في متناول اليد.

بحلول اليوم الخامس، أصبحت ملابس باسل الداخلية وسخة وبدأت تسبب له الحكة. لم يزعج نفسه بمقارنة حالته البدنية بحالة رفيقيه لأنه عرف أن ذلك سيتسبب بالمزيد من الضحك والسخرية.

لاحظ أن القرشاي لا يحك نفسه مطلقاً, فبات ينتظر اليوم الذي تصبح القذارة فيه جزءاً منه, وليست مصدرا للإزعاج.

أصبح يميل إلى القرشاي أكثر من ميله إلى الألماني، ايفانوف. لدى باسل ما يكفي من دراسة الشخصيات ليحكم بان ايفانوف رجل شجاع، مدرب جيداً، لكنه لم يكن إجمالاً رابط الجاش. لو أن باسل نفسه وقع في ورطة فهو سيتوجه إلى القرشاي طلباً للمساعدة، وليس إلى المساعد، برغم كل تبجحه.

في الصباح الباكر لأحد الأيام، أيقظه ايفانوف وهو يهزه بقوة "لقد لمح هاشم بعض الجبليين، إنهم شيشان، وهم يركبون صاعدين شِعباً ضيقاً على مسافة حوالي ميل أمامنا. نحن نخطط لتجاوزهم، والعودة عن طريق مرورهم. ربما سنقوم بمبادلة بعض الأسلحة مقابل الملح أو الجلود. الأمر يستحق المحاولة".

شعر باسل بالرضى عن نفسه لأنه لاحظ أنه هادئ الأعصاب وقد واجه الغاية الفعلية لهذه المهمة.

"حسناً"

فاجأ نفسه وفاجأ ايفانوف عندما استطاع أن يحزم متاعه ويمتطي جواده في ثواني. بات ايفانوف يتساءل عما إذا أساء الحكم على هذا الأرستقراطي الروسي. ربما هو ليس مجنوناً راغباً في الانتحار في نهاية الأمر.

ركبوا خيولهم بسرعة، وكان هاشم في المقدمة. لم يتسنى لهم الوقت للتفكير في الكيفية التي استطاعوا فيها أن يعثروا على مواطئ أقدام لهم خلال الشجيرات الكثيفة والممرات الحجرية الخطرة بنجاح.

وصل الرجال الثلاثة إلى قطع صغير في الصخر فوق ممر رئيس وهم يتصببون عرقاً في اللحظة التي شاهدوا فيها مقاتلي الشيشان يعدون خبباً في اتجاههم.

ألقى هاشم بنفسه على منحدر وقد سحب زناد بندقيته إلى حالة الإطلاق بحيث أوقف الخيالة الأربعة في مكانهم.

قال لهم باللغة التترية "تحياتي، ما هي أخباركم؟ هل أنتم تتصيدون الحيوانات البرية أم "الجاور" لهذا اليوم؟".

حدق فيه الخيالة الأربعة متشككين ولم ينبسوا ببنت شفة.

"لا تتجهوا إلى الجنوب، هناك دورية " وألقى هاشم بعلبة ملأى بالتبغ باتجاه الخيال القائد.

"إليك، هل تريد القليل منه؟ هل تريدون بنادق؟ لدي بنادق رائعة. مما يصرف لجيش القوزاق" وأشار إلى تابعيه للانضمام إليه.

لزم الشيشان أماكنهم بينما انزلق ايفانوف وباسل بطريقة فجة منحدرين من نفس الممر الوعر ووقفا يحومان خلف القرشاي.

قال أحدهم " أنتم خونة فارون..." وهو يصوب بندقيته نحوهم.

ضحك هاشم بثقة "أهذا ما تقوله لرجل احترقت قريته ويحاول الآن أن يجني رزقه بصعوبة؟ إن الرجل مضطر لان يفعل ما بقي له ليفعله. أطلق عليَّ النار، أيها الغريب، وأصنع معي معروفاً. من الناحية الأخرى، لن تستطيع أن تطمئن إلى بندقيتي إذا فعلت ذلك: فسيموت واحدٌ أو اثنين منكم معي بالتأكيد. هذا صحيح، أليس كذلك أيها السيد؟".

سدد ايفانوف وباسل بندقيتيهما "هذا عين الصواب" قال ايفانوف بالشيشانية "أفعلوا ما يقوله رجلي".

ضحك شيشاني آخر من هاشم "نحن لا نريد أن نقتلكم. أنا أفضل أن أقتل "جاور". أروني بنادقكم. إذن، يا ذا الوجه المندَّب، ولكن ضعوها على الأرض، وأخبر أصدقاءك بأن يلقوا ببنادقهم إلى الأرض" وحتى يشجع الغرباء ألقى "القاما" أمام حافري فرس هاشم، مما جعلها ترفع قائمتيها الأماميتين. لم يتزحزح هاشم في سرجه. بل شد فخذيه بقوة على الفرس حتى سيطر عليها.

ترجل إلى الأرض، ألقى ببندقيته ثم أشعل غليونه بكل هدوء.

ثم سأل بجرأة "هل ستقوم إذن بتجربتها؟"

ترجل إثنان من الفرسان: بينما بقي الآخران يحرسان الموقف.

نادى هاشم من فوق كتفه باللغة الروسية "أعطني بندقيتك الموسكوفي، يا تاديوش " وأطلق غمزة باتجاه باسل.

تجاوب باسل بسرعة، أنزل البندقية الأولى من أسلحته عن ظهره وهرول إلى الأمام حتى يلقيها أمام قدمي هاشم.

"لقد كان ثمنها عشرين روبلاً" تمتم بلغة بولندية مكسّرة. ثم تراجع إلى جانب ايفانوف الذي ظل ممتطياً جواده، متسمراً كصخرة، وقد وضع يديه على زناد بندقيته.

أذهلتهم قطعة السلاح الرائعة، تقدم الشيشان الأربعة كلهم وبدأوا يتفحصون البندقية بتسرع. حلّ هاشم كيساً من الذخيرة عن حزام سرجه وألقى به إلى الأرض.

"لدينا المزيد من حيث أتت هذه القطعة. هل لديكم أصدقاء قريبين من هنا؟ هل نبرم صفقة؟"

تبع ذلك محادثة سريعة مشوشة. أصاخ ايفانوف السمع بقوة، كما فعل ذلك هاشم، مع أن أحداً لم يكن ليلاحظه وهو يصيخ السمع. استطاع أن يفهم سبب رحلة الشيشان الأربعة: لقد خدم الحظ ايفانوف من المرة الأولى – وهي إشارة على التجمع لأجل الحرب ـــ خضعت له المنطقة بأسرها. كان الشيشان متوجهين نحو قرية يجري فيها تجمع عام للمقاتلين. جاء ذكر "قائد" ديني، ووجد ايفانوف صعوبة في إبقاء وجهه خالياً من التعابير. لكن المزيد من تبادل الأحاديث كشف عن أن الداعي إلى التجمع ليس الشيخ منصور. بل هو زعيم محلي آخر – ملاً آخر طاعن في السن عوضاً عنه.

واجه الشيشاني القائد هاشم بقرارهم "سوف نأخذك إلى قائدنا، سوف نشتري منكم الكثير من البنادق إذا كنتم صادقين. ولكن للتأكد من عدم وجود خديعة.... سوف نحتفظ به رهينة "وأشاروا إلى باسل، الذي ابتسم موافقاً بدون أن يكون قد فهم كلمة واحدة.

قال هاشم بعد أن حصل على إيماءة من راسي زميليه بالموافقة "هذا جيد بالنسبة لي". ما زال باسل غير مدرك للترتيبات لكنه إستجاب بالايجاب عندما تم توثيقه وتجريده من كافة أسلحته، وتم اقتياد فرسه من خطمها. أعجب ايفانوف باستجابته السريعة وبشجاعته. لكنه بات يتساءل مما إذا كانوا جميعاً يرتكبون غلطة

مريعة. لولا موافقة هاشم وتشجيعه، لما تخلى مطلقاً عن أسلحته. فذلك يخالف معتقداته كعسكري.

عصبت عيون الثلاثة كلهم وركبوا لمدة ساعة أو ربما ساعتين صعوداً إلى قلب بلاد الشيشان.

شعر الثلاثة بإعياء رهيب خاصة وأنهم فقدوا الإحساس بالاتجاه، بدون معلومات بصرية، فكلما تعثر أحد جيادهم أو أجفل، لم يكن لدى ثلاثتهم الوقت الكافي للتحوط في سروجهم ونتيجة لذلك فقد آلمتهم ظهورهم وأردافهم بقسوة.

شعروا بارتياح هائل عندما تناهت إلى أسماعهم في النهاية أصوات الحياة القروية في البعيد.

لفحت رائحة الحطب المحترق وجوههم وأنوفهم، وتبعتها أصوات خافتة لضحك الأولاد ونباح الكلاب.

سحبت الأيدي الخشنة باسل وايفانوف عن جواديهما ودفعت بهما إلى داخل أحد الأكواخ. أصابهم الاختناق من الجو الخانق الذي اشاعته مدفأة. واضح أنه يجري تدخين اللحم لحفظه من أجل أشهر الشتاء. نزع الشيشان عصبتي عينيهما، وتركوهما هناك.

همس باسل قائلاً "هل هاشم جدير بالثقة، كما أود أن افترض؟".

أومأ ايفانوف برأسه "يجب عليه أن يحافظ على قصته، لأنه يعرف أن أية إشارة على الخديعة تعني أننا سنقتل كلنا".

قال باسل "يجب أن أعترف بأنني توقعت أن نذبح في اللحظة الأولى، كم سيطول بي التقييد على هذه الشاكلة؟" لم يجبه ايفانوف فقد كان ينصت بتركيز إلى صوت هاشم في الخارج.

استدار كلاهما عند سماع ضجة داخل الكوخ وشاهدا رجلاً مسناً مستلقياً قريباً منهما، نائماً على ما يبدو، بينما يضع إصبعه المصاب بالنقرس على زناد بندقيته التي تبدو في مثل قدمه.

في تلك الأثناء بقي هاشم في الخارج، يعرض موجوداتهم أمام مقاتل شيشاني أسمر البشرة يتعامل مع الأسلحة بمهارة واضحة.

قال كوير "سنعطيك سته جلود ماعز من فصيلة الثوري، لا أكثر". فهذه قريته وهو الذي يدير عملية المساومة.

اعترض هاشم "ستة! لا! لا! ذلك لا يكفي بالنسبة لسيدي! "

"أيها الخنزير القرشاي القذر. أنت مسلم بالاسم فقط. هل تريد أن تحقق ربحاً لنفسك؟ إن الله يحرم ذلك!" ووجه إليه كوير لكمة في صدره.

"لا ربح. إنه سعر عادل" بدأ هاشم يندم على توليه دور المفاوض الرئيس الذي لم يتدرب عليه.

"البنادق ليست لي، إنها للألماني، تحدثوا إليه. إنه سيدي، وانا لا أعرف".

سمع ايفانوف هذا الكلام وهب لنجدته، بدأ يصرخ بأعلى صوته من داخل الكوخ "لقد قيل لنا أن الشيشان قوم مستقيمون. أناس مسلمون شرفاء، إن لدي المزيد من البنادق.... العديد جداً، فهل أعود إلى هنا؟ لا.... لا".

أمر كوير بسحبه إلى خارج الكوخ. أمسك بإيفانوف بخشونة من ياقة سترته وأجبره على الركوع على ركبتيه أمامه، ثم فح فيه قائلاً:

"أيها الوحش القذر، أيها القاتل القذر. إنك تحوم حول الرجال الميتين وتسرق بنادقهم".

لم تكن معرفة ايفانوف باللغة الشيشانية على مستوى فهم هذا الخطاب، فلم يفهم بعض الشتائم لكنه فهم المغزى العام لبقية الكلام.

"نعم، نعم, في كارجينسك، العديد من قتلى الروس" وربت على نراع كوير مهنئاً. في تلك اللحظة بالذات نودي على اسم كوير من ساحة القرية.

أعاد كوير دفع ايفانوف ورميه على الارض. "عليك أن تنتظر, الملا ينادينا".

"حسن جداً. سنحرس الأسلحة: ليست هناك مشكلة، هل تعطينا بعض الطعام؟".

جلس إيفانوف والقرشاي على الأرض ولاحظا قدوم العشرات من المقاتلين إلى ساحة القرية وترجلهم عن خيولهم. تناول الصبية المراهقون الأعنة واعتنوا بالخيول. أشار كوير إلى أحد هؤلاء الصبية فجاء هذا راكضاً نحوهم.

أمر كوير الصبي المدعو ليتش، أن يحضر قطعة من معجنات الذرة إلى هاشم وايفانوف، ثم ترك الصبي واقفاً ليحرس الغرباء.

تجاهل الجميع باسل في حفرته المدخنة، حيث بقي الرجل العجوز في صحبته.

كان جالساً فوق بعض الجلود غير المدبوغة، غارقاً في التفكير في تلك اللحظة. أعتمد على كعبي حذائه ليحرك جسمه في عدة اتجاهات حتى يستطيع أن يحصل على منظر جيد للقرية من خلال فتحة الجدار الخشبي. أثار المنظر الذي شاهده فضوله. انبسطت أمامه قرية نظيفة، وإن كانت مليئة بالأدخنة وصغيرة إلى حد مثير للشفقة. كان هناك رجال طوال منتصبو القامات يسيرون باتجاه فسحة اجتماع مفتوحة في الطرف البعيد من مكان احتباسه، وقد علقوا البنادق من أكتافهم ووضعوا أحزمة متقاطعة مليئة بالذخيرة على صدورهم، مما أورثهم مظهراً شديد الاحترام والرهبة.

بدأوا يشكلون دائرة حول قائد مهيب الطلعة يرتدي ثوباً أبيض فضفاضاً وسط الساحة الصغيرة التابعة للقرية. جلس الجميع بينما بقي القائد واقفاً يتحدث بنبرات عميقة رتيبة.

كذلك، وعلى مقربة منهم، لاحظ وجود مجموعة من النساء قد اجتمعن سوية تحت شجرة منبسطة كبيرة، جلسن في حلقة وقد أجلسن الأطفال الصغار في أحضانهن. أصاخ باسل السمع ليحاول التقاط أي صوت – لم يتمكن من فهم أية كلمة شيشانية، لكن التدافع اللطيف للكلمات المختلط برتابة حديث القائد، كأن له تأثير يداعب أعصابه بشكل عجيب. فقد بدا الصوت وكأنه بعض الأناشيد الدينية أو الصلوات. كل ذلك بدا جديداً وفي منتهى الغرابة بالنسبة لأرستقراطي روسي.

بدا مستحيلاً أن يكون الجمع من الرعاع الذي يعاني الفقر، هؤلاء الفلاحون البسطاء صامدين في وجه تقدم الجيش الإمبراطوري الروسي إلى أقصى الجنوب. كان باسل قد سمع عن الشيشان كثوار فقط، "لصوص"، و"بدائيين" هنالك أمر معين كان يحدث هنا وهو يفوق قدرة باسل على الفهم: للمرة الأولى في حياته، وقع تحت تأثير سحر قضية سياسية.

في هذه الأثناء، انتهى ايفانوف من تناول قطعة المعجنات وأغرى الصبي الواقف لحراسته بقبضة من اللحم المجفف من جرابه. كان الفتى المسكين جائعاً، لان ذلك كان واضحاً من الظلال الموجودة تحت عينيه البراقتين، لكن ليتش كان أفضل تدريباً من أن يخالف الأوامر.

ألقى ايفانوف بشريحة صغيرة باتجاهه، فهجمت الكلاب عليها بدون أن يبدي الصبي أي حراك.

وظيفته هي البقاء ساكناً بلا حراك قدر الإمكان، حتى يبعد كل الشكوك.

مابين نباح الكلاب وغناء النساء، لم يستطع ايفانوف أن يلتقط أياً من كلمات الملا. لو أنه يستطيع فقط أن يقترب من الشجرة التي يجلس الصبي تحتها حالياً، فسيكون على مدى السمع للملا. عند الرمية الثالثة، استقرت قطعة اللحم إلى جانب الصبي، فالتقطها ليتش بسرعة، منتقلاً إلى صخرة، على مسافة مناسبة من ايفانوف حتى يستطيع أن يأكل ويستمر في المراقبة. ابتسم ايفانوف مشجعاً، زحف إلى الإمام وجلس ببراعة وقد عقد رجليه في البقعة التي كان ليتش يحتلها.

"جيد، لا؟ جيد. كل أنت" مال برأسه إلى الخلف مستنداً إلى جذع الشجرة، وأغلق عينيه، وهو يدعي النوم. عاين هاشم هذه التحركات وهو عابس. لكنه ظل ساكناً.

أصبحت نبرات صوت الملا العميقة الجارحة مسموعة بوضوح. توقفت النساء عن إنشادهن وهدأن باحترام، وهن يصغين إلى كلمات قائدهن.

"أيها الإخوة، أعتقد أن أكثريتكم يعرفون الغاية من هذا التجمع. لقد عاد العديد منكم لتوه من قرية آلدي. لقد تلقيت اليوم رسالة عاجلة من إمامنا العظيم، حفظه الله إلى الأبد، وهو يشكر كل الذين قاتلوا منكم إلى جانبه في كارجينسك....

يا إخوتي، إن عملية إخراج الكافر من أراضينا ليست واجباً سهلاً. إنها تحتاج إلى التضحيات ونحن هنا في قرى الجبال لن نتقاعس عن واجبنا".

لم يصدق إيفانوف نفسه من الفرح على هذه المعلومات السهلة التي يبدو أن القدر قد ألقى بها في حضنه بهذه السرعة. ألقى نظرة عبر المسافة إلى هاشم وتبادلا نظرة عارفة. فقد كان هاشم بدوره يسمع معظم كلمات الملا ولكن لم يصدر عنه أي رد فعل.

"سوف يقوم الإمام العظيم بمهاجمة كيزليار مرة أخرى وفي الحال. ولكن بقوة أعظم بكثير في هذه المرة". استمر الملا بالتحدث

بكلمات رنانة" إن سماحته يهدف إلى تدمير الحصن الروسي هناك.... لقد طلب مني بصفته "نائبه" الرسمي، أن أقوم بتجنيد أكبر قوة ممكنة لهذه المعركة القادمة.... وعليه فإنني أعين إبني حمزات ليقود هذه القوة"....

خلال هذا الوقت كله، تجنب إيفانوف النظر مباشرة باتجاه الملا. كان يرغب في رؤية الرجل رغبة هائلة: لكي يتذكر الوجه. لكن لو أعطى الصبي الحارس أقل إشارة على أنه يفهم خطبته، فهو سيصبح موضع شك. لذلك أبقى إيفانوف عينيه مغلقتين بشدة ولم يستطع أن يميز الملا ولا حمزات بينما كان الملا يشير اليه.

لو انه نظر فلربما تمكن من رؤية النظرة الجدية الثقيلة التي تبودلت بين حمزات وصهره أحمد, فقد كانت هذه المهمة بالذات هي مالا يرغب حمزات في توليها, لكن الابن يطيع أباه في كل الأمور.

استمر صوت الملا يهدر بدون إنقطاع "سوف يختار حمزات نوابه, أريد منكم جميعاً أن تكونوا جاهزين ومسلحين بالكامل وحاضرين للاجتماع في ساحة قريتنا صباح يوم الجمعة القادم. إني أعتمد عليكم في إحاطة كل الذين لم يتمكنوا من الحضور اليوم علماً. أخبروا كل كبار السن في قراكم وكل شيشان الجبال عن هذا "الجهاد" العظيم ".

ران الصمت على الجمع

"هل هناك أية أسئلة أيها الإخوة؟ " انتظر الملا بهدوء.

هدر صوت رجل مسن سمعه ايفانوف وأدرك فيه نبرات مقاتل متمرس بالحملات، فهو دقيق جاف، واقعي، تماماً مثل نبرات صوت الجنرال كوماروف.

"إذا كان يحق لي التحدث أيها الملا، هل تم تحديد تاريخ المعركة؟ أعني بأن هذا يجيء في وقت قصير جداً بعد معركة

كارجينسك في الشهر الماضي! إن بعض جراح رجالنا لم تلتئم بعد."

أجابه الملا "الأمر هو هكذا يا ايلدار، يجب أن تفهموا جميعاً أن إمامنا العظيم يريد أن يوجه ضربته بسرعة الآن حتى يفاجئ الكفار, يجب أن لا نسمح لهم بان يعززوا تسلحهم وأن يصبحوا أقوياء مرة أخرى. هذه مسائل ذات طبيعة عسكرية والإمام هو أفضل من يفهمها.

تبع ذلك موجة من الحركة، وبعض الاهتياج. غامر ايفانوف بافتعال التثاؤب ليلقي نظرة، فشاهد رجلاً أسمر البشرة ضخم الجثة وهو المدعو ايلدار، يحمل كتفين مثل كتفي جاموس، ينهض على قدميه ويشير بيده بعنف. كان ثوبه الأسود ملطخاً باللون الأخضر المعتق مثل لحاء شجرة البلوط "سوف أتكلم نيابة عن كل هؤلاء الرجال الشجعان أيها الملا, سيكونون كلهم هنا في اليوم المعلن ليقاتلوا إلى جانب حمزات، يمكنك أن تتأكد من ذلك. أتمنى أن تحل عليك كل بركات الله تعالى".

بدأ الرجال يصفقون لهذه الكلمات. استدار ايفانوف لينظر مرة أخرى، في اللحظة التي التفت فيها، ألقيت كمامة فوق فمه وعينيه ووضع الشيشاني الشاب المقاتل الشرس – كوير، ركبتيه في ظهر ايفانوف.

"لقد قيل لك أن تبقى في الكوخ! أنت لست فاراً من الخدمة: بل أنت جاسوس!".

اسقط في يد ايفانوف، فأنهار جسمه. نفض كتفيه وأشار إلى الكمامة: كيف يمكنه أن يدافع عن نفسه إذا لم يسمح له بالتحدث؟ أطلق كوير سراحه.

"هل تريد البنادق أم لا؟" قال ايفانوف ببرود أعصاب "هذه حربك أنت، وليست حربي, أعطني الجلود وسأخرج من هنا، فانا لا أرغب في المتاعب، لقد اكتفيت من القتل".

سمع ايفانوف نفسه وهو ينطق بهذه الكلمات باقتناع، وأصبح في حالة يأس. هو يريد التقدم بالطبع، إن الجيش هو حياته، لكنه اكتفى من القتل، وأصبح الآن واثقاً من انه سيكون هناك المزيد من القتل وأكثر بكثير.

ركله كوير بقوة "جبان خالي من الإيمان, أنت لا تصلح لأن تقتل، اليك، خذ الجلود، وازحف مبتعداً، قبل أن يلحق العار بالإمام من مجرد وقوع عينيه عليك".

لم يصدق ايفانوف حسن حظه، التقط قطع الفراء وزحف على التراب إلى حيث جلس هاشم، مد يده ليصل بها إلى إحدى البنادق.

وضع كوير قدمه على معصم ايفانوف "أنت لا تريد القيام بأية أعمال قتل، الم يكن ذلك هو ما قلته؟ إذن يمكنك أن تترك البنادق كلها هنا، وهل تسمعني؟ كلها".

لم يحاول ايفانوف. وقف على رجليه ببطء وانحنى أمام كوير

"أيها المقاتل الشاب الرائع، حسناً, جيد، هيا بنا يا هاشم. اين هو صديقنا تاديوش؟".

قاطعه كوير بقوله "ليس بهذه السرعة، أنت تقول أن لديك المزيد من البنادق؟ إذن يبقى عبدك البولندي هنا كرهينة، حتى تحضر لي نفس العدد مرة أخرى.... لا تقلق، ستحصل على نفس العدد من الفراء للصفقة مرة أخرى".

جف حلق ايفانوف، لان كوماروف سيسلخ جلده حياً اذا رجع بدون باسل. "إنه: إنه لا يتكلم اللغة الشيشانية، احتفظ بالقرشاي، إذا كنت مصراً." وأشار إلى هاشم.

حدجه كوير بنظرة قاسية "هذا القرشاي، إنني أحتقره لانه خائن. سأحتفظ بأخيك البولندي الكافر. سيكون بيعه أسهل إذا لم ترجع".

كان ايفانوف على وشك الاستمرار في الجدال عندما رأى حشداً صغيراً من المقاتلين يبتعد عن الجمع متجهاً نحوه. كان من بينهم واحد يحدق فيه بتركيز. مرر ايفانوف يده الوسخة فوق وجهه الشاحب، على أمل أن يحول ملامحه التيوتونية إلى مزيد من السمرة، فقد علم من إيحاء غامض بانه قد شوهد في مكان ما، بطريقة ما، من قبل ذلك الرجل الضئيل الجسم، ذي الملامح العادية، لذلك لم يكن من الحكمة أن يبقى في مكانه حتى يبزغ فجر التعرف على الشيشاني.

"أتمنى لك يوماً سعيداً، أيها المقاتل الشيشاني. سوف نراك قريباً! سوف أحضر البنادق، وسوف نتم الصفقة. ثلاثة أيام".

استدار ايفانوف مبتعداً، وهو ينظر يمنة ويسرة بحثاً عن فرسه ويحاول في نفس الوقت أن لا يبدو عصبياً إلى حد واضح.

لحسن حظه حضر الصبي ليتش وتقدم منه مطيعاً من بين الأشجار وهو يسحب عناني الفرسين بين يديه، وابتسم له.

"اشكرك أيها الفتى" والقى ايفانوف بجراب من الملح إلى ليتش، ثم ركب هو وهاشم بدون أن يلقيا بنظرة واحدة إلى الخلف، وانطلقا خارجين من القرية.

بينما انشغل المقاتلون الذين وصلوا إلى جانب كوير بالنظر معجبين إلى الأسلحة، استبقى الملا أحمد ومراد في الاجتماع المنعقد في العراء. جلس القبارديان في مواجهته، بينما جلس حمزات إلى يمين والده.

"ماذا يدور في ذهنك يا أحمد.؟ فقد رأيتك تبدو منشغل البال" قال الملا بهدوء "يمكنك أن تتحدث بحرية، فنحن الآن عائلة واحدة".

"أنا لا أقصد إساءة الاحترام أيها الملاّ – لقد كانت تجربتي – تجربتنا الأخيرة في القتال مع قوة الإمام كارثية، وهذا ألطف التعابير".

قطب الملاّ وتجهم وجهه، ثم نظر إلى ابنه بحثاً عن تأكيد لرأي أحمد، بدا على حمزات الهدوء، وكذلك ظهر مراد هادئاً بنفس المقدار.

ثم تكلم حمزات بهدوء "ما يقوله أحمد صحيح يا أبتِ"

أغمضت عينا الملاّ نصف إغماضة، وشد على مسبحته بنفاذ صبر في محاولة لإخفاء استيائه.

بدأ مراد الشرح، كعادته الدبلوماسي المنمق الحديث. هو حتماً من نسل باتراز النارتي الذي كان باستطاعته أن يجعل قدر الآلهة يغلي بحديثه المعسول.

"أيها الملاّ... إنني أتكلم بمنتهى الاحترام. على الرغم من حماسه ووطنيته. إلا أن الإمام ليس قائداً مقاتلاً. اعني انه ليس جنرالاً. لم تكن خسائرنا في كارجينسك نتيجة لنقص في المقدرة أو الشجاعة. لقد حصلت لأن الإمام لم يكن يمتلك أية خطة. لم تكن قواتنا قد تجمعت عندما هاجمها الروس. لقد نجى معظم رجالنا لأننا وصلنا متأخرين ولم نشعر بحرارة مدافع الجيش الروسي."

لم يستطع الملا أن يواجه الحقيقة، اذا كانت الحقيقة هي ما يقال هنا. لم يكن لديه سبب للتشكيك في أحد من هؤلاء الرجال.

"يا أطفالي، يا أطفالي، ما هذا الذي تقولونه! هذا هو الإمام، المقاتل الأول، أعظم صوت في بلاد الشيشان تقولون انه ليس حكيماً؟ إنه ليس رجل قتال؟ – ما هذا الذي أسمعه" أصر أحمد وتابع "لقد بات واضحاً لنا، نحن الذين نفتقر إلى الخبرة، بانه لا يمكنك أن تهاجم حصناً مباشرة. ليست بنادقنا القديمة، ولا سيوفنا نداً للمدافع. تصب هذه المدافع النيران فوق رؤوس الشيشان،

وتحرق لحمهم وتصيب خيولهم بالذعر قبل حتى أن يشاهدوا وجه قوزاقي واحد. يجب أن لا نعود إلى كيزليار – ستكون تلك مصيبة أكبر."

أضاف مراد تحذيراً آخر "هل يستطيع الإمام أن يتحمل هزيمة أخرى.؟ هل سيحتفظ بالكثير من التبعية اذا حدث ذلك؟ نحن قلقون لأجل ذلك أيها الملا – نحن لا نتكلم ضد الإمام منصور، بل نحن نتحدث لمصلحته".

مسّد الملاّ لحيته بإضطراب "ماذا تقترحون – مراد، حمزات، أحمد؟"

توقف المحاربون الشبان الثلاثة وفكروا ملياً وبعناية قبل أن يجيبوا، ثم إقترح مراد "نحن نحسن القتال بأفضل أسلوب في مجموعات صغيرة، كمائن، نحن نوجه ضربتنا ونختفي في الأحراش. تلك كانت طريقتنا دوما.... لا يستطيع القوزلق أن يسحبوا مدافعهم إلى حيث نهرب".

غامر حمزات بالموافقة "نحن نضايقهم، نجبرهم على الابتعاد عن القوات الرئيسة ثم نهاجمهم بسيوفنا، لقد أحرزنا العديد من الانتصارات بتلك الطريقة."

أضاف مراد "بكلام آخر أيها الملاّ، نحن نقاتلهم حسب شروطنا, عندما يكون توقعهم لنا في أدنى مستوياته، وليس على ميادينهم وليس عندما يكونون منتظرين وجاهزين لذبحنا مثل الأغنام."

شعر الملا باضطراب عميق. فإلى جانب حتمية القضية، فهو نفسه كان مقاتلاً من المدرسة القديمة ويؤمن بالمعارك الضارية، القتال المفتوح "قد يقول البعض أن تلك طريقة جبانة في القتال" جاء دور أحمد في الكلام "بكل الاحترام المستحق – إن الموت في سبيل القضية شرف".

قال ببطء وبتعمد "لكن الموت بغباء وبدون تسديد ضربة إلى العدو ليس على ذلك القدر من التشريف."

راقب حمزات والده وهو يصارع رغباته المتضاربة: حماية شعبه أم مساندة قائد ملهم، بغض النظر عن الثمن.

"يا أبت؟ لماذا لا نقترح استراتيجيتنا على الشيخ – وهي أن لديه قوة كبيرة ليشن بها الهجوم الرئيس كما خطط له، ولكن ليتركنا نبقى وحدة مستقلة وننفذ هجمات إغارة على المعسكرات الواقعة خارج كيزليار. يمكننا أن نشغل قطاعاً كبيراً من قوات العدو بتلك الطريقة..".

أحنى الملا رأسه. أصبح بإمكانه أن يحس ببعض الانفراج "سوف أقترح ذلك، وأرجو أن لا يسبب ذلك العار لنا. يا حمزات، يجب عليك أن تسمح لرجالنا بالخيار بين القتال إلى جانب الشيخ أو معك أنت." تكلم بخشونة، ولم يترك مجالاً كبيراً للشك فيما يمكن أن يختاره هو.

شعر حمزات بالحزن عند رؤيته هذا الرفض "إذا كنت ترغب بذلك يا أبت، فسوف أذهب إلى كيزليار لأقاتل إلى جانب إمامنا".

لم ينظر الملا في عيني ولده. بل نظر إلى الطرف الآخر من القرية حيث ظهر أن كوير يتعامل بعنف مع احد الاغراب "لا، لا حاجة لثلاثتكم في أن تتفرقوا. لا تتحدث لأي كان بهذا الأمر، ليس قبل أن نتصل بالإمام ".

بدا وان هذه هي نهاية التشاور. نهض الملا وأشار إلى الإذن للآخرين بمغادرته. ابتعد حمزات مسافة قليلة بصحبة أحمد، ثم أمسك به من كم سترته "اشكرك يا أخي على دعمك لي هذا اليوم".

ابتسم أحمد وضرب حمزات على كتفه بمرح. "ستصبح جنرالاً متفوقاً في أحد الأيام القادمة. أنت حاذق في موضوع التخطيط التكتيكي، مثل مراد".

لم يعر حمزات المجاملة أي اهتمام بل مال مقترباً. "لقد تحدثت إلى الوالد عن القباردي الذي يقاتل على الجانب الروسي".

"هل شعر بالانزعاج؟"

"كلا على الإطلاق، يبدو أنه والإمام منصور يعرفون عن هذه الأمور. حتى انه هناك شيشان وأنغوش يقفون إلى جانب الكفار. لكن ولاءك وولاء مراد لا يرتقي إليهما أي شك. إنه يريد منك أن تعرف ذلك".

"إنني ممتن لاهتمامك بهذه المسألة يا حمزات. لقد سببت لي ولمراد الكثير من القلق".

"نحن عائلة واحدة. وبيننا ثقة مطلقة. وهكذا يجب أن يكون الوضع".

نظر أحمد إلى وجه حمزات الشاب النحيل الجاد، وهو يتطور يومياً ليصبح قائد هذه المستوطنة أكثر فأكثر. لقد تطلب الأمر الكثير من جهد ابن الملا حتى يجد السلطة في داخله، لكن تلك كانت نوعية نفسيته, وهي أن يوحي بالدعم له بين جميع الرجال في القرية. أحس أحمد بالسعادة ولكن أيضاً بالحزن تجاه ذلك. فقد كان حمزات يتحول إلى الجندي أكثر منه إلى رجل الفكر: وهذا شكل أكثر غموضاً واختلافاً من الخسارة لحياة القرية.

***

الفصل التاسع

شعر باسل بالذعر لأنه ترك بين أيدي الشيشان. فقد عانى من التعذيب المخصص بعناية للروح التائهة التي تريد من جهة أن تحتضن احتمالية التعذيب، ومع ذلك تكتشف في هذه الساعة المتأخرة، بأن الموت يرعبها. لم يكن لديه ما يحيا لأجله،. لكنه لم يكن يريد أن يموت. وصل اليأس به حد الذروة. أخذ يستعيد بحزن الأسباب التي قادته إلى القدوم في هذه المهمة الخطرة. لم يكن يمتلك جواباً يرضيه. وصار يتعجب لماذا غادر رفيقاه بهذه السرعة، بدون حتى أن يتحدثا إليه.

لقد ابرما بالتأكيد صفقة لإحضار المزيد من الأسلحة, وسوف تنتهي محنته بعد يوم أو اثنين. تركه كوير مقيداً بقية ذلك النهار – ليس من باب تعمد الأذى، بل لأنه ببساطة نسي أنه موجود في الكوخ. عندما تساءل الملاّ في اليوم التالي بحدة عن الغرباء الذين شاهدهم في القرية وقت الاجتماع، شرح كوير موضوع شراء البنادق والوعد بالمزيد.... ثم تذكر الرهينة فجأة. أنّب الملاّ كوير بقوله "أنا لست سعيداً بوجود غريب بين ظهرانينا، ونحن نخطط لأنشطة على هذا القدر من الأهمية، وخاصة "جاور". أعتقد أنه من الأفضل لك أن تنقل هذا الرجل إلى مواقع أكثر أماناً. سوف أركب إلى مستوطنة أحمد في الغد، فلنضع هذا الرجل هناك حفاظاً عليه. هنالك الكثير من العمل يمكنه أن يؤديه مقابل احتفاظنا به".

لم يكن كوير سعيداً باقتراح الملاّ، بأن يحتفظ بسجينه في معقل أحمد، لكنه اضطر إلى الإذعان للقرار. فربما يصبح البولندي عبئاً، لأن التفكير بأي شخص أو أي شيء آخر غير "الجهاد" كان أمراً يسبب لكوير الضيق.

"سوف أركب معك أيها الملا، من بعد إذنك".

قال الملا وقد فهم السبب "لا حاجة لذلك". راقب كوير وهو ينسحب إلى بيته. بدا وكأن حزن الرجل يأكل أجزاءً منه، ويترك فيه فراغاً ربما تتقوى داخله عواطف أخرى أشد التواءً.

في الصباح الباكر لليوم التالي، حضر إلى الملا زوار آخرون كان يتوقعهم. فقد وصل عند الفجر مربي خيول من داغستان يرغب في أن يوصلوه إلى مزرعة أحمد الجديدة لإستيلاد الخيول. يعرفه الملاّ منذ زمن طويل وكانت له مبادلات عديدة معه. كان رجب من الآفار، إحدى القبائل العديدة التي تقطن الداغستان, وهو المربي الذي اشترى منه الملا الفحل العربي الأسود لأجل أحمد أصلاً. هو تاجر ميسور الحال ولديه معرفة عميقة بأنساب الخيول. وقد ارتحل هو وكاتبه أوري صاعدين من موطنهما الجبلي, مارين ببعض أعلى الممرات في سلسلة جبال القفقاس حتى يتجنبوا القوزاق.

لم يكونا جاهلين كلياً بالغليان الذي يمورفي بلاد الشيشان, ولم يكونا شخصياً غريبين عن الثورة. لكن الحياة يجب أن تستمر، وتستمر معها المظاهر العادية للتجارة والسفر كلما أمكن ذلك.

يتحدث رجب اللغة الشيشانية بطلاقة، فقد زار المنطقة وسافر خلالها في مناسبات سابقة متعددة. قال وهو يسلم على الملاّ بحرارة وينحني احتراماً له "إنني متشوق إلى مشاهدة مشروع زوج إبنتك، وأنا محظوظ بأن لديك قريب جديد أستطيع أن أتاجر معه، فإن الأنساب الجيدة من الخيل نادرة في جبالنا، والحاجة إليها تتزايد، يا صديقي".

قال الملاّ وهو يبتسم "مرحباً، نعم، نحن بحاجة إلى مطايا سريعة واثقة الخطى حتى نحارب بها الكفار، إن أحمد يربي أفضل الخيول في بلاد الشيشان، ستكون مسروراً."

اجتمع في الساحة رهط صغير مؤلف من الملا، الآفاريين الاثنين، خادم الملا لذلك النهار، الصبي الحارس ليتش والرهينة باسل حتى يقوموا بالرحلة إلى مستوطنة أحمد راكبين.

فوجئ الملا عندما أحضر، "الرهينة" ليمثل أمامه، وقد أغمضت عيناه وأوثقت يداه بهيئة زرية. حتى وهو بالملابس الرثة القذرة، فإن الرجل يتمتع ببنية راقية وهيئة شخص تعود على الحياة الرغيدة.

ترجل الملا ودار حول باسل وهو يتفحصه عن كثب. أدرك باسل ما يجري حوله. فقد كان بإمكانه أن يسمع حفيف أثواب الملا والطقطقة التي تشوبها العصبية بمسبحته. سمع بعض الكلمات واقترب رجل آخر من القائد.

تحدث أحدهم إليه باللغة الروسية "أنت تقول أنك بولندي هارب من الخدمة العسكرية؟" مما أدهشه.

أومأ باسل برأسه إيجاباً. فقد كان مذعوراً إلى درجة أنه لو فتح فمه, لتقيأ.

"من هو الجنرال الذي خدمت تحت إمرته؟"

كان كوماروف قد حضَّر باسل جيداً فقال بعصبية "فورونتسوف".

"هل يمكنك أن تتلو صلاة الرب من أجلي؟"

أسقط في يد باسل. فقد تعمد في الماضي أن يتناسى مثل هذه الترهات الدينية باللغة الروسية، ناهيك عن نطق الكلمات باللغة البولندية. رفع رأسه وهو يهيء نفسه لأسوأ الاحتمالات بكبرياء، وأجاب متحدثاً باللغة الروسية "أنا لست كاثوليكيا عميق الإيمان".

عرف الملا من فوره أن هذا ليس سلوك بولندي منهار المعنويات هارب من الخدمة العسكرية. جاءه الهام رباني. فهذا رجل روسي نبيل المولد، وقد ألقته أمواج المد للزحف

الإمبراطوري في القفقاس. وأن معاملته بشكل محترم ستكون خدمة نافعة للقضية.

أصيب باسل بالذهول عندما حل وثاقه وأزيلت العصابة عن عينيه. وقف رجب إلى جانبه مرتدياً أفضل الملابس الحمراء والذهبية "أنا رجب، وأنا آفاري من الداغستان" قدم نفسه بلغة روسية بسيطة لكنها دقيقة "أنت في حضرة صاحب السعادة ملاّ هذه القرية".

"أنا... تاديوش، بولندي، هارب من الخدمة". شاهد باسل بريق عدم التصديق في عيني الملاّ، ولزم الصمت.

"ستركب الآن معنا".

تحركت المجموعة منطلقة وشعر باسل بانفراج رجل صدر العفو عنه منذ لحظة. رفع قامته في السرج فصار يعدو خبباً إلى جانب المجموعة وهو يشعر بزهو النبلاء.

لو كانت لدى الملا اية شكوك حول أصول الرهينة البولندي، فقد عززتها طريقة الرجل في ركوب الخيل. فالرجل النحيل الطويل القامة يمتلك الشجاعة، لكنه لم يكن جندياً, هو يجلس مستقيماً في سرجه على الطريقة الأوروبية، كما يفعل النبلاء. يداه متسختان لكنهما ناعمتين: وشعره مقصوص بعناية. هو جاسوس روسي بدون أدنى شك، وسوف تتم إعادته مع قصة ليرويها: سيقوم الملا بترتيب ذلك الأمر.

حيَّت تسيما والدها بخجل، فقد أصبح حملها ظاهراً هذه الأيام, مما جعله يتأملها بنظرة جديدة وجدها مزعجة له. كانت تستوحش لوجود أمها حتى تبثها الأسرار وتستمد منها الثقة. لكن مدينا تدعمها وتساندها، وقد قامت بالترحيب بالزوار بالقدر المناسب من السلاسة.

قالت "لقد خرج مراد للصيد، وسوف يشعر بالأسف لانه لم يصادفك. وأحمد في الحظيرة. من هذا الغريب أيها الملا؟"

"هذا رهينه, إنه لن يؤذيك".

أشار الملا إلى وجوب ترجل الرهينة. أطاع باسل ولم تكن لديه صعوبة في إخفاء أي مظهر للاهتمام، لأن تعبيره المعتاد هو عدم الاهتمام. لكنه كان في داخله يبارك لحظه الجيد. يا لها من مغامرة! ها هو هنا في قلب منطقة الشيشان، أحد القلة من الروس الذين هم من طبقته وسنحت لهم الفرصة ليشاهدوا كيف يعيش هؤلاء الكفرة بالضبط. هذه فرصة قيمة جداً بالنسبة اليه كدارس لعلوم الفلسفة والأحياء. يريد أن يعرف نوعية القوانين التي تربط القبيلة إلى بعضها البعض: وما إذا كان لديهم أي مفهوم عن الشرف أو الثقافة. كان قد درس دفتر ملاحظات عن اللغة الشيشانية في طريق عودته من ايكاتيرينودار, قدمه له الجنرال كوماروف، وقد حاول أن يوسع هذا المسلك الأكاديمي بالتحدث إلى القرشاي وايفانوف . لكن ثبت له أن اللغة معقدة بطريقة شيطانية ولم يحرز أي تقدم تأمل في إحرازه. وهو أمر مذل بالنسبة إلى رجل يتقن عدة لغات بطلاقة. طفق الآن يلعن تقصيره وافتقاره إلى مترجم.

تكلم الملا مخاطباً رجب، الذي بدوره نقل الرسالة إلى باسل "انتظر هناك، يخبرني مضيفي الملا أنه يفترض فيك أن تعمل لدى هذا الرجل المدعو أحمد, سيد هذه المستوطنة، حتى يقرر الملا مصيرك. أنت محظوظ أيها الجندي البولندي فهذه أفضل خيول في المنطقة... اذا كنت تحب العمل مع الخيول."

ترجل باسل وجلس شبه مختفي إلى جانب عامود في السياج، آملاً في أن لا يجتذب أي شعور عدائي. لكنه ظل يراقب كل شيء من طرف خفي. لاحظ الأخلاق المتواضعة لدى النساء، الوجوه المليحة المبتسمة لبعض الأولاد الصغار الذين يتقافزون حول الزوار – صبية وسيمين ذوي تركيبات عظمية جيدة وعيون تشع

بالحيوية. لم يبدُ عليهم مطلقاً أنهم شعب محروم أو محتقر. يمتلك هؤلاء الجبليون حيوية وصلابة وجدها جذابة، مثل كل العائلات التي شاهدها في القرية الأخرى. لم يعرف أي رأي سيشكله عن هذا المكان الجديد. لكن هذه المستوطنة بدت له أقل عدوانية ولم يشعر بالتعاسة لكونه مسجوناً فيها.

تحرك الملا وحاشيته باتجاه إسطبل الترويض ونادوا على أحمد. كان يعمل في الحظيرة ولم يشاهد الضجة التي أحدثها وصول الضيوف.

عندما سمع اسمه, استدار أحمد بسرعة وربط رسن فلو صغير يتنطط، إلى أقرب سياج. عَبَرَ المسافة القصيرة نحو والد زوجته وهو يبتسم بدفء.

"هذا هو صديقي الطيّب رجب، من الداغستان، وهو يريد أن يشتري منك يا أحمد".

"حصل لي الشرف يا رجب" صافح يد الآفاري ويد الكاتب أوري.

"لدي بعض الأفلاء للبيع: ذلك الفلو لم يبلغ بعد السنة الثانية من عمره وأنا لا أبيعها قبل ذلك."

أوما رجب برأسه موافقاً "هذه سياسة حكيمة، لأنهم لا يظهرون تكوينهم ومحاسنهم قبل ذلك بكثير".

مشى الملا مع البقية نحو الفلو المربوط وهو ينظر اليه معجباً ومقدراً.

"ما شاء الله، رائع حقاً، أنه يشبه تكوين الفحل الذي سفده. ماذا تعتقد يا رجب؟"

تحفظ رجب في إصدار حكمه, تعربش فوق السياج برشاقة ثم مرر يده بلطافة فوق ظهر الفلو، وهو يمسد شعر عنقه ويتحسس

طريقه نحو القوائم ليتفحص الاوتار. رفع الفلو رأسه وصهل بكبرياء، كأنما يستعرض صفاته الحميدة. ألقى رجب نظرة فاحصة على عينيه وأذنيه ثم رجع إلى الخلف ليصدر حكمه المؤكد.

قال في نهاية الأمر "لا أستطيع أن أجد فيه عيباً, أتمنى لو كانت عظامه أكبر. سوف يتطور صدره ويتعمق أكثر ولكني معجب به. إنه على ما أظن ابن الفحل الأسود؟"

"نعم، صحيح، لا يولّد الأسود الكثير من الأمهار الذكور, معظم إنتاجه حتى الآن من الإناث.

عقد رجب يديه على صدره ثم اختتم كلامه بقوله "إنه يعجبني، يمكن أن يصبح فحلاً جيداً في يوم من الأيام. فهل سيكون السؤال عن ثمنه من قلة الادب.؟" تجاهل أحمد السؤال من باب المجاملة وتكلم الملا نيابة عنه بفخر بالغ فيه.

"في البداية عندما بدأ أحمد في الاستيلاد, كان بإمكان المرء أن يشتري أفلاءه بأي ثمن. لكن الآن لا يوجد أحد في هذه الجبال يمكن لإنتاجه من السلالات أن يقارن بأحمد الكوباني. هنا توجد أفضل الخيول في كل بلاد الشيشان.... لكن ربما يتعين عليك أن تشاهد الفحل مرة أخرى قبل أن نتحدث في الأسعار!"

"طبعاً وبكل سرور، إذا لم يكن في الأمر صعوبة كبيرة".

"لا صعوبة على الإطلاق، سوف أقوم بإخراجه" قال أحمد وهو يتجه نحو الإسطبل.

استدار رجب نحو الملا وهو يستسره "أحب أيضا أن اشتري مهرتين بالإضافة إلى ذلك الفلو. وأود لو انك تكون الوسيط يا صديقي القديم".

ابتسم الملا ثم نادى على أحمد.

"يا أحمد, سوف تنضم الينا مع مراد هذه الليلة لتكريم ضيفي المبجل رجب".

استدار أحمد وابدى قبوله الدعوة بإيماءة من رأسه وابتسامة, فقد كان مسروراً لكون الملا يفعل كل ما بوسعه لإنجاح هذا العمل، وسيكون العشاء عنده وليمة فاخرة: بما أن الملاّ لا يميل إلى المخالطة الاجتماعية، فإن الدعوة إلى مائدته تعتبر شرفاً يرغب فيه كل زوار القرية بشدة.

أحضرت تسيما المرطبات لهم جميعاً في كؤوس زجاجية صغيرة مثبتته داخل قوالب من الفضة فوق صينية مخرمة.

بعد أن قدمت لهم، اتجهت نحو باسل، وقتها فقط أدرك كم هو ظمآن ويتضور جوعاً.

وجدها فاتنة الجمال بطريقة وحشية، كانت تتعامل مع حملها بما يدعو الى الإعجاب: فالنساء البدائيات يفعلن ذلك على الدوام. لو أنها ترتدي ملابس ملائمة فإنها حتماً ستبدو جميلة. أحنى باسل رأسه في إيماءة أحترام وغمغم كلمات شكر لها باللغة البولندية. نظرت اليه تسيما بتدقيق أكثر قليلاً.

"*هل أنت بحاجة إلى شيء من الطعام أيها الغريب*؟" وفسرت الكلمات بإشارات من يديها.

أوما باسل برأسه ممتناً "طعام, نعم، أشكرك يا سيدتي".

بعد بضع لحظات، أحضر أحد الأولاد طبقاً من معجنات الذرة. فوجئ باسل بان كلاً من الطعام والشراب قدما له على أطباق وكؤوس نظيفة غالية الثمن. وأن الطعام لم يكن فاسداً ولا كريه الطعم. أخذ يراقب الجبليين وهم يتحادثون بينما هو يزدرد الطعام بنهم، معجباً بالتشابه بين إشاراتهم والإشارات التي يمكن ملاحظتها في أي مزاد للخيول الأصيلة في سانت بطرسبرج.

الفلو حيوان جميل، وذلك المشتري الذي يتحدث اللغة الروسية خبير في الخيول، بالحكم من الطريقة التي مسّد بها الفلو وجعله يهدأ. ولكن في تلك اللحظة تم اقتياد حصان عربي فحل إلى الخارج من قبل الرجل الآخر أحمد المربي. وجد باسل نفسه يصفر من خلال أسنانه صفرة إعجاب. وحق الله أن هؤلاء الناس يعرفون كيف يربون الخيول... إن هذا الجواد أجمل عينة شاهدها في حياته. صهل الجوادان، الأب وابنه وقفزا باتجاه أحدهما الآخر في تنافس محبب، بينما قام الشيشان بفصلهما عن بعضهما ببراعة.

ظل الرجال يتمتمون "ما شاء الله، ما شاء الله، لتهدئة الخيل. بعد ذلك دار الملأ حول الحصان الفحل وهو يرفع يديه مباركاً ليبعد عنه عين الحاسد. كان للمنظر خاصية عظمة غير مرتبطة بالزمان، أثرت في باسل في قوة. الأثواب الرائعة ذات اللونين الأحمر والذهبي للتاجر الداغستاني، الثوب الأبيض والأسود البسيط للملا، والثوب التشيركيسكا ذي اللون الأزرق الداكن الذي يرتديه مربي الخيول، كلها ذات تأثير مبهر تحت وهج الشمس الساطعة. إنهم يتمتعون جميعاً بأجسام نحيلة رياضية لرجال اعتادوا على طريقة عيش غير مسرفة ولكنها ليست بدائية. فكر باسل في رفاقه المبتلين بمرض النقرس في الصالونات الروسية وأدرك انه يجر نفسه إلى مقارنات رومانسية. لم يكن يعتقد أن بإمكانه الشعور بالحماس أو الحسد، لكنه خجل من نفسه فوراً بسبب سذاجته, فهؤلاء الرجال هم لصوص وقتلة بلا مبادئ ومعايير للشرف. أدرك انه يخضع تدريجياً للحب الذي يتولد من الخوف: إنه أسيرهم، وقد جعله نفوذهم عليه مسحوراً بهم.

فهم يمكن أن يلقوا بنظرة في اتجاهه في أية لحظة ثم يقرروا أن يقتلوه. أخذ باسل يدرس عواطفه الشخصية بموضوعية انتقادية.

في تلك الأثناء كان رجب يستمتع بمشاهدة الحصان, ملكيته الأصلية. "الحمد لله والشكر، هذا الحصان عينة جميلة، لقد نما بشكل متناسق، أفضل كثير مما توقعت. إنه نسخة أصلية عن أبيه،

يجب أن تعلم يا أحمد انك تمتلك مثالاً شبه كامل عن الجواد العربي الصقلاوي. لقد أحسنت صنعاً يا صديقي, فهؤلاء في العادة يجيئون بلون رمادي أو أبيض، لكن الأسود هو لون نادر ومرغوب فيه كثيراً."

رفع احمد كأسه كبادرة عرفان وتحية للداغستاني. لو أن أباه يستطيع أن يراه الآن: أحمد، المقاتل الموثوق ومربي الخيول المحترم، سرعان ما سيصبح اباً. لقد أصبح الابن الذي كان سيرغب فيه أبوه، لكنه الآن مجبر على الفخر بهذا الأمر بنفسه، بدون مباركة قريب له بالدم. تلا صلاة صامتة دعا فيها أن يكون والداه يستريحان في سعادة أبدية بعيداً عن جثتيهما المتعانقتين بعد الانجماد.

عاد الملا ورجب إلى مطيتيهما "إلى اللقاء مساءً يا أحمد، أحضر النساء معك. و، آه، كلمة صغيرة يا أحمد "وانحنى متدلياً في سرجه ليوجه التعليمات "يحتمل أن يكون ذلك الرهينة جاسوسا روسياً، وليس جندياً بولندياً فاراً كما يدعي. اجعله يقوم بأعمال شاقة ولكن عامله بلطف. سوف أحتاج اليه لاحقاً."

أومأ أحمد برأسه احتراماً، وأنطلق الزوار على مطاياهم مبتعدين.

استدار عائداً حتى يتفحص الرهينة عن قرب. استطاع أن يلمح التحدي في عيني الرجل، والخوف كذلك، مشى إلى حيث جلس مستنداً على السياج.

أشار الى نفسه، ثم إلى الرجل "أنا اسمي أحمد... وأنت...؟".

"تاديوش".

"إنهض يا تاديوش، اتبعني" قاد أحمد الطريق إلى الإسطبلات حيث كان الفحل الرائع يتقافز وينخر.

رفع باسل يده بتصرف غريزي وتمتم بالروسية لتهدئة الحيوان الضخم الرائع، وهو التصرف الذي كان يمكن أن يقوم به في إسطبلاته الفخمة في روسيا. أدرك خطأه في لحظة ثم بدأ يتكلم بصوت أعلى، ويهذر بكلمات بولندية.

بحلول هذا الوقت أصبح احمد قادراً على أن يميز الصوت الصادر من حلق "الجاور"، لكنه لم يكن يأمل مجرد أمل في أن يفرق بين اللغة الروسية واللغة البولندية.

"أخرج به إلى هناك واربطه، ثم نظف الإسطبل من الروث، وكذلك الأمر بالنسبة لكل الحيوانات" قال ذلك بخشونة وهو يناول باسل مكنسة ويشير إلى كومة الروث.

لم يكن باسل غبياً وعرف ما هو متوقع منه. عبرت وجهه نظرة رعب، فبدأ يعترض.

"كلا، كلا. سولداتسكي، أنا سجين، انا لست عبداً...."

أوضح أحمد البديل بشكل قاطع بإشاراته إضافة إلى قوله "إذا لم تعمل مقابل إيوائك، فسوف تموت من الجوع".

اضطر باسل إلى التعاون. فالمنطق العام يملي عليه أنه اذا تصرف بشكل مرضي فسوف يتركونه لشأنه، وربما يتوصل إلى معلومات استخباراتية مفيدة. فقط لو أن جسمه كله لم يتمرد على العمل البدني فهو مذل إلى درجة كبيرة.

نظر إلى صبي خادم صغير السن يسحب أحد الخيول الأخرى إلى داخل مبنى الإسطبل، اقتنع أنه يجب أن يحاول العمل، فقد يستطيع ذلك الصبي أن يعلمه بعض الكلمات الشيشانية المفيدة. على اية حال، لا بد وان محنته ستكون مؤقتة. لان ايفانوف لا بد وأن يرجع ومعه البنادق في وقت قصير، وستصبح كل هذه الأمور ذكرى خلفه.

تناول باسل المكنسة وهو يتنهد وبدأ في العمل.

ظل أحمد يمر به على فترات، متفقداً مواظبته على العمل.

بحلول المغرب، كانت كل عضلة في جسم باسل تصرخ طالبة إعفاءها. كان ظهره يقتله من الألم بينما تترنح ساقاه حتى وهو واقف بلا حراك. فهو لم يتعب نفسه أكثر من حدود تحمله في السابق أبداً، ظن انه ربما يكون مريضاً لشدة ما أصابه من الوهن.

أحضرت له تسيما الطعام عند الغروب: لم يكن قد تناول شيئاً من الطعام منذ طبق معجنات الذرة الذي أعطته إياه في الصباح. القى باسل المجرفة من يده وسقط على ركبتيه من شدة الإعياء. لم تتكلم تسيما بل اكتفت بترك صينية الطعام وعصير الفاكهة على بعد مسافة قصيرة منه وتراجعت.

أدخل أصابعه في القصعة, غير عابئ بأن الروث قد جف عليها, سمع في البعيد تمتمة من النداءات شبه المغناة. استنتج منها أن وقت صلاة المغرب قد حان، وأن رجال المستوطنة قد تجمعوا على مسافة منه تحت الشرفة الخضراء لشجرة القضبان. أفرغ باسل قصعة الذرة المهروسة واللحم ثم عصير الفواكه وتمدد على الأرض غير عابئ بملابسه. ما عاد يتذكر آخر مرة استمتع فيها بوجبة بهذا القدر. داهمه النوم خلال ثوانٍ من خلال الشبع. عندما ادلهمَّ الليل في وقت لاحق، حضر صبي خادم وشده من ثيابه على استحياء.

استيقظ مجفلاً. تمتم الصبي وشده من كم سترته مرة أخرى. نهض باسل وهو يشعر بجميع مفاصله تصرُّ ولحق به إلى مهاجع العمال.

أصبح باسل بحلول هذا الوقت معتاداً على النوم في الخلاء: فقد سافر أياماً بصحبة ايفانوف وهاشم، وأعتاد على سماع الشخير والرفس وضراط الرجال النائمين. لكن تلك كانت مهمة، وهو فيها شخص معروف، محمي جيداً ومحترم بما يناسب مقامه من قبل رفيقيه. أما هنا فقد أعطي حشية من القش في زاوية، ولم ينظر اليه أحد.

كانت هذه العقلية ترعب باسل أكثر مما يرعبه العمل، وأكثر من الخوف من الموت. شعر بروحه تغلي من الغضب والاستنكار، بحيث أصبح قريباً من كشف غطائه والصراخ بأعلى صوته طالباً الماء الساخن، البياضات النظيفة، والخصوصية الملائمة، في أية لحظة. اندفنت مشاعره الرومانسية المبكرة تجاه الشيشان تحت كراهية مسعورة سببها غياب الخصوصية وهذا الحرمان. هؤلاء الناس مختلفون عنه، هم ليسوا بشراً بل هم أسراب، نوع من البلاء. نظر حواليه، هناك حوالي سبعة رجال وأولاد في الغرفة، كلهم بهيئات رثة، ذوي عظام وجنات بارزة، تبدو عليهم سيماء الشر بشكل خاص عندما يغمضون أعينهم إغماضة تامة، ثم ينتشر ضياء القمر على ندوبهم، على أيديهم الخشنة، وعلى ملابسهم القذرة.

كان المخاط قد جف على الشفاه العليا للاولاد. هناك رجل عجوز يتنخع في حلقه بقوة بسبب إلتهاب قنواته التنفسية. بين كل لحظة وأخرى ينتفض واحد منهم تماماً كما تفعل كلاب الصيد التي يملكها في عزبته الريفية – وهي مكان لم يكن باسل يزوره كثيراً لان غباء فلاحيه يسبب له الضيق. فهم يستمرون في التناسل، المزيد من الأفواه المتبلدة الشعور المحتاجة للطعام، بالكاد يقدرون على التكلم، ناهيك عن القدرة على التفكير العقلاني. وجود حيواني... وكان هو بنفسه يغوص نحو ذلك المستوى.

لم تكن هناك أي فائدة على الإطلاق في محاولة الهروب. فهم سيلاحقونه كطريدة وسيقتلونه خلال ساعات قليلة، إذا لم تصل إليه الوحوش البرية قبل ذلك. استقر رأيه على الانتظار...ولكن ماذا إذا لم يرجع ايفانوف لأجله؟ غاص باسل في وجوم عميق، وهو لا يتوقع أن يعود القرشاي أو ايفانوف لإنقاذه. ويكاد يخاف من الإبقاء عليه حياً كقن, أكثر من خوفه من إطلاق النار عليه.

***

في نفس الوقت الذي كان فيه باسل يتأمل فيه بموته المحتوم بالضبط، أقام ايفانوف وهاشم معسكرهما عند سفوح التلال, يفكران في مشاكلهما الخاصة بهم. فقد توقفا في رحلتهما إلى هذا الحد وقررا أن يعثرا على "ستانيتزا" في الصباح التالي. كانت مشكلة ايفانوف تسبب له الإحباط. لم يكن من باب السلامة الشخصية أن يحمل أية هوية رسمية، في حالة قام العدو بتفتيش جسمه أو لوازمه. لكنه أعطي كلمة رمز، للاتصال بها مع أي أشخاص ذوي رتب متقدمة تابعين للقوات الروسية يحتمل أن يقابلهم. لكنه ظل يأمل أنه سيسمح له ولهاشم بالدخول إلى ستانيتزا قبل أن تطلق عليهما النار بسبب تنكرهما في زي أبناء الجبال.

"في الواقع يا هاشم يجب علينا أن نعد كميناً لدورية من القوزاق. بعد ذلك سوف أقوم بالشرح عن هويتينا، وبتلك الطريقة سوف يمكننا أن نؤمن مرافقة آمنه إلى ضابط آمر". كانت هذه المحادثة تجري في دغل كثيف غير بعيد عن وادي سونجا، حيث كان الرجلان يستريحان لتلك الليلة قبل أن يكشفا غطاءهما. لم يكونا قد تناولا أي طعام جيد لمدة يومين, وتسبب هذا الوضع في إبطاء تحركهما، وجعلهما يشعران بالكسل والخمول.

جاء جواب هاشم القاطع "لا أسلحة".

عض ايفانوف على شفته السفلى. كل ما كان يحمله كلاهما هو خنجرين وقطعة من الحبل. "حسن جداً، يجب أن نحاول. إنها فرصتنا الوحيدة. يجب إخبار سوفوروف أن الشيخ منصور يجري الاستعدادات لمعركة التحام ضارية أخرى في كيزليار. ثم هناك الكونت فاسلييفيتش".

نخر هاشم ضاحكاً, إذ أنه لم يعتقد بأن باسل لديه فرصة كبيرة في البقاء حياً كرهينة لدى الشيشان "سوف يمهلونك أسبوعاً حتى تحضر البنادق، وبعد ذلك سوف يقتلونه".

رد عليه ايفانوف "إنني مدرك لذلك تماماً، يجب أن نفعل كل ما بوسعنا لمنع حدوث ذلك".

كانا محظوظين، بسبب حشد القوى البشرية استعداداً لمعركة كيزليار, كان يجري سحب المقاتلين الشيشان من مراكزهم في الجبال وإرسالهم نزولاً إلى السهول, لذلك أصبحت فرص عثور مجموعة أخرى من الجبليين عليهم ضئيلة, لكن ذلك أصبح يعني اضطرارهم إلى النزول إلى مسافة أبعد في سفوح التلال قبل أن تصادفهم دوريات القوزاق.

في الصباح الباكر لليوم التالي, وبينما كان هاشم وايفانوف ينزلون عن حافة صخرية ضيقة، سمعا أصواتاً لا يمكن إنكارها لطابور من القوزاق، تسحب خيولها مدفعية ميدان فوق المنطقة الصخرية، وسرعان ما شاهدا الطابور يسلك ممراً موازياً لهما على بعد بضع مئات من الياردات. زمجر هاشم بقوله "لا نستطيع أن نتصدى لهذه المجموعة".

قال إيفانوف "سيكون هنالك كشاف متقدم أو مجموعة تسبقهم" وهو العارف بالقواعد أكثر من القرشاي.

ركبا خيلهما بسرعة منحدرين لمدة ساعة، حتى تقدما على القوزاق، ثم استدارا في الممر الذي سرعان ما سيحضر منه الجنود. انتظرا إلى جانب الطريق، وقد حجبتهم شجيرة عن الرؤية. بعد بضع لحظات، ظهر كشافان على جوادين نشيطين أسفل الطريق، يركبان باتجاههما. قال ايفانوف "هيا لنقم بذلك" وهو غير واثق كلياً من نفسه. عندما أصبح الكشافان بمحاذاتهما، قفزا من بين الشجيرات وأجفلا القوزاقيين. تمكن هاشم من إسقاط الكشاف الأقرب اليه وسقط الاثنان على الأرض بحيث جاء القرشاي فوقه وقد أشهر القاما وأمسك بها جاهزة. ثبّت القوزاقي على الأرض بلا حراك. تمكن القوزاقي الثاني من الهروب من هجمة إيفانوف ثم استدار وسحب بندقيته وصوبها تمهيداً للإطلاق.

صاح به ايفانوف بالروسية "لا تطلق النار، إنني عميل للجيش الإمبراطوري! المساعد إيفانوف، من هيئة أركان الجنرال كوماروف!"

ابقى الكشاف، وهو شاب من التشيرنوموروسكي، تبدو عليه سيماء القوة الهائلة، بندقيته جاهزة للإطلاق، وهو يرى كلا الجبليين لا يحملان أسلحة نارية.

"قصة محتملة، الق بسكينك إلى الأرض، قل لصديقك أن يطلق سراح الرجل، سوف أقتلكما معاً إذا تجرأ حتى على خدش حلق زميلي".

"سيعني ذلك محاكمة عسكرية لك ان لم تتعاون. لدي معلومات استخبارية قيمة. خذني إلى قائدك الأعلى على الفور".

أصر ايفانوف على موقفه وتكلم بخشونة، بينما عيناه تقدحان شرراً: تردد الكشاف ثم أطلق النار من فوق رأس أيفانوف.

"ابق في مكانك بالضبط، أيها الصديق" صاح فيه القوزاقي مجيباً "إن الدورية قادمة، أخبرهم بحكايتك".

بقي الأربعة صامتين وقد تجمدوا في مواجهتهم هذه. ظل ايفانوف يصيخ بسمعه بحثاً عن أصوات الخيول. كان هاشم يتعرق بغزارة، لان مركزه كقن لدى كوماروف لا يشكل له حماية في هذا الظرف، وبدا أنه شعر بالقرف من المخاطرة بحياته وهو يجابه طرفي الصراع. لم يكن يقدر باسل حق تقديره, إذ رأى فيه رجلاً في منتهى الضعف وانعدام الشرف. لقد أطاع سيده كوماروف باصطحاب قريبه في هذه البعثة، لكن إحساسه بالواجب بدأ يتهاوى.

سمعوا وقع الخطى الثابتة لطابور الدورية على البعد، كذلك سمع إيفانوف وقع حوافر أسرع إيقاعاً لمجموعة أصغر من الخيالة إلى جهة ما في الشمال، يغذون الخطى للوصول اليهم. نظر إلى الشجيرات النامية على جانبي الطريق وقد تملكه الذعر، متوقعاً أن

يشاهد الدورية الثانية في أيه لحظة. ثم أدرك فجأة ما يحدث. لقد كان طابور الجنود على وشك أن يقع في كمين لمجموعة من الشيشان.

زأر مخاطباً الكشاف الذي ما زال راكباً فرسه ويقوم على حراسته.

"إنزل، ترجل!" لكن صرخته ضاعت وسط وابل من الرصاص. أصيب إيفانوف برصاصة وسقط على ظهره مذهولاً وصدره ينزف بغزارة. بدأ هاشم يلعن بغضب وألقى بنفسه فوق أيفانوف ليحميه. عندما تكاثف الغبار المثار حولهم، قام بسحب إيفانوف النازف إلى داخل حفرة بجانب الطريق ورقد فوقه بلا حراك. طرد الكشاف فرسه في محاولة لرفع زميله لكن المهاجمين كانوا أسرع بكثير. فعندما حاول الكشاف أن يمد ذراعه، تجاوزه فارسان مسرعان وبتر أحدهما يده بضربة واحدة، وحزت الضربة الثانية رقبته بعمق في حركة دائرية من السيف، سقط على ظهره وهو يتأوه، ارتدت رصاصة عن صخرة قريبة وأخرسته.

مرّ جبلي آخر ولمح هاشم راقداً في الحفرة، فصرخ فيه "سآخذ أنا البنادق، خذ أنت الخيول!" أدرك هاشم وقد تملكه الاضطراب أن الرجل أخطأ وظنه جبلياً آخر. نظر إلى ايفانوف الراقد تحته. لا أمل هناك، فإما إن المساعد قد مات أو إنه يموت! نهض هاشم متثاقلاً، أمسك بأعنة جوادي الكشافين وهرب من المذبحة.

***

الفجر في منتصف الصيف في الجبال مشهد رائع. كان أحمد قد استيقظ منذ ساعة، بمجرد أن تحول لون السماء إلى الفاتح قليلاً – قبل أن تشرق الشمس نفسها بوقت طويل. والآن، بينما هو يتفقد الابازيم على درعه الزردي، ويملأ جيوب الخرطوش في لباسه "التشيركيسكا". أخذ يحدق في القرص الذهبي الباهت وهو يرتفع بسرعة فوق أعلى سلسلة من الجبال. غريب كيف أن الشمس لم

تتلألأ ولم يصدر عنها أي وميض، بل ارتفعت في عظمة مثل درع هائل، بينما أخذت المناظر كلها في الوادي، المروج والأشجار المحيطة بالمستوطنة، تبدل ألوانها مع تكاثف الضياء. لم يبدُ بيته بهذا القدر من الأمان وأحقية القتال من أجله كما بدا له في هذه اللحظة. كانت خيوله في الإسطبلات مخدومة جيداً: والأطفال في منزل مراد يغطون في نوم عميق. هذا هو يوم القدر في كيزليار. يوم معركة الثأر الأخيرة التي تحدث عنها الشيخ منصور.

بدأت الضجة التي يثيرها رجاله الوافدين من المستوطنات المحيطة، يتجمعون ويستعدون تتقاطر نحو البيت. ستكون تسيما في هذه اللحظات تدور بين الرجال بمرح، تقدم لهم فناجين خشبية كبيرة مترعة بالحليب وتودعهم بكلمات لطيفة. خرج من البيت باحثاً عن مراد، ومرَّ بزوجته بدلاً منه. ابتسمت له ابتسامتها اللطيفة الحكيمة. لقد ودعا بعضهما بعضاً في وقت أبكر من ذلك الصباح، واكتفى أحمد بلمس منديل الحرير الأزرق الذي يلبسه حول عنقه وتحت سترته.

ابتسمت تسيما، فقد قصّت قطعتين من ملابس زفافها الداخلية لتصنع منها رموز حسن الحظ هذه:

وقد وعد مراد بإعطاء القطعة الثانية لأخيها، قبيل مغادرتهم.

مشى أحمد باتجاه إسطبلاته ليحضر فرسه ويتفقد الرهينة، عندما وصل شاهد باسل يقود فرسه المسرجة نحوه، كذلك لاحظ البثور على يدي باسل، والتي تقرحت وبدأت تدمي.

"سأغيب لفترة بسيطة. أنت تعمل باجتهاد. وتطيع المراقب. هل تفهم؟".

فهم باسل المغزى وغمغم قائلاً "نعم، نعم".

ثم قام أحمد بعمل مفاجيء. أخذ يدي باسل وقلبهما إلى الأعلى، ظهرت البثور المتفجرة على شكل صف محتقن بالاحمرار

في كل كف. توقف أحمد ثم أصدر أمراً إلى أحد خدمه. عاد إلى الالتفات إلى باسل وحدق في عينيه بإصرار. وكأنما قد فهم شيئاً غير سار من منظر يديه.

فهم باسل الموضوع، طبعاً. فهو يمتلك اليدين الناعمتين لرجل لم يقم بيوم واحد من العمل الشاق حتى هذا الأسبوع بالذات. ليس لبولندي أن يمتلك هاتين اليدين. لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئاً سوى إعادة التحديق في عيني أحمد، متحدياً له حتى النهاية.

ابتسم أحمد. كانت ابتسامة صغيرة، لكن باسل كان متوتراً إلى درجة أنه بادله الابتسام. يعلم الله أن الرجل سيركب منصرفاً إلى الذبح السريع على أيدي جيش الكوبان الرابع التابع للجنرال سوفوروف. فما قيمة الابتسامة الصغيرة بين عدوين ليس بينهما لغة مشتركة؟ خاصة وكلاهما يواجه الموت في المستقبل القريب جداً.

كان أحمد يفكر في نفس الشيء تقريبا، مع أنه كان مصير باسل المحتمل، وليس مصيره، الذي دفعه إلى هذا التعاطف.

اقترب الخادم وناول أحمد إناءاً يحتوي على معجون سيء المنظر، حركّه أحمد ووضع كومة منه في كل من كفي باسل، ثم طوى أصابع الرهينة فوق الـــ "مرهم" وأشار إلى باسل أن يضع نفس الكمية مرة أخرى وأن يعصبها قبل أن يأوي إلى النوم.

شعر باسل أن الأحداث الأخيرة قد أفرغت قواه حتى اقترب من البكاء. فقد كانت هذه البادرة أقل الأمور المتوقعة التي حصلت له في سنوات. تركه أحمد، واكتفى باسل بالجلوس منطويا على نفسه إلى جانب جدار الإسطبل، يقاوم دموع الألم، والحزن، ونوعاً من الإحساس باحتقار النفس، جديد عليه.

تجمع متطوعو أحمد ومراد قريبا من الحظيرة، متسرعين لبدء الرحلة بإتجاه كيزليار. فقد حان يوم الانتقام. مازال الكثير منهم يضع الضمادات من معركة كارجينسك: كثير منهم محاربون في

حملات أخرى لم يتوقعوا أن يقاتلوا من جديد، لكنهم فقدوا إخوة أو أبناء في المعركة الأخيرة، فغيروا قناعاتهم.

عرف أحمد أنه قد تم استدعاء مراد للتشاور مع الملا وحمزات حول تفاصيل الدقائق الأخيرة للغزوة، وقد تأخر بالعودة وبدأ الرجال يفقدون صبرهم. أحصى أحمد المقاتلين: ثمانية وأربعون بما فيه شخصه ومراد الغائب.

ظهر مراد أخيراً وهو يدور حول سفح التلة التي تلوح وكأنها تحمي مدخل مستوطنتهما. تقدم مراد مسرعاً، ثم جذب عنان فرسه بعنف عند قدمي أحمد بالضبط وانحنى إلى الأسفل ليلقي اليه بكلمة تحذير. أبقى ثلاثة من الأغراب مسافة احترام خلفه، عرف فيهم احمد ثلاثة من الشيشان من قرية الملا، بينهم ايلدار.

قال مراد "لدي بعض الأخبار السيئة. يجب على أن أكلم الرجال...."

استدار حول المجموعة المتلهفة "لقد عدت لتوي من بيت الملا. وصل اثنان من "نواب" الإمام منصور بمرافقة قوات القرية. لقد أجريت بعض التغيرات التي ستؤثر عليكم جميعاً. سيقوم حمزات بالقتال مع جيش الإمام الرئيس في كيزليار وقد وافق رجاله على الذهاب معه".

أسقطت تسيما إبريق حليب كبير: انكسر لدى سقوطه على حجر, انساب خيط ابيض اللون فوق أزاهير المرج الأخضر.

انفجر المقاتلون في أحاديث قلقة من هذا التبديل في الخطة. فقد علموا جمعياً أنهم سيقاتلون في قوة مساندة في وحدات مستقلة.

تابع مراد بصوت يحمل الاصرار "يعرض عليكم الملا كامل الخيار. إما القتال مع حمزات في كيزليار، أو الانضمام الي والى أحمد في تكتيكات إغارة بشكل مستقل".

بعد ذلك أشار إلى الكبار الثلاثة الذين قدموا معه "هؤلاء الرجال هم الشهود على قراركم. انتم رجال أحرار ومواطنون مخلصون، حيثما إخترتم أن تقاتلوا".

شعر أحمد بالإحباط. لم يكن يحتمل تكرار المذبحة في كارجينسك. أحنى رأسه وانشغل بالعناية بمعداته. فهذا هو الوقت الذي يجب فيه مواساة تسيما: عرف أنه لن يتمكن من إخفاء مشاعره الحقيقية عنها، ولم يكن يريد لها أن تشعر بنفس القدر من القلق الذي يحسه هو. رآها تغادر الجمع مسرعة وتغلق على نفسها باب بيتها، مفضلة أن لا تسمع المزيد.

قام آتي، أكبر رجال المجموعة سناً, بوضع النقاط على الحروف لكل الحاضرين: "لقد قدتنا في عدة غارات يا مراد, نحن نثق بحكمك على الأمور ونريد أن نبقى في مجموعتك. إنني أتكلم باسم جميع الحاضرين هنا. اليس ذلك صحيحاً أيها الرجال؟".

أعلن الجميع عن موافقتهم بصوت واحد. انحنى ايلدار والشاهدين الآخرين معلنين قبولهم للتصويت. نادى ايلدار بصوت قوي عميق "كان الله معكم أيها الإخوة، وأتمنى لك يا أحمد الكوباني ويا مراد الحابسا التوفيق في هذا اليوم" استدار مع رفيقيه وعادوا عدواً بخيلهم لإحاطة الملا علماً بما تمخض عنه اللقاء. راقبهم أحمد أثناء انصرافهم، ثم سأل مراد "ما الذي حدث وجعلهم يغيرون رأيهم؟"

هز مراد رأسه في ندم "لقد أجبر وصول "النائبين" حاملين تعليمات محددة, أجبر الملا على تغيير قراره. انا أعرف انه وافق بعد تردد.... لست متأكداً من أننا نقوم بالعمل الصائب. ربما يتوجب علينا أيضاً أن نتبع حمزات".

لكن احمد كان حازماً هذه المرة "كلا! أنا واثق من خطتنا ! لا يمكنك أن تلوم نفسك. ولن يلومك أحد آخر مهما كانت النتيجة بعد الآن. لقد منحت الرجال خياراً صادقاً – من يستطيع أن يفعل أكثر

من ذلك؟ سوف نقتل نفس العدد من القوزاق اليوم ونحن وحدنا، وربما أكثر. هيا بنا، لنركب ونتحرك" لم يلتفت أحمد إلى الوراء باتجاه بيته. عرف أن الباب سيظل موصداً حتى تفرغ المستوطنة من المقاتلين. وقتها فقط ستخرج تسيما وتمارس أعمالها المنزلية، كأنما سيكون هذا يوماً مثل أي يوم آخر وليس اليوم الذي ذهب فيه زوجها وأخوها إلى الحرب.

راقب باسل الأحداث الكاملة من نقطة جلوسه في الإسطبل. لم يتمكن من فهم التفاصيل لكنه عرف من الاستعدادات أن هذا هو التجمع الكبير من أجل معركة كيزليار الثانية. فقد التقط خلال الأسبوع المنصرم ما يكفي من المعلومات من عمال الإسطبل الآخرين، وبمساعدة من معرفته المتزايدة للغة الشيشانية، أن لدى أحمد ومراد خطة لحملة منفصلة. لكنه لم يتمكن من فهم تفاصيلها.

أصبح على ثقة من أنها ستكون خطة ذكية، فقد رأى فيهما رجلين ذكيين يتحليان بالشجاعة. بدأت مشاعر باسل الأصلية المتعلقة بالخوف من المجهول تختفي بسرعة. فهم يعاملونه بإنصاف، ويطعمونه جيداً ما دام يعمل بجدية. في فجر ذلك اليوم، وبينما كان باسل يراقب كيف ركعت الفرقة الصغيرة إلى جانب جيادها لأداء الصلاة، تعجب من تصميمهم الانتحاري على التمسك بأراضيهم. بدوا رائعين وهم يقفزون إلى سروجهم وينطلقون مبتعدين عدواً، على رأسهم أحمد، تتطاير من ياقته قطعة حرير أزرق. صدرت عن بعض الرجال صرخات تجمد الدم في العروق، سرت في جسم باسل كالتيار الكهربائي، أشعرته بدرجة من الإثارة لم يحسها من قبل. أن يحيا الإنسان على شفير الموت لأجل قضية ما..ملأه الحسد.

تجمهر الخدم وزوجات الرجال الآخرين سوية ولوحوا مودعين في حماس إلى أن اختفى الرجال عن البصر.

بعد مغادرة المقاتلين، راقب باسل خروج سيدة المستوطنة، تسيما من بيتها ومسيرها إلى حيث كسرت إبريق الحليب. توقفت فجأة لتجمع القطع. شعر باسل بأحاسيس عميقة تتحرك بداخله عندما رآها تبكي: الدهشة من أن يكتشف أن امرأة جبلية كافرة يمكن أن تكون على هذه الدرجة من الرقة وهذا التحفظ في التعبير عن مشاعرها، كذلك أحس بشيء آخر. الإشفاق. فما كان يعرف قبلاً أنه يمتلك تلك المقدرة.

***

بإمكانهم أن يقولوا أشياء كثيرة عن الجنرال كوماروف، لكنهم لا يستطيعون أن يخطئوا في درجة ذكائه. لولا مبادرته، لما توفر للعقيد بييري الوقت الكافي للتحضير للدفاع عن كيزليار بتلك الفاعلية. اضطر العقيد بييري إلى الاعتراف بأنه ليس غبياً وأنه يفهم طبيعة السياسات التي وضعته في موقع القيادة، بدلاً من الضابط الأعلى منه رتبة. لقد جاءت تعليماته من الجنرال سوفوروف مباشرة، لكنه عرف أنها مبنية على عمل كوماروف الاستخباري.

كذلك عرف الاهتمام الخاص الذي أبداه سوفوروف لإعطائه الفرصة للترقية الحقيقية.

لقد توفر لبييري الوقت الكافي لكي يندم على الملاحظات غير الحكيمة التي أطلقها في حصن استراخان, كما أنه دهش بدرجة متوسطة من غياب الحقد لدى سوفوروف، خاصة وانه أصبح في موقع القيادة الآن. لقد منح بييري فرصتان حتى الآن ليخلص نفسه وليس فرصة واحدة فقط. لن يهرب منه الشيخ، القائد الثائر منصور مرة أخرى. لقد بدا الأمر غير لائق أن يقدم تقريره إلى سوفوروف في ايكاتيرينودار، بدلاً من تقديمه إلى الجنرال كوماروف في الميدان، لكنه لن يشتكي، بل سوف يظهر امتنانه بدلاً من ذلك إلى سوفوروف بأسر منصور أو قتله في هذه المرة. فإن ذلك حتماً

سوف يساوي الترقية إلى رتبة عميد، وربما أيضاً حصوله على وظيفة كوماروف.

ظل العقيد بييري يتمشى حول تحصينات كيزليار وهو يشرف شخصياً على التحضيرات، وزعت المدافع على مسافات منتظمة إلى جانب الجدران، وكل واحد منها مع وحدته من الطوبجية. وزع القناصة في مواقعهم على جميع منافذ الاستطلاع، مدعمين بأطقم من البدائل والمذخرين. تفقد مستودع الأسلحة بنفسه وحسب أن ذخائره كافية لهجوم يستمر طيلة النهار. توقع أن يكون خيالته قد أتموا مهمتهم في السهول بحلول الليل، في القضاء على عناصر الثوار المجانين إلى حد التشبث بأي موقع. سوف تقوم وحدة القوزاق الخاصة التابعة له بمحاصرة الشيخ منصور وإحباط أي أمل في الهروب. إن خطة المعركة مثالية.

لم يكن العقيد بييري يمتلك جسماً مهيباً، مثل قائده، الجنرال كوماروف. لقد تزوج رجل إيطالي في زمن ما من سلالته غير المميزة وتبعاً لذلك غير المدقق فيها، من أسرة روسية، وتبعاً لذلك ورث بنية لاتينية صغيرة، وعينان حدقاتهما في مثل سواد البؤبؤ فيهما، ولساناً لاذعاً.

لقد تعود في بواكير خدمته العسكرية على التشنيعات التي تصفه بقليل من النابوليونية في ثكنات موسكو.

مع مرور الوقت وبعد خدمته القصيرة في استراخان مع سوفوروف، أصبح صعوده في الرتب مثل سرعة الشهاب، لهثت النكات حوله: قدم بييري أدلة دامغة على كراهيته للفرنسيين بشكل خاص، وكذلك أيضاً لأية أمة إلى جنوب أو غرب أو شرق الحدود الروسية. وأصبح بذلك مثالاً كلاسيكياً على الرجل الذي يتغلب على كل الأفكار في كونه غريباً بان يصبح مدافعاً شرساً عن الوضع القائم. حالياً، أصبح القبول الاجتماعي في دوائر موسكو العسكرية في متناول يده تقريباً. ستكون معركة كيزليار أساس شهرته.

إنه بالتأكيد يعوض عما ينقصه في تكوينه الجسماني بالشراسة في أعماله وبعظمة طموحاته. إن كيزليار هي مجرد البداية: فالحملة القوقازية تقدم العديد من الامكانيات للانتصارات الشخصية.

كان يتحرك فوق التحصينات مثل حيوان محشور في قفص: كان دمه يغلي وحواسه متيقظة.

مسح بكفوفه الناصعة البياض على شاربيه الأسودين الحريريين اللامعين: ما من أحد اعتبره يوماً ما وسيماً، ولكن رغم ذلك ظل بييري ضابطاً مصقول المنظر إلى حد الكمال. ولم ينجح إلا في الظهور بمظهر المتأنق.

قام بييري بسحب جميع الوحدات إلى داخل الجدران في كيزليار حتى يغري الثوار بالتقدم إلى الإمام. وقد كان التنفيذ عملا صعباً بسبب قصر المدة. عرف أن هناك سرية واحدة من فرسان قوزاق التشيرنومورسكي ما تزال غائبة ومصيرها غير معروف مما جعله في حالة عصبية.

لقد كان موقعهم على طرف أحراش كارجينسك "ماذا بحق الشيطان يؤخرهم؟" طفق يشتم وهو يجوس في دوائر وينظر إلى خارج السور الشمالي.

شكل السكان المدنيون تحته، في الشوارع الملتوية للبلدة – الحصن عقبة رهيبة، فهم يتجولون في كل مكان، يرسلون صرخات الشكوى على الثوار الذين يمكن رؤيتهم بوضوح وهم يتجمعون في سهل كارجينسك. إن بييري يحتقرهم. كان رجال القبائل المحليون ونساؤهم سعداء في التعامل مع الجبليين في أوقات السلم، لكنهم تركوا أمر قتالهم إلى الروس عندما حدثت المتاعب.

دعا بييري ضباطه إلى اجتماع لإيجاز الدقيقة الأخيرة في غرفة القيادة. لم تكن هناك معرفة مسبقة لموعد هجوم الثوار المحتمل.

أصدر إليهم تعليماته "اتركوا نيران مدافعنا تفعل فعلها في البداية، لا أريد أية انحرافات عن خطتنا، سيكون القصف متبوعاً بهجمات مكثفة من الفرسان لإبادتهم. هل توجد لدينا أية نقاط ضعيفة في جدران الحصن؟".

أجاب ضابط ذو رتبة رفيعة "إن الجدار الجنوبي رفيع يا سيدي، لذلك أوصي بنقل سرية الفرسان القوزاق السادسة إلى هناك في حالة إغارة الشيشان علينا بهجوم ذي شعبتين."

اومأ بييري برأسه موافقاً. أعطى النقيب تعليمات سريعة، لكنه ظل واقفاً في مكانه, فقد كان لديه المزيد ليقوله. كان بييري من نوع الضباط القادة الذين يوحون لرجالهم بتقديم أفضل ما لديهم. يعرف كيف يقود وكيف يفاوض. لذلك كان محترماً، مرهوب الجانب، وبالتالي معزولاً.

جاءت كلمات بييري سريعة "ما الأمر؟ هيا تكلم"

"لدي ملاحظات أخرى يا سيدي. قد لا يتوفر الوقت الكافي لوحدة كارجينسك حتى تنسحب بالكامل بدون دعم، فهل يتوجب علينا أن نرسل وحدة فرسان لتغطي انسحابهم؟"

فكر بييري في هذا الأمر، وعيناه السوداوان تفكران. أشارت المعلومات الاستخبارية الأساسية التي تلقاها من سوفوروف إلى أن الشيخ سيكون على رأس قوته المهاجمة.

قرر أخيراً "لا، لا أعتقد ذلك، لا أريد أن يكون الفرسان بعيدين جداً في الخارج عندما تبدأ المعركة. أريد أن يكون كل جواد داخل الجدران حتى نقفز على الشيخ ونحاصره في هذه المرة. يجب أن لا يسمح له بالهروب مرة أخرى".

"حسناً جداً، يا سيدي" أدى النقيب التحية، وبدأ عليه الاقتناع. في تلك اللحظة، سمع صوت نداء النفير عالياً وواضحاً من البوق

في غرفة القيادة. تحرك الدم في شرايين كل ضابط عند سماع النداء: هذه هي لحظة مجدهم.

بدأ بييري بإطلاق الأوامر بسرعة، وقد ظهر في صوته وضوح وعجلة جديدين "حصنوا الجدار الشمالي. مدافعنا تواجه الشرق - حركوا مدفعين إلى الجدار الجنوبي - تأكدوا من التنفيذ. الفرصة سانحة لنا اليوم " تفرق الضباط.

جلس هاشم القرشاي مطوياً على نفسه فوق الدرجات الصاعدة إلى فتحات إطلاق النار, يراقب الرجال وهم يركضون إلى مواقع القتال المخصصة لهم، ويفكر في الشيشان الشرسين الذين يحتفظون بالكونت فاسيليييفيتش رهينة مقابل بضع بنادق. إن ألف رهينة وألف بندقية لا يمكنها أن تعادل قوة نيران المدافع التي ستنصب من فوق جدران كيزليار على هؤلاء الثوار الاغبياء. وقد ساعد هو بجزء صغير في تدميرهم - طبعاً فقط من باب الحفاظ على نفسه. إن إرادة الله صعبة على الفهم. لا عجب أن قال رجال الدين أنه لا يحق له أن يشكك فيها.

***

زحف ليتش، المتطوع الصغير السن، الصبي الحارس, على بطنه إلى الأمام متشوقاً لتفحص ما هو موجود أمامه.

كان يتعرق من فرط شعوره بالإثارة وبأهميته. فقد هرب من القرية ولحق برجال مراد على بعد مسافة قصيرة من القرية.

ومع أن ليتش لم يحصل على الإذن للانضمام إلى القتال من كوير, إلا أن مراد سمح له بمرافقته. سمح له بان يكون الكشاف: أن يستطلع مواقع القوزاق في الأحراش.

أدخل مراد وأحمد رجالهم خلسة إلى غابة كارجينسك وطفقوا يبحثون عن معسكرات العدو. لم يكن هناك شك في أن الهجوم قد بدأ خلف الاحراش فوق سهل كيزليار. حتى من هذه المسافة، وعلى

بعد عدة "فيرستات" من الحصن، كانت السماء خالية من الطيور والأحراش صامته، وهي إشارات مؤكدة على الحرب.

انتظر مراد ورجاله داخل الأحراش في حالة عصبية، خلف مرتفع في الأرض، منتظرين عودة ليتش. كان بالإمكان سماع هدير المدافع بصوت خافت، وبدأ الرجال يشعرون بالذنب لعدم مشاركتهم في المعركة.

شعرأحمد بالقلق "إنه غائب منذ مدة طويلة" نظر اليه مراد، وهو يحس بنفس القدر من القلق. ربما لم يكن يجدر به أن يسمح للصبي بالذهاب.

"سننتظر مدة أطول قليلاً وبعدها نرسل خلفه رجلين"

ما أن توقف مراد عن الكلام حتى اندفع ليتش عائداً كأنه جرو ثعلب يزحف إلى جحره، وهو يشير إلى الجانب القصي من الأحراش، مبهور الأنفاس.

"إنهم هناك كلهم، في المدى المفتوح! أعتقد أنهم يخططون لنقل المعسكر – أو على الاقل لتحريك الوحدة"

نظر اليه متشككاً. صحيح أن ليتش حاد الذكاء لكنه أيضاً صغير السن.

"ماذا تعني؟ هل امتطوا جيادهم؟ هل هم في حالة تأهب؟"

سحب ليتش نفساً عميقاً وقدم تقريره.

"كلا, إنهم يتحركون في كل الاتجاهات، يحزمون متاعهم والعربات جاهزة. أطقم السحب مربوطة بالعربات، ويجري تسريج الخيول".

هز مراد رأسه موافقاً على هذه التفاصيل " أنت صبي طيب"

قال أحمد "هذا وقت مثالي للهجوم، مراد؟"

وافق مراد "امتطوا جيادكم" تكلم بصوت خفيض واضح إلى رجاله. "سنقوم بالطراد السريع إلى داخل المعسكر. اصرعوا أي قوزاقي يمكن أن تصلوا اليه بسيوفكم. أطردوا خيلكم إلى نهاية المعسكر ثم استديروا عائدين إلى الأحراش. لا تتوقفوا ولا تتأخروا. إن غايتنا واضحة. نريد أن نعطل أي نشاط يقومون به ونسبب لهم الاضطراب.... هم لا يتوقعوننا لذلك يجب أن نركب بسرعة في الدخول والخروج قبل أن يتوفر لهم الوقت لتذخير بنادقهم. هل هذا مفهوم....؟ لا بنادق، السيوف فقط".

استدار ليواجه ليتش "إبقَ أنت هنا، لم يشأ كوير أن يصطحبك إلى المعركة وسوف يغضب اذا علم انك هربت معنا. يجب أن نعيدك إلى البيت سالماً وبحالة جيدة. هل تسمعني؟"

هز ليتش رأسه. فقد كفاه انه قد سمح له بالتجسس لمرة واحدة. ما زال قلبه يخفق بعنف, ولم تكن ركبتاه على درجة الثبات التي يفترض أن تكونا عليها.

تحرك الشيشان خارجين في صمت. خيولهم بالكاد تنخر وتنتقي طريقها بكفاءة متميزة. عندما اقتربوا من المخيم، تزايدت سرعة المطايا، بدون الحاجة إلى نخز المهاميز من خيالتهم، فقد أحسوا ببساطة بحتمية الهجوم وأخذوا يبنون الزخم. استطاع مراد في هذه اللحظة أن يشاهد المعسكر تحته بوضوح. إن وصف ليتش مطابق بالكامل. سيكون الهجوم على المعسكر سريعاً وعنيفاً. سحب الشيشان سيوفهم وبدون أدنى إنذار انقضوا على المعسكر الروسي بعنف رهيب. فوجئ القوزاق وهم غافلون كلياً، بحيث لم ينذرهم أي شيء ما عدا الدبيب المكبوت للحوافر غير المحذية المتطايرة.

لم يتمكن من أن يسمع من مخبئه الآمن تحت غطاء الأشجار. اصاخ السمع لكن المعسكر اضحى بعيداً. السكوت مطبق ولا يكاد ينتهي: عرف أنه سيتذكره طيلة حياته. فقد تصور فيه الموت بعدة أشكال، وعلم أن الهجوم قد نجح لأنه لم يسمع طلقه بندقية ولو واحدة تطلق.

أن الهدوء يعني أن القتل يتم بواسطة السيف: الشيشان ينقضون خلال المعسكر يقدمون الذبح للذين لا يشكون في شيء. جلس ليتش ساكنا وانتظر أن يعود أقاربه وقد اصطبغوا باللون الأحمر من دماء العدوّ, بينما تزبد خيولهم باللون الأبيض من شدّة الهجوم.

لكن في حصن كيزليار، كان القصف المستمر, الهدير الذي لا يتوقف بنيران المدافع يصم آذان جيش الشيخ منصور بأكمله. كان الجبليون يقذفون بأنفسهم إلى الأمام وقد تجاوزوا الإحساس بالخوف واصبحوا منومين مغناطيسياً من جراء الانفجارات التي تدكهم من جميع الجهات، في موجة اثر موجة على جدران الحصن، تماماً مثلما يهدر المحيط ويفقد الرجل الموجود في وسط اللجة توازنه. هكذا كان جيش الإمام، ينهض ويقع، مدفوعا بالطاقة الداخلية التي لا تتوقف ولا تكل. لم تكن قواته مشكله من رجال أفراد، ولكنها عودة نهوض الغضب لدى شعب يائس.

نظر العقيد ببيري إلى الأسفل من فوق التحصينات.

"إنهم يستمرون في المجيء برغم حمام الدم، انه أمر مذهل".

رفع منظار الميدان المقرب "لا بد وان ذلك هو الشيخ، الرجل الذي يركب الحصان الأبيض. هل يمكنك أن تراه، أيها الكونت باخونين؟.

كان الكونت باخونين، صديق ايفانوف المقامر، قد نقل مع وحدته من ايكاتيرينوجراد إلى كيزليار خصيصاً من اجل المعركة. وقد أثارته مشاهدة القتال لكنه أحس بسرور بالغ لانه الحق بهيئة اركان العقيد ببيري، بعيداً عن خط إطلاق النار، لان السهل الممتد عبارة عن فوضى مطلقه.

يحب ببيري أن يكون محاطا بالارستقراطيين الشباب، والكونت باخونين يمتلك الرشاقة الممتزجة بالبساطة والوسامة التي يحسده عليها في سره.

حدق النقيب باخونين من خلال منظاره الخاص. ولان الأرض أصبحت الآن مغطاة على اتساعها بالجثث المحطمة، فقد برز الخيالة بوضوح اكبر. هتف قائلا "اوه, لقد كدنا ان ننال منه، يا سيدي" وكانما يشاهد حقلا لصيد الثعالب. ضحك بييري مؤقتا على جهله المرح. وحده بييري يستطيع أن يقرأ المعركة, وقد أدرك أن الشيخ منصور لن يصبح جائزته بتلك السهولة... الا أن جنديا عديم التجربة مثل الكونت الجميل لم يتمكن من الإحاطة بحجم المذبحة. سوف يتعلم في القريب الآتي.

جاء جندي قوزاقي وصعد درجات التحصينات وأدى تحية صارمة، برغم حقيقة أن قبعته كانت غائبة عن رأسه وان سترته ممزقة بضربة سيف عند الكم.

"سيدي، سيدي: لقد تم إرسالي من قبل الرائد كوزنيتسوف من كارجينسك ــ اننا نتعرض لهجوم كثيف من قبل الفرسان و... يقول الرائد انه سيتأخر بضع ساعات يا سيدي".

استدار بييري بفظاظة "ماذا؟"

عبس الكونت باخونين "افصح أيها الجندي، من الذي يهاجمكم؟ ما حجم القوة؟"

حاول الجندي مرة أخرى "لقد هاجمتنا مجموعة كبيرة من خيالة الشيشان في اللحظة التي كنا ننوي فيها الانسحاب راجعين إلى هذا الحصن. لقد دحرونا...قتلوا العديد من الرجال... لقد أمرت بان اركب إلى هنا وأحيطك علما سيدي".

عبر بييري عن الغضب والدهشة في نفس الوقت "هل انتم مثبتون ولا تستطيعون التحرك؟ هل انتم محاصرون".

شاهد الجندي العديد من رفاق السلاح يفقدون صحبة أذرعهم وتطير رؤوسهم، لذلك فان نبرة الانتقاد في صوت بييري جعلته بدوره يفور من الغضب.

"لا ادري يا سيدي، كل ما قاله الرائد هو أنه سيصل إلى الناحية الشمالية بحلول الغروب".

أصبح الكونت باخونين فضوليا إلى حد مزعج "سيدي، سوف ينتظر كوزنيتسوف إلى حلول الظلام حتى يستطيع أن يغطي انسحابه يا سيدي، هذا إجراء نموذجي" اضاف بثقة.

تميز بييري من الغيظ، وبدا يجوس جيئة وذهابا حتى ينفس عن مشاعره "اللعنة على الإجراء النموذجي! أنا بحاجة إليه الآن، وليس بعد حلول الظلام! ستنتهي المعركة بعد بضع ساعات وليس لدي العدد الكافي من الفرسان لإنهاء المهمة! نحن لن نضيع الإمام مرة أخرى... تعال يا باخونين، يجب علينا أن نعمل أفضل ما بوسعنا ضمن المعطيات. ادع ضباط هيئة أركاني لامتطاء جيادهم".

ركض الكونت باخونين نازلا عن التحصينات، مرر الأمر ثم قفز إلى ظهر جواده.

عدا بييري بجواده بسرعة نحو رأس الطابور ثم صرخ بصوت عالٍ "أعط الأمر بايقاف نيران المدفعية بعد عشرة دقائق"

سحب سيفه, وانتظر حتى تفتح بوابات الحصن. أشار أثناء خروجه مسرعا بسيفه المشهر إلى الخيال الشاب، الكونت باخونين، حتى يشارك ضباطه النكتة.

"انا أراهنك براتب أسبوع، أيها الكونت، بأنك ستكون محظوظا إذا قتلت عشرة!"

وقف المقامر الشاب الوسيم باخونين في ركابيه, وقد انتقلت عدوى شهوة النصر من بييري إليه مثلما هي حالة السرية كلها. "موافق يا سيدي! هي إما عشرة أو لا شيء".

ركبت مجموعة القيادة إلى طرف ميدان المعركة, وقد تقدم جواد بييري الآخرين لمسافة واضحة, وهو يعض على لجامه

ويدور، وقد اضطربت أحاسيسه، فنصفه يريد أن يشارك في المطاردة, والنصف الآخر خائف لأنه اشتم رائحة الدم.

تردد الكونت باخونين بشكل مفاجئ أيضا, لأن رائحة الموت على الأرض قوية لدرجة منفره: رائحة مالحة, ساخنة, مركبة من الدم الطازج، وروث الخيل، قيء, وملح البارود. رائحة تشبه مسكبة حديد يتم إجبار كل شيء ملتهب فيها على أن يتقولب.

شاهد شيشانيا شابا وسيم الهيئة محاطا بأتباعه، يضرب يمنة ويسرة بسيف لامع. لقد وقع بصر باخونين عليه بسبب لفحة الحرير الأزرق الجريئة المتطايرة حول عنقه, ولقد تمزقت سترته "التشيركيسكا" إلى شرائط بفعل الشظايا. كان واضحا أنه جريح ومع ذلك وقف الشاب الشيشاني في ركابيه، صارخا في رجاله أن يهجموا إلى الأمام, على جدران الموت مرة أخرى. أطلق الفارس صرخة الحرب التي تجمد الدم في العروق أثناء هجومه، فتجمدت أصابع الكونت باخونين على زناد بندقيته. أغمض عينيه وتمنى على نفسه أن تتمكن من الإطلاق.

لم تكن الإرادة هي التي جعلته يطلق الرصاصة. بل أن انفجارا أخيرا من أحد المدافع مر من فوق رأسه وأجبره على التصلب كردة فعل. انطلقت الرصاصة من بندقيته إلى كتفه بارتداد قوي بحيث أسقطته عن جواده. أطلق الكونت باخونين السباب حتى إزرقّ لونه، عثر على بندقيته وتدافع حتى عاد إلى سرجه.

عندما نظر الى نتائج طلقته، ولم يكن القائد الشيشاني موجودا بعد، بقيت مجرد حفرة وقد رقد بداخلها القائد الفتي بسكون ووجهه في التراب وقد تبعثرت أطرافه وأجزاء من جذعه بطريقة رهيبة وارتمى جواده إلى جانبه وقد برزت أضلاعه المحطمة من جانب جسمه المنسوف.

قرر باخونين "ساعتبر ذلك إصابتي" وهو يثبت حربته إلى بندقيته بيد محمومة. عدا بجواده وهو في حالة هذيان عصبي من

الإثارة إلى الأمام ليقضي على شيشاني آخر، بدا مذهولا ويمشي متعثرا نحو جواده. طعنه باخونين، فأطلق الشيشاني صرخة واحدة أخيرة "حمزات". واندفع إلى الأمام داخل الحفرة ليرتمي على جسد قائده الشجاع.

كان الكونت باخونين يحظى بحرب ممتعة. سيقفل عائداً إلى ضيعته مع بنادقه وغنائمه، وسيقوم بتعليقها على جدران قاعته الهائلة، وسيروي قصصا مثيرة عن معركة كيزليار الشيطانية، وعن سقوط الشيخ منصور.

لن يعرف أنه مقابل رهانه الأناني الحقير، قد سقط واحد من أروع أبناء الشعب الشيشاني. حمزات, الذي لو عاش، لكان قائدا واسع الشهرة: يحمل مزايا قيادية نبيلة عميقة, متوقد الحماس، شجاع, مخلص, وغير ميال إلى قتل رجل واحد بدون أن يبحث في روحه عن السبب. لقد آمن حمزات بان كل أشكال الحياة مقدسة لأن روح الحق سبحانه وتعالى قد وهبت النزاهة لكل فكرة من أفكاره وكل عمل من أعماله. ورأى هذه الروحية تحرك كل شيء شاهده وأحبه بقوة. ربما كانت تلك إرادة الله في أن تعفيه من مشاهدة العديد من أعمال الكفر الرهيبة القادمة إلى قفقاسه، فأخذته بسرعة.

***

مع حلول الليل، وقف مراد وأحمد يراقبان الفلول المهزومة من وحدة قوزاق كارجينسك وهي تهرب في الظلام.

لم يتبق لدى أحد من الشيشان الطاقة لمطاردة "الجاور". فقد هاجموا واستداروا، هاجموا واستداروا حتى لم يعودوا يتذكروا عدد الهجمات التي قاموا بها.

لكن نتائج جهودهم بدت واضحة للعيان. لم تبق عربة واحدة صالحة للحركة: أكثر من ثلثي قوة العدد كانت ملقاة على الأرض

أما ميتة أو عاجزة، وقد تم الاستيلاء على كمية كبيرة من السلاح والعتاد.

ركب الشيشان خيلهم بمجهود كبير طيلة الليل حتى يجعلوا بينهم وبين كارجينسك مسافة معقولة.

ربما قلق مراد وأحمد من أن تقوم القوات الإمبراطورية المنتصرة بمطاردتهم بعد كيزليار.

لأنهما كانا على يقين من أن جيش الإمام سيندحر من قبل قوات القيصر المتفوقة. لم يخبرا رجالهما بذلك، لم تكن هناك حاجة إلى ذلك: لأنه بحلول الليل بدأت الشعاب الضيقة والأخاديد لسفوح تلال القفقاس تمتلئ بالهاربين الصامتين، الشيشان المتراجعين من قوة الإمام الرئيسة التي قاتلت على سهل المعركة.

لقد ركب العديد منهم أياما عديدة حتى يصلوا إلى لواء الرجل المقدس في المقام الأول. وقد أوصلهم قتال يوم كامل وهروب ليلة بطولها إلى حالة من الإعياء، فانهارت وجوههم ومعنوياتهم.

حيث كان الشيشان في العادة يحيون الشيشاني المار بهم في ممر ماء فان الرجال في هذه الليلة باتوا ينكسون عيونهم ويتلفعون داخل "البوركا" لكل منهم. عادت الجبال إلى إستلام سكانها المهزومين في صدى وتكرار خارق للطبيعة, لمعركة كيزليار الأولى.

عرف مراد وأحمد أنهما كانا على حق. فقد خسر الإمام المعركة. ومع ذلك، فكلما توقفا لمساعدة الشيشان الآخرين، كانا يسمعان نفس الكلمات يهمس بها "لقد استطاع أن يهرب، كما تعرف... لقد رأيناه يهرب. إن الشيخ منصور سالم، الحمد لله والشكر".

تمنى لو يستطيع أن يغلق أذنيه عن تلك الكلمات "الحمد لله والشكر". آخر مرة استعمل فيها الكلمات هي عندما علم بحمل

تسيما. أما الآن فهي تؤشر على الإرادة المستمرة في المقاومة. مما جعل قلبه ثقيلا كالرصاص.

كان الوقت قد تجاوز الظهر بكثير عندما قابلت مجموعة مراد وأحمد رجال حمزات، وهم يستريحون إلى جانب جدول جبلي على الطريق إلى بيوتهم. كانت مجاري المياه الجبلية على أشدها بحلول أيام الصيف الأخيرة، من جراء إذابة الشمس لأعلى ثلوج وجليد الجبال. المقاتلون الجرحى منكفئون على وجوههم في الجدول، يغتسلون وينعشون أنفسهم. ترجل أحمد ومراد وقادا فرسيهما خلال المجموعة إلى حيث استلقى ايلدار منبطحاً وكأنه دب حزين أسود مستنداً إلى شجرة ضخمة. رقد حوله كوير وارسبي وايدمير ذو الاعصاب المتوترة. قفز كوير واقفا على رجليه عندما شاهد ليتش الصغير، وقد عاد مع المقاتلين. باهت الوجه ويكاد يغفو في سرجه. سحب الصبي عن صهوة جواده بتعبير عنيف، وحمله إلى بقعة طرية على الحشائش عن قدمي ايلدار.

فرك ايلدار رأس الصبي بيده، كان وجه الصبي محاطا بظلال قاتمة, ونحيفا لدرجة بروز العظام، بحيث أن الجلد على خديه كاد يبدو نصف شفاف.لكنه كان حياً.

رفع ايلدار بصره بحزن ناظرا إلى مراد وأحمد.

"لقد مات حمزات"

أصيب مراد وأحمد بالذهول.

بلل ايلدار شفتيه بالماء لأنه لاقى صعوبة في التكلم "لقد انفجر مثل بركان أمام عيني. أصابة مباشرة. لم يبق الكثير حتى نأخذه إلى البيت ليدفن".

للمرة الأولى، وفي كل المدة التي عرفه فيها أي من الرجال، دمعت عينا ايلدار وظهرت الدموع في أعلى خديه.

أحاط مراد رقبة فرسه بذراعه وأحنى رأسه. غلبه الإجهاد فجأة ــ ام كان ذلك اليأس؟

عندما رفع رأسه شاهد أحمد ينصرف ماشيا. بينما فرسه المخلصة قارا تلحق به مطيعة.

أجبر مراد نفسه على التحرك حتى يلحق به.

"ماذا ستفعل؟"

"يجب أن أركب قبلهم. يجب أن أصل إلى البيت قبل أن يصل هذا الخبر المريع إلى تسيما. يجب أن أكون معها".

أحتضنه مراد لهنيهة. ثم ودعه بقوله "كان الله معك".

أوحت ابتسامة أحمد المشوبه بالمرارة بأن عالمهم لا إله فيه.

التقت عيناهما للحظة، وهما يتشاركان في الحزن. منفيان قبارديان في بلاد الشيشان، يحزنان على مقاتل شيشاني.

بينما مراد يراقب صديقه المرتحل، تناهت إلى سمعة كلمات ايلدار الخشنه آتيه من خلفه.

"كارثه. يجب أن نقوم بهذا العمل بطريقة أفضل، وإلا فلن يبقى أي شيشاني على قيد الحياة ليستمر في القتال".

فكر مراد أن ذلك أمر ممكن جداً. تهاوى إلى الأرض قرب صخرة أدفأتها الشمس وغط في نوم عميق.

***

الفصل العاشر

ان سيرابي أمير الميسوست رجل ذو كبرياء وشديد الحذر. ولديه سبب حتى يكون كذلك من الناحيتين: فهو زعيم واحدة من قبائل الأديغه المزدهرة في قباردا الكبرى والتي تشارك في المنطقة الممتدة عبر السهول الخضراء اليانعة التي تقع بين نهر التيريك إلى الشرق ونهر الكوبان إلى الغرب. لقد كان الأمير سيرابي يفتخر إلى درجة هائلة بسمعة وطنه. انها ذات جمال أسطوري، المالكا، الباخسان, والشيجيم، تنساب جميعها خلال هذه المراعي الخلابة والحقول الخصيبة من جبال القفقاس المحيطة بجبل البروز الشاهق, إلى نهر التيريك العظيم نفسه. عندما تذوب ثلوج الجبال في منتصف الربيع، فان العديد من الجداول يتقاطع عند سفوح التلال ويغذي الأنهار: مشكلاً غطاءً لا ينتهي من تجدد الحياة الذي لم يتوقف عن إدخال السرور في قلب الأمير، لان الماء والتربة اتحدا ليمنحا شعبه الازدهار والاستقرار.

على أية حال، فقد كان هذا الوضع بالذات الذي يحسدون عليه قد جعله حذرا أيضا.

فبينما أقامت الأرض أود الاديغه في قباردا الكبرى على مدى قرون، فان تشكيلها نفسه قد جعلها مفتوحة لكل الأعداء. يعرف الأمير سيرابي أن القبارديين قد جاءوا من منطقة الكوبان قبل مئات السنين للاستقرار في هذه المراعي المسالمة والاستمرار في تقاليدهم المغرقة في القدم في ممارسة الزراعة وتربية المواشي بدون تدخل من أحد.

لقد تحدثت أساطير طفولته عن مرده شرسين و"جن" يسكنون قلب الجبال، وهي الحدود الطبيعية لأراضيهم إلى جهة الجنوب.

لكن أغاني أخرى لشعراء القبائل كانت تتحدث عن الصدامات العنيفة مع الجماعات الرحالة من التتار، المغول والقوزاق الذين كانوا يعيشون خارج القوانين أو الطاعة للآخرين على الهضاب العدائية الى الشمال.

كان واجب والده أن يقصّ هذه القصص على الأمير سيرابي: فهذا جزء من تربية أمير قباردي حتى يفهم أسلافه وتقاليده. الدرس الأساسي الذي تعلمه الأمير سيرابي هو: الحلول الوسط. انتهت الاضطرابات في ذالك العصر الموغل في القدم، عندما كان الرحالة وسكان السهول يعيشون في خوف دائم من الغارات وأعمال الانتقام، انتهت حين سعى أمراء الموسكوفي إلى إقامة التحالف مع أمراء القباردي, ولم يكن حليفهم أقل من ايفان الرهيب، القيصر ايفان فاسيليفيتش، الذي تزوج الأميرة القباردية ماريا، ابنة تمروقة. ساد السلام ردحاً من الزمن، ولكن بعد ايفان، بدا أن هذه التحالفات البعيدة قد أصابها النسيان. فقد وقع القباردي تحت سطوة خانات القرم، الذين جمعوا منهم الفدية، واضطر القباردي مرة أخرى إلى القتال دفاعاً عن حريتهم.....

بسط أمراء الموسكوفي سيطرتهم تدريجيا على الهضاب الجنوبية. وقد كشف بطرس الأكبر عن طموحاته في بحري قزوين والأسود. توضحت السياسة الاستراتيجية لافتتاح القوقاز بعد غموض، حتى انتهت إلى حملة القيصرة الحالية. فقد ضمت شبه جزيرة القرم، بحيث تقلصت قوى الخانات إلى توابع بسطاء، وهي تقوم حالياً ببناء خط محصن في الطرف الجنوبي من أملاكها. أصبح من الواضح أن جيش الكوبان سيدفع بهذا الخط إلى الأمام، بحيث يفتتح كل شيء أمامه في طريق القيصرة.

أي كل من يقاومها, في حقيقة الأمر. تنهد الأمير سيرابي. لقد حاول الأديغه مرة, في عام 1779, ان يوقفوا التقدم الروسي، وكانت العواقب كارثية. لأن أراضيهم مسطحة مثل كعكة المقلاة, وليس هنالك مكان للاختباء، ولا مكان للهروب ــ في الجبال، ولم

يكن القبارديون سكان جبال، فكيف سيتمكنون من العيش بين الجبليين الميالين إلى الحروب، الشيشان المتعصبين؟ ولماذا يضطر الشيشان إلى إعطائهم الأرض، خاصة وأن لديهم أراضي كثيرة خاصة بهم؟ الحل الوسط.....

لقد تعلموا دروس الدبلوماسية في وقت مبكر من تعاملاتهم مع الغزاة. "اذا كان جارك جباراً فتعلم الوسائل والحكمة حتى تصادقه، وتعلّم القدرة على التحمل لتتعايش معه". كان يستطيع أن يسمع أباه العجوز وهو يردد الحكايات.

وهكذا فقد توصل الأمير سيرابي، وكذلك العديد من الأمراء القبارديين الآخرين إلى تسويات مع جنرالات كاترينا. تقضي بأن يدفع الروس رسماً صغيراً مقابل مرورهم بحرية من خلال أراضيهم، وأن يتركوا القبارديين مع اسلحتهم, أحراراً في ممارسة طريقتهم التقليدية في الحكم مع اقل قدر من التدخل. وهكذا اعفي الميسوست وقبائل أخرى معيّنة من النهب والسلب. لكنهم على أيّة حال دفعوا الثمن الحقيقي عن طريق الرهائن، أو ما كان يعرف بالـــ "امانات".

فقد أجبروا، ومعهم قبائل قبارديّة أخرى على تقديم عدد معين من خيرة مقاتليهم إلى الجيش الإمبراطوري التابع للقفقاس, كدليل على ولائهم. وقد دعي بعض الأمراء القبارديين أو ابناؤهم إلى الانخراط في الأكاديميات العسكرية في موسكو, ومنحتهم القيصرة رتباً عسكرية.

لقد ظل سيرابي، أمير الميسوست ينظر إلى هذه الأعمال على انها ممارسات لأنقاذ ماء الوجه. فقد كان الشباب يقضون أوقاتاً قاسية في الجيش الروسي، اذ كثيراً ما كان يعهد بهم إلى رقباء أجلاف جهلة.

ومما يبعث على السخرية أن تلك التجارب كانت مفيدة جداً بالنسبة للميسوست. فقد كان أولادهم يخدمون عسكريتهم ويعودون

إلى بلادهم ممتلئين بكراهية الروس، وقد صمموا على عدم الاندماج.

معهم إلى الأبد. بالنظر إلى طبيعة بلادهم ــ أي، سهولهم الخصبة المحاذية لروسيا ــ فان أية إشارة على التحدي كانت ستؤدي ببساطة إلى احتلالهم مرة أخرى. لم تكن لديهم أية عوائق دفاعية طبيعية ضد "الجاور". أصبح واضحاً أن التعاون خطة أفضل من الإكراه. وكان ذلك يتطلب فن الدبلوماسية، وقد امتلك الأمراء القباردين هذه المهارات وأصبحوا يعرفون بدبلوماسيي القفقاس.

كان لديهم الكثير ليفقدوه. فقد جعلت الزراعة المتأنيّة على مدى القرون أراضيهم الأكثر خصوبة عبر القفقاس، فقد كان لديهم الكثير من الماء، التربة الجيدة، المعادن، الأحراش، حيوانات الصيد الكبيرة، والقطعان الضخمة. وعليه فقد أصبحت حياتهم آمنة ومتمدنة.

ولكن مع تقدم هذا الخط الروسي الشهير، بدأوا يشعرون بأنهم يحاصرون من كل الجوانب. لم يشأ الأمير سيرابي أن يجرّ إلى صراع مكشوف مع "الجاور" أو مع القبائل الأخرى، لكن الأمر بدأ يظهر وكأنه لا مفر منه.

في هذا اليوم بالذات من أواخر شهر آب، دعا سيرابي أمير قبيلة الميسوست النبلاء، "الوَرْق" في قبيلته. أخذ يراقبهم بعناية وهم يتجمعون في صالونه الفخم. ما كان هذا الصيف فصلاً سهلاً، فقد اندفع الروس عبر أراضيهم مرات عديدة أكثر من أي وقت سابق، في طريقهم إلى منطقة التيريك العليا، مناطق الشيشان. لقد ظهر أن حملة "التهدئة" في الجبال, كما كان يحلو للجنرال سوفوروف أن يسمي غاراته, تتحول تدريجياً الى حرب شاملة بدون أن تبدو لها نهاية في الأفق. لم يكن هناك أمير قباردي يسعده أن يقع بين

الطائفتين المتحاربتين, الروس والشيشان، ولم يكن الأمير سيرابي استثناءً من هذه الحقيقة.

حدّقت عيناه الماكرتان في الرجال الذين يتحادثون أمامه في المجلس على شكل نصف دائرة. ظهروا كمجموعة ذات كبرياء، ولكن بدون غطرسة، بملابسهم ذات طراز "التشيركيسكا" الثمينة، منتعلين افخر الأحذية القباردية المصنوعة من الجلد اللين. كان معظمهم يتسلى بالعبث بمسابحهم, اذ أنهم متدينون بحكم العادة، لكنهم يتمتعون بأناقة الرجال المعتادين على نزاعات الصالونات أكثر من اعتيادهم على "الغزوات"الدينية ـ خلافاً لجيرانهم الأكثر تحدياً وفوضوية في الجبال، الشيشان.

ألقى بنظرة خاطفة إلى ارثه الثري من الأسلحة. "القامات". الزرد المعدني، الدروع، الأسرجة, وقد علقت كلها بشكل استعراضي على الجدران المغطّاة بسجاجيد "الكليم" والبسط الفارسية. كانت رائحة الغرفة جميلة بسبب حرق البخور ورائحة ماء الورد المرشوش. انه مستعد لدفع أي شيء للإبقاء على مقتنياته ملمعة جيداً, ولكي لا تفوح منه رائحة عرق الخيل أو أن يتلطخ بالدماء. لكن ربما لا يتفق معه جميع "الوَرْق" على ذلك الأمر.

استهل الأمير سيرابي الحديث بقوله "لقد دعوتكم هنا إلى "مجلسي" لسبب واضح، فقد تناهى إلى سمعنا قيام تحالف غير عادي بين أمير قباردي معروف وشيشان الجبال. ربما يكون لهذا الأمر مضاعفات خطيرة علينا جميعاً. لذلك يجب علينا أن نبحث في مضامين المعلومات التي ستسمعونها اليوم".

أشار إلى مقاتل صغير السن ينتظر خارج الصالون مباشرة، ثم أصدر تعليماته إلى أحد النبلاء الجالسين في الدائرة.

"أدخله, يا حَنَفْ"

أشار الوَرْق حَنَفْ إلى تابعه الشاب

قدمه حَنَفْ قائلاً "هذا هو قسّي، من عائلة زوجتي على نهر المالكا. يبدو أن هذا الرجل الذي يتحدث عنه, ابن أمير الحابسا هذا, قد قضى عدة سنوات في الجبال، وهو يقاتل لأجل الشيشان".

سأل أحد كبار الورَق سناً: "هل كان من الممكن تحديد قوة القبارديين الذين كانوا معه؟".

أجاب حَنَفْ "كلا, تلك المعلومات غير معروفة، فقد قضى قسّي معه وقتاً قصيراً فقط".

بدا على الأمير سيرابي الفضول "اخبرنا، يا قسّي الشاب، ماذا حدث بالضبط، هل كنت لوحدك عندما قابلته؟"

وقف قسي وقفة انتباه واحترام عندما وجه اليه الكلام، لكن وقفته كانت معوجة قليلاً بسبب كل الكدمات والجروح التي سببها سيف مراد: وما زالت ضلوعه تؤلمه. كان شابا حسن المظهر في حوالي الثامنة عشرة، لم يكن طويل القامة ولكنه متناسق الجسم.

"نعم يا أميري، لقد تقابلنا في ميدان المعركة، أو على الأصح في أحراش كارجينسك, وقد أسقطني عن فرسي بسيفه، ثم تقاتلنا بالأيدي. عندما أصبت بالجرح، لا بد وأنني ـــ آه ـــ أطلقت شتيمة بلغتي"الأديغه" بصوت مسموع ـــ لأنه قفز متراجعاً عني عندما سمعني وبدأ يتحدث اليّ على الفور".

"أطلقت شتيمة بصوت مسموع...همممم!" فكر الأمير في هذا التقليل لسيل الشتائم الشابة التي يمكن أن يكون قسي قد أطلقها. "نحن الميسوست نشتم بشكل جيد" ضحك النبلاء الآخرون من أعماق قلوبهم.

قال الأمير سيرابي "أكمل" حتى يهدىء الرجال. "أخبرته أنني قباردي من الميسوست، وأننا نخدم في جيش القوقاز. أخبرني باسمه، حابسا مراد، وأنه يعيش مع الشيشان منذ زمن طويل.

"هل كان قطعاً يقاتل إلى الجانب الشيشاني..؟ "سأله ورَق آخر.

"نعم، طبعاً. لقد رأينا مجموعة كبيرة منهم تصل وتشارك في المعركة. لقد فهمت من زملائي لاحقاً أن مجموعته هي التي أنقذت الشيخ منصور ذلك اليوم".

"لكنك لا تعرف ما إذا كانت مجموعته كلها من قباردي الحابسا؟" سأله الأمير.

"لا يا سيدي، أنا لا أعرف ذلك".

تبادل النبلاء النظرات وهم يفكرون في المعلومات وايحاءاتها. لم يتبرع أحد بإضافة أية أفكار حتى تكلم الأمير ثانية.

"هل تبادلتم المزيد من الحديث. هل أخبرك لماذا يقاتل هو إلى جانب الجبليين؟".

فكر الشاب قسّي بعمق قبل أن يجيب.

"حسناً, نعم لقد قال لي شيئاً غريباً. لقد قال أن أسباب تواجده هناك هي في مثل غباء أسبابي.. لكنه لم يقل ماذا كانت أسبابه هو".

فكر الأمير سيرابي بهذه الملاحظة. فقد كشفت له أكثر مما كشفت لقسي "هل هناك المزيد؟".

"كلا يا سيدي، كان ذلك كل شيء. لقد ساعدني على امتطاء فرسي وأعادني إلى خطوط قتالي".

ابتسم الأمير بلطف في وجه قسي. لاحظ نظرة الارتياح العميق على وجه الورَق حنَفْ, الذي لفظت شفتاه صلاة الشكر لله بصمت، على أن قريب زوجته كان محظوظاً إلى درجة كبيرة لاصطدامه بنبيل كريم مثل هذا الحابسا مراد، بدلاً من شيشاني متشدد ثائر.

قال الأمير: "أشكرك أيها الشاب، أنت مسموح لك بالمغادرة "أحنى قسّي رأسه ثم غادر الصالون.

عبّر "الوَرْق" المسن الذي كان قد تحدث في وقت سابق عن الرأي السائد "مثل هذا "النيمس" الأديغي. مثل هذا التصرف في وسط المعركة يمكن أن ينسب فقط إلى الحابسا. إنني أعرف والده معرفة جيدة، والتربية الحسنة تظهر واضحة في الابن". ثم تنحنح ليستمر في الكلام. أصغى الوَرْق الآخرون بانتباه.

"اعتقد أنه لدي الجواب على السؤال الذي طرحته، يا أميري، لقد تغيب هذا الحابسا مراد عن التيريك منذ سنوات طويلة، وكنت قد سمعت ما يقال عن أنه مفقود أو حتى ميت. انا اعتقد فعلاً أن مراد يتصرف منفرداً في الجبال. لو أن أمير الحابسا أراد أن يتحالف مع الشيشان لكنا سمعنا بالأمر من قبل. في نهاية الأمر، هو أمير قبارديي وما يفعله يؤثر فينا كلنا".

نظر تجمع الوَرْق باتجاه الأمير للاسترشاد به حول هذا الرأي. أخذ وقتاً طويلاً قبل الاستجابة ثم تحدث بعد ذلك إلى الوَرْق حنف.

"أعتقد أنه سيكون من اللياقة لو أنك تأخذ قريبك الشاب معك وتقوم بزيارة إلى مناطق الحابساي على نهر التيريك. خذ معك بعض الهدايا كرمز لتقديرك لسلوك ابنه الأديغي في المعركة. إن رأيي هو أن الابن مراد يتصرف بمفرده. وإذا كان الأمر كذلك ـــ فان الأمير سيكرمك كثيراً لأنك أوصلت إليه هذه الأخبار الرائعة. ليس أمرا صغيرا أن تعيد إلى الأب ابنه المفقود. أنا على يقين من أنهم سيرسلون أناسا على الفور لإعادته إلى الحابساي".

توقف الأمير للسماح بأية تعليقات، وعندما لم يعلق أحد، استأنف كلامه "إذا كان الوضع يختلف، كما كنا نشك أساساً, وقتها يجب أن نعقد مجلس الأمراء ونبحث هذا التطور الخطير علينا

كامنة. الأمر يهم الأمراء القبارديين الآخرين في البلاد. سوف تكتشف أنت الجواب على هذا، انا متأكد".

نهض حَنَفْ واقفاً وانحنى باحترام "سيكون من دواعي سروري القيام بذلك. سوف أجري التحضيرات على الفور".

احتفظ باقي النبلاء الحاضرين في الاجتماع بآرائهم، فهم يحترمون الأمير سيرابي: الذي نجح حتى الآن في إبعاد الروس عن ظهورهم. ربما كانت لديه بعض الخطط الأوسع قيد التحضير، وكانوا على ثقة بمقدرته على إنجاحها.

***

بات أحمد خائفا على تسيما، لأن خبر وفاة أخيها هو الأكبر في حياتها، وقد زاد من تأثيره عليها حقيقة أنه لم يكن ممكنا استعادة جثته لاستكمال إجراءات الدفن المعتادة عليها. استعيدت بعض الجثث، لكن جثة حمزات كانت قريبة جدا من الحصن بحيث لم يتمكنوا من استعادتها. كانت تبكي بين ذراعي أحمد في الليل.

همس لها بحنان "يجب أن تحاولي أن تكوني قوية من أجل مصلحة الطفل، لان حمزات كان سيتمنى أن يولد الطفل بصحة جيدة".

"ما هي الفائدة، اذا كان سينمو ويكبر من أجل أن يقتل؟"

ضمها أحمد إليه بقوة. مثل ذلك الكلام مخالف كليا لشخصية تسيما. لقد توقع أن يغمرها الحزن، ولكنه توقع أيضا أن تستجمع رغبة فولاذية في الانتقام بمجرد أن تزول عنها صدمة الفاجعة التي حلت بها. بات يقلق عليها باستمرار. بدا من المناسب أن تبقى تسيما في بيت أبيها في القرية بعد المعركة مباشرة. مع أن مستوطنتهما كانت في الواقع أكثر أمانا من أخطار الهجمات الانتقامية، وقد وضع العدد الكبير من جرحى معركة كيزليار القرية تحت ضغط نفسي وجسماني كبير. فقد امتلأ الجو بأصوات الرجال

الذين يئنّون عند تغيير ضمادات الجروح على مدى أسابيع, أو عندما تعفنت الأطراف التي لا تشفى ودفعت المصابين إلى حافة الجنون من جراء الحمى. اكتفى بعضهم بالأنين في أحلامهم، وهم يستعيدون أجواء الرعب في ميدان المعركة.

لقد كانت القرية بحاجة إلى هؤلاء الرجال: فقد اشتدت الحاجة إلى حصاد المزروعات، واضطرت كثرة من النساء إلى الحلول في عمل الرجال في الحقول. بكت الأغلبيّة منهن أثناء تحزيم الذرة أو ضرب الخيل بالسياط لجعلها تدور حول بيدر الدراس. كنّ يخفين وجوههن في أكفهن عندما يشاهدن ما يذكرهن فجأة بالأحبة في جزء من العمل اليدوي المتقن: سياج مرمم، حبل مفتول جيدا، مهد طفل مزين بالحفر حديثا.

كانت مهمة النساء الأكبر سنا والأخريات اللاتي لا يستطعن العمل في الحقول أن يتعاملن مع واجب تمريض الجرحى.

انتشر ستار كثيف من الحزن فوق المجتمع بأسره. جلس الملاّ بنفسه مع تسيما اثناء أعتنائها بآتي، الجاسوس الروسي الذي عاد إلى القرية متأخرا أياما عديدة وهو يهذي من الحمى، وقد انغرزت في ظهره كمية كبيرة من الخردق. لم تكن لديه زوجة ولا أية قريبة من النساء الأحياء في القرية: فقد كان وحيدا إلى حد بعيد. وحدها غريزة العودة إلى البيت لدى فرسه أعادته سالما.

سأل الملاّ ابنته "هل هو يتحسن؟"

رقد آتي يغطّ في نوم عميق، يتنفس ببطء وصعوبة.

قامت تسيما بتغسيل آتي بطريقة آلية حتى تخفض حرارته "سيقاتل في يوم آخر, إذا كان ذلك ما تقصده، يا أبي."

ضغط الملاّ شفتيه على بعضهما حتى يوقف تدفق الكلمات التي قد لا تساعد حالتها.

"تسيما، لقد كانت إرادة الله".

رفعت رأسها إليه وقد بدا الإعياء رماديا في وجهها "هل كانت فعلا كذلك يا أبي؟ أم انها كانت أرادتك؟ لقد كان حمزات رجلا حالما. اعتقد أنه أصبح مقاتلا من أجلك، وليس من أجل الله، لقد كان يؤدي الصلوات لله. كان أكثر الرجال سعادة بالله في القرية، وأحبنا كلنا".

طأطأ الملا رأسه واستأذن في الانصراف، فهو لن يتجادل مع امرأة حول معنى "الجهاد", معنى التضحية, حتى لو كانت تلك المرأة هي ابنته الوحيدة. ماذا تعرف النساء عن معاناة الرجال؟ لكن روحه لم تكن مرتاحة. تمشى عبر الساحة بدون أن تكون لديه وجهة محددة. فقد كان يتصارع مع ضخامة خسارته، وقلقا من أن تحمل كلمات تسيما بعضا من الحقيقة.

عندما حضر أحمد لاصطحاب تسيما، وجد الملا جالسا في صالته، يتأمل. نقر على الباب طالبا الأذن في الدخول.

"من بعد اذنك، أيها الملا."

"تكلم يا ولدي"

"إن تسيما تصر على تمريض الرجال، لكنني أتساءل أن كان ذلك هو العمل الملائم لها في هذا الوقت. هي ليست قوية، وهذا العمل يؤثر على روحها المعنوية. أخشى أن تصاب بالإعياء. علينا أن نفكر في الطفل."

لم يتكلم الملا. هنالك مساحات من رد الفعل الإنساني لا يفهمها, وهذه واحدة منها.

"أقدر اهتمامك يا أحمد. واتفق معك. سوف اكلم حنيفا وسوف نتحدث لاحقا."

"هنالك أمر آخر، أيها الملا, يتوجب أن ننجزه فيما بيننا" خفض أحمد صوته "ماذا سنفعل بشأن الروسي؟".

أثناء الحديث، كان باسل ينتظر خارج الباب. أصبح واضحا لكل الناس أنه لم تعد لديه نوايا في الهروب. لكن سلامته هي مسؤولية أحمد، الذي لم يعد قادرا على ضمان هذا الأمر. فان مجرد رؤيته يمكن أن تتسبب في أن يثأر شيشاني ما لأخ أو قريب قتيل.

أصبح باسل متيقنا من أن مصيره سيتقرر في ذلك النهار. فقد ركب إلى القرية بصحبة أحمد وهو يشعر بقلق عميق، متسائلا عما سيحدث له. لم يكن قد علم بالمذبحة في كيزليار، لكنه أدرك أن الجبليين قد تلقوا هزيمة نكراء. لان بعض الرجال من مستوطنة أحمد لم يعودوا إليها.

توصل باسل إلى حالة غريبة من التوازن النفسي. لم تمنحه هذه المغامرة الكشف العظيم الذي كان يأمل فيه بطريقة غامضة، لكنها وفرت له تجربة أخرى أكثر تواضعا وذات طبيعة أصغر حجما. فقد تخلى عن نفسه لمصيره بكل بساطة، فوجد أن بإمكانه أن يحيا يوما بيوم في منتهى الصفاء. فقد كانت نوعية الوجود العادي التي يحياها متميزة إلى درجة انه شعر بحالة من الانتشاء من الحياة نفسها. يبدأ كل يوم له بالاستمتاع بنقاوة الهواء. فهو يقضي بعض الوقت في استنشاقه حتى يعرف أن كان الطقس الرائع ما زال سائدا، أم أن الصقيع قد حلّ. كان شروق الشمس ظاهرة رائعة، يغسل الجبال السوداء بالمجد ويختزله إلى حجمه الطبيعي: ضئيلا تحت السماء المتحركة. وبينما هو يرتدي ثيابه ـ أي ينتعل حذاءه ويستتر بالبوركا، فهو ينام بكل ثيابه الأخرى ـ يصغي إلى أصوات الصلاة التي يؤديها بقية الخدم فيحس بتقصير روحاني في نفسه، لأنه غير قادر على المشاركة إطلاقا.

وعليه فقد ألفى نفسه في وضع أصبحت فيه القضايا الفلسفية مادة كل حركة يأتي بها.

لم يكن يتعامل مع آراء متطورة موجودة في كتاب لتدريس علم الفلسفة أو الأحياء أو حتى تحليل الجسم الإنساني، لكنه كان يجرب الخوف، البقاء حياً، الأمل، مباشرة. أصبح عمله في الإسطبلات أسهل بعد أن تنامت قوته الجسدية. أما جلسات تعلم اللغة المرتجلة مع العمال الآخرين فقد شكلت له تحدياً: فاللغة الشيشانية صعبة إلى درجة شيطانيّة بحيث وفرت له واجباً أكاديمياً راقياً في محاولة أيجاد مجموعة من القواعد النطقية للأصوات التي يطلقها رفاقه. أبعد من هذا، كان لديه متحدثين ممتازين في شخصي أحمد ومراد، الأول حازم وواضح، والثاني أكثر مراوغة وأناقة، كان مراد في حوالي سنه، وواضح أنه من طبقة رفيعة وذكي، لكنه غير ميال إلى المسايرة. أما أحمد فهو قاسٍ لكنه منصف. كلا الرجلين يحب عائلته بإخلاص يسبب لباسل الإزعاج. كان الرجلان يتحدثان مع بعضهما بلغة ذات جرس مختلف. أدرك انهما من قبيلة أو عشيرة مختلفة، تختلف عن باقي المستوطنة، لكنه لم يكن قد توصل إلى معرفة أصولهما حتى الآن.

نهض واقفاً حتى يحرك رجليه ثم تجول مبتعداً بضع خطواتٍ حذرة عن بوابة منزل الملا. سمع صوت رجل يولول من الألم في مكان قريب منه. توقف باسل كلياً وهو يحاول أن يحدد مصدر الصوت. كانت تسيما قد غادرت مستوطنتهما الصغيرة ومتواجدة هنا في مكان ما من القرية تعالج الجرحى: هذا ما فهمه من العاملين معه. كان باسل يشتاق إلى جمالها، يشتاق إلى ملاحظة تقدم حملها. ذهب ليقترب من بناية مجاورة, من الواضح أنها تستخدم كمستوصف، بالحكم على الأصوات التي تصدر عنها.

صدمه المنظر في الداخل إلى درجة أنه تجمد في مكانه. كان هنالك حوالي عشرة رجال في الغرفة ــ كان هناك بدون شك المزيد موزعين في البيوت الأخرى حيث يعتني بهم أقاربهم.

هؤلاء الرجال هم الذين ليست لديهم عائلات، حتى أن بعضهم من الذين تحاملوا على أنفسهم حتى وصلوا إلى قرية الملاّ ولم يتمكنوا من المسير أبعد من ذلك في رحلات عودتهم إلى بيوتهم.

أحد الرجال قد نسف جانب جسمه كله من جرّاء أنفجار، ذراعه قد أقتلعت، وقد أنتزع اللحم عن أضلاعه، كان غائباً عن الوعي والخرق المربوطة حول جسمه مائلة إلى السواد.

رجل آخر يتلوى ويرمي بنفسه، وقد غسلته الحمى بالتعرق وما زال يتمتم في هذيانه.

كانت الرائحة الفاسدة رهيبة، وقد حلت الغرغرينا في قدمه التي قطعتها شظية إلى نتف.

رجلان أو ثلاثة راقدون ووجوههم إلى أسفل، مصابين بجروح متقيحة في ظهورهم وأكتافهم. لاحظ باسل كم هو عدد الإصابات الناتجة بشكل واضح عن سقوط الخردق عليهم مثل المطر. لقد أدت مدافع كيزليار عملها الرهيب.

كانت نسيما راكعة إلى جانب أحد الرجال, تحاول أن تجبره على تناول سائل ما داخل فمه المتهاوي. والرجل يصرخ في كل مرة يرفع فيها رأسه.

أدارت اثنتان من النساء المسنات اللتين كانتا مهتمتان بالمرضى وجهيهما ثم أكملتا واجباتهما متجاهلتين دخول باسل المتطفل.

أصابته حاجة إلى التقيؤ من شدة الرائحة النتنة, لكن إحساساً آخر تغلّب على ذلك. فقد بدأ يرتجف من الرأس إلى القدمين لشدّة الغيظ.

كل ما شاهده في الجبال هذه الأسابيع الماضية أوصله إلى هذا. هنا حدثت تجلياته، لحظة الحقيقة بالنسبة له. لم تكن لدى هؤلاء الناس أية فكرة على الإطلاق عن درجة جبروت روسيا ــ

ولهذا السبب بالذات، لم يكن لدى روسيا الحق في أن تدمرهم واحدا تلو الآخر. لقد ذهب الشيشان إلى المعركة مثل فرسان القرون الوسطى، مسلحين تسليحاً غير لائق للحرب الحديثة إلى درجة محزنة. عرف الروس هذه الحقيقة ومع ذلك ذبحوهم.

الأسوأ من هذا, فان باسل عرف أن الجبليين لا يمكن أن يصغوا اليه لو حاول أن يخبرهم عن مقدار القوة الرابضة خلف ذلك الخط الأمامي الذي يبدو قابلاً للمهاجمة.

هنا توجد إرادتان ملحميتان مشتبكتان في صراع أخلاقي ـــ وهي مأساة عملاقة في مقاييسها بحجم القفقاس كله.

أن رجلاً روسياً مثل باسل لا يمكن أن يقوم بأنصاف الأعمال. لأن شخصيته الوطنية ميالة الى المبالغة، وبقدر ما كان هو عديم الإيمان ولا يؤمن بأي قضية ـــ فقد توجه الآن إلى ندائه الداخلي وكأنه رجل ممسوس.

أسقطت تسيما قصعة الحساء وأصيبت بالإغماء. ركض باسل إليها فوراً ورفعها حتى يمكنها الاستلقاء بشكل مستوي فوق حشية فارغة. قاس نبضها وأرخى غطاء رأسها. استفاقت تسيما وعندما شاهدت باسل قريباً منها إلى تلك الدرجة ألقت بذراعها فوق وجهها.

"لا تخافي، تنفسي الآن بعمق". صار يمسد لها يديها بطريقة أشعرت تسيما بقليل من الطمأنينة. رقدت هادئة. أحضر لها باسل الماء ورفع رأسها "أنت متعبة لأنك لم تأكلي" تحدث إليها باسل بلغته الشيشانية المقطعة" ذلك يجعله دائخ أن لم يأكل". وابتسم لها بطريقة وديّة وتكلم بثقة، وحتى برغم الأخطاء اللغوية، تخلى عن تظاهره وأصبح الكونت باسل فاسيلييفيتش, دكتور في الطب.

بينما كانت تسيما مستلقية، بدأ الجنين يرفس بحيث أصبحت الحركة ملحوظة حتى من قبل باسل. لم يستطع أن يقاوم شعوره

بالافتتان. أحمر وجه تسيما خجلاً. لكنه هز رأسه كأنما يقول لها "لا تخجلي، أرجوك دعيني أفحصك".

"من بعد إذنك يا سيدتي...." وضع يده بلطف فوق بطنها وأضاء وجهه من روعة الاكتشاف.

"هذا قدم! هنا الرأس. طفل سليم صحي!" قال لها بشيشانية مبسطة.

أحمر وجه تسيما ودرجت الدمعة على خدها. كانت متعبة إلى درجة أنها لم تعرف هل تبكي أم تضحك. أصلح باسل خطأه فوراً وسحب يده "اعتذاراتي يا سيدتي، لم أقصد الإساءة..... أرجوك، دعيني أساعدك ــ دعيني أفحص هذا الرجل..."

قلب جسم آتي ونزع الرباط عن ظهره "يا الهي الطيب! يا لها من مصيبة لعينة! كيف بحق الجحيم يمكن أن يبقى حياً؟". وأخذ يشتم لنفسه باللغة الروسية.

في تلك اللحظة اقتحم أحمد الغرفة وهرع إلى جانب تسيما

"ما الأمر؟ لماذا أنت تبكين؟ هل آذاك هذا؟" سحب "قامته" ولوح بها مهدداً باسل.

قالت تسيما "لا:لا" وأخذت تبكي بحرقة شديدة.

قفز باسل واقفاً على رجليه.

صرخ بطريقة تنم عن السيطرة "لا..سكين.. سكين" ثم عاد إلى تفحص جراح آتي.

لم يستطع أحمد أن يتجنب رؤية التأثير العميق الذي أحدثه مشاهدة آتي الجريح على رهينته.

"هذا الرجل يحتاج مساعدة. يحتاج طبيب... أنا طبيب.. حقيبتي... أدوات.... لوازم طبيب ــ أدوية". أصيب أحمد بالذهول. إن رهينته طبيب جاور..!

قال باسل بنبرة صوت مرتجفة "كل الرجال بحاجة إلى طبيب، أنا... يجب أن يسمح لي بعمل طبيب.. هنا هذا الرجل سيموت قريباً... اذا لم أقطع ساق". أشار إلى جريح مطروح وقد ظهرت الغرغرينا المتقيحة على ساقه المكسورة. بدأ ينتقل من رجل إلى الآخر بسرعة وهو يشير بيده وصوته يرتفع مع إخفاقه في التعبير باللغة الشيشانية، وهو يستبدلها بكلماتٍ روسية حتى يشدد على أهميتها. امسك بذراع أحمد بقوة مسترحماً ومطالباً في الوقت نفسه.

"لا يمكنك أن تلمس هؤلاء الرجال بدون إذن الملا، تعال معي يا تاديوش، أو مهما كان اسمك. سوف نقابل الملا، لكن أولاً أخبرني من أنت وإلا مزقت لك أحشاءك، هل تفهم؟ هل أنت جندي روسي؟"

استعاد باسل السيطرة على نفسه وقد أدرك صعوبة موقفه "كلا, أنا لست جندياً روسياً أنا... طبيب روسي... أزور القفقاس... لا أقاتل. مجرد طبيب روسي. يجب أن أؤدي عمل الطبيب الآن".

تمكن أحمد من ابتسامه خفيفة "أن لغتك الشيشانية تتحسن أيها الطبيب الروسي. هيا بنا".

تدخلت تسيما فجأة "كلا أنت، أيها الطبيب الجاور أرنا. افعل شيئاً لآتي. بعدها سوف يثق بك والدي".

تبادل أحمد وباسل النظرات، ثم أوما أحمد برأسه قائلاً "انها محقه، هيّا، تصرف".

"أرجوكم... لقد أخذ مني أناس أدوات طبيب عندما جئت إلى هنا"

"سوف أحضرها" نظر أحمد إلى تسيما حتى يطمئن عليها ثم غادر. لم تطل غيبته سوى دقائق قليلة وعاد وهو يحمل حقائب سرج باسل.

فتح باسل لفة من الأدوات الجراحية، الإبر وخيوط تقطيب الأمعاء. قال باسل فجأة "ثبتوه".

كانت عملية مريعة. استطاع باسل أن يرى أن العضلة المكشوفة في ظهر آتي قد تحولت إلى الزرقة: هنالك شيء ما تحتها، مع أن النساء الشيشانيات قد أخرجن كل قطع الشظايا المرئية بالنسبة إلى عيونهنّ المجردة بأفضل ما استطعن. لقد علمت التجربة باسل أن معظم الجروح تفسد بسبب بقاء جسم غريب ما بداخلها، وأن الجسم يتفاعل تجاه مثل هذه الأجسام. في هذه الحالة تورم النسيج المزرق إلى درجة أن قطعاً من الحديد الصدىء انغرزت عميقاً في الجرح. اضطر باسل إلى أن يقص عميقاً في لحم آتي حتى يفتح الثقب ويستخرج الجزيئات بكماشة التشريح الخاصّة التي يمتلكها.

سقط آتي مغشيا عليه أثناء هذا الأجراء. توقف باسل لحظة أو اثنتين ليمسح العرق عن جبينه "يجب أن نوقظه. أن كونه نائماً ليس مؤشراً جيداً".

"لكنه لا يستطيع أن يشعر بشيء الآن. هذه الطريقة أفضل". قال أحمد.

"كلا، يجب أن يستيقظ وإلاّ غطّ أكثر في نومه إلى أن يتوقف قلبه" قال باسل وهو يصارع لغته الشيشانية، ثم غمغم لنفسه بالروسية وهو محبط "إنهم يقتلعون ذراع الرجل في الجيش الإمبراطوري وهو ما يزال يدخن غليونة. تخيل ذلك يا صديقي".

صفع باسل وجه آتي وفرك يديه، في محاولة لشرح ما يجب عليه لأحمد. وبعد ذلك عمل ما بوسعه لإخاطة الجرح المفتوح.

انتفض آتي فجأة وتأوه أثناء عودته إلى الصحو. جلس باسل مستنداً "ذلك أفضل" ومسح الدماء عن يديه "سأحتاج إلى المساعدة بشأن ذلك الرجل هناك. يجب عليّ أن أبتر ساقه".

عندما نظر إليه أحمد مستفهماً، أشار باسل إلى العملية التي ينوي إجراءها، وفهم أحمد. قال أحمد "لا يمكنك أن تفعل ذلك، ليس بدون تصريح. عليك أن تنتظر حتى الغد. حتى يمكن للملاّ أن يرى بنفسه ما حدث "فهم باسل مغزى اقتراح أحمد.

"لكن الرجل قد يموت في هذه الليلة" شرحت يدا باسل الموت وفهم أحمد المضمون. قال "اذا كانت تلك إرادة الله، نعم، ربما يموت، أنت رجل غريب وقد جئت الينا بادعاءات كاذبة. أنت روسي. كيف يمكننا أن نثق بك؟"

نفض باسل كتفيه "لأنه باستطاعتك أن ترى بأنني أساعدكم"

"انتظر هنا. اعتني بآتي".

أخذ أحمد تسيما معه وعادا إلى بيت الملاّ. شرحت تسيما ما حدث بالتفصيل. جلس الملاّ في صالته وهو مضطرب الأحاسيس. ثم قال.

"أنا لا أثق به. أنت تقول أنه يدون الملاحظات بينما أنت تتكلم".

أجابه أحمد "نعم, ولكن لمجرد تعلم لغتنا. انه لم يسأل عن القتال مطلقاً. أبداً."

أضافت تسيما "وهو يعرف مهنه التطبيب. بإمكانه أن يكون مفيداً لنا، خاصة في هذا الوقت "بقي الملاّ على صمته. كان يتصارع مع فكرة اللغة المكتوبة. لم يكن الملاّ قد تعلم الفن الغامض للقراءة، بل اكتفى بحفظ مقاطع من القرآن الكريم. لقد كان النّبي نفسه صلوات الله عليه أمياً لكن الله وهبه القدرة على حفظ وترديد الوحي. هذا ما يقوله القرآن الكريم. هذا المفهوم الجديد عند الأجانب، لقد شكل هؤلاء الذين يكتبون ويقرأون قضية بالنسبة له. كيف يستطيع أي شخص أن يدون صوت الأنهيار الثّلجي في الجبال، الريح في أغصان شجر القضبان، أو هروب ماعز

الثوري البري فوق الحافة الشديدة الانحدار؟ كيف يمكن تدوين الصمت الذي يتنزل على الشيشانيّ الذي يركب مطيّته لأيام متواصلة داخل الغابة بدون أن يرى عين الشمس؟ إن مثل هذه الأصوات محفوظة في القلب وعلى اللسان لدى كل جبليّ، ولم يحلم أحد بتصغيرها إلى مجرد علامات. ومع ذلك فقد شعر الملا أن هذا الأمر يمكن أن يشكّل إعاقة رهيبة في عالمهم المهدد المتغيّرعلى الدوام. "ماذا غير ذلك؟ كيف يسألكم؟"

"هو يسأل في الأغلب عن أسلوبي في معالجة الخيل، وعن معرفتي بالأعشاب. أنه يمتلك معلومات متعمقة عن الكثير من الأشياء، بالإضافة إلى الطب."

تردد أحمد، لأن ما كان على وشك أن يقترحه هو رأي غير عادي بأي شكل.

"أيها الملا، دعه يعالج الآخرين. أنا واثق من أنه لا يريد بنا شراً. لقد راقبته وهو يعمل، وأنا افهم في موضوع المعالجة بنفسي، وأنا بكل احترام، أفهم في هذا الموضوع على الأقل".

تصلّب الملا. فقد كانت كراهيته للجاور شديدة إلى درجة أن رد فعله الأوليّ كان الرعب الجسدي الكامل. أن يسمح للأيدي الكافرة بأن تعبث بجروح أقاربه المسلمين....

أضافت تسيما، وهي ما تزال ترتجف من شدة الإرهاق "يا أبت، أنا أعتقد أنّ هذا الجاور شخص يتسم بالطيبة. لقد فقدنا العديد من الرجل الأعزّاء ، ونحن بحاجة إلى إنقاذ البقيّة. يجب أن ينجو آتي، ولكن ماذا لدينا لنخسره بالنسبة للآخرين؟ ماذا بالنسبة للشيشاني الذي لم يتكلم بعد ـــ صاحب الساق المكسورة؟ أنا أعرف أننا لا نستطيع أن نفعل له المزيد".

أغمض الملا عينيه، وقد شرد في التفكير. ثم حدق بقوة في وجه ابنته.

"لقد كنت أعتقد أن لدينا ما يمكن أن نعلمه لهذا الجاور. ربما يكون لديه شيء يمكن أن يعلمه لنا يا ابنتي. أن أساليب الله عزّ وجلّ غاية في الغموض.

***

وقَر الكونت جريجوري اليكساندروف, المعروف أيضاً بالجنرال بوتمكين، القائد العام للقفقاس، عشيق القيصرة كاترينا الأعور، لنفسه أسباب الرفاهيه في القفقاس، لقد سمع بنفسه من يصفه بأنه "تجسيد للخيلاء الدنيويّة" وهو ما كان يسره، وتبعا لذلك فقد عمل كل ما بوسعه لكي يحافظ على تلك الصورة في بناء مقر قيادته العامة في ايكاتيرينودار على نهر الكوبان. فهذه هي المدينة الرئيسة في "مضيف الكوبان", المدينة الرئيسة لجيوش القوزاق التي تخدم تحت إمرة القيادة الروسية. أن الاسم نفسه يعني "هدية كاترينا" في اشارة إلى بادرة جلالتها إلى القوزاق المخلصين. والآن، وبفضل حملات بوتمكين الناجحة في الجنوب، فان المدينة في طريقها إلى أن تصبح بلدة مزدهرة ـ اداريين، تجار، حرفيّون في كل التخصصات، كلهم اتجهوا إلى هناك في أعقاب إخضاع بوتمكين وسوفوروف لذلك الإقليم.

استقر الجنرال في قصر ابيض متلالئ, صغير جدا بالمقارنة بمقر الإقامة في تساركوسيلو بمدينة سانت بطرسبرج طبعا, ولكنه بالرغم من ذلك لائق لحضور القيصرة بكل الأحوال, في حال قررت ان تزوره. عندما يكون في الميدان, فإنه يتنقل في خيام مزخرفة بالحرير غارقة في العطور البيتية ومملوءة بالملاكيت والأثاث المذهب. وقد وجدت هذه الإضافات التي لا يمكن أن يستغني عنها غرفا داخلية أكثر ملائمة وتقف الآن على أرضيات منحوتة من الخشب والرخام, بين جدران وأسقف مطلية بقوالب إيطالية مزخرفة, تعكس المرايا التي تصل إلى الأرضية القدر القليل من النور الذي يخترق الستائر السميكة المطرزة بالكانافا

والتي تحجب النسائم اللطيفة المستمرة في هبوبها من المستنقعات المليئة بالذباب على ضفاف نهر الكوبان.

جلس الجنرال بوتمكين بملابس آسيوية الى مائدة مطعمة بالعقيق واللازورد مرتديا ثوبا منزليا مهترئا وقد خيطت أطرافه بالفراء ومنتعلا خفين فارسيين قديمين بمقدمتين ملويتين. مكتبه خلفه ينتظر, محملا بآخر التقارير عن حملات جيشه. طفق يبحث بأصابعه بالمحتويات البراقة لصندوق جواهره في جشع يعيه ويفتخر به, ويخطط لحلمه المطلق, وهو ان يقنع عشيقته القيصرة بان تقوم بجولة كبرى على أملاكها المفتتحة حديثا في الجنوب, لديه تجار النبيذ المستورد, باعة الحرير, البقالين الأرمن, الخياطين, كل ما يمكن ان يفكر فيه ليطور ايكاتيرينودار بحيث تصبح بلدة روسية جميلة ولا تعود تسمى "ستانيتزا" مما يوحي بموقع مؤقت على حدود الإمبراطورية الروسية. اذا لم يستطع ان ينظف المنطقة بكاملها, فهو سيجعل مهندسيه المعماريين يبنون واجهات تحجب المنظر القبيح لأكواخ الفلاحين القوزاق عن أعين الإمبراطورة. ان الرعاع الذين يتجمعون في هذه البلدات الحدودية عائق مؤسف لحلمه. فهو يتمنى لعشيقته ان تعجب بكل هدوء بإنجازه في إخضاع هذه المنطقة الوعرة, بحيث ربط إمبراطوريتها بالجورجيين المسيحيين الذين قرروا مؤخرا ان يضعوا أنفسهم تحت حماية جلالتها.

لقد أبلى سوفوروف بلاء حسنا كقائد لجيش الكوبان, لكن بوتمكين لم يكن راضيا تمام الرضى. فقد كان بحاجة لأن يتأكد من عدم وجود أية إمكانية مطلقا للمزيد من العصيان على طول الجبهة, حتى تتمكن القيصرة من السفر بأمان. ولم يكن قد تأكد من ذلك بشكل مطلق حتى الآن.

لم يكن من المفيد ان يشتكي سوفوروف من انعدام الانضباط بين صفوف الجيش الروسي, ومن استحالة المحافظة على المكتسبات في الوقت الذي يتعرض فيه القوزاق الذين هم تحت

قيادته الى التحرشات اليومية من القناصة, وعندما يكون كل قدم من التقدم قد دفع ثمنه بخسارة فادحة في الأرواح. ففي قاموس بوتمكين "الاستحالة" تؤدي بشكل عام نفس المعنى لكلمة "الخيانة". فهو بحاجة إلى من ينفذ قليلا من الأعمال القذرة ولذلك فهو بحاجة إلى شخص متعطش لها, تماما مثل سوفوروف مع تتار "النوغاي". ان الخريف على الأبواب وهو برأيه أفضل وقت لشن الحملات, لان تموين الجيوش قد تم إحضاره عبر الهضاب (ذخيرة من بلاد الصرب, طعام من أوكرانيا) في قوافل متتابعة طيلة الصيف. وهذا هو شهر أيلول الذي أصبح فيه الرجال مسلحين وممونين بالكامل.

ألقى بوتمكين برأسه إلى الوراء وزمجر طالبا الخدمة

نادى قائلا "البسوني".

ظهر في الحال جيش من الخدم الخاص, نزعوا عن القائد العام رداءه المهترئ والبسوا جسمه الضخم بزي رسمي. جلس بوتمكين مثل الإمبراطور نيرون بينما جرى رش شعره الأبيض بالبودرة ثم دهن بالمرهم وسرح, ثم وضعت أوسمته ونياشينه الكثيرة بعد تلميعها في ترتيب مبهر على صدره. لقد كان بوتمكين يعرف قيمة الصورة, لأنه "طفل الله المدلل" يمكنه ان يأكل اللفت مع رجاله في يوم ما ومع ذلك يمكنه أن يشرب الفودكا والشمبانيا مع أي ضابط حتى يجعله يرغي تحت مائدته بعد وليمة في سانت بطرسبرج. عندما تم إلباسه بالكامل, لم يعد هناك ما يدل على روحه النزاعة الى التأمل الاختياري سوى أظافر أصابعه القصيرة, والتي قضمها حتى الجذور.

"هل وصل العقيد؟".

أومأ ضابط أركانه بالموافقه" انه ينتظر مقابلتكم منذ بعض الوقت, يا صاحب الفخامة".

"أدخله الى هنا, والآخرين أيضا".

اتخذت مجموعة من هيئة أركان بوتمكين مواقعها فورا خلف مكتبه. حدقت فيهم عين بوتمكين الواحدة المشؤومة دون ان يرف جفنها. قال مخاطبا لا أحد على التحديد "يجب أخذ هذا التهديد الجديد من الجبليين بجدية". عرف كل الضباط ما يعنيه ذلك. ان العمل العقابي قريب التنفيذ. حضر الجنرالان جريجوريفتش وبيتروفيتش من جيش الكوبان الذي يقوده سوفوروف لتقديم إيجاز عن الأنشطة على الجانب الشرقي من خط الجبهة. من الصعوبة تخيل ضابطين من سانت بطرسبرج أرقى من هذين الاثنين. يرتديان الذهب المجدول, وعلى رأسيهما باروكتين جميلتين وقفازات من الشاموا في كفيهما, أنهما تتويج لطبقة ضباط المدرسة القديمة, سلالة المؤسسة. لقد تمت ترقية الاثنين الى رتبة جنرال أثناء الحملات التركية في سبعينات القرن الثامن عشر, قبل ترقية سوفوروف بكثير, ومع ذلك فأن أيا منهما لم يكن يمتلك ذكاءه.

قال جريجوريفتش موافقا "هذا هو تفكيرنا بالضبط أيها الجنرال" الضابط السمين المغرور, المحارب القديم في عدة حملات أجنبية, في خمسينات عمره "اذا سمحنا لهذا الإمام الجديد بإعادة تجميع قواته, ولا سمح الله, بان يكسب نصرا مهما صغر حجمه, فسوف يتكون لدينا عصيان على نطاق واسع".

وافق بيتروفيتش على كلامه "انه ليس قائدا عسكريا بأي معيار يمكن تخيله. لا اعتقد ان لدينا ما نقلق عليه من الناحية العسكرية. على الأقل ليس ما استطعت ان اقتنع به حتى الآن".

كان بوتمكين خبيرا قديما بالحملات ويدرك جيدا قدرات الجنرالين المحدودة "لن يظل مستجدا لمدة طويلة. لا بد ان يتعلم من أخطائه". نخر مجيبا.

دخل العقيد بييري. لقد تأنق بما يفوق الإنصاف لهذا الاستقبال. فقد شهد زيّه الرسمي ومعطفه الأسود الذي يشبه الرداء, السترة الحمراء, والبنطال الأسود الخالي من العيوب, بأنه يطبق

كتاب الجنرال سوفوروف "تعليمات السوزدال" والذي دونت فيه كافة تفاصيل المظهر حتى طية ياقة السترة, وقفت الياقة بارتفاع نصف بوصة عن الرقبة, طول طوية كم القميص وزاوية القبعة. كان بوتمكين يعجب به لكل ذلك.

"آه ها, بييري, انا سعيد لأنك تمكنت من القدوم. هذان هما الجنرال جريجوريفتش والجنرال بيتيروفيتش من جيش الكوبان".

انحنى بييري بتصلب. اما بيتروفيتش الأرستقراطي المتحدر من فرع بعيد من عائلة شوفالوف, وبذلك هو أرقى نسبا من كل شخص في القفقاس تقريبا, فهو يعرف "الضابط المحترف" عندما يرى أحدهم, انحنى له بزاوية مهينة في ضآلتها.

ابتسم بوتمكين قائلا "اسمح لي في البداية ان أهنئك على نصرك المجيد في كيزليار, لقد أبليت بلاء حسنا رغم ذلك الوقت القصير لوصولك الى هناك".

"أشكرك يا صاحب الرفعة والسعادة" مثل كل الجنرالات, استخدم بييري صيغة موسكو في المخاطبة لهذه المناسبة. لقد كانت نفاقا بذيئا ولكن بوتمكين يستمتع بها.

"لا تشكرني سلفا. إنني اثني على عملك في هزيمة العدو بخسائر لا تذكر على جانبنا. لكنني كنت سأكون أكثر رضى لو أنك قد أنهيت هذا المحتال الذي يسمونه الشيخ منصور".

بهتت ابتسامة بييري "لن أدخل في تفاصيل الأخطاء التي حصلت, لقد قرأت التقرير. ما نحتاجه الآن خطة لأسر هذا المنصور وإنهاء هذا التحرك.... هذه الحرب المقدسة, هذا "الجهاد". قال بوتمكين بتهكم. "مثل هذه العقائد هي أمر خطير. انها قابلة للانتشار, يجب ان تقطع الرأس وكل شيء سيعود الى طبيعته. هل توافق يا بييري؟"

أدرك بييري الآن ان هذا الوضع يشكل تناقضا مباشرا لخطط قائد لوائه المباشر, فالجنرال كوماروف يستحيل ان يلاحق عدوا في منطقته الخاصة. كم كان بييري محظوظا بغياب كوماروف المستمر, وهو المريض على ما يبدو ولم يستبدل حتى الآن.

تجرأ بييري ليمسك بالفرصة السانحة "نعم يا سيدي, أنا أوافقك فعلا. إذا كنت تذكر من التقرير بأن هذه هي إستراتجيتي المقترحة".

جلس بوتمكين جامدا كصخرة خلف مكتبه "حسنا؟ ما الذي تحتاجه حتى تنجز المهمة؟".

"سيدي، لقد طلبت كتيبة أخرى من فوج القوزاق الفولغا, بوجود مثل هذه القوة الموحدة انا أستطيع ان أقبض على هذا العدو في جحره وأنهيه".

صدر عن جنرالي جيش الكوبان ردة فعل مندهشة.

نخر بوتمكين مرة أخرى, لتصبح ردود فعله بدائية باطراد كلما استعر نقاش ما.

"هممم... إذا افترضنا ان بيتروفيتيش سيرسل لك هذه القوة الإضافية.... هل لديك خطة محددة؟"

بدأ رأس بييري يدور بسبب هذه الفرصة السانحة غير المتوقعة, اليد الحرة التي تمنح له, لقد كانت ابعد من كل توقعاته, ولا تختلف عن فرصة سوفوروف مع قبيلة النوغاي!".

قال باستعجال "بإمكاني ان أضع خطة على مكتبك للموافقة بحلول صباح الغد, يا سيدي". أراد بوتمكين ان يجاريه في خداعه. لقد كانت لديه خطة خاصة به بالطبع. فقد كانت جميع تقارير كوماروف الاستخبارية حول الشيخ منصور موجودة أمامه, لكنه أراد ان يستخدمها في غايات أخرى مختلفة كليا عما كان يدعو إليه كوماروف.

"لقد كنا ندرس مثل هذه الفكرة تماما, أيها الشاب. نحن نعلم ان قاعدته هي في قرية آلدي. الحق به الى هناك فورا. لا تسمح له بالوقت حتى يتعافى من جروحه. اضربه بقوة واقض عليه في أرضه نفسها. وبذلك فأن "جهاده" الغالي سوف يتبخر في وقت قصير جدا. هل توافق؟".

تردد بييري ثانية واحدة فقط. فقد توجب عليه التأكد من انه حصل على التصريح الصحيح... لان كل هذا يمكن ان يكون فخا, لامتحان دهائه السياسي.

"تلك كانت ستكون خطتي, يا صاحب النبوغ. إنني أتردد فقط لأنها تبدو وكأنها تتناقض مع ما تعلمناه في الأكاديمية. لا يفترض فينا ان ننجر الى مناطق العدو حيث يتمتع ببعض المزايا."

عرف بوتمكين ان ذلك حديث مشفر من بييري حتى يحصل على اذن لكي يقود رجاله خلافا لرغبات قائده.

كذلك فهم بيتروفيتش الوضع وتمتع بمشاهدة الضابط الأصغر سنا وهو يتلوى في معطفه.

أنقذ بوتمكين الموقف. ان إرضاء غرور أرستقراطي روسي أمر مسلي, لكنه لا يمكن ان يربح الحرب.

"لا داعي للثرثرة في هذا الموضوع! يجب ان تتحرك ضد هذا الشيخ منصور بقوة وبسرعة. سوف تحصل على أوامرك قبيل مغادرتك الى كيزليار. سوف اطلب من صديقي بيتروفيتش ان يرسل لك كتيبة قوزاق أخرى في الحال."

اضطر بيتيروفتش الى ان يومئ برأسه بالموافقة بكرم أخلاق، اذ لا يصح إغضاب قائد عام يمتلك سبعة وثلاثين ألف فلاح, وما قيمته مليوني جنيه إسترليني من المجوهرات, وقصر في روسيا الى جانب مؤسسة ناجحة في القفقاس. لأنه بعد كاترينا نفسها مباشرة, فإن قوة بوتمكين هائلة.

كان المسير كابوسيا. فبعد اجتياز الأراضي المنخفضة لوادي تيريك, ارتحل رجال بييري باتجاه جنوبي غربي نحو الجبال, حتى بلغوا الأدغال الكثيفة لوادي سونجار المعتمة الى درجة ان القليل من العشب كان ينمو تحت مظلة الأشجار, ولم يسكن فيها من الأطيار سوى طيور أبو زريق الثرثارة. أمر بييري رجاله بالسير في التشكيل الاعتيادي للرحلة.

تحركت كتيبة في الأمام, وأخرى تحرس المؤخرة, وكل واحدة منهما مسلحة ببعض قطع المدفعية الخفيفة ومدافع الميدان. أبقيت مجموعة الفرسان, الاحتياط, المدفعية والنقل في الوسط مع وجود خطوط من المشاة تحرسهم في كل جانب. ركب رماة قوزاق الفولغا المهرة أمام الجسم الرئيس وخلف الحراسة الخلفية وعلى جانبي الطابور على امتداد طوله. وهو موقع انتحاري: فمن تقدم الطابور الى الأمام ببطء, خلال الأراضي المشجرة والتي بدت مهجورة, كان يتم اقتناص هؤلاء الرجال باستمرار. ولم يكن يدل على مواقع القناصة الشيشان سوى نفخة من الدخان في الأراضي الشجريّة.

كانت تسمية الجيش الروسي لهذا الترتيب هي "حمل الطابور في علبة" وقد عرف بييري جيدا ما كان الرجال يسمونه "العلبة"، انها التابوت.

كان الممر مليئاً بالنباتات الشائكة إلى حد ان الطابور بات يتحرك بسرعة بطيئة الى حد اليأس. أصبح من غير المنطقي إبقاء الهجوم المنوي شنه على الشيخ منصور مسألة مفاجأة.

فقد انتشر الخبر عبر الجبال قبل ان يغادروا ضفاف نهر التيريك بفترة طويلة. بدأ الشيشان يتحشدون الى آلدي من كافة الجهات لحماية زعيمهم؛ وقد أرسل العديد من الجماعات المهاجمة لمضايقة الجيش الروسي أثناء تقدمة. عرف بييري ان هدفهم هو إضعاف الروح المعنوية لقوته قبل حتى ان تصل الى وجهتها. لقد

كانت مخاطرة هو يقوم بها, بتوغله عميقا في منطقة الجبليين. لقد اقترح بوتمكين "اذهب الى عرينه"، وناقش سوفوروف "اقتله في معقله". حسنا, لقد أصبح على وشك القيام بذلك. لم يقل احد ان الأمر سيكون سهلا.

كان بييري يعمل وفق قاعدة سوفوروف التي تقضي بالتضحية بالقوة النارية من اجل سرعة الهجوم. سوف يصل الى منطقة قريبة من العدو بصرف النظر عن الكلفة, وبعد ذلك سيخرج "الهجوم الاختراقي" من غمده.

أمر بييري باستعمال الأبواق لإعطاء إشارات الى عناصر الطابور المختلفة حول سرعة المسير, التحذير من اقتراب الأعداء من اليمين او اليسار, او لتراجع الوحدات بانتظار وصول المؤخرة. استغرقه الأمر يومين حتى يدرك انه يتوجب عليه تغيير نغمات الأبواق مرتين كل يوم على الأقل, لان الشيشان كانوا يتعلمون النداءات ويستغلون تحركاتهم.

أضيفت الأمطار وكذلك الضباب الى المضايقات الدائمة. فقد قطع هو ورجاله المسافة كلها في حالة مستمرة من الرطوبة التعيسة. غرزت مدافع الميدان وهي تحاول ان تخوض في الجداول. أصيبت الخيول والأمهار بالعرج حينما غرزت رسوغها في الطين اللزج.

تطلب الأمر مضاعفة عدد الكشافة لاستطلاع الأراضي الواقعة أمامهم للعثور على أفضل الطرق نحو آلدي. تم اسر بعض الشيشان وتعذيبهم بغية الحصول على المعلومات. وظل السؤال المهم دائما يتعلق بمكان تواجد الشيخ منصور.

كان بييري يجلس في خيمته منطويا على نفسه كل ليلة, وهو يحسب الوقت الذي سيستغرقه للوصول الى آلدي. لقد كانت قوته تتحرك بسرعة ستة فيرستات مثيرة للشفقة طيلة النهار، لا أكثر من اربعة أميال, وهو يفقد عشرات الرجال يوميا. على هذا المعدل

سيبقى معة نصف قوته الأصلية والتي سيقوم بواسطتها بهجومه الحاسم.

وفي كل مرة يخيمون فيها, كان يتم إرسال التتار الموجودين ضمن قوته لإعادة الجرحى والميتين. أحيانا يكون الطابور الأمامي منهمكا في إقامة مخيمه ويضطر بيبيري الى إصدار الأمر لفصيلة لإعادة الركوب والعودة لفك الحصار عن مؤخرة الطابور, الذين لا يزالون يقاتلون للدخول في المعسكر, وتتم مهاجمتهم بمجموعة جديدة من الشيشان.

أحيانا كان احد أولئك التتار يعود من مثل تلك الاشتباكات وقد ربط رأسا مقطوعا لاحد الأعداء الى قوس سرجه.

بدأ بيبيري منذ بداية الزحف, يقدر عاليا خبرة كوماروف ونصيحته. ما كان كوماروف ليسمح مطلقا بمثل هذه البعثة لأنه كان قادرا على تقييم العواقب الثقيلة. لكن بيبيري لم يكن يشكك في قدرته الشخصية على إنهاء الشيخ منصور مرة واحدة والى الأبد, بصرف النظر عن الكلفة. انه يقود قوة جبارة. سيرفع هذا النصر من فرصه للترقية ومن أحلامه في الانضمام إلى النخبة في الجيش الروسي. ان الإمكانيات عالية.

أمر بيبيري "ضاعفوا الحراسة في الليل, أريد الخفراء في سلسلة متصلة حول محيط المعسكر بكاملة"

"وحراسة خيالة عند الخيل التي تسقى"

لقد أصبح هذا الأمر الأخير ضرورة لان الشيشان يطلقون النار على خيل الفرسان اذا تركت بغير حراسة للرعي او شرب الماء.

صدرت الأوامر للخفراء بالتزام الصمت أثناء خفارتهم. لان طنين الحشرات, ضربة الرجل غير الإرادية على فخذه او أنته

الملسوعة كان يقابلها أزيز بندقية شيشانية. لقد كانت حرب أعصاب.

كان بوق الاستيقاظ يضرب في الساعة السادسة من كل صباح، رغم انه كان معروفا عن الشيشان أنهم لا يتحركون الى القتال الا بعد صلاة الصبح. لكن بعد تلك الاستراحة، تنهال الرصاصات عليهم بدون توقف ،بدون انتظام ، بدون استثناء، ومع ذلك الصوت الذي يئز ويكرهه الجنود.

وصل بييري في نهاية الأمر الى ضواحي قرية الشيخ منصور في منتصف صبيحة يوم رطب ماطر وضبابي. ان آلدي قرية صغيرة، محمية بشكل جيد بسبب بناء نصفها في وجه صخرة عالية معلقة فوق نهر السونجا الذي يتدفق بالسيول في هذا الوقت من السنة. كانت بيوتها الطينية مكونة بشكل اعتباطي متكئة الى بعضها، بعضها الآخر متكئ على وجه الصخرة، والأخرى جنبا الى جنب. كل سقف كان في الماضي شرفة أصبح الان موقعا عسكريا استراتيجيا وقد امتلأ بالمدافعين المسلحين. تفحص بييري الهدف بمنظاره الميداني. وكما هي العادة، لم يظهر للعيان اي أطفال او نساء او حيوانات. يحتمل ان يكون الشيشان قد نقلوهم سيرا على الأقدام الى منطقة يمكن الوصول إليها في مناطق أكثر ارتفاعا بين الجبال.

قال بييري وهو يمسح القرية من الضفة المقابلة للنهر "حسنا, ليقم المشاة الروس التابعين لي بأخذ الميسرة, وسوف تقوم سرايا القوزاق بهجوم خيالة من جهة الشرق بعد ان أعطي إشارتي: لنجعل المدفعية تؤدي عملها أولا".

أمر بييري سرية القناصة الذين هم تحت قيادته المباشرة ان يحضروا قطعتي المدفعية اللتين سحبوهما, قطعة قطعة, على عربات صعودا من الوادي, وان يركزوهما في موقع استراتيجي.

أصدر بييري تعليماته لهم قائلا: "عندما تسمعوا نداء النفير, سوف تتوقف المدفعية وتقومون انتم بإحراق القرية".

كانت هذه وحدة جديدة من قوزاق الفولغا التي يناط بها واجب إحراق اي مسكن ينجو من القصف المدفعي, وذلك يشمل دفع خيولهم الى حقول الذرة, يدوسون ويحرقون اي ساق نبات.

أنقشع الضباب أثناء انتشار جيش بييري. بدا وكأن شمسا صافية حادة تقوم برفع أقنعة الخوف عن رجال كلا الجيشين. بدأت المدفعية قصفها بنسف كل مسكن في قلب القرية. في البداية بقي المشاة على الضفة المقابلة لنهر السونجا, يقتنصون المدافعين الذين يتساقطون من فوق السقوف. لكنهم تقدموا فور ان تمكنوا من الحركة, وقد أشهروا سيوفهم, يوقفون الجرحى الذين يندفعون الى داخل النهر, المهاجمين بطريقة انتحارية في إغارتهم الأخيرة على العدو. تقدم جنود المشاة صفاً بعد الآخر حتى استطاعوا ان يكسبوا تغطية في الجزء الغربي من القرية.

في الجزء الشرقي, قطع الفرسان "ذوي الفولاذ البارد" بضربات متوالية التحصينات, العربات, جذوع الأشجار, البراميل من طريقهم, الى ان وصلوا الى قلب القرية. أحسن الشيشان تجهيز دفاعاتهم, لكن لم يكن بالإمكان إيقاف القوة البشرية الروسية الطاغية. وقتها فقط أدرك بييري ان الشيشان قد احتفظوا بمجموعة كبيرة من الثوار الخيالة في حالة استعداد لهذه المناورة بالذات. خرج هؤلاء الرجال من الأحراش الوقعة خلف آلدي, ممسكين بأعنة جيادهم بين أسنانهم مسرعين؛ ثم توقفوا على بعد عشرين خطوة ليطلقوا وابلا من الطلقات اليائسة من بنادق قديمة, ثم اعادوا تعليق البنادق على أكتافهم, وسحبوا السيوف واندفعوا مباشرة نحو مستقبليهم القوزاق, وهم يلوحون بسيوفهم القديمة. تبع ذلك قتال عنيف بالأيدي وتمنى القوزاق لو أنهم لم يغامروا بالدخول الى هذا العمق بتلك السرعة. فقد كانت الامهار الشيشانية الأصغر حجما تستدير وتهاجم بعنف وغضب ضد خيول القوزاق الثقيلة الخرقاء,

مما يعطي المدافعين ميزة هائلة في نسبة القتل، لقد كان الخيالة القوزاق يبادون في الجهة الشرقية من القرية, وقد تمت محاصرتهم من قبل الثوار. يستمر الشيشاني في القتال حتى بعد ان يخترقه الرصاص, ويشهر السيف في يده اليسرى بعد ان تكون ذراعه اليمنى قد تقطعت الى أشلاء.

وقف العقيد بييري الى جانب المدافع, يعض على شفته السفلى ويلعن وهو يشاهد معركة الخيالة.

من خلال الدخان، استطاع ان يلمح جواد الشيخ منصور الكاراباخ الابيض لمحة وجيزة, وهو يدور بعنف, رافعا يده عاليا بالسيف الذي يبرق في شعاع الشمس الخاطفة. هو يعرف على الأقل مكان عدوه. هذا هو الوقت للتصرف الحاسم.

"يا نافخ البوق، اسحب الرجال الى الخلف, أطلق نفير إعادة التجمع. سوف نقوم بمحاصرة القرية".

أراد ان يرجع بأقل عدد ممكن من الخسائر اذا استطاع, لكن أكثر من ذلك. أراد ان ينال من الشيخ, حيا او ميتا, مهما كان الثمن.

عاد القوزاق الذين تمكنوا من الإفلات من الاشتباك الى الخط الواقع على محيط القرية الخارجي في تشكيلة حصار. بدأت المدافع قصفها الشرس مرة أخرى, مدمرةً أية أبنية ما تزال واقفة في القرية.

استمر هذا القصف بدون توقف حتى المساء. لم يعد بييري يرغب في المجازفة أكثر من ذلك بأية هجمات بواسطة الخيالة. لم تكن هناك طريقة لمعرفة المفاجآت الأخرى التي يمكن ان يحتفظ بها الشياطين الجبليون.

بحلول الليل أصبح وجه بييري متجهما. لقد أحرقت قرية آلدي وسويت بالأرض، لكن خسائره كانت جسيمة, فقد قتل او جرح ثلث

قوة فرسان القوزاق, وأصبح نصف مشاته غير قادرين على المشاركة في القتال, وأصبحت وحدة المدفعية في حالة نقص حاد بالرجال.

ران صمت غريب على أحراش سونجار الى درجة ان صوت تكسير أخشاب البيوت وصرير سقوط الجدران الضخمة تجاوبت أصداؤه خلال الليل.

شاهد الروس في الصباح انه لم تبق جثة واحدة حول قرية آلدي. لم يكن هنالك شك في ان العديد من السكان قد أحرقوا حتى أصبحوا رمادا وكذلك سحبت الجثث التي كانت طافية على الماء الى الشاطئ عند مسافة أبعد نزولا في مجرى النهر, وقد سحبها الأحياء بعيدا عن الأنظار تمهيدا لدفنها. كذلك تم تهريب الجرحى من قبل المسنين وذوي العاهات والنساء. أغرق المطر الغزير صخور آلدي السوداء المسننة، والتي هي كل ما تبقى من منازل القرية.

فتش القوزاق القرية بحثا عن أية علائم على وجود الشيخ أو رجالة بلا طائل.

لقد انتهت المعركة، ولكن ماذا عن الشيخ منصور...! غضب بييري الى درجة الإحساس بالحياء, بسبب عدم قدرته على إعلان وفاة الإمام بشكل قاطع, ولعدم وجود جثة يحتفل بالنصر فوقها, لكن لم يقدر على إظهار حزنه لأي شخص فقد ترتب عليه القلق على رحلة العودة. لذلك استدعى ضباطه, وتحدث بشجاعة "ليعرف كل الرجال درجة النجاح التي أحرزناها. يبقى علينا فقط ان نعود الى خط تيريك في حالة نظامية, بأقل عدد من الخسائر وعلى الأخص بدون ان نفقد الأسلحة أو المدافع, شكلوا الطابور, أيها السادة ولنبدأ المسير الى بيوتنا."

ما يزال الرجال يشعرون بالخوف, وقد لعب الإرهاق دوره, إضافة الى المعرفة المسبقة بالتضاريس التي يترتب عليهم عبورها

مرة أخرى. ارتدى معظم الجنود المتمرسين البوركا لحمايتهم من انهمار المطر: وبدأت مسيرة جنائزية للخروج من الوادي, وقد أحنيت الرؤوس اتقاءً للمطر الذي كان يضربها.

أكثر ما كانوا يهابونه هو الغابة: فالغابة هي المكان الذي يمتلك فيه الشيشان الأفضلية.

قطعت قوات بيبيري اقل من ثلاثة فيرستات في ذلك اليوم الأول. فقد دأب القناصة على استفرادهم باستمرار، وغرزت العربات في الطين بأسوأ من رحلة القدوم.

أقام الروس معسكرهم في تلك الليلة الأولى في عمق أحراش الزان الشيشانية، حيث شكلوا معسكراً دفاعياً وضعوا فيه الخيول والمدافع في الوسط، والخفراء على المحيط. أرسلت مجموعة من عشرين عسكرياً لإحضار عيدان الاشتعال وقطع الحطب لإيقاد النار: وأرسل معها ضعفي ذلك العدد من الرجال لحمايتهم من القناصة المتواجدين على الدوام، الذين لا يراهم احد.

لم يعد احد منهم. ظن العقيد بيبيري انه سمع صوت بومة ليلية أثناء انتظاره لهم، ثم أخرى، وبعدها ثالثة: أدرك ان العدد أكثر مما يجب، وان الجبليين يرسلون الإشارات لبعضهم بعضاً. اشتدت قبضته على بندقيته، وقد بدأت الحقيقة تتضح على عقله الذي أنهكته المعركة. ان الغابة تعج بالشيشان. مرة أخرى شاهد الجواد الكاراباخ الابيض، وفوقه سيف فضي يتلوى الى الأعلى، يتلمع حتى برغم عدم اختراق ضوء القمر، قبل ان يتحطم سكون الليل للمرة الأخيرة بفعل صرخات الحرب التي أطلقها المنتقمون، وبفعل أزيز طلقاتهم.

***

حدق احمد في الملا غير مصدق "ذُبحوا؟ هل تعني ان القوة الروسية كلها قد أبيدت؟"

"اعتقد ان حفنة منهم تمكنوا من الهرب، ولكن ليس قائدهم، ذلك الذي يسمونه بييري"

"اذن لقد كان ذلك عظيماً بكل تأكيد أيها الملا"

اطرق الملا، غارقاً في التفكير، ثم نظر الى البعيد، متجنباً النظر الى احمد اثناء حديثه.

"سوف يعتقد "الجاور" ان النصر كان حليفنا، ولكن بالنسبة إلينا لقد كان الثمن لا يحتمل يا احمد"

كانا واقفين الى جانب بيت الملا، يرقبون عودة احد المتطوعين، وهي مجموعة قد نال منها الجوع والتعب. ظهر كوير، وقد حال لونه الى السواد بفعل السناج الذي غمره من الرأس الى القدمين.

كان قد ركب بدون توقف حتى يبلغ الملا الأخبار عن سونجا. وانشغل باسل في تلك اللحظة بالاهتمام بجروحه بينما وقف والده ايلدار فوق رأسه، وهو يهز رأسه. لقد كان يشعر بالفخر لإخلاص ابنه نحو الشيخ منصور، سعيداً بنجاته، ومع ذلك غير قادر على ان يرى شيئاً ما قد تحقق.

قال ايلدار: "يبدو ان الشيخ منصور سالم في هذه المرة أيضاً، الحمد لله على ذلك، ولكن الى اين سيذهب؟ لا يمكن ان يأمل بتجميع جيش آخر في بلاد الشيشان. بعد مثل هذه السلسلة من الهزائم."

أدرك احمد ان ايلدار قد قال الحقيقة. هنالك حد لكمية الموت والتشويه التي يستطيع أهل الجبال ان يتحملوها في مثل هذه الفترة القصيرة من الوقت، لقد وصلوا الى هذا الحد، وكذلك أهل العديد من المستوطنات في إقليمهم.

قال الملا بقلبٍ حزين "لقد كان مراد على حق، يجب ان نلتزم بنمط القتال الذي يخصنا. نحن لسنا بعد نداً لمدافع "الجاور" لقد كانت كيزليار غلطة".

لم تكن هذه هي النبرة التي يعرفها احمد عن الملا. ولكن ان يفقد الإنسان ابنه الوحيد ووريثه، وبدون سبب ملموس. أمر أكثر مما يمكن احتماله. رفع ايلدار رأسه وهزه موافقاً "ثم قال: نحن بحاجة الى قائد يستطيع ان يوحد القبائل قبل ان نتمكن من مهاجمة الروس على أراضيهم، ليس لدينا أمل في كسب الانتصارات إلا اذا حكم هذه الجبال إمام "قوي بقبضة حديدية، يقتل كل الخونة الذين لا يطيعون، يدمر كل القبائل التي تتآمر مع العدو. وقتها فقط يمكننا ان نأمل في طرد "الجاور" من جبالنا، وليس قبل ذلك".

بينما كان الرجلان يراقبان المقاتلين وهم يتفرقون ذاهبين الى بيوتهم، دخل الى القرية فارس قفقاسي غريب يرتدي "تشيركيسكا" انيقة. دلت أناقته على انه لم يكن قد ذهب الى آلدي او اية اشتباكات أخرى مؤخراً، مع انه حمل أسلحته في حالة استعداد.

بعد ان سأل المقاتلين عن الاتجاهات، ذهب بفرسه الى بيت الملاّ ثم ترجل، وطرح التحيات الرسمية باحترام باللغة التترية.

"التحيات أيها الإخوة، انا حافظاً من القباردي." قالها بأدب وهو يقدم نفسه "لقد جئت ابحث عن احد رجال قبيلتي الذي يعيش في هذه الجبال ، انه حابسا مراد... هل سمعتم به؟"

رفع الملا يده بالتحية، وهكذا فعل احمد مع ابتسامة مقتضبة، أنا ايضاً قباردي، من الكوبان،

أهلاً بك." تكلم بلغة "الاديغه"، صافحه الغريب واستمر يمسك بذراعه، ثم عانقه بحرارة فور ان ميّز اللغة القباردية الواضحة. أجاب الملا على الغريب باللغة التترية "إنني ملاّ هذه القرية. ان قريبك يعيش فعلاً بيننا. سيأخذك صديقي احمد إليه، هل أنت لوحدك؟"

"ان رفيقيَّ الاثنين يستريحان في مكان قريب من هنا. لم نشأ ان نقترب أكثر مما فعلنا حتى لا نثقل عليكم بسبب وضع جرحاكم. لم نشا ان نثقل عليكم"

"انتم على الرحب والسعة ايها الاخ. ليست متاعبنا عذراً لنا لعدم تكريم زوارنا على الإطلاق. يمكنك ان تصطحب رفيقيك وتحلون ضيوفاً في اي وقت ترغبونه" قال الملا بحرارة. "ان القباردي مرحب بهم في بيتي على الدوام".

شكر الغريب، حافظا، الملاّ ثم استدار نحو احمد "ساكون ممتناً لو انك تأخذنا الى مراد. ان مهمتنا عاجلة، معي رجل مسن من ال"لابق".

قال احمد "من بعد إذنك أيها الملا، سأصطحب هؤلاء الضيوف الى مستوطنتنا ، ان معه نبيلاً من الحابسا، وهو مبعوث من والد مراد بدون شك "إبتسم الملا موافقاً وتكلم مخاطباً حافظا "ارجوك، ايها الضيف المكرَّم، اصطحب الرجل المسن الذي معك وشرفا بيتي بزيارتكما. نحن لا يمكن ان نبقي نبيلا من القباردي ينتظر خارج قريتنا".

ابتسم حافظا بحرارة مقدراً الدعوة "استطيع ان ارى لماذا اختار مراد أن يعيش بين شعب ذي نخوة مثلكم، ايها الملا. سوف انقل دعوتكم الى الرجل المسن، وسوف نقبل دعوتكم اللطيفة حقاً في يوم آخر. ولكن الآن وباذن منكم، ان مهمتنا مع مراد عاجلة. إننا نرجو ان تسمح لنا بالمغادرة".

"لن أؤخركم ايها الضيف المبجل. سوف انتظر استقبالكم جميعاً الى مائدتي المتواضعة قريباً.

اذهبوا ورافقتكم السلامة.

***

كانت تسيما تحس بهدوء اشمل، بعد أن عادت الى بيتها. وقد دخلت في منتصف فترة حملها حسب راي باسل فأصبحت أكثر استقراراً من الأسابيع القليلة الماضية بدنياً. ولكن لم يتراجع تفكيرها في حمزات، إلا أنها باتت مسرورة لإعفائها من رؤية كل تلك الدماء. شعر احمد بامتنان مضاعف لأنها لم تكن متواجدة في قرية الملاّ حتى تشاهد عودة المقاتلين من آلدي، وتسمع تفاصيل المذبحة الرهيبة.

قالت تسيما بشرود، وهي تقدم طعام العشاء لاحمد. "لديهم خيل جميلة."

أدرك احمد مسار افكارها "تقصدين زوار مراد؟"

"لا بد لي من القول ان ملابسهم رائعة." التشيركيسكا " التي يرتدونها جميلة، وكذلك سيوفهم وخيولهم"

"خيولهم من رسن القباردين الطيّب. إنني لأعجب من سبب قدومهم".

"وكذلك انا". بلغ الفضول لدى تسيما منتهاه.

ابتسم احمد، سعيداً لرؤيتها تركز اهتمامها على أمر آخر غير أحزانها.

ظهر مراد على عتبة بابهم توقف عن الأكل. "لديّ ضيوف وها هي مدينا تسكب الطعام في هذه اللحظة. تعال، تعال، لا تجعلنا نترك الضيوف ينتظرون".

قفزت تسيما واقفة في الحال، وقد سرت بإرضاء فضولها. ابتسم احمد وقال بقصد الإغاظة" اذا كان لديك ضيوف، لماذا أزعج نفسي؟"

فوجئ مراد "تعال الآن. لا تتحامق. إنهم ينتظرون. تسيما، ادخلي بعض المنطق في رأس زوجك!"

هتفت بزوجها "احمد، انني مندهشة منك!" متشوقة للانضمام الى مدينا لتسمع الأخبار" هيا، اذهب!" سارعت الى رفع الأطباق عن المائدة وشكلت بوجهها إشارة مضحكة.

قال ببطء، "حسناً، ولم لا، ليس في كل يوم يقدم لي العشاء مرتين؛ هل تعرف هؤلاء الناس من قبل؟"

"انهم من الحابسا، من أبناء قريتي. اعتقد ان والدي قد أرسلهم لكنهم لم يصرحوا بذلك بعد.

الرجل المسن، تيمرقان، هو مستشار والدي. انه رجل بارز جداً ولا يسافر الا في المهمات البالغة الأهمية". لحق احمد برفيقه الى بيته. قدّم مراد الشاي من سماور روسي قديم ، ثم عرّفه على تيمرقان، وهو الأكثر تمييزاً بين الزوار الثلاثة بشكل واضح. فوجئ احمد قليلاً عندما شاهده ، كان تيمرقان أكثر ميلاً الى السمرة من الآخرين: أكثر من جميع القباردي الذين عرفهم قبلاً. استنتج احمد انه لا بد وان يكون من أصل بلقاري. فقد علم بوجود الكثير من هذه الأقلية، التي هي من جذور تركية، ويعيشون بسلام بين القباردي: أثرى بعضهم ولم يكن هناك من سبب يمنعهم من تبوء مناصب رفيعة. وقد تبنى معظمهم اللغة "الاديغه". تيمرقان رجل في أوائل الأربعينات من عمره، قوي البنية بوجه وسيم تعلوه سيماء الحكمة. تقوّس شارباه الى الأعلى على جانبي وجهه، مما منحه مظهراً مهيباً. كان حافظا الأصغر سناً والأكثر حديثاً بين الثلاثة. قلّما فارقت الابتسامة وجهه. انه نبيل قباردي جريء يقدر مظهره الخارجي وحركاته عالياً. بدا عليه حسن التصرف في كل ما يقوله ويفعله. مع انه متشوق للحديث في أي موضوع أو نظرية. وقد ذكّر احمد إلى حدٍ قريب بباسل، الخبير بالحياة والناس: فهما من نفس المعيار. أما الرجل الثالث فهو من الصنف الهادئ ولا يستجيب إلا إذا سئل. ظهر لأحمد وكأنه الفارس المقاتل في المجموعة الصغيرة، الحامي الصامت اليقظ للنبيل.

بعد فترة صمت وجيزة، بينما يتم استهلاك الشاي، خاطب تيمرقان احمد بقوله "ان والد مراد أمير عظيم الشأن لدى القبارديي. انه أمير الحابسا"

قال احمد "لقد كنت أخمن ذلك، لكنني أسامحه".

كانت نظرة تيمرقان حادة مخترقة، وقدّر النكتة، لأنها مؤشر على درجة التقارب بين الرجلين، بينما اكتفى مراد بهز رأسه وهو يبتسم.

"لم يعد الأمير, منحه الله القوة، رجلاً صغير السن بعد الان. بإمكانك ان تفهم رغبته في ان يجمع أبناءه حوله في الأيام الأخيرة لحياته."

ما كان بوسع احمد إلا أن يصغي بكثير من الشعور بالحسد لفكرة رجل يصل الى سن متقدمة بشكل طبيعي وينظم شؤونه الدنيوية، بدون ان يتوقع ان يوضع حد لحياته في أية لحظة.

استمر تيمرقان في حديثة بسلاسة "لقد كان المقصود بغياب مراد عن بلادنا ان يكون مؤقتا. لقد شكل عدم تمكننا من معرفة مكان تواجده هما كبيرا لنا. بإمكانك ان تتخيل الفرح الذي شعرنا به جميعا عند معرفتنا بمكانه" ثم استدار نحو مراد مبتسما.

"ان مقاتل الميسوست الذي جرحته في المعركة هو الذي أخبرنا".

ظهر على محيا مراد تعبير غير قابل للتفسير, بسبب تضارب أحاسيسه.

أجاب احمد أولا "اذا كنت تسمح لي بالكلام أيها ال "تحمادا"... انا لا أستطيع ان أخبرك عما يجيش في قلب مراد لكنني أستطيع ان أخبرك بهذا: لو كان الشيشان يمارسون نظام "الورَق" والأمراء القبارديين لنصبوه أميرا شيشانيا منذ وقت طويل.

أصغى الضيوف بتركيز.

استمر احمد في الكلام, على الرغم من نمو كتلة في حلقه "انه قائد بين مجالس الشيشان وقد حارب الى جانب أفضلهم, واثبت رجولته. لديه أسرة رائعة وأطفال ذهبيون. لا اعرف ماذا يحتاج الرجل أكثر من هذا في هذه الحياة".

تبع هذا الكلام فترة صمت مهيبة. عثر تيمرقان في نهاية الأمر على الكلمات الملائمة "هناك أمر واحد آخر يحتاجه الرجل في هذه الحياة, وهو صديق مثلك, يا احمد الكوباني!".

ابتسم جاره في الجلسة, حافظا, في إشارة تقدير وإعجاب لأحمد.

"لقد بدأنا لتونا ندرك مدى صعوبة مهمتنا".

ثابر تيمرقان في إصرار "لكننا يجب ان نكرر رغبة والده, ونرجو من مراد ان يفكر بجدية. يا مراد, سوف نستمر في التطفل على كرم ضيافتك, حتى تتوصل الى قرارك, أو طالما أنت تفكر فيه".

رفع مراد نظره إلى أعلى, وقد علا محياه تعبير محايد, لا ينم عما يفكر فيه.

"انتم على الرحب والسعة. أشكركم على حسن النية الذي أتيتم به الى بيتي المتواضع, سوف نستمتع بصحبتكم".

تمعن احمد في وجه صديقه, لكنه لم يستطع ان يكشف أية إشارة على اتجاه تفكيره. لم يكن بإمكانه ان يتخيل الحياة في هذه الجبال بدون مراد والأطفال, إنه قرار صعب، وهو قرار سبب الألم لأحمد.

***

جلس الجنرال محني الظهر فوق مكتبة, والنسيم القادم من نهر الكوبان يتلاعب بأوراقه, ويسبب له الضيق. ضرب التقرير بقبضة يده بقوة ليمنعه من التحويم وأطلق سيلا من السباب. ألقى برأسه الضخم بين يديه, وقد انتصبت كتلة الشعر الكثيفة من خلال أصابعه.

وقف الجنرالان بتروفيتش وجريجوريفيتش. شاهدان على حزنه. كانت عين القائد العام الواحدة تقطر دموعا, وارتجفت كتلة جسمه الضخمة من النشيج. كان بوتمكين يفكر في خسارة قوات بييري, وبدأ يغوص تدريجيا في الكآبة التي لا يخففها سوى الفودكا. لم يرغب اي من الجنرالين ان يكون رفيقه في تلك العربدة. لأنها ستكون عربدة فعلا. فقد كانت قدرة الجنرال بوتمكين على الحزن بالإضافة الى الشرب أسطورية.

دقق الجنرال بتروفيتش في بوتمكين باستغراب. هل من الممكن أن يشعر الرجل العظيم بالذنب؟ كلا. ربما يشعر بالندم ولكن ليس بالذنب. في نهاية الأمر, لقد لقي بييري حتفه نتيجة لتشجيعه المباشر. لكن عدد الخسائر كان كبيرا جدا بأية مقاييس للحرب. يجب ان يدفع الثمن شخص ما.

غمغم بتروفيتش "اذا سمحتم لي بأن أغامر باقتراح.........".

لم يتحرك بوتمكين. فقال بتروفيتش

"لقد تم إنجاز أكثر مما تفكرون به سعادتكم, يبدو ان هذا المتوحش منصور قد نقل معسكره باتجاه الغرب, مع نفر قليل من أتباعه. نحن اقدر بكثير على السيطرة على الثوار في المناطق الغربية. حيث يتواجد الآن, من سلسلة جبال القفقاس المركزية.

أضاف الجنرال جريجوريفيتش "نعم, في الحقيقة, لا يمكن ان يصمد لمدة طويلة بين الشراكسة هنا في الغرب. انهم ليسوا سريعي التأثر بالعصيان بقدر الشيشان."

ورفض بوتمكين ذلك الرأي "ان الجيش في حالة انهيار. انتم تعرفون ذلك, وانا اعرفه. ان سوفوروف على حق. ان الصفوف ملأى بالطفيليات بقدر امتلاء سفن السجون التي تبحر من سانت بطرسبرج. لعنهم الله! سوف أنفذ أسلوبي هنا!". هبطت قبضته بقوة الى درجة ان الشمعدانات ارتعشت وكأنها تنذر بحدوث هزة أرضية.

أجاب الجنرال جريجوريفيتش بنعومة "ان القوة البشرية الروسية بلا حدود, يا صاحب السعادة, لا يتوجب إشعار صاحبة الجلالة الإمبراطورية بالإنذار بدون ضرورة. أرسل لها رأس أحدهم على طبق واسمح لسوفوروف ان يستمر في عمله الممتاز."

تكلم جريجوريفيتش بطريقة قرف شخص يفضل ان يدع شخصا آخر يؤدي عمله القذر, بدون اي اعتراف بقدراته المتفوقة. انه يسعى الى عدم رؤية اي إخفاق من جانبه في هذه الانتكاسة. وكذلك فأن حقيقة كونه قد أثرى من التموين الذي تم استلامه, وان ضباطه قد ملأوا جيوبهم من خلال احتيالات فاسدة بمنتهى العبقرية هي من حقائق الحياة– وهي امتيازات الرتبة.

استمر جريجوريفيتش في التفكير بصوت عالٍ "بالطبع انا أضع اللوم على كوماروف"

"كوماروف؟" ارتفع رأس بوتمكين الشبيه بلبدة الأسد الى الأعلى.

"لقد كان القائد الأعلى من بيبيري، حصل هناك إيجاز سيء، بلا شك".

"جريجوريفيتش. انت تعلم بقدر ما اعلم ان كوماروف ما كان يفكر أبداً بالزحف على آلدي بلوائه."

"كلا، ربما تلك هي المشكلة. هو لم ينتهز الفرصة. لقد أعطى الجبليين الوقت الكافي لإعادة التجمع. أعطاهم وقتاً أكثر بكثير مما

يجب. حسب رأيي. كان يجب إحراق قرية آلدي منذ شهر تموز الماضي."

نهض الجنرال بوتمكين واقفاً وأصدر أوامره الى سكرتيره.

"قدم مجاملاتي الى رئيس هيئة أركاني. اعلمه أنني آمر باستدعاء العميد كوماروف."

استرخى بوتمكين. سوف يأمر سوفوروف بجعل الجنوب في حالة سلم ممتازة، تمهيداً للجولة الكبرى لكاترينا العظيمة في الصيف القادم، والتي ستتوج بالاستعراض الملكي لأسطول البحر الأسود في شبه جزيرة القرم. ستكون تلك نقطة تتويج سيرة حياته.

لقد بدأ سوفوروف فعليا الاستعداد لإعادة تمثيل معركة بولتافا التي انتصر فيها جد القيصرة بطرس الأكبر على الملك شارل الثاني عشر ملك السويد, مستخدما مقاتليه السوزدال الرائعين.

في تلك الأثناء, سيتم تصحيح الأخطاء. لن يسمح لأحد في موسكو او سانت بطرسبرج ان يشكك في قيادته الواثقة. اذا كانت الحاجة تدعو الى "رأس على طبق" فسوف يقدم واحدا بدون تأخير.

***

توقع المجتمع حسب تشكيلته على خط الجبهة ان تقوم الأميرة صونيا مع زوجها بانسحاب هادىء الى حصن كونستانتينوجورسك على ان تواجه الإذلال العلني في ايكاتيرينوجراد.

لقد دأب عدد من الأفراد العسكريين المرضى على القيام برحلات الى الينابيع الواقعة في الحصن الصغير المسمى على اسم القيصر قسطنطين تحت الحراسة المسلحة, وقد حصل تحسن مؤثر في صحتهم. ستكون تلك وسيلة مجدية بشكل تام لإنقاذ ماء الوجه.

بإمكان الأميرة صونيا ان تعلن بسهولة ان تعافي الجنرال كوماروف سيتعجل بتناول المياه المكتشفة حديثا من قبل

الأرستقراطية الروسية في بياتيجورسك، على الهضاب الشمالية عبر نهر التيريك: فالهواء هناك نقي وقد تمكن القوزاق من إخضاع الإقليم بشكل شبه كامل.

ولكن الأميرة صونيا أخبرت الجميع بالحقيقة على أية حال. فهي وزوجها عائدان الى البيت في سانت بطرسبرج. تسرب السبب الى الخارج بسرعة. لقد ألقيت مسؤولية المذبحة التي وقعت لقوات العقيد بييري في حملة آلدي على كاهل العميد كوماروف وقد تم إعفاؤه من الخدمة الميدانية.

أصبح واضحا لدى الأميرة صونيا ان زوجها قد استعمل ككبش فداء, وهي الإشارة الأولى على اتساخ سيرته العسكرية التي بقيت بلا أخطاء حتى تلك الآونة – وذلك بالذات ما جعل الاتهامات تبدو مشكوكا فيها الى حد ما. والمؤسف فيها هو ان كوماروف سيغادر القفقاس بدون ان يحقق الثروة التي رأى الضباط الآخرون ان تحقيقها عن طريق النهب أمر لائق. ربما وهب ذلك السبب صونيا الشجاعة لكي لا تبتعد منهزمة. لم يكن من شخصيتها ان تدير ظهرها لأية هزيمة, بالإضافة الى ذلك, فقد أرادت ان تبقى في اقرب مكان من الجبال حتى آخر دقيقة, في حال عادت الأخبار بأية كلمة عن ابن عمها باسل.

ان باسل رجل متعدد القدرات, ذكي، وهو رجل أكثر امتيازا من ان تبعثر حياته بهذا الشكل. ومهما كانت القوة مخادعة تجاه زوجها. فقد رفضت الأميرة صونيا ان تقبل بأن تنتهي حياتها السعيدة في القفقاس بهذه الكارثة الكاملة. أصرت على ان الجبال ستسلم باسل في نهاية المطاف.

بالإضافة الى ذلك, كان الجيش الروسي يعج بالمؤامرات: والسقوط من نعمة الرضى شائعا– حتى سوفوروف نفسه قضى سنوات في براري استراخان بدون ان يحصل على ترقية, وقد سمعت إشاعات مفادها ان السبب هو انه توفرت لديه الوقاحة

للرغبة في تطليق زوجته الخائنة! لقد استغرق القيصرة وقت طويل حتى تتسامح في مثل هذه السخافة الاجتماعية, خاصة وأن الزوجة المعنية بالأمر تمت بصلة قرابة بعيدة بعشيق كاترينا, بوتمكين. سوف يعاد الاعتبار لكوماروف طال الزمان ام قصر- ربما عندما يسقط بوتمكين نفسه الذي يعاني من جنون العظمة, وهو أمر محتوم بمرور الوقت.

كان كوماروف والأميرة صونيا يرشفان القهوة في غرفة الشرفة صباح أحد الأيام, وهما يواجهان يوما آخر متعباً من اتخاذ القرارات بشأن توضيب ونقل مقتنياتهما القيمة والتي كانت تقاطعها زيارات الضباط رفيعي الرتبة الذين كانوا يأتون للمواساة والتوديع.

قالت الأميرة صونيا بضيق "حقيقة ياكوماروف, أتمنى لو انك لا تتدخل في خططي البيتية. انا قادرة على التعامل مع هذا الأمر جيدا لوحدي."

"نعم, وتجعلي كل أرمني محتال يكسب النقود من تقدمك في العمل من هنا وحتى تيفيلس."

أجابته بخشونة "لم تكن تشتكي مطلقا من إدارتي المنزلية قبلا".

"لقد كان لديك هاشم كوسيط عندك! إضافة الى ذلك, كان التقدم والثروة الأكبر بانتظاري في ذلك الوقت, خلافا للحاضر".

"ذلك أمر يدعو للسخرية. ستكون قادرا على استنهاض مناصريك وإصلاح الوضع بمجرد وصولنا الى سانت بطرسبرج. انا لا أشارك في الكلام الانهزامي."

ران الصمت بينهما, كوماروف يشعر بالحنق على حظه التاعس وحزين لفقدان خادمه هاشم: والأميرة صونيا متضايقة من وجومه. فهي لن تسمح لليأس أن يستفحل, فقد تخيلت انها لو فعلت ذلك, فانها ستضعف من فرص باسل في البقاء حيا.

فهو الشخص الوحيد في عائلتها الذي شاهد حياتها في القفقاس. لقد فهم سعادتها.

وهي بحاجة الى بقائه حيا, لإبقاء تلك النفسية حية وقائمة على الثقة فيما بينهما. لقد شعرت بالفزع من عودتهما الى سانت بطرسبرج, حتى يعلقا في كل صغائرها: الرسميات, التدافع للحفاظ على المواقع بإقامة التحالفات بين درجات الأرستقراطية الأربع عشرة المسجلة حسب أسماء العائلات في" الكتاب المخملي "المقروء بكثرة: عشرات الأمراء من عائلة جاليتزين, الفروع الطيبة والسيئة من عائلة ناريسكين... كلما أسرع كوماروف في الحصول على قيادة أخرى, كلما كان ذلك أفضل لكليهما.

انقشع الجو السلبي بينهما بوصول التاجر الأرمني, ارتونيان. الأميرة صونيا ميالة إليه: فهو يمتلك سحر القرصان وقد اقرضها المال في كثير من المناسبات سرا لتسديد ديون مقامرتها بدون ان يكشف أزمتها لزوجها.

سأل, وهو ينحني بقوة ليقبل يدها "هل سمعت, يقال ان الشيخ منصور هاجم حصن ناؤور. وقد هزم رغم ان الحامية هناك ضعيفة. هزيمة أخرى للجبليين! ان اعتقادي هو ان قواته سوف تتخلى عنه, بمجرد حلول فصل الشتاء."

بدأ كوماروف متشككا. "ربما, ربما لا, يمكنه ان يلتجيء الى الأتراك طلبا للمساعدة. سيظلون مهتمين بتعكير الأمن لنا في القفقاس. نحن لم نسمع آخر الأنباء عن منصور, انا واثق من ذلك."

" لدي أخبار أفضل يا صاحب السعادة."

"حسن يا ارتونيان, دعنا نسمعها ".

"لقد عثرت على شخص في كيزليار, شخص سوف تسرك رؤيته...." ذهب أرتونيان الى الباب وأشار بيده. اندفع الى الداخل هاشم متسخ الملابس وقد غطى وجهه السخام. لم يشعر بميل حتى

للخطو نحو الشرفة. حتى اطمأن الى ان سيده القديم لا يريد به شرا. وقف في مكانه حاملا قبعته بيده, وقد ارتسمت على وجهه إمارات الذل والبؤس.

زمجر فيه كوماروف قائلا "يا الهي الطيب! أين كنت أيها الرجل!".

بدا على هاشم الغضب والحرد. وكان لديه ملء الحق, وهو ما شرحه أرتونيان فورا.

" يبدو ان العقيد بييري قد أمر بسجنه في كيزليار لبعض الوقت ومما يؤسف له انه أمر كذلك بتقييده. لقد حامت شكوك حول تهمته- جاسوس أو عميل ضد الجواسيس. لم أتمكن من التوسط الا بعد المذبحة ووفاة العقيد. لم يبد أحد كبير اهتمام به" ثم سعل, كأنما يقلل بذلك من أهمية عمله في الحصول على حرية هاشم, ولكنه في الحقيقة كان يأمل في ان يكون قد أوصل فائدته واستحقاقه لجائزة ما.

تصرفت الأميرة كما تفعل الأم مع طفلها الذي ضاع منها. ركضت نازلة الدرجات وهي تنتفض من الغضب وبدأت تصفع هاشم في كل أنحاء رأسه. "تكلم! هل فقدت لسانك؟ أين هو ابن عمي! أين هو؟ ".

وقع هاشم على ركبتيه, وقد غطى جمجمته بيديه للحماية, ولم ينبس ببنت شفة.

صرخ كوماروف وقد تدخل بين صونيا وتابعه القرشاي "اتركي أمر هذا الرجل لي!" ثم قال باللغة التترية لهاشم "انها لا تقصد بك شرا, انها متضايقة, انهض, أيها الكلب العجوز."

نظر إليه هاشم بعينيين متحجرتين ومد كوماروف يده ليساعده على النهوض على قدميه "اذهب الى المطبخ".

تثاقل هاشم مبتعدا وهو يتألم. فإن مرفقيه ما زالا محمرين من البثور التي سببتها قيود الساقين في سجون كيزليار.

حدق كوماروف في زوجته مغضبا "لقد كنت على حق يا سيدتي, سوف تدبرين أمورك بشكل جيد جداً بدون هاشم. أرغب في أن أغادر بحلول الرابع عشر من تشرين الأول, واترك العملية كاملة ليديك القديرتين." انطلق كوماروف ليتكلم مع هاشم بتفصيل أدق, بدون ان يترك مجالاً للشك في عقل الأميرة صونيا بأنها قد تجاوزت حدها عندما رفعت يدها بالضرب على أقدم قن عنده.

حوم ارتونيان في مكانه, وقد رأى طريقة يمكن أن يستغلها من هذا الخصام الأسري. "إسمحي لي يا صاحبة السمو. بإمكاني أن أدبر وسائط النقل- وطبعا سوف تحتاجين الى الفراء,. انت ستسافرين في وقت متأخر جدا من السنة... ستهب عواصف ثلجية في طريقك."

تركت الأميرة صونيا الأرمني يتفاخر عن خدماته أثناء شرب القهوة, وكانت تستمع بنصف انتباهها: وتراقب عودة كوماروف من جناح الخدم. انتبهت فجأة الى ان أرتونيان قد توقف عن الكلام."

"ماذا؟ ما الذي قلته.؟ سامحني.... إنني في غاية القلق على ابن عمي."

انحنى أرتونيان الى الأمام حتى يتحدث بسرية "لقد أخبرني هاشم ان الشيشان قد أخذوا باسل رهينة. كان يفترض فيه ومعه ايفانوف ان يعودا بكمية من البنادق لتخليص باسل لكنهما تعرضا لكمين. أطلقت النار على المساعد ايفانوف. إنني شديد الخوف... "وهز رأسه" مع وجود هذا الشيخ منصور ستبقى الجبال ملتهبة...".

شعرت الأميرة صونيا بغضب عارم. منع الغضب حلول الخوف. المعروف عن الشيشان أنهم أكثر القبائل تعطشا للدماء, لا يكتفون فقط بمضايقة الدوريات الروسية بشكل دائم ولكنهم أيضا يواصلون الخصومات والاقتتال فيما بينهم.

"هذه معلومات عسكرية! اصمت يا ارتونيان, والا سأضطر الى التبليغ عنك الى السلطة العسكرية".

فوجيء ارتونيان. فالأميرة صونيا قادرة على ان تكون بغيضة جدا. "لقد تكلمت فقط لكي أوضح لكِ" تلعثم في كلامه, لكنها قاطعته وأخرسته.

"أشكرك. يمكنك أن تغادرني الان".

انحنى أرتونيان خارجا والأميرة صونيا تراقب انضمام كوماروف اليه ثم ركب الاثنان في عربة وانطلقا لتبادل المزيد من الأحاديث أثناء تناول وجبة الغداء.

كان كوماروف يعاقبها بعدم إخبارها القصة كاملة. أسرعت لتبحث عن القرشاي, فقد كانت بحاجة اليه ولذلك تأهبت لتتصرف بأسلوب استرضائي.

وجدته نائما في الإسطبلات فوق كومة من التبن. بدا عليه أنه مرهق ومحموم. وقد تأكد كوماروف من حصوله على وجبة طعام وزجاجة من النبيذ الكاخيتي الفاخر.

طعنته الأميرة بطرف حذائها الأمامي "استيقظ"

فتح هاشم عينا واحدة.

قالت له بنبرة حادة "لا داعي لأن تنهض- انا فقط أريد منك كلمة واحدة".

لو أنه تجرأ على السخرية, لغضبت منه مرة أخرى. لكن هاشم أدرك جيدا أن هذا الأسلوب الجلف هو طريقة سموها في الاعتراف بانها مذنبة بغير إنصاف. جلست على برميل قريب.

" أنت ــ لقد رأيتك تتنبأ بالحظ, بواسطة الخرزات. أفعلها من أجلي يا هاشم" أسقطت عند قدميه جزدانا صدر عنه صوت إمتلاء أشعره بالرضى "انا متأكدة من ان باسل ما يزال حيا. أخبرني بما تراه."

عدل هاشم من وضعيته وأخرج خرزاته الواحدة والأربعين "لقد كان شجاعا, قريبك هذا" ابتلعت الأميرة صونيا الكتلة التي تشكلت في حلقها. ان هاشم, مثل كل الآخرين, يعتقد ان باسل ميت.

جلس وقد عقد رجليه ثم أخذ يتمتم ببعض الأدعية فوق راحتيه المغلقتين حتى يسايرها، ثم ألقى بالخرزات الى الأرض, فتدحرجت في مجموعات صغيرة فوق الأرض الصلبة.

قالت الأميرة صونيا بأكثر نبرة آمرة تقدر عليها" حسنا؟".

بدا على هاشم الاضطراب والتأثر. كالعادة, لم يكن بالإمكان السخرية من الخرزات. ما رآه كان مكشوفاً وواضحاً.

تمتم كأنه غير راغب في الكلام "انني ارى مرضاً شديداً"

"هل تعني ان باسل حي, ولكنه مريض؟ أين بحق الله!" هزت الأميرة صونيا هاشم من كم سترته.

كان القرشاي مرهقا, ويعاني من الآلام, ولم يكن في حالة تسمح لأحد بالاستقواء عليه. لكن كل ذلك أمكن التغلب عليه من وضوح المنظر المطروح أمامه, ولم يجرؤ على ان يروي ما يراه كله حتى لهذه المرأة الروسية الملحة, لان معظم ما يراه لا يخصها بكل الأحوال. لقد عرف الله سبحانه وتعالى أهم خمسة أشياء في حياة الرجل: استمراريتها, أعماله, مكان سكناه, رحلاته وإنجازاته. لقد منحته الخرزات لمحة – مجرد لمحة من الخطة الأكبر, وكان النمط فيها دقيقا.

"هنالك الكثير من المعاناه. المزيد منها قادم. سيضحي رجلان بنفسيهما لأجل القضية, سيتم العفو عن أحدهما. هنا, هذا هو انا." أشار الى حجر واحد منفصل عن أثنين آخرين

صرخت فيه الأميرة صونيا "أية قضية؟ اية تضحيات؟ انك تقول تفاهات!" ثم رفست الخرزات في يأس "إرمها مرة أخرى."

ابتسم هاشم لأنه كان واثقا من أن رسالة مطابقة ستظهر في شكل آخر, لكنه طرح الخرزات بكل الأحوال.

"هذا الرجل مفقود بالنسبة اليكِ أيتها الاميرة"

"مفقود! مفقود! هل تعني بأنه ليس ميتا؟"

"ما كان ميتا هو حي, وما كان حيا قد مات. هنا يوجد صليب. سيكون هذا تقاطع طرق. وأنا هنا. وما كان مفقودا قد تم العثور عليه. لا أستطيع ان أخبرك بأي شيء مختلف"

"سخافة وضيعة! هو ليس ميتا! أنا ببساطة لن أسمح بهذا الكلام!"

استدارت الأميرة صونيا على عقبيها وعادت الى واجباتها المنزلية. لكن هاشم استمر بالتحديق في الخرزات, لأنه رأى فيها شياطين الموت ولذلك أراد ان يعرف ما اذا كانت إرادة الله تقضي بأن ينقذ نفسه مرة أخرى.

***

عندما دفن الشيشان جثة آرسبي المقطوعة الرأس, التي تشوهت في آلدي, وقتها تغير شيء ما في تسيما. فحتى تلك اللحظة, ظلت تعارض الرحيل الى القباردي.

كان مراد قد أصر على انه لن يترك أحمد خلفه. فقد أصبح الرجل أقرب من أخ بالنسبة اليه والى أطفاله, أخبر تيمرقان بذلك, واقترح أن يتم توجيه الدعوة الى أحمد لكي ينضم إليهم في بلاد الحابسا على أساس نبيل قباردي بما يناسب سلالته. والا, فأنه, اي مراد, سيقرر البقاء في الجبال. كان باستطاعة تيمرقان ان يتخذ هذا القرار بسهولة وسرور. لكن المشكلة لم تكن كامنة في أحمد بل في زوجته تسيما. ولم يكن أحمد راغبا في الضغط على تسيما لتختار ومع ذلك فقد كان نصف مقتنع بأن مستقبله موجود مع شعبه, "الأديغه". وسيكون قرار الرحيل مؤلما بالنسبة لتسيما.

إن احتفال الدفن هو بؤرة الارتكاز لكل حزن الجبليين. لقد كانت حصيلة ذلك العام مؤلمة بشكل خاص. اقتيدت فرس أرسبي الى الملا, كما تقضي بذلك العادة.

رفضها الملا بقوله "انني أهب هذه الفرس الى كوير, إنه المقاتل الحي القريب لأرسبي. وهي من حقه كشخص نجا من معركة آلدي, أكثر من كونها من حقي".

تناول كوير عنان الفرس, وبه قاد موكب الجنازة خروجا من القرية.

تم دفن أرسبي في دغلٍ من أشجار القضبان، الذي إكتسب قدرا من القداسة بسبب كونه مقبرة قديمة للأبطال السابقين. أسجيت جثته الملفوفة بالكتان الأبيض, متجة نحو مكة المكرمة. دفن معه سرجه, وكذلك القاما, أفضل درع زردي لديه, وأكثر أحذيته نعومة, والذي أدى فيه أرسبي رقصة ليسغينكا في الأوقات السعيدة.

وتولى كوير دور الريادة في إنشاد المرثية الشيشانية القديمة:

لقد جئت ساخنة وسريعة,

أيتها الرصاصة الحاملة الموت

التي إزدريت لانك كنت عبدتي

وانت, أيتها الأرض السوداء

التي داسها حصاني المقاتل حتى أزبدها

ستنفعين في تغطية قبري

انت باردة في الموت,

ومع هذا فقد كنتِ سيدكِ وآمرك

إن جسدي يغوص الى الأرض سريعا.

لكن روحي تطير الى السماء أسرع.

بينما كان التراب يهال ليملأ القبر, كان الملا يرتل كلمات, بعضها من القرآن الكريم, وبعضها الآخر من كتب مقدسة أخرى لم يقرأها مطلقا, لكنها بقيت في ذاكرته بقوة التقاليد القديمة. أصولها ضائعة في ضبابية الزمن الرمادية. ربما هي آثار الرجال الذين بنوا الصلبان على الجبل, فوق القرية, حيث جلس حمزات وصلى. ربما أحضرت الى الجبال من قبل التجار الذين تركوا عملاتهم الفضية والذهبية. لا احد يعرف. لكنها كانت جزءاً أساسيا من هذه المنطقة من القفقاس, تماما كما هو ثلج الشتاء, حرائق الغابات او السيوف المشهرة.

اقتربت تسيما من أبيها بينما كان الجمهور يتفرق.

"يا أبت, ليست بي رغبة في أن أتركك لوحدك في الجبال. ان احمد يفهم طلبي ويحترمه."

وضع الملا يدا مطمئنة على كتفها.

"لقد فقدت والدتك يا تسيما, وفقدت أخاك.... وليست بي رغبة في فقدانك أيضا. يا ابنتي, يجب أن تذهبي الى حيث سيتوفر الأمان لكِ وللطفل. ان زوجك رجل طيب, هو الأفضل. لا تنكري عليه نعيم القربى. هو من القباردي، وسيكون في أسعد حال بين أبناء قومه".

"ولكن ماذا عن أحفادك، يا أبت. لن تستمتع بالحياة "

"أنت تجعلين الأمر يبدو وكأن القباردي بعيدة جدا. كلا يا عزيزتي. سوف أحضر بأذن الله وأرى أحفادي. واذا وهبنا الله السلام, سوف يأتون لزيارتي هم أيضا."

ابقى أحمد مسافة احترام ولم يتقدم الا عندما أومأ الملا برأسه.

"أحمد يا ولدي, لقد كنت جزءاً منا بقدر ما كان أي شيشاني جبلي. انت من الأسرة. سوف تسافر تسيما معك الى القباردي لانها

تعرف انه من الأفضل لمستقبلكما سوية". نظر الى ابنته بعينين دامعتين" سوف تعيدينهما لرؤيتي في أوقات أفضل".

أومأ أحمد برأسه باحترام. لم يستطع ان ينطق بالكلمات التي تختنق في حلقه. لقد كانت تسيما هي التي اضطرت الى قول الفكرة الأخيرة وتذكير أحمد بأن لديهما مستقبلا يجب التفكير فيه: والأمل في عائلة يربيانها في أمان.

"يجب ان نتحرك بسرعة اذا كنا نريد لطفلنا ان يولد على ضفة نهر التيريك". قالت بلهجة عاطفية, وهي تشعر بالإغراء للإمساك بيد احمد. نظر احمد الى أعلى باتجاه الملا "أشكرك على مباركتك". كانت قوة مشاعره جلية.

انطلق الزوجان سائرين, وهما ينويان ان يشاركا مراد والسفراء في قرارهما في وقت لاحق من تلك الأمسية.

خلفهما في دغل أشجار القضبان, بقي الملا ووجهاء القرية غارقين في تأمل صامت الى جانب قبر آرسبي. عاد كوير اليهم, وقد امتطى فرس آرسبي, ويقود فرسه وقد حمّلها بالمؤن الكافية.

قال وقد ركع عند قدمي ايلدار "يا أبتِ, انت تعرف ما جئت لأقوله لك. سيكون الانتقام لي. "كان كوير قد قرر مغادرة الجبال. فهو سيعثر على الشيخ منصور ويتبعه الى أقاصي الأرض اذا دعت الضرورة, حتى يكون حامل رايته. ان إخلاصه للقضية هو كل ما يحيا لأجله – ويبدو ان حياته قد أصبحت مسحورة بفضل ذلك الالتزام. فلم تكن هناك رصاصة ولا نصل سيف قادرين على إيقافه, كما فعلت مع حمزات وآرسبي.

وقف ايلدار فوق رأس ابنه وقد تهيأ للفراق الأبدي, لكن لم تملأ عينيه المحمرتين أية دموع. بقيت يداه فوق كتفي كوير في فعل مباركة. ثم نشر اردان معطفه الواسع حوله.

"إنني أسمى بالنسر! يقولون انه اذا وقع خيال النسر على رأس رجل ما, فذلك يعني مملكة بالنسبة له. آمل ان تتحقق هذه النبوءة لك يا كوير. إذهب يا ولدي رافقتك بركاتي".

وقف الملا وايلدار جنبا الى جنب اثناء ركوب كوير خارجا من الدغل. لقد أملا في يوم من الأيام ان يصبحا قريبين بالمصاهرة, لو ان كوير كسب قلب تسيما. والآن فقد كلاهما أولاده ولن يكتب لهما أن تقع عيناهما على أطفالهما.

***

يتبع في الثلاثية

- كازبك
- المؤامرة الثلاثية

يتبع في ملحمة القفقاس

- قصة البلقان (مأساة الشابسوغ)
- الثورة
- الشتات
- ضياع في بلاد الشيشان

صدر للمؤلف
محيي الدين عزت قندور

في الرواية

- عملية اختطاف الطائرة
- الصدع
- سيوف الشيشان
- كازبك
- المؤامرة الثلاثية
- قصة البلقان
- الثورة
- الأسطورة
- تحالفات خطرة
- ضياع في بلاد الشيشان

دراسات

- المريدية، دراسة الحروب القفقاسية (1819-1859)

المؤلف في سطور

محيي الدين عزت قندور شركسي هاجر أجداده خارجين من القفقاس الى تركيا العثمانية وبعدها الى الأردن ، حوالي نهاية القرن التاسع عشر .

ذهب الى الولايات المتحدة الأمريكية كمراهق وأكمل دراسته الجامعية بكافة مراحلها في أنديانا وكاليفورنيا حيث تخرج بدرجة ماجستير في الدراسات الدولية ودكتوراه في الاقتصاد والتاريخ .

عمل قندور في إدارة الأعمال مع شركات متعددة الجنسيات في نيويورك ولندن لحوالي خمسة وعشرين عاماً كمدير تنفيذي و/أو مستشار . في بداية السبعينات قضى أربع سنوات في هوليوود ككاتب نصوص سينمائية ، ومنتج ومخرج . كتب عدة أعمال غير روائية وست روايات منشورة ، والتي تشكل الثلاثة الأخيرة منها هذه الثلاثية «كافكاز»

The Sabres of Chechnia

رواية
NOVEL

بعض ما كتبته وسائط الاعلام العالمية حول
" ثلاثية القفقاس "

أسلوب الدكتور قندور المفعم بالحيوية، يقطع مثل السيف القوزاقي عبر عين العقل. فقد حيكت في ثلاثية القفقاس مئة سنة من تاريخ العائلة في مادة الاساطير. نستطيع الآن أن نرى أن المقاومة المسلحة في بلاد الشيشان والقفقاس لم تكن أمراً مستجداً لأن للتاريخ طريقة وحشية في تكرار نفسه.
(Minerva Press - London) مجلة مينيرفا لندن

يروي ابن المهاجرين القبارطيين الذي يبحث عن جذوره، قصة شعبه في أسلوب ملون جذاب يما هي الأحداث التاريخية بالأساطير العائلية ... ممتع ومثير بدرجة عالية.
(Pravda-Moscow) برافدا

أثناء قراءة هذا الكتاب - السيرة ذات الابعاد الملحمية عبر ثلاثة أجيال من تاريخ عائلة قفقاسية، تشعر وكأنك تشاهد انتاجاً سينمائياً ضخماً ضمن أروع تقاليد هوليوود. لم يتحقق هذا من خلال موهبة المؤلف وحدها، بل أيضاً جراء انغماسه الشخصي في كل ما يصفه. ففي نهاية المطاف، فقد كان لاسلافه دور في مأساة الجبليين ...
(Literary Journal) المجلة الادبية

مؤلف ألمعي ... لقد حول محي الدين عزت قندور صفحات تاريخ وطنه الاصلي الى نص جذاب بفكر متعمق.
(Red Star Journal) النجم الأحمر

من خلال بحثه عن الحقيقة التاريخية، واضح أن المؤلف قد بحث في مجلدات من وثائق الأرشيف التي لم تصبح متوفرة إلا مؤخراً .... موضوعي ومتوازن .... عمل جميل.
(Trud-Moscow) الأعمال الأدبية

آن كتاب قندور ملائم للعصر. رسالته واضحة: ليس للتاريخ معنى إلا إذا تعلم شخص دروسه. هل تستطيع الأمم القفقاسية أن تتجنب كارثة مثل يوغسلافيا السابقة، أم أن الوطنية الإنفصالية العرقية نفسها ستقود الى كارثة أخرى.
(Russian News) الأنباء الروسية

ISBN 9953-36-741-8

